أعلام التفسير

إعـداد

دكتور/ رجب محمود إبراهيم بخيت



شارع جيهان ـ أمام بوابة الجامعة ت: ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦
Tokoboko_5@yahoo.com

بطاقة فهرسة

مكتبة كنوز المعرفة

اسم الكتاب: أعلام التفسير

إعـــــداد: د. رجب محمود بخيت

رقم الإيداع:

الطبعة الأولى ٢٠١١



Tokoboko_5@yahoo.com

المقدمـة

الحمد لله القديم بلا غاية والباقي بلا نهاية الذي علا في دنوه ودنا في علوه فلا يحويه زمان ولا يحيط به مكان ولا يئوده حفظ ما خلق ولم يخلقه على مثال سبق بل أنشأه ابتداعا وعدله اصطناعا فأحسن كل شيء خلقه وتمم مشيئته وأوضح حكمته فدل على ألوهيته فسبحانه لا معقب لحكمه ولا دافع لقضائه تواضع كل شيء لعظمته وذل كل شيء لسلطانه ووسع كل شيء فضله لا يعزب عنه مثقال حبة وهو السميع العليم.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده إلها تقدست أسماؤه وعظمت آلاؤه وعلا عن صفات كل مخلوق وتنزه عن شبيه كل مصنوع فلا تبلغه الأوهام ولا تحيط به العقول ولا الأفهام يعصى فيحلم ويدعى فيسمع ويقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون.

وأشهد شهادة حق وقول صدق بإخلاص نية وصحة طويلة أن محمد بن عبد الله عبده ونبيه وخالصته وصفيه ابتعثه إلى خلقه بالبينة والهدى ودين الحق فبلغ مألكته ونصح لأمته وجاهد في سبيل الله لا تأخذه في الحق لومة لائم ولا يصده عنه زعم زاعم ماضيا على سنته موفيا على قصده حتى أتاه اليقين فصلى الله على محمد وعلى آل محمد.

أما بعد...

فالقدوة الحسنة عنصر هامّ في كل مجتمع، فمهما كان أفراده صالحين فهم في أمس الحاجة لرؤية القدوات، وكما قيل: جالسوا من تذكركم بالله رؤيتُهم، كيف لا وقد

أمر اللهُ نبيَه بالاقتداء فقال:{أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ} [الأنعام: ٩٠].

وتشتدّ الحاجة إلى القدوة كلما بَعُد الناس عن الالتزام بقيم الإسلام وأحكامه، وتتأكد الحاجة بل تصل إلى درجة الوجوب إذا وُجدت قدواتٌ سيئةٌ فاسدةٌ تُحْسِن عرضَ باطلها.

إن القدوةَ - سواءً أكانت حسنةً أو سيئة - أكثرُ أثرًا وإقناعًا من الكلام النظري مهما كان بليغًا ومؤثرًا، ولعل هذا هو السرُ في إرسالِ اللهِ رسلاً من البشر عبر التاريخ مع أنه تعالى قادر - وهو الذي لا يعجزه شيء - على أن يلهم الناس شرعه، خاصة أن بشرية الرسل تعلَّلَ بها الجاحدون لرفض الإيمان كما قال تعالى:{ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾} [الإسراء: ٩٤]، لكن الذي قال عن نفسه:{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾} [الملك: ١٤]، اقتضت حكمته إرسال الرسل من البشر؛ ليكونوا منارات هدى وقدوات حسنةً عبرالتاريخ، فهم التطبيق النموذجي لشرع الله في كل عصر، وتطبيقهم حجةٌ على العباد ودليلٌ على واقعيةِ الشرع.

وأوضح دليل على هذا الأثر ما وقع في يوم الحديبية، ففي صحيح البخاري قال عمر: فلما فَرغ من قضية الكتاب - أي: بنود الصلح - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه:{**قوموا، فانحروا ثم احلقوا**}، قال: فوالله، ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم

أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة رضي الله عنها: يا نبيّ الله، أتحبّ ذلك؟ اخرُج لا تكلّم أحدًا منهم كلمةً حتى تنحر بُدْنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلّم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بُدْنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضُهم يقتل بعضًا.

إنّ هذا التأثيرَ القويَ والمباشرَ للقدوة يرجع إلى عدة أسباب منها:

أن الإنسان مفطور على حب التقليد، وكثيرًا ما يكتسب معارفه وخبراته ومهاراته بالتقليد والمحاكاة، انظر إلى الطفل كيف يحاكي أباه ويتقمص شخصيته؛ لأن التعلم بالرؤية والمشاهدة أسهلُ وأيسر بل وأسرع، والنفس بطبعها تحبّ الحصولَ على الشيء بأسهل الطرق وأسرعها ولو كان محرّمًا، لكن الشرع والعقل يضبطها.

وقوعُ الإنسان - مهما كان كسولاً أو مقصرًا - أسيرًا للقدوة، فيحمله ذلك الإعجابُ على التقليد والمحاكاة، وهنا تكمن خطورةُ الموضوع؛ لأنّ القدوةَ إما أن تكون حسنةً لها بريقها الذاتي فتَنجذبُ إليها النفوسُ تلقائيًا وتتأثر بها إيجابيًا، وإمّا أن تكون قدوةً سيئةً زخرفت وزينت بالأصباغ والألوان الخادعة، وسُلّط عليها الأضواءُ الإعلاميةُ الباهرة، وأُضفيَ عليها عباراتُ الثناء والتمجيد الكاذبة لإثارة إعجاب المخدوعين، وحقًّا منهم من يقع في حبائلهم وشراكهم، حتى إذا فحصه عن قرب أدرك أنه كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، بل تبين له الوجهُ الحقيقيُّ، فما كان إلا إثارةً

للغرائز والشهوات وتمجيدًا للكفرةِ والفساق والفجار باسم الفن والأناقة والرقص والغناء، وترويجًا للمنكرات والفواحش والرذائل باسم الترويج والسياحة، ومحاربةً للفضائل والحياء باسم الحرية والحضارة، وتنفيرًا من دين الله باسم التأخر والجمود، وتهجينًا لأحكامه باسم الكبت والقسوة،{وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ} [النور: ٤٠]، وتحقيرًا لدعاته باسم التطرف والإرهاب. نعم، هذا هو البديل عند غيابِ أو تغيّبِ القدواتِ الصالحة الحسنة.

وللأسف فإنّ دعاةَ الشر وشياطينَ الفساد استطاعوا أن يغزونا في عُقر دارنا بهذه القدوات السيئة الفاسدة المفسدة عبر فضائياتهم، وبدأ المخطط - ولمّا يمضي عليه سنوات - يؤتي أكله الفاسد بمباركة الشيطان، فوُجد في فتياننا وفتياتنا من يقلّد أعداء الإسلام والساقطين في كل شيء، في مظهرهم وملبَسِهم، بل حتى في القضايا الجبلّية من أكل وشرب ومشي.

إنّ هذه المظاهرَ الشاذةَ لهي دليلٌ قويٌ على الشعور بالنقص والانهزام النفسي، وصدق ابنُ خلدون في قوله: " المغلوب مولعٌ بتقليد الغالب أبدًا في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده ".

أيها الأحبة، في هذه الأيام وفي هذه الظروف المحيطة بنا ما أحوجنا إلى الأسوة الحسنة والقدوة الصالحة، فهي محطّ آمال العقلاء وغاية أمانيهم؛ لأنها نهج راشد وطريق مستقيم لا اعوجاج فيه ولا التواء.

وإن في طليعة من يجب أخذ الأسوة الحسنة منهم

والاقتـداء بأفعـالهم وأقـوالهم وكـريم شـمائلهم رسـلَ الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فهم الصفوة من خلق الله، المهتـدون بهدايـة الله، المسـارعون إلـى فعـل الخيـر والحرص عليه، قـال الله تعـالى:{إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ } [الأنبياء: ٩٠]. وقد أمر الله تعالى رسوله الكريم بالاقتداء بهم والسـير علـى نهجهـم حيـث قـال:{ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ } [الأنعام: ٩٠].

أيهـا المسـلمون، إذا كـان الحبيـب محمـد مـأمورًا بأخـذ الأسوة والقدوة من سلفه رسل الله فنحن أحرى أن نأخذها منـه، كما وجهنـا إلـى ذلك ربّ العزة. وفـي هذا التوجيـه الربـاني دعـوة إلـى كل ذي عقل رشيد أن يضـع نصب عينـه أخذ الأسوة والقدوة من سيد الخلق أجمعين، فـي أقواله وأفعاله، وفي مناهجه وشمائله وأخلاقه وسلوكيّاته، فهو المثل الكامل للإنسانية.

وقد سـار أصـحابه رضـوان الله علـيهم علـى نهجـه، فلـم يحجمـوا عـن مكرمـة أو يقصـروا عـن شـيء مـن فعـل الخير، ويـأتي بعد ذلك أخذ الأسوة والقدوة الحسنة من خيار الأمة، وفي طليعتهم أهل القرون المفضّلة المشـهود لهـم بالهدايـة مـن التـابعين وتـابعي التـابعين، قـال:{خـير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم}.

وهكذا في كل زمـان يجـب أخذ الأسوة الحسـنة من أهل الفضل، ومن العلماء العاملين بعلمهم، المخلصين لدينهم، الذين يتقون الله في سرهم وعلانيتهم، الذين يقولـون كلمـة الحق بدون خوف أو وجل، لا تـأخذهم في الله لومـة لائـم،

الذين لا يلحدون في آيات الله، ولا يحرّفون الكلم عن مواضعه، الذين لا ينافقون ولا يجاملون. فهؤلاء العلماء ممن هدى الله وشرح صدورهم للإيمان، ففي السير على هدايتهم والاقتداء بأفعالهم فلاح وفوز في الدنيا والآخرة.

ولكي ندرك خطورة وأهمية القدوة الحسنة في تاريخ الأمة؛ فلنتأمل هذه القصة:

يروي أن أبا جعفر الأنباري صاحب الإمام أحمد عندما أخبر بحمل الإمام أحمد للمأمون في الأيام الأولى للفتنة؛ عبر الفرات إليه فإذا هو جالس في الخان، فسلم عليه، قال: يا هذا أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبن بإجابتك خلق من خلق الله، وإن أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير، ومع هذا فإن الرجل - يعني المأمون - إن لم يقتلك فأنت تموت، ولابد من الموت فاتق الله ولا تجبهم إلى شيء. فجعل أحمد يبكي ويقول: ما قلت؟ فأعاد عليه فجعل يقول: ما شاء الله، ما شاء الله.

وتمر الأيام عصيبة على الإمام أحمد، ويمتحن فيها أشد الامتحان ولم ينس نصيحة الأنباري، فها هو المروزي أحد أصحابه يدخل عليه أيام المحنة ويقول له: يا أستاذ قال الله تعالى:{وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا } [النساء: ٢٩]. فقال أحمد: يا مروزي اخرج، انظر أيّ شيء ترى!! قال: فخرجت على رحبة دار الخليفة فرأيت خلقًا من الناس لا يحصى عددهم إلا الله والصحف في أيديهم والأقلام والمحابر في أذرعتهم، فقال لهم المروزي: أي

شيء تعملون؟ فقالوا: ننظر ما يقول أحمد فنكتبه، قال المروزي: مكانكم. فدخل إلى أحمد بن حنبل فقال له: رأيت قومًا بأيديهم الصحف والأقلام ينتظرون ما تقول فيكتبونه فقال: يا مروزي أضل هؤلاء كلهم!! أقتل نفسي ولا أضل هؤلاء ".

فمن أبرز أسباب أهمية القدوة أنها تساعد على تقويم الفرد المسلم دونما توجيه خارجي وهذا بالتالي يساعد علي خلق أجيال صالحة لقيادة العالم.

أيها المسلمون، أما الأسوة السيئة التي تَبَنّتْها المجتمعات الإسلامية في العصر الحاضر وفي كل مجالات الحياة فهي في الواقع وفي الحقيقة نكسة في الظاهرة الدينية والأخلاقية، يجب أن يترقّع عنها المسلم حفاظًا على دينه وإيمانه، وصونًا لأخلاقه، حتى ولو انتشرت هذه الأسوة السيئة بين الناس، وشملت جميع الطبقات والفئات، حيث أصبح العلماء الذين لا يعملون بعلمهم، ولكن يقصدون به المنصب والجاه والسلطان، وأصبح يمثلها أيضًا الوعّاظ والمرشدون الذين لا يأتمرون بما يأمرون به، والذين يصفون الدواء للأمراض التي هم بها مصابون، فمخبَرهم لا يطابق مظهرهم، فبئست الأسوة والقدوة بهم، قال الله تعالى:{أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤)} [البقرة: ٤٤].

ورد في الأثر الذي رواه أحمد بسند حسن من حديث ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً عليه قال: (من كان مستناً فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، كانوا أفضل

هذه الأمة، وأبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، اختارهم الله لصحبة نبيه، ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم).

والحقيقة أن كل مجتمع مهما بلغ من الفضل والاستقامة لا بد له من طائفة تتمثل فيها المُثُل العليا، تحفظ للمجتمع وجوده المعنوي المتمثل في صلاح عقيدته وحسن أخلاقه وأدب تعامله، على حد قول الله عزَّ وجلَّ:{وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)} [آل عمران: ١٠٤].

إنهم طائفة تمثل الخيرية في المجتمع، وتحافظ عليها وتحميها.

إن في أرواحها من التوهج، وفي نفوسها من الحيوية ما يجعل هم مجتمعها هو همها الأكبر، فيسعد بها المجتمع، إذ تحفظ عليه توازنه واستقامته، وعناصر استمراره وبقائه.

إنهم فئة من المجتمع مسموعة الصوت، واضحة التأثير، تملأ الفراغ، وتملك من التأثير ما يجعل جادة الحق واضحة، وطريق الصواب بارزة، ومسالك الخير بينة، فتستمر سُنَّة المدافعة بين الحق والباطل.

إنهم{أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ} [هود: ١١٦]، مشاعل وسرج يصلحون ما أفسد الناس، بدين الله قائمون، وعلى الحق حراس، يدعون من ضل إلى الهدى، ويبصرون من العمى، ويصبرون على الأذى،

همهم - أثابهم الله وأعظم أجورهم - إقامة دين الله، وإعلاء كلمته، وإعزاز أوليائه.

إنهم صمام الأمان بإذن الله، وسبب نجاة الأمة من الهلاك.

وهكذا جيل الصحابة ومن بعدهم والتابعين والفقهاء والعلماء المحدثين والمفسرين - رضي الله عنهم - كانوا روحا نابضة، وقوة متجددة، وصفحة مشرقة لم تزدها الأيام إلا قوة ومضاء ولا الأحداث إلا نصوعا وإشراقا، فكانوا يبادرون إلى كل خير ويتنافسون في الاستباق إليه، ويكفيهم فخرا وعزا أنهم - على رغم ما مروا به من ظروف قاسية - سطروا أروع الأمثلة وأنصعها في بلوغ الكمال الإنساني، إذ من السابقين المضحين منهم تكون نواة لمجتمع رباني نما واتسع فيما بعد بسرعة فائقة حتى عم خيره بقاع الدنيا بأسرها، ولا تزال آثاره باقية بفضل الله تعالى.

فهذا الذي فعلوه وحققوه ليس ضربا من ضروب الأحلام، أو الخيال، أو المحال، لا بل هو مثال واقع محسوس في دنيا الناس وعلى أرضهم، وسنة سنوها وحازوا سبقها فنالوا أجرها وأجر من تبعهم فيها.

وأخيرا فلئن كانت حياة الصالحين - رضي الله عنهم - كلها مليئة بالصور المضيئة المشرقة فإنني لأرجو أن أكون قد وفقت في عرضي لجانب من هذه الجوانب المشرقة من حياتهم، وذلك تذكيرا بجهادهم وسبقهم وتنويها بمنزلتهم وفضلهم.

سائلا الله أن يجزيهم عنا خير الجزاء، وأن يمتن علينا

بحسن الاتباع والاقتداء.

تشـــبهوا إن لم تكونـــوا مثلـــهم :: إن التشـــبه بـــالكرام فـــلاح

وأسأل الله عز وجل أن ينفع بهذا العمل وأن يتقبله مني ويثيبني عليه.

رب تقبل عملي ولا تخيب أملـــي :: أصلح أموري كلها قبل حلول الأجل

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه

رجب محمود إبراهيم

بخيت

* * *

التفسير والمفسرون

التفسير من أجلِّ علوم الشريعة وأرفعها قدرًا، وهو أشرف العلوم موضوعًا وغرضًا وحاجة إليه لأن موضوعه كلام الله تعالى الذي هو ينبوع كل حكمة. ومعدن كل فضيلة ولأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى والوصول إلى السعادة الحقيقية وإنما اشتدت الحاجة إليه؛ لأن كل كمال ديني أو دنيوي لا بد وأن يكون موافقًا للشرع، وموافقته على العلم بكتاب الله.

والتفسير في اللغة هو الإيضاح والتبيين، ومنه قوله تعالى:{وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾} [الفرقان: ٣٣]. أى بياناً وتفصيلاً، وهو مأخوذ من الفسر وهو الإبانة والكشف، قال في القاموس: " الفسر: الإبانة وكشف المغطى كالتفسير، والفعل: كضرب ونصر ".

وقال في لسان العرب: " الفسر: البيان فسَّر الشيء يُفسِّره - بالكسر ويَفسُّره - بالضم فسراً. وفسَّره أبانه. والتفسير مثله... ثم قال: الفسر كشف المغطى، والتفسير المراد عن اللفظ المشكل... ".

وقال أبو حيان في البحر المحيط: "... ويُطلق التفسير أيضاً على التعرية للانطلاق، قال ثعلب: تقول: فسرتُ الفرس: عرَّيته لينطلق في حصره، وهو راجع لمعنى الكشف، فكأنه كشف ظهره لهذا الذي يريده منه من الجرى ".

ومن هذا يتبين لنا أن التفسير يُستعمل لغة في الكشف الحسِّى، وفي الكشف عن المعاني المعقولة، واستعماله في الثاني أكثر من استعماله في الأول.

التفسير في الاصطلاح: يرى بعض العلماء: أن التفسير ليس من العلوم التي يُتكلف لها حد، لأنه ليس قواعد أو ملكات ناشئة من مزاولة القواعد كغيره من العلوم التي أمكن لها أن تشبه العلوم العقلية، ويُكتفى في إيضاح التفسير بأنه بيان كلام الله، أو أنه المبيِّن

لألفاظ القرآن ومفهوماتها.

ويرى بعض آخر منهم: أن التفسير من قبيل المسائل الجزئية أو القواعد الكلية، أو المَلَكات الناشئة من مزاولة القواعد، فيتكلّف له التعريف، فيذكر في ذلك علوماً أخرى يُحتاج إليها في فهم القرآن، كاللغة، والصرف، والنحو، والقراءات... وغير ذلك.

والحقيقة أن المسلمين قد سعدوا بهذا بالقرآن الكريم، الذي جعل الله فيه الهدى والنور، ومنه طب الإنسانية وشفاء ما في الصدور، وأيقنوا بالله حيث يصف القرآن فيقول:{ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ} [الإسراء: ٩]. وبصدق الرسول حيث يصف القرآن فيقول هو أيضاً: " فيهَ نبأ ما كان قبلكم، وخبرُ ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل، ليس بالهزل، مَن تركه من جبار قصمه الله، ومَن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، ولا يَخْلَق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: إنَّا سمعنا قرآنا عجباً يهدى إلى الرشد، من قال به صدق، ومَن عمل به أُجر، ومَن حكم به عدل، ومَن دعا إليه هُدِى إلى صراط مستقيم ".

صدَّق المسلمون هذا، وأيقنوا أنه لا شرف إلا والقرآن سبيل إليه، ولا خير إلا وفي آياته دليل عليه، فراحوا يُثوِّرون القرآن ليقفوا على ما فيه من مواعظ وعبر، وأخذوا يتدبرون في آياته ليأخذوا من مضامينها ما فيه سعادة الدنيا وخير الآخرة.

وكان القوم عرباً خلصاً، فهموا القرآن، وأدركوا معانيه ومراميه بمقتضى سليقتهم العربية، فهماً لا تعكره عُجمة، ولا يشوبه تكدير، ولا يشوهه شيء من قبح الابتداع، وتَحَكم العقيدة الزائفة الفاسدة.

ظل المسلمون على هذا يفهمون القرآن على حقيقته وصفائه،

ويعملون به على بيِّنة من هَدْيه وضيائه، فكانوا من أجل ذلك أعزَّاء لا يقبلون الذل، أقوياء لا يعرفون الضعف، كرماء لا يرضون الضيم، حتى دانت لهم الشعوب وخضعت لهم الدول. ثم خَلَف من بعدهم خَلْفٌ تفرَّقوا في الدين شيعاً، وأحدثوا فيه بَدعاً وبِدعاً، وكانت فتن كقطع الليل المظلم، لا خلاص منها إلا بالرجوع إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله، ولا نجاة من شرِّها إلا بالتمسك بالقرآن، وهو الحبل الذي طرفه بيد الله وطرفه بأيديهم.

ومع انسياح العرب في البلاد المجاورة فيما يسمي حركة الفتوحات الإسلامية وخضوع عدد كبير من الدول والحضارات لسيطرة الدولة الإسلامية، ولما كانت تلك الدول وتلك الحضارات لاتعرف شيئا عن اللغة العربية ووقف جهلها باللغة العربية حائلا بينها وبين الإسلام فقد دعت الحاجة إلى ظهور تفسير لمعاني الآيات القرآنية يكون مواكبا لإقبال الناس علي الإسلام. وعليه فقد ظهرت عدة محاولات جادة لتفسير القرآن والحقيقة أن ذلك التفسير قد بدأ مبكرا منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن ليس بالمعني المتداول و المعروف بين المسلمين الآن.

وقد مر التفسير القرآني بعدة مراحل كانت المرحلة الأولي للتفسير في عهد النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه: فجرياً على سُنَّة الله تعالى في إرسال الرسل، نزل القرآن بلغة العرب وعلى أساليبهم في كلامه:{ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ } [إبراهيم: ٤]. فألفاظ القرآن عربية، إلا ألفاظاً قليلةً، اختلفت فيها أنظار العلماء، وكان طبيعياً أن يفهم النبى صلى الله عليه وسلم القرآن جملة وتفصيلاً، إذ تكفل الله تعالى له بالحفظ والبيان:{إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾} [القيامة: ١٧ - ١٩]، كما كان طبيعياً أن يفهم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم القرآن في

جملتـه، أى بالنسبة لظـاهره وأحكامـه، أمـا فهمـه تفصـيلاً، ومعرفـة دقـائق باطنـه، بحيـث لا يغيـب عـنهم شـاردة ولا واردة، فهـذا غيـر ميسور لهم بمجرد معرفتهم للغة القرآن، بل لا بد لهم من البحث والنظر والرجوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم فيما يشكل عليهم فهمه، وذلك لأن القرآن فيه المجمل، والمشكل، والمتشابه، وغير ذلك مما لا بد في معرفته من أمور أُخرى يُرجعَ إليها.

وقد تفاوت الصحابة في فهم القرآن فلو أننا رجعنا إلى عهد الصحابة لوجدنا أنهم لم يكونوا في درجة واحدة بالنسبة لفهم معانى القرآن، بل تفاوتت مراتبهم، وأشكل على بعضهم ما ظهر لبعض آخر منهم، وهذا يرجع إلى تفاوتهم في القوة العقلية، وتفاوتهم في معرفة ما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات، وأكثر من هذا، أنهم كانوا لا يتساوون في معرفة المعاني التي وُضعت لها المفردات، فمن مفردات القرآن ما خفى معناه على بعض الصحابة، ولا ضَيْر في هذا، فإن اللغة لا يحيط بها إلا معصوم، ولم يدَّع أحد أن كل فرد من أُمَّة يعرف جميع ألفاظ لغتها.

ومما يشهد لهذا الذي ذهبنا إليه، ما أخرجه أبو عبيدة في الفضائل عن أنـس: " أن عمـر بـن الخطـاب قـرأ علـى المنبـر:{وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾} [عبس: ٣١]. فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأبّ؟. ثم رجعَ إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر ". وما روى من أن عمر كان على المنبر فقرأ:{أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ} [النحل: ٤٧]. ثم سأل عن معنى التخوف، فقال له رجل من هذيل: التخوُّف عندنا التنقص، ثم أنشده:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ منها تامِكـاً قَـرِداً ::: كما تَخَوَّفَ عُودَ النبعـةِ السَّـفِنُ

وما أخرجه أبو عبيدة من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: " كنت لا أدرى ما{فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ} [الأنعام: ١٤] حتى أتانى أعرابيان يتخاصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، والآخر يقول: أنا ابتدأتها ".

فإذا كان عمر بن الخطاب يخفى عليه معنى " الأبّ " ومعنى " التَخَوُّف " ويسأل عنهما غيره، وابن عباس - وهو ترجمان القرآن - لا يظهر له معنى " فاطر " إلا بعد سماعها من غيره، فكيف شأن غيرهما من الصحابة؟ لا شك أن كثيراً منهم كانوا يكتفون بالمعنى الإجمالى للآية، فيكفيهم - مثلاً - أن يعلموا من قوله تعالى:{وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾}

[عبس: ٣١]، أنه تعداد للنِعمَ التي أنعم الله بها عليهم، ولا يلزمون أنفسهم بتفهم معنى الآية تفصيلاً ما دام المراد واضحاً جلياً.

والحق أن الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - كانوا يتفاوتون في القدرة على فهم القرآن وبيان معانيه المرادة منه، وذلك راجع - كما تقدَّم - إلى اختلافهم في أدوات الفهم، فقد كانوا يتفاوتون في العلم بلغتهم، فمنهم من كان واسع الاطلاع فيها ملّماً بغريبها، ومنهم دون ذلك، ومنهم مَن كان يلازم النبى صلى الله عليه وسلم فيعرف من أسباب النزول ما لا يعرفه غيره، أضف إلى هذا وذاك أن الصحابة لم يكونوا في درتهم العلمية ومواهبهم العقلية سواء، بل كانوا مختلفين في ذلك اختلافاً عظيماً.

قال مسروق: " جالست أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كالإخاذ - يعنى الغدير - فالإخاذ يروى الرجل، والإخاذ يروى الرجلين، والإخاذ يروى العشرة، والإخاذ يروى المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم ".

وقد اشتهر بالتفسير من الصحابة عدد قليل، قالوا في القرآن بما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة أو بالواسطة، وبما شاهدوه من أسباب النزول، وبما فتح الله به عليهم من طريق الرأى والاجتهاد.

وأشهر المفسِّرين من الصحابة: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن

عباس، وأُبَيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعرى، وعبد الله بن الزبير، رضى الله عنهم أجمعين.

وهناك مَن تكلم في التفسير من الصحابة غير هؤلاء: كأنس بن مالك، وأبى هريرة، وعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عمرو ابن العاص، وعائشة، وغير أن ما نُقِل عنهم في التفسير قليل جداً، ولم يكن لهم من الشهرة بالقول في القرآن ما كان للعشرة المذكورين أولاً، كما أن العشرة الذين اشتهروا بالتفسير، تفاوتوا قِلَّة وكثرة [١].

وكانت المرحلة الثانية للتفسير في عصر التابعين الذين تتلمذوا للصحابة فتلقوا غالب معلوماتهم عنه.

وكما اشتهر بعض أعلام الصحابة بالتفسير والرجوع إليهم في استجلاء بعض ما خفى من كتاب الله، اشتهر أيضاً بالتفسير أعلام من التابعين، تكلَّموا في التفسير، ووضَّحوا لمعاصريهم ما خفى معانيه.

وقد اعتمد هؤلاء المفسِّرون في فهمهم لكتاب الله تعالى على ما جاء في الكتاب نفسه، وعلى ما رووه عن الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى ما رووه عن الصحابة من تفسيرهم أنفسهم، وعلى ما أخذوه من أهل الكتاب مما جاء في كتبهم، وعلى ما يفتح الله به عليهم من طريق الاجتهاد والنظر في كتاب الله تعالى.

وقد روت لنا كتب التفسير كثيراً من أقوال هؤلاء التابعين في التفسير، قالوها بطريق الرأى والاجتهاد، ولم يصل إلى علمهم شيء فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو عن أحد من الصحابة.

---

(١) إذا شاء الله وقدر سوف نفرد مجلد كامل لـ " أعلام الصحابة " يعرض لسيرة حياتهم، ولذا سوف لا نعرض لأي منهم في أعلام التفسير.

والحقيقة أن ما نُقِل عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة من التفسير لم يتناول جميع آيات القرآن، وإنما فسَّروا ما غمض فهمه على معاصريهم، ثم تزايد هذا الغموض - على تدرج - كلما بَعُد الناس عن عصر النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة، فاحتاج المشتغلون بالتفسير من التابعين إلى أن يكملوا بعض هذا النقص، فزادوا في التفسير بمقدار ما زاد من غموض، ثم جاء مَن بعدهم فأتموا تفسير القرآن تباعاً، معتمدين على ما عرفوه من لغة العرب ومناحيهم في القول، وعلى ما صح لديهم من الأحداث التي حدثت في عصر نزول القرآن... وغير هذا من أدوات الفهم ووسائل البحث.

وكانت هناك مدارس للتفسير في عصر التابعين فبعد أن فتح الله على المسلمين كثيراً من بلادهم العالَم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي عهود الخلفاء من بعده، ولم يستقروا جميعاً في بلد واحد من بلاد المسلمين، بل نأى الكثير منهم عن المدينة مشرق النور الإسلامى ثم استقر بهم النوى، موزَّعين على جميع البلاد التي دخلها الإسلام، وكان منهم الولاة، ومنهم الوزراء، ومنهم القضاة، ومنهم المعلّمون، ومنهم غير ذلك.

وقد حمل هؤلاء معهم إلى هذه البلاد التي رحلوا إليها، ما وعوه من العلم، وما حفظوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجلس إليهم كثير من التابعين يأخذون العلم عنهم، وينقلونه لمن بعدهم، فقامت في هذه الأمصار المختلفة مدارس علمية، أساتذتها الصحابة، وتلاميذها التابعون.

واشتهر بعض هذه المدارس بالتفسير، وتتلمذ فيها كثير من التابعين لمشاهير المفسِّرين من الصحابة، فقامت مدرسة للتفسير بمكة، وأخرى بالمدينة، وثالثة بالعراق، وهذه المدارس الثلاث، هى أشهر مدارس التفسير في الأمصار في هذا العهد.

فكانت مدرسة التفسير بمكة والتي قامت على ابن عباس وأشهر رجالها: سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة مولى ابن عباس، وطاووس بن كيسان اليمانى، وعطاء بن أبى رباح.

وهؤلاء كلهم كانوا من الموالى، وهم يختلفون في الرواية عن ابن عباس قِلَّة وكثرة، كما اختلف العلماء في مقدار الثقة بهم والركون إليهم.

و مدرسة التفسير بالمدينة والتي قامت على أُبَىّ بن كعب وأشهر رجالها: زيد بن أسلم، وأبو العالية، ومحمد بن كعب القرظى. وهؤلاء منهم مَن أخذ عن أُبَىّ مباشرة، ومنهم مَن أخذ عنه بالواسطة.

و مدرسة التفسير بالعراق وقد قامت علي ابن مسعود وأشهر رجالها: علقمة بن قيس، ومسروق، والأسود بن يزيد، ومُرَّة الهمدانى، وعامر الشعبى، والحسن البصرى، وقتادة بن دعامة السدوسى [1].

والمرحلة الأخيرة كانت للتفسير في العصور التالية لعصر التابعين وفي العصر الحديث حيث لم يترك الأوائل للأواخر كبير جهد في تفسير كتاب الله، والكشف عن معانيه ومراميه، إذ أنهم نظروا إلى القرآن باعتباره دستورهم الذي جمع لهم بين سعادة الدنيا والآخرة، فتناولوه من أول نزوله بدراستهم التفسيرية التحليلية، دراسة سارت مع الزمن على تدرج ملحوظ، وتلون بألوان مختلفة مرَّت بك كلها. أو مرَّ لك على التحقيق ما وصلنا إليه في دراستنا وقراءتنا الواسعة المستفيضة.

والذي يقرأ كتب التفسير على اختلاف ألوانها، لا يدخله شك في أن

---

(١) والحقيقة أننا في تناولنا لأعلام المفسرين أعرضنا عن أعلام المفسرين من التابعين لأننا استقصينا معظم التابعين وسيرة حياتهم في كتاب " أعلام التابعين " و " أعلام الفقهاء " و " أعلام الحديث " ضمن سلسلة الأعلام. وذلك خشية التكرار وإفساح المجال لعرض سيرة أكبر قدر ممكن من الأعلام.

كل ما يتعلق بالتفسير من الدراسات المختلفة قد وفاه هؤلاء المفسِّرون الأقدمون حقه من البحث والتحقيق، فالناحية اللُّغوية، والناحية البلاغية، والناحية الأدبية، والناحية النحوية، والناحية الفقهية، والناحية المذهبية، والناحية الكونية الفلسفية. كل هذه النواحى وغيرها تناولها المفسِّرون الأوَل بتوسع ظاهر ملموس، لم يترك لمن جاء بعدهم - إلى ما قبل عصرنا بقليل - من عمل جديد، أو أثر مبتكر يقومون به في تفاسيرهم التي ألفوها، اللَّهم إلا عملاً ضئيلاً لا يعدو أن يكون جمعاً لأقوال المتقدمين، أو شرحاً لغامضها، أو نقداً وتفنيداً لما يعتوره الضعف منها، أو ترجيحاً لرأى على رأى، مما جعل التفسير يقف وقفة طويلة مليئة بالركود، خالية من التجديد والابتكار.

ولقد ظل الأمر على هذا، وبقى التفسير واقفاً عند هذه المرحلة - مرحلة الركود والجمود - لا يتعداها، ولا يحاول التخلص منها. حتى جاء عصر النهضة العلمية الحديث، فاتجهت أنظار العلماء الذين لهم عناية بدراسة التفسير إلى أن يتحرروا من قيد هذا الركود، ويتخلصوا من نطاق هذا الجمود، فنظروا في كتاب الله نظرة - وإن كان لها اعتماد كبير على ما دوَّنه الأوائل في التفسير - أثَّرت في الاتجاه التفسيرى للقرآن تأثيراً لا يسعنا إنكاره، ذلك هو العمل على التخلص من كل هذه الاستطرادات العلمية، التي حُشِرت في التفسير حشراً ومُزِجت به على غير ضرورة لازمة، والعمل على تنقية التفسير من القصص الإسرائيلى الذي كاد يذهب بجمال القرآن وجلاله، وتمحيص ما جاء فيه من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو على أصحابه عليهم رضوان الله تعالى، وإلباس التفسير ثوباً أدبياً اجتماعياً، يُظهر روعة القرآن، ويكشف عن مراميه الدقيقة وأهدافه السامية، والتوفيق بجد بالغ وجهد ظاهر بين القرآن وما جَدَّ من نظريات علمية صحيحة،

على تفاوت بين الموقفين في الغلو والاعتدال، وكان ذلك من أجل أن يعرف المسلمون وغير المسلمين أن القرآن هو الكتاب الخالد، الذي يتمشى مع الزمن في جميع أطواره ومراحله... وهناك غير هذه الآثار آثار أخرى ظهرت في الاتجاه التفسيرى في هذا العصر الحديث، نشأت عن عوامل مختلفة، أهمها: التوسع العلمى، والتأثر بالمذهب والعقيدة، والإلحاد الذي قام على حرية الرأى الفاسد [١].

* * *

(١) مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة: الطبعة الثالثة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير، مقدمة كتاب التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي.

مجاهد بن جبر

أعــلام التفسيــر

الإمام المفسر الفقيه مجاهد بن جبر

العالم الحبر ذو الأحلام والصبر أبو الحجاج مجاهد بن جبر صاحب التأويل والتفسير والأقاويل والتذكير.

الإمام التابعي مجاهد بن جبر القرشي المخزومي مولاهم، المتوفى - رحمه الله تعالى - عام ١٠٤هـ كان من كبار أعلام التابعين، ومن الأئمة الذين اشتهروا بالرواية للحديث والآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة الأخيار، حتى إنه ليعد من أئمة التابعين وفقهائهم، ومن كان لهم فضل كبير في نشر علوم الصحابة - رضوان الله عليهم - خاصة من لازمهم منهم.

وإن من أهم الجوانب التي اشتهر بها الإمام مجاهد، وأكثر السلف رضوان الله عنهم من النقل عنه فيها: جانب التفسير، فلا يكاد يخلو كتاب من كتب التفسير، سواء بالمأثور أو بالرأي أو التفسير الإشاري وغيرها من النقل عنه، أو عرض بعض تفسيراته وتأويلاته.

وباستعراض تفسير الإمام مجاهد، نجده يفسر بالقرآن أحيانا، ويفسر بالحديث أحيانا، ويفسر بفتاوى الصحابة، ويفسر بمعاني اللغة، ويفسر بالإسرائيليات وما رواه من صحف بني إسرائيل. فمادة التفسير عنده - رحمه الله - خصبة، كثيرة الجذور والمستقيات.

ولد بمكة المكرمة في خلافة أمير المؤمنين عمر الخطاب رضي الله عنه سنة ٢١ هجرية. وبولادته في هذه الفترة التي هي فترة انتشار الصحابة في البلاد، وبأخذه عن جملة فإنه يعد من طبقة التابعين.

وقد امتد عمره ليشمل حكم جل الخلفاء الراشدين الأربعة، وبني أمية إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، واستوطن بين مكة المكرمة والكوفة، وهو الأمر الذي هيأ له الأخذ عن جمع كبير من الصحابة

الكرام، وأن يأخذ عنه جمع من التابعين وتابعيهم، من أئمة الأمصار الذين انتشروا في البلاد فيما بعد.

وكانت لمجاهد رغبة خاصة في السفر، فكان لا يسمع بأعجوبة إلا ذهب فنظر إليها، فقد رحل إلى اليمن، وحضرموت التي زار بها بئر برهوت، وبابل.كما زار مصر، وروى بها عن مسلمة بن مخلد، وعنه جمع كبير.

والكوفة استقر بها وقتا كبيرا حتى عد من أعلام العراق.

كما زار مدينة " توج " في منطقة ما بين النهرين، ومدينة " رودس " التي كان مجاهدا في الفوج الذي فتحها وأقام بها سبع سنين يعلم القرآن، وزار القسطنطينية وشارك في الجيش الذي حاول فتحها كذلك.

أما المدينة المنورة ومكة المكرمة؛ فقد استوطنهما وأخذ بهما عن جملة من الصحابة وغيرهم.

أخذ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، والتزمه، كما سمع من علي بن أبي طالب، وأبي بن كعب، وعبد الله بن عمر، وسعد بن أبي وقاص، وعائشة الصديقة، وأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وعبد الله بن عمرو، وجابر بن عبد الله، ورافع بن خديج...وغيرهم.

سكن الكوفة، وسمع منه كثيرون، وكان من الثقات الذين أخذ عنهم وانتشرت روايتهم. كما انتشر ما كان يبديه من رأي في الأحكام الفقهية وفي الفتاوى، وتفسير بعض الآيات، ورد بعض الكلمات إلى أصولها من لغات أخرى: الفارسية، والسريانية، والنبطية...وغيرها.

فهومحدث مفسر لغوي، باحث عن الأخبار والآثار، وقد انعكست معارفه هذه على تفسيره الذي اشتهر منذ العصور الأولى، واعتمده كثير من الأئمة ونقلوا عنه منقولات كثيرة، وفي مقدمتهم: سفيان

الثوري.

أخذ عن الإمام مجاهد رضي الله عنه جمع من أئمة التابعين وتابعيهم، منهم: عكرمة مولى ابن عباس، والفضيل بن عمرو، وقتادة ابن دعامة السدوسي، وعطاء بن أبي رباح، وعمرو بن دينار، ومحمد ابن مسلم، وعمرو بن عبد الله بن عبيد، وأيوب بن كيسان، وفطر بن خليفة، وعبد الله بن عون البصري وغيرهم.

وتظهر مكانة الإمام مجاهد من شهادات أئمة السلف، وأعلام الجرح والتعديل فيه؛ فقد قال ابن سعد: " ثقة فقيه عالم، كثير الحديث ". وقال يحيى بن معين: " ثقة "، وقال أبو حاتم ابن حبان: " كان فقيها ورعا عابدا، متقنا ". وقال يحيى القطان: " أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به ". وقال قتادة: " أعلم من بقي بالتفسير: مجاهد ". وقال الطبري: " كان قارئا عالما ".

وقال الحافظ الذهبي: " أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به ". وقال الحافظ ابن كثير: " أحد أئمة التابعين والمفسرين، كان من أخصاء أصحاب ابن عباس، وكان أعلم أهل زمانه بالتفسير حتى قيل: إنه لم يكن أحد يريد بالعلم وجه الله إلا مجاهد وطاووس ". وقال الحافظ ابن حجر: " ثقة، إمام في التفسير وفي العلم ".

توفي الإمام مجاهد بن جبر - رحمه الله تعالى - بمكة المكرمة، وكانت وفاته بين عامي ١٠١ - ١٠٤ هـ، على خلاف بين المؤرخين في ذلك، وله من العمر نيف وثمانون عاما (١).

(١) طبقات ابن سعد ٥ / ٤٦٦، طبقات خليفة ت ٢٥٣٥، تاريخ البخاري ٧ / ٤١١، المعارف ٤٤٤، المعرفة والتاريخ ١ / ٧١١، الحلية ٣ / ٢٧٩، طبقات الفقهاء للشيرازي ٦٩، تاريخ ابن عساكر ١٦ / ١٢٥، تهذيب الكمال ص ١٣٠٦، تاريخ الإسلام ٤ / ١٩٠، تذكرة الحفاظ ١ / ٨٦، العبر ١ / ١٢٥، تذهيب التهذيب ٤ / ٢٢، البداية والنهاية ٩ / ٢٢٤، العقد الثمين ٧ / ١٣٢، غاية النهاية ت ٢٦٥٩، الإصابة ت ٨٣٦٣،

مكانته في التفسير:

كان مجاهد - رحمه الله - أقل أصحاب ابن عباس رواية عنه في التفسير، وكان أوثقهم، لهذا اعتمد على تفسيره الشافعى والبخارى وغيرهما، ونجد البخارى رضى الله عنه في كتاب التفسير من الجامع الصحيح، ينقل لنا كثيراً من التفسير عن مجاهد، وهذه أكبر شهادة من البخارى على ثقته وعدالته، واعتراف منه بمبلغ فهمه لكتاب الله تعالى، وقد روى الفضل بن ميمون أنه سمع مجاهداً يقول: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة. وروى عنه أيضاً أنه قال: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات، أقف عند كل آية، أسأله فيم نزلت، وكيف كانت، ولا تعارض بين هاتين الروايتين، لأن الإخبار بالقليل لا ينافى الإخبار بالكثير، ولعله عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة لتمام الضبط، ودقة التجويد، وحُسْن الأداء، وعرضه بعد ذلك ثلاث مرات طلباً لتفسيره، ومعرفة ما دق من أسراره، وخفى من معانيه. كما تُشعر بذلك ألفاظ الرواية. وعن ابن أبى مليكة قال: رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه، فقال ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله. وروى عبد السلام بن حرب عن مصعب قال: كان أعلمهم بالتفسير مجاهد، وبالحج عطاء. وقال قتادة: أعلم مَن بقى بالتفسير مجاهد. وقال ابن سعد: كان ثقة، فقيهاً، عالماً، كثير الحديث. وقال ابن حبان: كان فقيهاً، ورعاً، عابداً، متقناً. وأخرج ابن جرير في تفسيره عن أبى بكر الحنفى قال: سمعت سفيان الثورى يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به. وكان رحمه الله جيد الحفظ، وقد حدَّث بهذا عن نفسه فقال: قال لى ابن عمر: وددتُ أن نافعاً

تهذيب التهذيب ١٠ / ٤٢، طبقات الحفاظ للسيوطي ص ٣٥، خلاصة تهذيب التهذيب ٣٦٩، شذرات الذهب ١ / ١٢٥.

يحفظ حفظك. وقال الذهبى في الميزان، في آخر ترجمة مجاهد: أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به. وقد أخرج له أصحاب الكتب الستة.

كل هذه شهادات من العلماء النُقَّاد تشهد بعلو مكانته في التفسير.

ولكن مع هذا كله، كان بعض العلماء لا يأخذ بتفسيره، فقد روى الذهى في ميزانه: أن أبا بكر بن عياش قال: قلت للأعمش: ما بال تفسير مجاهد مخالف؟ أو ما بالهم يَتَّقون تفسير مجاهد؟ - كما هى رواية ابن سعد - قال: كانوا يرون أنه يسأل أهل الكتاب.

هذا هو كل ما أُخِذ على تفسيره ولكن لم نر أحداً طعن عليه في صدقه وعدالته. وجملة القول فإن مجاهداً ثقة بلا مدافعة، وإن صح أنه كان يسأل أهل الكتاب فما أظن أنه تخطى حدود ما يجوز له من ذلك، لا سيما وهو تلميذ حَبْر الأمة ابن عباس. الذي شدَد النكير على مَن يأخذ عن أهل الكتاب ويُصَدِّقهم فيما يقولونه مما يدخل تحت حدود النهى الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

مجاهد والتفسير العقلى:

وكان مجاهد - رضى الله عنه - يعطى عقله حرية واسعة في فهم بعض نصوص القرآن التي يبدو ظاهرها بعيداً، فإذا ما مَرَّ بنص قرآنى من هذا القبيل، وجدناه ينزله بكل صراحة ووضوح على التشبيه والتمثيل، وتلك الخطة كانت فيما بعد مبدءاً معترفاً به ومقرراً لدى المعتزلة في تفسير القرآن بالنسبة لمثل هذه النصوص.

وإذا نحن رجعنا إلى تفسير ابن جرير وقرأنا بعض ما جاء فيه عن مجاهد نجده يطبق هذا المبدأ عملياً في مواضع كثيرة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى:{وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾} [البقرة: ٦٥]، نجده يقولَ - كما يروى

عنه ابن جرير - : " مُسِخَت قلوبهم ولم يُمسَخوا قردة، وإنما هو مَثَلٌ ضربه الله لهم كمثل الحمار يحمل أسفاراً ". ولكن نجد ابن جرير لا يرتضى هذا التفسير من مجاهد فيقول معقباً عليه: وهذا القول الذي قاله مجاهد قول لظاهر ما دلَّ عليه كتاب الله مخالف.. ثم يمضى في تفنيد هذا القول بأدلة واضحة قوية.

وكذلك نجد ابن جرير ينقل عن مجاهد أنه فسَّر قوله تعالى:{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)} [القيامة: ٢٢ - ٢٣]. بقوله: " تنتظر الثواب من ربها، لا يراه من خلقه شئ " وهذا التفسير عن مجاهد كان فيما بعد متكئاً قوياً للمعتزلة فيما ذهبوا إليه في مسألة رؤية الله تعالى.

ولعل مثل هذا المسلك من مجاهد، هو الذي جعل بعض المتورعين الذين كانوا يتحرجون من القول في القرآن برأيهم يتقون تفسيره، ويلومونه على قوله في القرآن بمثل هذه الحرية الواسعة في الرأى، فقد روى عن ابن مجاهد أنه قال: قال رجل لأبى: أنت الذي تفسِّر القرآن برأيك؟ فبكى أبى ثم قال: إنى إذن لجرئ، لقد حملت التفسير عن بضعه عشر رجلاً من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم.

ومهما يكن من شئ، فمجاهد رضى الله عنه إمام في التفسير غير مدافع، وليس في إعطائه لنفسه مثل هذه الحرية ما يغض من قيمته. أو يقلل من مكانته [(١)].

مواقف من حياته رحمه الله:

إنك ضيق الخلق:

عن مجاهد قال: كنت أصحب ابن عمر رضي الله عنهما في السفر فإن أردت أن أركب يأتيني فيمسك ركابي وإذا ركبت سوى ثيابي

(١) الدكتور محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، ٥/٣.

قال مجاهد: فجاءني مرة فكأني كرهت ذلك فقال: يا مجاهد إنك ضيق الخلق(١).

أهلكت نفسك وأهلكتني:

- عن الأعمش قال: كان مجاهد لا يسمع بأعجوبة إلا ذهب ينظر إليها قال: وذهب إلى حضر موت إلى بئر برهوت قال: وذهب إلى بابل قال وعليها والصديق لمجاهد قال: فقال مجاهد: تعرض على هاروت وماروت قال: فدعا رجلا من السحرة فقال: اذهب بهذا واعرض عليه هاروت وماروت فقال اليهودي: بشرط ألاّ يدعو الله عندهما قال مجاهد فذهب بي إلى قلعة فقلع منها حجرا قال: ثم قال: خذ برجلي فهوى بي حتى انتهى إليهما فإذا هما متعلقين منكسين كالجبلين العظيمين فلما رأيتهما قلت: سبحان الله خالقكما فاضطربا قال: فكأن جبال الدنيا قد تدكدكت قال فغشي علي وعلى اليهودي قال: ثم أفاق اليهودي قبلي فقال: قم قد أهلكت نفسك وأهلكتني (٢).

يؤتى بثلاثة نفر يوم القيامة:

- عن مجاهد قال: يؤتى بثلاثة نفر يوم القيامة بالغني وبالمريض والعبد فيقول للغني: ما منعك عن عبادتي؟ فيقول: أكثرت لي من المال فطغيت، فيؤتى بسليمان بن داود عليه السلام في ملكه فيقال له أنت كنت أشد شغلا أم هذا؟ قال: بل هذا قال: فإن هذا لم يمنعه شغله عن عبادتي قال: فيؤتى بالمريض فيقول: ما منعك عن عبادتي؟ قال: يا رب أشغلت على جسدي قال: فيؤتى بأيوب عليه السلام في ضره فيقول له: أنت كنت أشد ضرا أم هذا؟ قال: فيقول: لا بل هذا قال فإن هذا لم يمنعه ذلك أن عبدني قال: ثم يؤتى بالمملوك فيقال له: ما منعك عن عبادتي؟ فيقول: جعلت علي أربابا يملكونني قال: فيؤتى

(١) حلية الأولياء، ٣ / ٢٨٤.

(٢) حلية الأولياء، ٣ / ٢٨٨.

بيوسف الصديق عليه السلام في عبوديته فيقال: أنت أشد عبودية أم هذا؟ قال: لا بل هذا، قال: فإن هذا لم يشغله شيء عن عبادتي.

ذهبوا وبقيت أعمالهم:

عن مجاهد قال: مررت مع ابن عمر على خربة فقال: يا مجاهد، ناد يا خربة ما فعل أهلك؟ أين أهلك؟ قال: فناديت فقال ابن عمر: ذهبوا وبقيت أعمالهم.

إني لا أحب الظلم:

- عن مجاهد قال مر نوح عليه السلام بالأسد فضربه برجله فخمشه فبات ساهرا فشكى نوح ذلك إلى الله عز و جل فأوحى الله تعالى إليه: إني لا أحب الظلم.

وقد أتاك رسول يقطع أثرك من الدنيا:

- قال مجاهد ما من مرض يمرضه العبد إلا رسول ملك الموت عنده حتى إذا كان آخر مرض يمرضه أتاه ملك الموت فقال أتاك رسول بعد رسول فلم تعبأ به وقد أتاك رسول يقطع أثرك من الدنيا.

خلوا سبيله:

- عن مجاهد قال: يؤمر بالعبد إلى النار يوم القيامة فتنزوي عنه فيقول: ما شأنك؟ ما شأنك؟ فتقول: إنه قد كان يستجير مني في الدنيا فيقول خلوا سبيله.

- عن مجاهد قال: يؤمر بالعبد إلى النار يوم القيامة فيقول: ما كان هذا ظني؟ فيقول: ما كان ظنك؟ فيقول: أن تغفر لي فيقول: خلوا سبيله.

الحمد لله الذي أراحني من الدنيا وأهلها:

- عن مجاهد قال: ما من يوم ينقضي من الدنيا إلا قال ذلك اليوم الحمد لله الذي أراحني من الدنيا وأهلها ثم يطوي عليه فيختم إلى يوم

القيامة حتى يكون الله هو الذي يفض خاتمه رواه المعافى بن عمران عن طلحة بن عمرو فقال عن قيس بن سعد عن مجاهد وهو الصواب.

أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة:

- عن مجاهد في قوله تعالى:{ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ} [النساء: ٧٨]، الآية قال: كان فيمن كان قبلكم امرأة وكان لها أجير فولدت جارية وقالت لأجيرها اقتبس لنا نارا فخرج فوجد بالباب رجلا فقال له الرجل: ما ولدت هذه المرأة؟ قال: جارية فقال أما أن هذه الجارية لا تموت حتى تبغي بمائة ويتزوجها أجيرها ويكون موتها بالعنكبوت قال: فقال الأجير في نفسه: فأنا أريد هذه بعد أن تفجر بمائة لأقتلنها فأخذ شفرة فدخل فشق بطن الصبية وخرج على وجهه وركب البحر وخيط بطن الصبية فعولجت وبرأت وشبت فكانت تبغي فأتت ساحلا من سواحل البحر فأقامت عليه تبغي ولبث الرجل ما شاء الله ثم قدم ذلك الساحل ومعه مال كثير فقال لامرأة من أهل ساحل البحر: ابغيني امرأة من أجمل الناس في القرية أتزوجها فقالت: ها هنا امرأة من أجمل الناس وإنها تبغي قال: ائتني بها فأتتها فقالت: قد قدم رجل له مال كثير وقال لي كذا وكذا فقلت: كذا وكذا فقالت: إني قد تركت البغاء ولكن إن أراد تزوجته قال: فتزوجها فوقعت منه موقعا فبينا هو يوم عندها إذ أخبرها بأمره فقالت: أنا تلك الجارية وأرته الشق في بطنها وقد كنت أبغي فما أدري بمائة أو أقل أو أكثر قال: فإنه قال لي يكون موتها بالعنكبوت قال: فبنى لها برجا في الصحراء وشيده فبينما هما يوما في ذلك البرج إذا عنكبوت في السقف فقال: هذا عنكبوت فقالت: هذا يقتلني لا يقتله أحد غيري فحركته فسقط فوضعت إبهام رجلها عليه فشدخته وساخ سمه بين ظفرها واللحم فاسودت رجلها فماتت فنزلت هذه

الآية:{ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ} [النساء: ٧٨] (١).

من كلامه رحمه الله:

- عن مجاهد قال: من أعز نفسه أذل دينه ومن أذل نفسه أعز دينه.

- عن مجاهد قال: ذهبت العلماء فما بقي إلا المتعلمون وما المجتهد فيكم إلا كاللاعب فيمن كان قبلكم.

- عن مجاهد قال: إن المسلم لو لم يصب من أخيه إلا أن حياءه منه يمنعه من المعاصي لكفاه.

- كان مجاهد يقول: الفقيه من يخاف الله عز و جل.

- عن مجاهد قال: إن العبد إذا أقبل على الله تعالى بقلبه أقبل الله عز و جل بقلوب المؤمنين إليه أخبار.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً} [المزمل: ٨]، قال: أخلص له إخلاصا.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾} [المدثر: ٤]، قال: وعملك فأصلح.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ} [النساء: ٣٢]، قال ليس بعرض الدنيا.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ } [الزمر: ٣٣]، قال: هم الذين يجيؤون بالقرآن يقولون هذا الذي قد أعطيتمونا قد اتبعنا ما فيه.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ } [الزمر: ٣٣]، قال: هم الذين يجيؤون بالقرآن قد اتبعوه أو قال قد اتبعوا ما فيه.

---

(١) حلية الأولياء، ٣ / ٢٨٨ - ٢٩٥.

- عن مجاهد قال: إن القرآن يقول إني معك ما اتبعتني فإذا لم تتبعني اتبعتك.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا} [القصص: ٧٧]، قال: خذ من دنياك لآخرتك أن تعمل فيها بطاعته.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ} [التكاثر: ٨]، قال عن كل شيء من لذه الدنيا.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾} [الرحمن: ٤٦]، قال للذي يذكر الله عز و جل عند المعاصي.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم} [الفتح: ٢٩]، قال: الخشوع في الصلاة.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ} [البقرة: ٢٣٨]، قال: القنوت الركوع والخشوع وغض البصر وخفض الجناح من رهبة الله تعالى: قال وكانت العلماء إذا قام أحدهم إلى الصلاة هاب الرحمن عز وجل أن يشذ نظره أو يلتفت أو يقلب الحصى أو يعبث بشيء أو يحدث نفسه بشيء من الدنيا إلا ناسيا ما دام في الصلاة.

- عن مجاهد قال: كنت إذا رأيت العرب استجفيتها وإن فتشتها وجدتها من وراء دينها وإذا دخلوا في الصلاة فكأنها أجساد ليس فيها أرواح.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ} [مريم: ٥٩]، قال: عند قيام الساعة وذهاب صالحي أمة محمد صلى الله عليه وسلم واتبعوا الشهوات قال: ينزوا بعضهم على بعض زناة في الأزقة.

- مجاهدا يقول: القلب بمنزلة الكف فإذا أذنب الرجل ذنبا انقبض أصبع حتى تنقبض أصابعه كلها أصبعا أصبعا قال: ثم يطبع عليه

فكانوا يرون أن ذلك الران قال الله تعالى:{كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: ١٤] (١) :

- عن مجاهد في قوله تعالى:{بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ} [البقرة: ٨١]، قال: الذنوب تحيط بالقلوب كلما عمل ذنبا ارتفعت حتى تغشى القلب وحتى يكون هكذا ثم قبض يده ثم قال: هو الران.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣)} [القيامة: ١٣]، قال: بأول عمله وآخره.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب (٨)} [الشرح: ٧ - ٨]، قال إذا فرغت من أمر الدنيا فقمت الى الصلاة فاجعل رغبتك إليه ونيتك له.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨)} [الفجر: ٢٧ - ٢٨]، قال: النفس التي أيقنت أن الله عز وجل ربها وضربت جأشا لأمره وأطاعته.

- عن مجاهد قال ما من ميت يموت إلا عرض عليه أهل مجلسه إن كان من أهل الذكر فمن أهل الذكر وإن كان من أهل اللهو فمن أهل اللهو.

- عن مجاهد قال: لا يكون الرجل من الذاكرين الله كثيرا حتى يذكر الله قائما وقاعدا ومضطجعا.

- عن مجاهد قال: لابن آدم جلساء من الملائكة فإذا ذكر الرجل المسلم أخاه المسلم بخير قالت الملائكة ولك مثله وإذا ذكره بسوء قالت الملائكة: يا بن آدم المستور عورته أربع على نفسك واحمد الله الذي ستر عليك.

(١) حلية الأولياء، ٣ / ٢٨٣.

- عن مجاهد قال إبليس: إن يعجزني ابن آدم فلن يعجزني من ثلاث خصال: أخذ مال بغير حقه وإضاعة إنفاقه في غير حقه ومنعه عن حقه.

- عن مجاهد قال: لم ير إبليس ابن آدم ساجدا قط إلا التطم ودعا بالويل ثم يقول: أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فلم أسجد فلي النار.

- عن مجاهد قال من لم يستح من الحلال خفت مؤونته وأراح نفسه.

- عن مجاهد قال ما من يوم يمضي من الدنيا إلا قال الحمد لله الذي أخرجني من الدنيا فلا أعود إليها أبدا.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ} [الأنبياء: ٨٧]، قال هو أن يعاقبه بذنبه.

- عن مجاهد قال: الرعد ملك يزجر السحاب بصوته.

- عن مجاهد قال: إن الله تعالى ليصلح بصلاح العبد ولده وولد ولده

- قال مجاهد: بلغني أن عيسى ابن مريم عليه السلام كان يقول: طوبى للمؤمن ثم طوبى له كيف يخلفه الله تعالى فيمن ترك بخير.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ} [البقرة: ١٦٦]، قال: الأوصال التي كانت بينهم في الدنيا.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً} [التوبة: ١٠]، قال: الإل: الله عز و جل.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ } [هود: ٨٦]، قال: طاعة الله عزو جل [(١)].

- عن مجاهد في قوله تعالى:{ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ} [لقمان:

(١) حلية الأولياء، ٣ / ٢٨٤.

٦]، قال: الغناء.

- عن مجاهد قال: كان يقال إن الصبر عند الصدمة الأولى.

- عن هلال بن خباب قال: زاملت مجاهدا إلى مكة فكان إذا مر على القبور قال: السلام عليكم يا أهل الديار المؤمنين منكم والمسلمين يرحم الله المستقدمين منكم وإنا إن شاء الله بكم لاحقون.

- عن مجاهد قال: جعلت الأرض لملك الموت مثل الطست يتناول منها حيث شاء وجعلت له أعوان يتوفون الأنفس ثم يقبضها منهم.

- عن مجاهد قال: لما أهبط آدم إلى الأرض قال له ربه عز و جل ابن للخراب ولد للفناء.

- عن مجاهد قال في قوله تعالى:{وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ} [البقرة: ١٥٩]، قال: يلعنهم دواب الأرض وما شاء الله تعالى الحيات والعقارب قال يقولون: نمنع القطر بذنوبهم.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦} [العاديات: ٦]، قال: لكفور.

- عن مجاهد قال إن هذا العلم لا يتعلمه مستح ولا متكبر.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ} [ق: ١٧]، قال: اسم كاتب السيئات قعيد.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ} [ق: ٢٩]، قال: قضيت ما أنا قاض.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ} [يوسف: ٢٦] قال: ليس بإنس ولا جان وهو خلق من خلق الله عز و جل.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ} [الرحمن: ٣٥]، قال لهب منقطع من النار.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗا} [الأنعام: ١١٢] قال: تزيين الباطل بالألسنة.

- عن مجاهد قال إن الروح خلق على صورة ابن آدم.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقٞ} [الذاريات: ١٩]، قال: سوى الزكاة.

- قال قطن بن خليفة سألت مجاهدا عن هذه الآية:{وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ } [المؤمنون: ١٠٠]، قال ما بين الموت والبعث وقوله:{بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ﴿٢٠﴾} [الرحمن: ٢٠]، قال: بينهما حاجز من الله تعالى لا يبغي أحدهما على الآخر لا يبغي المالح على العذب ولا العذب على المالح.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ } [البقرة: ١٧٥]، قال: ما أعملهم بأعمال أهل النار.

- عن مجاهد قال: لأهل النار جناب يستريحون إليه فإذا أتوه لسعتهم عقارب كأمثال البغال الدهم.

- عن مجاهد قال: كان طعام يحيى بن زكريا عليه السلام العشب وإن كان ليبكي من خشية الله تعالى حتى لو كان القار على عينيه لحرقه.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا} [الرعد: ١٥]، قال الطائع المؤمن والكاره الكافر.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ} [الرعد: ١٣]، قال: العداوة.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ } [الرعد: ٣١]، قال: الويه.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ } [النحل: ٨]، قال السوس في النبات.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي} [مريم: ٤]، قال: شكى ذهاب أضراسه.

- عن عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه في قوله تعالى:{قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا} [مريم: ٤٧]، قال: رحيما.

- عن مجاهد قال: لو أن رجلا أنفق مثل أحد في طاعة الله تعالى لم يكن من المسرفين.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُ} [البقرة: ٢٦٩]، قال: العلم والفقه.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ} [النساء: ٥٩]، قال الفقهاء والعلماء.

- عن مجاهد قال: أتته امرأة فقالت: إني أجد في نفسي شيئا لا أستطيع أن أتكلم به قال: ذاك محض الإيمان فقلت: ما هو يا أبا الحجاج قال: إن المؤمن إذا عصم من الشيطان في الذنوب جاءه فقال: أرأيت الله من خلقه.

- عن مجاهد قال: سأل موسى عليه السلام ربه عز و جل أي عبادك أغنى قال الذي يقنع بما يؤتى. قال: فأي عبادك أحكم؟ قال: الذي يحكم للناس بما يحكم لنفسه قال: فأي عبادك أعلم قال: أخشاهم.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ} [الأنعام: ١٥٣]، قال: البدع والشبهات.

- عن مجاهد قال: أفضل العبادة الرأي الحسن يعني اتباع السنة.

- عن مجاهد قال: ما أدري أي النعمتين أفضل أن هداني للإسلام أو عافاني من الأهواء.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ} [النساء: ٥٩]، قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وربما قال أولوا العقل والفضل في دين

الله تعالى.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ} [النساء: ٥٩]، قال إلى كتاب الله وإلى رسوله ما دام حيا فاذا قبض فإلى سنته.

- عن مجاهد قال كانت مريم تقول: كان عيسى إذا كان عندي أحد يتحدث معي سبح في بطني فإذا خلوت فلم يكن عندي أحد حدثني وحدثته وهو في بطني.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ} [لقمان: ٢٠]، قال: أما الظاهرة فالإسلام والرزق وأما الباطنة فما ستر من العيوب والذنوب.

- عن مجاهد قال: لما قدمت ملكة سبأ على سليمان بن داود عليه السلام ورأت حطبا جزلا فقالت لغلام سليمان: هل يعرف مولاك كم وزن هذا الدخان؟ فقال: أنا أعلم فكيف مولاي؟ قالت: فكم وزنه؟ فقال: الغلام يوزن الحطب ثم يحرق ثم يوزن رماده فما نقص فهو دخانه.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا} [التحريم: ٨]، قال: النصوح أن تتوب من الذنب ثم لا تعود.

- عن مجاهد قال: من لم يتب إذا أصبح وإذا أمسى فهو من الظالمين.

- قال عبيد بن مهران: المكتب سمعت مجاهدا يسأل عن هذه الآية:{قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ} [الجاثية: ١٤]، قال: هم الذين لا يدرون أنعم الله عليهم أم لم ينعم ثم قرأ:{ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ} [إبراهيم: ٥]، فقال موسى: ياقوم اذكروا نعمة الله

عليكم قال: فهي النعم.

- عن الحسن بن عبد الله قال: سمعت مجاهدا يقول: إذا خرج الرجل حضره الشيطان فإذا قال: باسم الله قيل هديت فإذا قال: توكلت على الله قيل: كفيت وإذا قال: لا حول ولا قوة إلا بالله قيل: حفظت فيقال: كيف يكون بمن قد هدى وكفى وحفظ؟

- عن مجاهد أنه أعطى رجلا خمسمائة درهم على مصحف يكتب له.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} [الفرقان: ٧٤]، قال: مؤتمين لهم مقتدين بهم حتى يأتم بهم من خلفنا.

- عن أبي بكر بن عياش أخبرني أبو يحيى أنه سمع مجاهدا يقول: قال لي ابن عباس: لا تنامن إلا على وضوء فإن الأرواح تبعث على ما قبضت عليه.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [المؤمنون: ٩٦]، قال هو السلام عليه إذا لقيته.

- عن مجاهد قال: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: اتق لا يأخذنك الله على ذنب لا ينظر فيه إليك فتلقاه حين تلقاه وليست لك حجة.

- حدث قيس بن سعد أنه سمع مجاهدا يقول: ما من يوم إلا يقول ابن آدم قد دخلت عليك اليوم ولم أرجع بعد اليوم فانظر ما تعمل في ولا ليلة إلا قالت كذلك.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{سَأَلَ سَآئِلٌ} [المعارج: ١]، قال: دعا داع.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} [الجن: ١٦ - ١٧]، قال: حتى يرجعوا إلى علمي فيه.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا} [النور: ٥٥]، قال: لا يحبون غيري.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا} [المدثر: ١٢، ١٣]، قال الوليد بن المغيرة ماله ألف دينار وبنوه عشرة.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} [فاطر: ١٠]، قال المراؤون.

- عن مجاهد قال: كان بالمدينة أهل بيت ذو حاجة عندهم رأس شاة فأصابوا شيئا فقالوا لو بعثنا بهذا الرأس إلى من هو أحوج إليه منا قال فبعثوا به فلم يزل يدور بالمدينة حتى رجع إلى أصحابه الذين خرج من عندهم.

- عن مجاهد قال إذا لقي الرجل الرجل فضحك في وجهه ذابت عنهم الذنوب كما ينثر الريح الورق اليابس عن الشجر قال: فقال: ويحك إن هذا من العمل يسير فقال: أما سمعت قوله تعالى:{لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ} [الأنفال: ٦٣].

- عن مجاهد قال: ما من مؤمن يموت إلا تبكي عليه الارض أربعين صباحا.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ} [الروم: ٤٤]، قال في القبر.

- عن مجاهد وسعيد بن المسيب قالا يبعث داود عليه السلام وذكر خطيئته ووجله منها في قلبه منقوشة في كفه فإذا رأى أهاويل الموقف لم يجد منه متعوذا ولا محرزا إلا برحمة ربه وقربه فيشير إليه أن ها هنا وأشار بيمينه إلى جنبه فذلك قوله عز و جل:{وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ} [ص: ٢٥].

- عن مجاهد قال: ما التقى مسلمان فتصافحا إلا غفر لهما ذنوبهما قبل أن يتفرقا أو تحاتت عنهما ذنوبهما! قلت: إن ذلك يسير قال: لا

تقل ذلك إن الله عز و جل يقول:{لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ } [الأنفال: ٦٣] قال: فكان مجاهد أفقه مني.

- عن مجاهد قال: كان يحج من بني إسرائيل مائة ألف فإذا بلغوا أنصاب الحرم قلعوا نعالهم ثم دخلوا الحرم حفاة.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ} [آل عمران: ٤٣]، قال أطيلي الركوع.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ } [الإسراء: ٦٤]، قال المزامير.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا } [المزمل: ١٢]، قال قيودا.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ } [الشورى: ١٥]، قال: لا خصومة بيننا وبينكم.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ } [التكاثر: ٨]، قال: عن كل لذة في الدنيا.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾} [القمر: ٤٨]، قال: هم المكذبون بالقدر.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ} [سبأ: ١٠]، قال: سبحي معه.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [المؤمنون: ٩٦]، قال المصافحة.

- عن مجاهد قال رن إبليس أربعا حين لعن وحين أهبط وحين بعث النبي صلى الله عليه وسلم وقد بعث على فترة من الرسل وحين أنزلت الحمد لله رب العالمين وأنزلت بالمدينة وكان يقال الرنة والنخرة من الشيطان فلعن من رن أو نخر.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً } [الشعراء: ١٢٨]، قال: برزخ الحمام.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ} [الجمعة: ١٠]، قال: اطلبوا التجارة في البحر.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ} [البقرة: ٢٦٧]، قال: من التجارة.

- عن خصيف قال: سمعت مجاهدا يقول: أيما امرأة قامت إلى الصلاة ولم تغط شعرها لم تقبل صلاتها.

- عن مجاهد:{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا} [فصلت: ٣٠]، قال: فلم يشركوا حتى ماتوا.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)} [الإخلاص: ٤]، قال: صاحبة.

- عن مجاهد قال: النملة التي كلمت سليمان عليه السلام كانت مثل الذئب العظيم.

- عن مجاهد قال: كان الغلام من قوم عاد لا يحتلم حتى يبلغ مائتي سنة.

- عن مجاهد قال ليس أحد إلا يؤخذ من قوله ويترك إلا النبي صلى الله عليه وسلم.

- قال مجاهد بن جبر: قال لقمان لابنه: إياك إذا سئل غيرك أن تكون أنت المجيب، كأنك أصبت غنيمة أو ظفرت بعطية، فإنك إن فعلت ذلك، أزريت بالمسؤول، وعنفت السائل، ودللت السفهاء على سفاهة حلمك، وسوء أدبك. - قال مجاهد بن جبر: خصلتان تفسدان الصيام: الغيبة والكذب[1].

(١) حلية الأولياء، ٣ / ٢٨٨ - ٢٩٧.

قتادة بن دعامة السدوسى

أعــلام التفسيــر

قتادة بن دعامة السدوسى

هو أبو الخطاب، قتادة بن دعامه السدوسى الأكمه، عربى الأصل، كان يسكن البصرة. روى عن أنس، وأبى الطفيل، وابن سيرين، وعكرمة، وعطاء بن أبى رباح، وغيرهم. وكان قوى الحافظة، واسع الاطلاع في الشعر العربى، بصيراً بأيام العرب، عليماً بأنسابهم، متضلعاً في اللغة العربية، ومن هنا جاءت شهرته في التفسير. ولقد يشهد لقوة حفظه ما رواه سلام بن مسكين قال: حدثنى عمرو بن عبد الله، قال: قدم قتادة على سعيد بن المسيب فجعل يسأله أياماً وأكثر، فقال له سعيد: أكل ما سألتنى عنه تحفظه؟ قال: نعم، سألتك عن كذا فقلت فيه كذا، وسألتك عن كذا فقلت فيه كذا، وقال فيه الحسن كذا، حتى رد عليه حديثاً كثيراً، قال: فقال سعيد: ما كنتُ أظن أن الله خلق مثلك. وقد شهد له ابن سيرين بقوة الحافظة أيضاً، فقال: قتادة هو أحفظ الناس.

وكان قتادة على مبلغ عظيم من العلم فوق ما اشتُهر به من معرفته لتفسير كتاب الله. حتى قدَّمه بعضهم على كثير من أقرانه، وجعل بعضهم من النادر تقدم غيره عليه. وقال فيه سعيد بن المسيب: ما أتانى عراقى أحسن من قتادة. وقال معمر للزهرى: قتادة أعلم عندك أم مكحول؟ قال: بل قتادة. وقال أبو حاتم: سمعت أحمد بن حنبل وذُكِر قتادة، فأطنب في ذكره، فجعل ينشر من علمه وفقهه ومعرفته بالاختلاف والتفسير، ووصفه بالحفظ والفقه، وقال: قلَّما تجد من تقدَّمه.

وهذا يدل على أن أبا عمرو كان يثق بعلم قتادة وبتفسيره للقرآن، لولا ما يَنسب إليه من الخوض في القضاء والقدَر، وكثيراً ما تحرَّج بعض الرواة من الرواية عنه لذلك، ونجد أصحاب الصحاح يُخَرِّجون له، ويحتجون بروايته، ويكفينا هذا في تعديله وتوثيقه: قال

أبو حاتم: أثبت أصحاب أنس: الزهرى، ثم قتادة. وقال ابن سعد: كان ثقة مأموناً حُجَّة في الحديث، وكان يقول بشئ من القدَر. وقال ابن حبان في الثقات: كان من علماء الناس بالقرآن والفقه، ومن حُفَّاظ أهل زمانه.

وكانت وفاته سنة ١١٧ هـ (سبع عشرة ومائة من الهجرة)، وعمره إذ ذاك ست وخمسون سنة على المشهور [١].

* * *

(١) الدكتور محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، ٣ /١١.

إسحاق بن راهويه

الإمام المفسر إسحاق بن راهويه

هو الإمام الحافظ الكبير، شيخ أهل المشرق وعالمها، فقيه خراسان إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن إبراهيم بن عبد الله بن مطر بن عبيد الله ابن غالب بن وارث بن عبيد الله بن عطية بن مرة بن كعب بن همام بن أسد بن مرة بن عمرو بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم التميمي، ثم الحنظلي المروزي، نزيل نيسابور.

وكنيته أبو يعقوب، وكان يكنى أبا محمد نسبة إلى أحد أولاده: محمد ابن إسحاق بن راهويه، وكان فقيهاً جليلاً تتلمذ على والده والإمام أحمد.

وشهرته ابن راهويه، وإنما اشتهر بها، لأن والده ولد في طريق مكة فقالت المراوزة: راهويه، لأنه ولد في الطريق، وقد سأل الأمير عبد الله ابن طاهر الإمام إسحاق فقال له: لم قيل لك ابن راهويه؟ وما معنى هذا؟ وهل تكره أن يقال لك ذلك؟ فقال: اعلم أيها الأمير أن أبي ولد في طريق مكة، فقالت المراوزة راهويه، لأنه ولد في الطريق، وكان أبي يكره هذا وأما أنا فلا أكرهه.

وكما كان والد إسحاق يكره أن يدعى براهويه كان الإمام أحمد يكره أن يدعى قرينه ورفيق حياته بذلك، فقد ذكر الخطيب البغدادي عن أحمد بن حفص السعدي يقول: ذكر أحمد بن حنبل وأنا حاضر إسحاق بن راهويه فكره أحمد أن يقال راهويه، وقال: إسحاق بن إبراهيم الحنظلي، وهذا من تمام أدبه وورعه مع زميله الإمام إسحاق رحمه الله [(١)].

(١) تذكرة الحفاظ ٤٣٣/٢ - ٤٣٤، سير أعلام النبلاء ٣٥٨/١١، تاريخ بغداد ٣٤٧/٦، تهذيب الكمال ٣٧٣/٢، طبقات الحنابلة ٢٦٩/١، جمهرة أنساب العرب٢٢٣، إسحاق ابن منصور المروزي، مسائل الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، نشر عمادة البحث العلمي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة

اختلفت الأقوال في تاريخ ولادته إلى أقوال، وأرجح الأقوال أنه ولد سنة إحدى وستين ومائة رجح هذا القول الخطيب البغدادي فقال بعد أن ساق عن الإمام البخاري: أن إسحاق بن راهويه توفى وهو ابن سبع وسبعين سنة قال الخطيب: وهذا يدل على أن مولده كان في سنة إحدى وستين ومائة قبل مولد أحمد بن حنبل بثلاث سنين.

وكانت ولادته في مدينة مرو الشاهجان التي هي قاعدة بلاد خراسان على نهر مرغاب، فتحها الأحنف بن قيس أيام الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وسكن فيها من الصحابة بريدة بن الخصيب والحكم بن عمر الغفاري، وبذروا فيها بذور العلم والحكمة، فأضحت المدينة الكبرى، والدار العظمى مربع العلماء، ومرتع الملوك والوزراء، وأخرجت كثيراً من علماء الدين والأعيان ما لم تخرج مدينة مثلهم، منهم الإمام أحمد، وسفيان الثوري، وعبد الله بن المبارك، وهي مدينة حسنة المنظر، في أهلها رفق ولين الجانب وحسن المعاشرة.

في هذه الأرض الطيبة، والطبيعة الخلابة، والبيئة العلمية نشأ الإمام إسحاق بن راهويه في كنف أبيه التقي الورع المتحضر للمجد والسؤدد الذي قال فيه أحمد بن سعيد الرباطي[1] في جملة أبيات يمدح فيها الإمام إسحاق فقال:

أبوك إبراهيم محض التقى ::: سباق مجد وابن سباق

فأخذ والده بتنشئته تنشئة علمية، ووجهه إلى التفقه في الدين فاتجه إلى هذا المجال يساعده في ذلك ذكاؤه المتوقد، وقوة ذاكرته العجيبة، وسرعة حفظه النادرة، فأدرك عصر النشاط العلمي الذي كان لبلده نصيب وافر فيه، فكان لهذه الأسباب أثر في نبوغه وشهرته، وتفوقه على أقرانه.

الأولى، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٢م، ص ١٢٧.

طلبه للعلم، ورحلاته:

ابتدأ الإمام إسحاق رحمه الله منذ نعومة أظافره بطلب العلم فالتحق بالكتاب، وحفظ بعض المجاميع، وتلقى الفقه، كما ذكر لدى مناقشته أحد الفقهاء في مجلس الأمير عبد الله بن طاهر.

كما حضر مجالس كبار علماء بلده مثل عبد الله بن المبارك وهو صبي حدث، ثم ترك الرواية عنه لحداثته، ولأنه لم يجد في نفسه الكفاءة التامة المطلوبة لذلك، كما التقى بطائفة جليلة من أقطاب أئمة عصره، أمثال الفضل بن موسى السيناني، وعمر بن هارون والنضر بن شميل المازني، ويحيى بن واضح، وخلق سواهم.

وكان لهؤلاء الشيوخ أثر كبير في توجيه الإمام إسحاق العلمي، ولما أحس أنه قد أخذ الحديث والفقه، وغيرها من العلوم من علماء بلده، وما حولها من بلاد خراسان، ابتدأ في الرحلة لطلب العلم، فكان أول رحلاته إلى بغداد حاضرة العالم الإسلامي ومهد العلوم، ومقصد طلاب العلم من شتى الأمصار الإسلامية آنذاك، وكان ذلك سنة أربع وثمانين ومائة وهو ابن ثلاث وعشرين سنة.

ثم تتابعت رحلاته، فورد بغداد غير مرة، ورحل إلى الحجاز واليمن والشام فسمع من علمائها، وتوطدت العلاقة بينه وبين قرينه الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله فكانا يتذاكران العلم، حتى غفلوا عن التكبير لانشغالهما بالمذاكرة.

وقال الإمام إسحاق رحمه الله: كنت أجالس أحمد وابن معين، ونتذاكر فأقول: ما فقهه؟ وما تفسيره؟ فيسكتون إلا أحمد، وكان صدراً في مجالس العلماء، يدير المناقشة بين الحاضرين، ويلقي الأسئلة، كما نقل ذلك محمد بن يحيى الذهلي قال: وافقت إسحاق بن إبراهيم صاحبنا سنة تسع وتسعين ببغداد اجتمعوا في الرصافة أعلام أصحاب الحديث فمنهم أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وغيرهما

فكان صدر المجلس لإسحاق، وهو الخطيب.

والتقى الإمام إسحاق رحمه الله بالإمام الشافعي أثناء رحلته مع الإمام أحمد إلى الحجاز، فقد قال إسحاق بن راهويه: لقيني أحمد بن حنبل بمكة فقال: تعالى حتى أريك رجلاً لم تر عيناك مثله، فأراني الشافعي.

وقال: وكان أحمد يجالس الشافعي، وكنت لا أجالسه. فقال لي أحمد يا أبا يعقوب: لم لا تجالس هذا الرجل؟ فقلت: ما أصنع به وسنه قريب من سننا؟ كيف أترك ابن عيينة وسائر المشايخ لأجله؟ قال: ويحك هذا يفوت، وذلك لا يفوت، قال إسحاق فذهبت إليه، وتناظرنا في كراء بيوت أهل مكة.

ونقل نتيجة هذه المناظرة الإمام أحمد رحمه الله الحكم العدل

والصديق الحميم للمتناظرين، قال صالح بن أحمد بن حنبل قال أبي: " جلست أنا وإسحاق بن راهويه يوماً إلى الشافعي، فناظره إسحاق في السكنى بمكة، فعلا إسحاق يومئذ الشافعي ".

كما ناظره في جلود الميتة إذا دبغت، فقال الشافعي: دباغها طهورها فقال إسحاق: ما الدليل؟ فقال الشافعي:حديث الزهري عن عبيد الله ابن عبد الله عن ابن عباس عن ميمونة أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بشاة ميتة فقال:{هلا انتفعتم بجلدها}، فقال إسحاق: حديث ابن عكيم: " كتب إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل موته بشهر لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب " أشبه أن يكون ناسخاً لحديث ميمونة أنه قبل موته بشهر، فقال الشافعي: هذا كتاب وذاك سماع فقال إسحاق: إن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى كسرى وقيصر وكان حجة عليهم عند الله فسكت الشافعي.

كما التقى خلال رحلاته بعبد الرزاق الصنعاني باليمن فقد قال: كنت مع أحمد بن حنبل عند عبد الرزاق، وكان معي جارية، وسكنا فوق

وأحمد أسفل في البيت فقال لي: يا أبا يعقوب هوذا يعجبني ما أسمع من حركتكم. قال: وكنت أطلع فأراه يعمل التكك ويبيعها، ويتقوت بها.

وهكذا جمع الإمام إسحاق علماً كثيراً نافعاً، وضارع بعض أئمة عصره وفاق آخرين، واشتهر حتى أن بعض شيوخه حلف أن لا يحدث كذا شهراً واستثناه، فقد قال الإمام إسحاق أتيت وهب بن جرير فقال: قد حلفت أن لا أحدث كذا شهراً، قال: قلت قد أغنى الله عنك، وأردت أن يكون اسمك عندي، قال: فقال لي: من أين أنت؟ قلت: خراساني قال: لعلك إسحاق بن راهويه؟ قال: قلت: نعم، قال: قد استثنيتك فسلني.

وبعد هذا التجوال في البلاد الإسلامية، والاستفادة من علمائها وتزوده بالعلم النافع، عاد إلى خراسان، واستوطن نيسابور.

وغدا مسموع الكلمة، موفور الكرامة، مقدماً لدى الأمراء مرجعاً للعلماء، قدوة للخاصة والعامة (١).

بعض شيوخ الإمام إسحاق:

لقد كان الإمام إسحاق رحمه الله شغوفاً بالعلم، فلذا كثرت رحلاته العلمية، التقى خلالها بكثير من علماء عصره المبرزين في العلوم الإسلامية من فقه، وحديث، وتفسير، وليس قصدي في هذه العجالة أن أحصر وأجمع كل من التقى بهم وتتلمذ عليهم من الشيوخ وإنما أترجم لبعض شيوخه الذين لهم تأثير في حياته العلمية، وهم على سبيل المثال:

- ابن المبارك ١١٨ - ١٨١هـ:

(١) إسحاق بن منصور المروزي، مسائل الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، ص ١٣٢.

هو عبد الله بن مبارك بن واضح المروزي، مولى بني حنظلة، ثقة فقيه، عالم، قال أحمد: " لم يكن في زمان ابن المبارك أطلب للعلم منه، وكان صاحب حديث حافظاً "، وقد أفنى عمره في الأسفار حاجاً، ومجاهداً، وتاجراً، وجمع الحديث والفقه، والعربية، وأيام الناس والشجاعة، والسخاء، كان من سكان خراسان، ومات بهيت على الفرات منصرفاً من غزو الروم.

سمع منه الإمام إسحاق وهو حدث، فترك الرواية عنه لحداثته.

الطنافسي ت ١٨٥هـ:

هو عمر بن عبيد بن أمية الطنافسي - بفتح الطاء والنون وبعد الألف فاء مكسورة، ثم سين مهملة - الكوفي صدوق، أخرج له أصحاب الكتب الستة، روى عنه الإمام أحمد وإسحاق وابنا أبي شيبة وخلق سواهم، قال الإمام أحمد: لم ندرك بالكوفة أحداً أكبر منه، وقال ابن سعد: كان شيخاً قديماً ثقة توفى سنة خمس وثمانين، وقيل: بعدها.

- عبد العزيز العمي ت ١٨٧:

هو عبد العزيز بن عبد الصمد العمي البصري الحافظ الثقة، أبو عبد الصمد روى له أصحاب الكتب الستة، وروى عنه أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وبندار وآخرون توفى سنة سبع وثمانين ومائة

- الدراوردي ت ١٨٧:

هو الإمام المحدث عبد العزيز بن محمد بن عبيد الدراوردي، أبو محمد المدني الجهني بالولاء. قال ابن سعد: كان ثقة كثير الحديث، يغلط، أصله من خراسان، ومولده ووفاته بالمدينة.

- الفضيل بن عياض ت ١٨٧:

هو الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي المروزي، أبو علي شيخ الحرم، من أكابر العباد الصلحاء، كان ثقة في الحديث،

أخرج له البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، أخذ العلم عنه خلق منهم الإمام الشافعي وإسحاق بن راهويه وابن المبارك.

قال ابن سعد: كان ثقة نبيلاً فاضلاً عابداً ورعاً كثير الحديث، مات بمكة أول سنة سبع وثمانين ومائة.

- السيناني ١١٥ - ١٩٢هـ:

الفضل بن موسى السيناني المروزي الحافظ ثقة ثبت، قال الإمام إسحاق بن راهويه: لم أكتب عن أحد أوثق في نفسي من الفضل بن موسى ويحيى ابن يحيى، ولد سنة خمس عشرة ومائة، وتوفى رحمه الله في الحادي عشر من ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين ومائة.

وروى أبو الحسن علي بن إسحاق بن راهويه، قال: ولد أبي من بطن أمه مثقوب الأذنين، قال فمضى جدي راهويه إلى الفضل بن موسى السيناني فسأله عن ذلك، وقال: ولد لي ولد خرج من بطن أمه مثقوب الأذنين فقال: يكون ابنك رأساً إما في الخير، وإما في الشر.

- مروان الفزاري ت ١٩٣هـ:

هو مروان بن معاوية بن الحارث بن أسماء الفزاري الكوفي الحافظ المحدث الثقة، نزيل مكة، ثم دمشق حدث عنه الإمام أحمد وإسحاق وابن المديني وخلق، وأخرج له أصحاب الكتب الستة.

وذكره الإمام أحمد بن حنبل فقال: ثبت حافظ، كان يحفظ حديثه كله مات فجأة بمكة في عشر ذي الحجة سنة ثلاث وتسعين ومائة.

- الوليد بن مسلم الدمشقي ت ١٩٥ هـ:

هو الإمام الحافظ الوليد بن مسلم الدمشقي أبو العباس الأموي مولاهم عالم أهل دمشق، ومحدث ثقة، حدث عنه الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، وابن المديني وخلق، وصنف التصانيف والتواريخ، وعني بهذا الشأن أتم العناية، قال الإمام أحمد: ما رأيت

في الشاميين أعقل منه، وأخرج له أصحاب الكتب الستة توفى آخر سنة أربع أو أول سنة خمس وتسعين ومائة.

- **معاذ بن معاذ العنبري ت ١٩٦هـ:**

هو معاذ بن معاذ بن نصر بن حسان الحافظ العلامة أبو المثنى العنبري التميمي البصري، قاضي البصرة، أخذ عنه العلم الإمام أحمد وإسحاق وبندار وخلق كثير، قال الإمام أحمد: إليه المنتهى في التثبت في البصرة ما رأيت أحداً أعقل منه، توفى في ربيع الآخر سنة ست وتسعين ومائة.

- **عبد الله بن وهب ت ١٩٧:**

هو عبد الله بن وهب بن مسلم الإمام الحافظ أبو محمد الفهري مولاهم المصري الفقيه، أحد الأئمة الأعلام، جمع بين الفقه والحديث، والعبادة، وكان ثقة حجة حافظاً مجتهداً لا يقلد أحداً، وكان الإمام مالك يكتب إليه: إلى عبد الله مفتي أهل مصر، ولم يفعل هذا مع غيره، توفى في شعبان سنة سبع وتسعين ومائة.

- **الإمام الشافعي:**

يرجع الفضل في تعريف الإمام إسحاق بالإمام الشافعي إلى الإمام أحمد الذي قال له: تعالَ حتى أريك رجلاً لم تر عيناك مثله، فأراه الإمام الشافعي، وقد أعجب الإمام إسحاق بالإمام الشافعي وناظره، وقال: الشافعي إمام، ما أحد تكلم بالرأي - وذكر الثوري والأوزاعي ومالكاً وأبا حنيفة - إلا أن الشافعي أكثر اتباعاً، وأقل خطأ منهم.

وبعد وفاته انكب على كتبه دراسة، يستوعبها، ويستوحيها وذكر البيهقي: أن الإمام إسحاق تزوج بمرو بامرأة كان عند زوجها كتب الشافعي فتوفي، ولم يتزوج بها إلا من أجل كتب الشافعي، وقال القهستاني: دخلت يوماً على إسحاق فأذن لي، وليس عنده أحد،

فوجدت كتب الشافعي حواليه، فقلت:{مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ} [يوسف: ٧٩]، فقال لي: والله ما كنت أعلم أن " محمد بن إدريس " في هذا المحل الذي هو محله، ولو علمت لم أفارقه.

- يحيى بن يحيى النيسابوري ١٤٢ – ٢٢٦:

هو الإمام الحافظ شيخ خراسان، أبو زكريا بن يحيى بن بكير بن عبد الرحمن التميمي الحنظلي، النيسابوري، كان من سادة أهل زمانه علماً وديناً، ونسكاً وإتقاناً (١).

بعض تلاميذه:

- الإمام البخاري ت ٢٥٦:

تتلمذ على شيخه وأستاذه إسحاق بن راهويه في الفقه والحديث وبمشورته قوي عزمه على جمع الحديث الصحيح، فصنف الجامع الصحيح، قال أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: كنا عند إسحاق بن راهويه فقال: لو جمعتم كتاباً مختصراً لصحيح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فوقع ذلك في قلبي، فأخذت في جمع الجامع الصحيح.

- الإمام مسلم ٢٠٤ – ٢٦١:

أخذا العلم من شيخه الإمام البخاري، وشيخ شيخه الإمام إسحاق ابن راهويه وتقدمت ترجمته.

- أحمد بن سيار المروزي ت ٢٦٨:

هو أحمد بن سيار بن أيوب، أبو الحسن الفقيه، ثقة حافظ، أخذ العلم من الإمام إسحاق بن راهويه، وعفان وطبقتهما، وكان يشبه في

(١) إسحاق بن منصور المروزي، مسائل الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، ص ١٤٠ - ١٤٢.

عصره بابن المبارك علماً وزهداً، وهو أحد من أدخل فقه الإمام الشافعي على خراسان، وكان صاحب وجه في مذهب الإمام الشافعي.

- داود الظاهري ت ٢٧٠:

هو داود بن علي بن خلف الحافظ الفقيه المجتهد أبو سليمان الأصبهاني البغدادي، فقيه أهل الظاهر، أخذ العلم عن إسحاق بن راهويه وأبي ثور، وذكر الذهبي أن داود الظاهري ارتحل إلى إسحاق وسمع منه المسند والتفسير.

وكان داود أكثر الناس تعصباً للإمام الشافعي وصنف في فضائله والثناء عليه كتابين، وكان صاحب مذهب مستقل، وتبعه جمع كثير يعرفون بالظاهرية، وكان ولده محمد بن علي على مذهبه، وانتهت إليه رئاسة العلم ببغداد، فصنف التصانيف، وكان بصيراً بالحديث صحيحه وسقيمة، إماماً ورعاً ناسكاً زاهداً، توفى ببغداد سنة سبعين ومائتين.

- الترمذي ٢٠٩ - ٢٧٩:

هو محمد بن عيسى بن سورة بن الضحاك السلمي، صاحب الجامع والعلل، الحافظ العلامة، طاف البلاد، وسمع خلقاً كثيراً من الخراسانيين والعراقيين. قال أبو سعيد الإدريسي: كان أحد الأئمة الذين يقتدى بهم في علم الحديث وكان يضرب به المثل في الحفظ، وقال الحاكم: سمعت عمر بن علك يقول: مات البخاري فلم يخلف بخراسان مثل أبي عيسى في العلم، والحفظ والورع والزهد، بكى حتى عمي، وبقي ضريراً سنين، توفي في الثالث عشر من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين بترمذ.

عثمان الدارمي ت ٢٨٠ هـ:

هو الحافظ الإمام الحجة أبو سعيد عثمان بن خالد السجستاني، محدث

هراة، وتلك البلاد، أخذ العلم عن ابن المديني، ويحيى، وأحمد وإسحاق وأكثر الترحال، وله تصانيف في الرد على الجهمية، وهو الذي قام على ابن كرام، وطرده من هراة فيما قيل. توفي في ذي الحجة سنة ثمانين ومائتين.

- **عبدوس النيسابوري ت٢٨٢:**

الحافظ الكبير أبو محمد عبد الله بن مالك النيسابوري، نزيل سمرقند أخذ العلم من يحيى بن يحيى، وقتيبة، وابن راهويه.

توفي بسمرقند سنة اثنتين وثمانين ومائتين.

- **محمد السندي ت٢٨٦:**

هو محمد بن محمد بن رجاء بن السندي الحافظ الإمام الكبير أبو بكر الإسفرائيني، مصنف الصحيح، ومخرجه على كتاب مسلم، سمع إسحاق ابن راهويه، وأحمد بن حنبل، وعلي بن المديني، وأكثر الترحال.

قال الحاكم: كان ديناً ثبتاً مقدماً في عصره. توفي سنة ست وثمانين ومائتين، وكان من أبناء الثمانين.

- **محمد بن راهويه:**

هو محمد بن الإمام إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن إبراهيم أبو الحسين المروزي المعروف بابن راهويه، ولد بمرو، ونشأ بنيسابور، سمع أباه، ومحمد بن رافع القشيري، ومحمد بن يحيى الذهلي، والإمام أحمد، وعلي بن المديني، وحدث ببغداد، فروى عنه أهلها، كان عالماً بالفقه جميل الطريقة مستقيم الحديث، قال محمد بن إسحاق: دخلت على أبي عبد الله فقال: أنت ابن أبي يعقوب؟ قلت: بلى، قال: أما أنك لو لزمته كان أكثر لفائدتك، فإنك لم تر مثله، استشهد على يد القرامطة حين كان في طريقه للحج سنة أربع

وتسعين ومائتين.

- **ابن نصر المروزي ٢٠٢ - ٢٩٤هـ:**

هو محمد بن نصر الإمام شيخ الإسلام، أبو عبد الله المروزي الفقيه ولد سنة اثنتين ومائتين، وكان من أعلم الناس باختلاف الصحابة ومن بعدهم في الأحكام، قال الحاكم: إمام أهل الحديث في عصره بلا مدافعة، قال ابن حزم: أعلم الناس من كان أجمعهم للسنن، وأضبطهم لها، وأذكرهم لمعانيها، وأدراهم بصحتها، وبما أجمع عليه الناس مما اختلفوا فيه، إلى أن قال: وما نعلم هذه الصفة بعد الصحابة أتم منها في محمد بن نصر، فلو قال قائل: ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم حديث، ولا للصحابة سنة، إلا وهو عند محمد بن نصر، لما بعد عن الصدق، وقد أخذ العلم من الإمام إسحاق رحمه الله.

- **النسائي ٢١٥ - ٣٠٣:**

هو أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار الخراساني النسائي القاضي الإمام الحافظ، أحد الأئمة المبرزين والحفاظ المتقنين، والأعلام المشهورين، طاف البلاد وسمع من خلائق.

قال الحاكم: كان النسائي أفقه مشايخ مصر في عصره وأعرفهم بالصحيح. وقال الذهبي: هو أحفظ من مسلم بن الحجاج، توفى سنة ثلاث وثلاثمائة.

- **أبو العباس السراج ت٣١٣:**

هو أبو العباس محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن مهران الثقفي مولاهم النيسابوري، أخذ العلم من الإمام إسحاق، وحدث عنه الشيخان وأبو حاتم، وورد بغداد مراراً، وحدث بها شيئاً يسيراً، وأقام بها دهراً طويلاً، ثم رجع إلى نيسابور، واستقر بها إلى حين وفاته سنة ثلاث

عشرة وثلاثمائة [١].

مبلغ علمه وقوة حفظه:

رزق الله سبحانه وتعالى الإمام إسحاق رحمه الله ذاكرة قوية نادرة المثال، فكان آية في سرعة الفهم، وشدة الحفظ، وهداه إلى سلوك الطريق الصحيح، واستعمال هذه الذاكرة في حفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والتفقه في دينه القويم والذب عنه.

فكان من قوة حفظه لا يأخذ بيده كتاباً، قال أحد تلاميذه: ما رأيت بيد إسحاق كتاباً قط، وما كان يحدث إلا حفظاً.

وقال الخفاف: أملا علينا إسحاق بن راهويه أحد عشر ألف حديث من حفظه، ثم قرأها علينا، فما زاد حرفاً، ولا نقص حرفاً، قال أبو زرعة: ما رُئي أحفظ من إسحاق.

قال أبو حاتم: العجب من إتقانه، وسلامته من الغلط مع ما رزق من حفظ.

وقال عبد الله بن طاهر لإسحاق بن راهويه: قيل لي: إنك تحفظ مائة ألف حديث؟ قال: مائة ألف حديث ما أدري ما هو، لكني ما سمعت شيئاً قط إلا حفظته، ولا حفظت شيئاً قط فنسيته.

وقال محمد بن يحيى بن خالد: سمعت إسحاق بن إبراهيم الحنظلي يقول: أعرف مكان مائة ألف حديث كأني أنظر إليها: وأحفظ سبعين ألف حديث عن ظهر قلبي، وأحفظ أربعة آلاف حديث مزورة، فقيل له: ما معنى حفظ المزورة؟ قال: إذا مر بي منها حديث في الأحاديث الصحيحة فليّته منها فليا.

هذا: ومن المشهور أن الإمام إسحاق كان قد أملا مسنده في الحديث

(١) إسحاق بن منصور المروزي، مسائل الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، ص ١٥٠.

على طلابه عن ظهر قلب، كما أملا التفسير عن ظهر قلبه.

قال أبو حاتم: وهذا أعجب، فإن ضبط الأحاديث المسندة أسهل وأهون من ضبط أسانيد التفسير، وألفاظها.

ومن نوادر حفظه وشدة ذكائه أن الإمام إسحاق ضمه مجلس به كثير من العلماء والأدباء، والمحدثين عند أمير خراسان، ومعهم إبراهيم بن أبي صالح، فسأل الأمير إسحاق في مسألة فقال إسحاق: السنة فيها كذا وكذا، وكذلك يقول من سلك طريق السنة، وأما أبو حنيفة، وأصحابه فإنهم قالوا بخلاف هذا، فقال إبراهيم: لم يقل أبو حنيفة بخلاف هذا، فقال إسحاق: حفظته من كتاب جده وأنا وهو في كتاب واحد، فقال إبراهيم: أصلحك الله، كذب إسحاق على جدي، فقال إسحاق: ليبعث الأمير إلى جزء كذا وكذا من جامعه، فأتي بالكتاب، فجعل الأمير يقلب الكتاب، فقال إسحاق: عد من الكتاب إحدى عشرة ورقة، ثم عد تسعة أسطر، ففعل فإذا المسألة على ما قال إسحاق، فقال الأمير عبد الله بن طاهر: قد تحفظ المسائل ولكني أعجب لحفظك هذه المشاهدة. فقال إسحاق: ليوم مثل هذا، لكي يخزي الله على يدي عدواً مثله.

وتعددت جوانب ثقافته فشملت التفسير الذي برع فيه وأملاه على تلاميذه من حفظه وثوقاً بنعمة الله عليه، وشكراً له، ونال أعلى لقب في الحديث، فلقب بأمير المؤمنين، وهذه المنزلة قل أن يصل إليها أحد المحدثين، والذين نالوا هذا اللقب قلة: أمثال البخاري، وشيخه إسحاق.

وقد لقبه بهذا اللقب قرينه، وأدرى الناس بمخبره الإمام أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين.

وقال الحافظ بن حجر عنه بأنه أمير المؤمنين في الحديث، والفقه ومسنده خير شاهد على بروزه في الحديث، وتفوقه على أصحابه في عصره في مجالات شتى حتى سلموا له بذلك، واعترفوا بفضله وعلمه، ونهلوا منه، فقام بنشر السنة في خراسان وحارب الجهمية،

وأهل البدع، وكان له مقامات محمودة عند السلطان يظفره الله تعالى فيها بأعدائه، ويخزيهم على يديه.

فقام تجاه المجتمع خير قيام [١].

فقه الإمام إسحاق:

كان الإمام إسحاق كنزاً من كنوز العلم في خراسان، برع في علوم الشريعة، ومما برع فيه علم الفقه، وبلغ مبلغاً تسامى به على كثير من المتقدمين، فقد قال أحمد بن سعيد الرباطي: والله لو كان الثوري، وابن عيينة، والحمادان في الحياة لاحتاجوا إليه - أي إلى الإمام إسحاق - في أشياء كثيرة.

واهتم ببدء دراسته بالفقه، ودرس فقه الرأي، ولا أدل على ذلك من مناظرته مع إبراهيم بن أبي صالح بمجلس الأمير ابن طاهر وظهوره عليه، وتعيينه الكتاب، والصفحة، والسطر من كتاب من كتب أهل الرأي حتى بهر من شدة حفظه لهذه الكتب الأمير عبد الله بن طاهر، وذكر أنه درس هذه المجاميع في الكتاتيب.

كما ناظر الإمام الشافعي الفقيه المشهور، فقال الشافعي: أنت الذي يزعم أهل خراسان أنك فقيههم؟ قال إسحاق: هكذا يزعمون. وانتهت إليه زعامة الفقه، والفتوى في خراسان.

وقد شهد له كثير من علماء عصره، ومن بعدهم برسوخه في علم الفقه والفتوى مع بقية العلوم.

فقال علي بن حجر المتوفى عام٢٤٤هـ: لم يخلف إسحاق يوم فارق مثله بخراسان علماً وفقهاً.

وقال أبو زرعة: ما أعرف في أصحابنا أسود الرأس أفقه من أحمد

(١) إسحاق بن منصور المروزي، مسائل الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، ص ١٥٤.

ابن حنبل فقيل له: فإسحاق؟ قال: حسبك بأبي يعقوب فقيهاً.

وقال الإمام ابن خزيمة: والله لو كان إسحاق في التابعين لأقروا له بحفظه، وعلمه، وفقهه.

وقال محمد بن عبد الوهاب الفراء: رحم الله إسحاق، ما كان أفقهه وأعلمه. وقال الحاكم: إسحاق بن راهويه إمام في عصره في الحفظ، والفتوى.

وقال ابن حبان: كان إسحاق من سادات زمانه فقهاً، وعلماً وحفظاً ونظراً.

وقال الخطيب البغدادي: كان أحد أئمة المسلمين، وعلماً من أعلام الدين، اجتمع له الحديث والفقه، والحفظ، والصدق، والورع، والزهد.

وكذلك قال المزي، والسبكي.

وقال الحافظ الذهبي: قد كان مع حفظه إماماً في التفسير، رأساً في الفقه، من أئمة الاجتهاد.

وقال أيضاً: كان إسحاق من كبار أئمة الاجتهاد، ومن أعلام الحفاظ.

استطاع الإمام إسحاق - رحمه الله - بتوفيق الله له، وبجده، ثم باجتهاده ومثابرته في طلب العلم أن يكون لنفسه رصيداً هائلاً من العلوم هيأته أن يكون إماماً مجتهداً له مذهب مستقبل يعرف بالراهوية، انتشر في خراسان وصار له أتباع، قال السمعاني: كان إماماً مذكوراً مشهوراً من أهل مرو سكن نيسابور، وكان متبوعاً له أقوال واختيارات وهو من أقران الإمام أحمد.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية:وكان أبو زرعة، وأبو حاتم، وابن قتيبه، وغيرهم من أئمة السلف والسنة. والحديث يتفقهون على مذهب أحمد، وإسحاق، ويقدمون قولهما على أقوال غيرهما.

وأئمة الحديث كالبخاري ومسلم، والترمذي، والنسائي وغيرهم هم

أيضاً من أتباعهما، وممن يؤخذ العلم والفقه عنهما وداود من أصحاب إسحاق.

وقال في موضع آخر: والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق وأبو عبيد وأبو ثور ومحمد بن نصر المروزي، وداود بن علي، هؤلاء كلهم فقهاء الحديث رضي الله عنهم.

وذكره الشيرازي ضمن فقهاء خراسان فقال: ومنهم أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي المروزي المعروف بابن راهويه جمع بين الحديث والفقه والورع.

وقال المقدسي: وأما أهل الحديث فحنبلية والراهويه، والأوزاعية والمنذرية.

وقد اندثر مذهبه مع كثير من المذاهب التي كانت حَيَّةً لمدة من الزمان بسبب عوادي الدهر، وتضييع التلاميذ والمتبعين له، واندثار الكتب المؤلفة فيه وضياعها، ولعدم تبني السلطان مذهبه، والاعتماد عليه في نظام الحكم.

وقد كان الإمام إسحاق رحمه الله من الفقهاء الذين يعتمدون على الكتاب والسنة، والآثار عن الصحابة، والتابعين، ولا يلجؤون إلى القياس إلا عند الضرورة القصوى، وكانت أصول الإمام أحمد وإسحاق والشافعي شبيهة بعضها ببعض.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن موافقة الإمام أحمد للإمام الشافعي وإسحاق أكثر من موافقته لغيرهما، وأن أصوله بأصولهما أشبه منهما بأصول غيرهما، وكان يثني عليهما، ويعظمهما، ويرجح أصول مذهبهما على من ليست أصول مذهبه كأصول مذهبهما.

ويلاحظ المتتبع لأقوال الإمام إسحاق في مسائله برواية الكوسج:

١ - غزارة معلوماته في الفقه، ودقته في الإجابة على السؤال، فقد

سئل في القسم الذي قمت بتحقيقه على ست وخمسمائة مسألة لم يتوقف عن الإجابة إلا عن مسألة واحدة، وهي مسألة تعليق العتق بالملك، على أنه حاول الإجابة عليه حين كرر له المسألة.

٢ - معرفته التامة بما ورد في المسألة من أدلة من كتاب، أو سنة، أو قول صحابي أو تابعي.

٣ - قوة حجته واستدلاله.

٤ - إحاطته بآراء الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم، ونسبة القول إلى قائله بأوجز عبارة، كالإشارة إلى راوي الحديث، أو إلى رجل من رجال الإسناد، أو بعبارة مشهورة لدى المحدثين في الحديث.

٥ - وثوقه من قوله، وعدم تردده، فلذا قل أن يوجد له روايتان في مسألة واحدة.

٦ - تمكنه من المذهب الحنفي، وحفظه لأقوالهم، وآرائهم، وأدلتهم.

٧ - حدته أحياناً على بعض مخالفيه، فقد رد على القائلين إنه يسهم لكل فرس دخل أرض العدو وقاتل عليه أم لم يقاتل، فقال: أخطأ هؤلاء فقالوا: إذا جاوز الدروب فباع فرسه فإن سهم الفرس له، وهو جهل بيّن.

وقد خطأ الإمام أحمد في مسألة واحدة.

٨ - عدم التصريح بمن يخالفهم والاكتفاء بالإشارة إليهم بهؤلاء، ولدى تتبعي ومراجعتي الأقوال المشار إليها وجدتها أقوالاً للأحناف.

٩ - مناقشته لأدلة الخصم، ودحض حجته، واحدة تلو الأخرى[1].

آثار الإمام إسحاق بن راهويه العلمية:

الإمام إسحاق بن راهويه نبغ في علوم كثيرة، وترك ثروة هائلة من

(١) إسحاق بن منصور المروزي، مسائل الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، ص ١٦٢.

الآثار في فنون شتى، وقد نوه المؤرخون والمترجمون بمحصوله العلمي وعدوه من أصحاب التصانيف.

ولكن المؤسف أن هذه الثروة العلمية العظيمة قد عدت عليها عاديات الزمان، وطوتها، فلم تصل إلينا منها إلا النزر اليسير، ونقلت الكتب المعنية بمؤلفات العلماء بعض أسماء كتبه، منها:

- تفسيره المشهور:

فقد ذكرت مصادر ترجمته أنه ألف كتاباً في التفسير نال إعجاب العلماء، وقد أملاه على تلاميذه عن ظهر قلبه، وقد ذكر ابن النديم أن له كتاب التفسير، وكذا الداودي، فقال: إن من جملة تآليفه تفسيره المشهور الذي رواه عنه بعض تلاميذه.

وهذا التفسير من الكنوز المدفونة حتى الآن، ويحتاج إلى مزيد من البحث والتنقيب في فهارس مكتبات العالم، من أشخاص لهم دراية في هذا الشأن.

- في الحديث والفقه:

أجمعت مصادر ترجمته أنه ألف كتاباً في الحديث باسم " المسند " وهو على غرار مسند الإمام أحمد، ويقع في ست مجلدات، ويوجد الجزء الرابع منه في دار الكتب المصرية، قسم فهارس الحديث ١٤٦/١، وفي الظاهرية بدمشق في فهارس الحديث برقم ٩٤٠١، ويقع في ستة وثلاثمائة ورقة، كتبت سنة ثلاثين وستمائة، وقد حقق الدكتور عبد الغفور بن عبد الحق البلوشي جزءاً منه " مسند عائشة رضي الله عنها " نال به درجة الدكتوراه من الجامعة الإسلامية عام ١٤٠٤ - ١٤٠٥هـ.

ويوجد هذا المسند كاملاً في ألمانيا الشرقية، فقد وجدت لدى الشيخ حماد الأنصاري فهرساً ذكر من ضمن ما ضمنته المكتبة كتاب

المسند لابن راهويه، وأنها بخط السيوطي، وعلق عليها الذهبي، وحقق رجاله، ونقل السيوطي هذا التعليق على هامشه.

- كتاب المصنف:

أشار إليه ابن حجر في فتح الباري فقال: وقد أخرج إسحاق بن راهويه في مصنفه، عن عبد الرحمن بن أبي بكر قال: كانت يمين عثمان ابن أبي العاص لعمري.

- كتاب العلم:

ذكره ابن حجر ضمن مسموعاته وساق إسناده إلى المؤلف.

- كتاب الجامع:

قد ذكر ابن حجر في تهذيب التهذيب ما نصه:

قال ابن عدي: بلغني أن أحمد نظر في جامع إسحاق فإذا أول حديث فيه حديث حادثة في استفتاح الصلاة، فقال: منكر جداً.

كتاب المسائل للإمام أحمد وإسحاق بن راهويه برواية تلميذه النجيب إسحاق بن منصور بن بهرام المروزي، والتي هذه الرسالة جزء منها.

- كتاب الجامع الكبير:

الذي وضعه على غرار كتب الإمام الشافعي، انتسخ كتبه، وجمع مصنفاته، وبنى عليها الجامع الكبير لنفسه.

وذكر السخاوي: أن محمد بن إسماعيل بن يوسف السلمي الترمذي هو الذي حمل كتب الشافعي من مصر، فانتسخها إسحاق بن راهويه، وصنف عليها الجامع الكبير لنفسه.

وفي رواية أخرى أنه تزوج بمرو بامرأة رجل كان عنده كتب الشافعي وتوفي، ولم يتزوج بها إلا لحال كتب الشافعي، فوضع جامعه الكبير على كتاب الشافعي، ووضع جامعه الصغير على جامع الثوري الصغير (كتاب الجامع الصغير).

- كتاب السنن:

ذكره ابن النديم، والداودي في طبقات المفسرين والبغدادي في هدية العارفين.

هذا ولم يعثر على كتبه الفقهية سوى المسائل برواية إسحاق بن منصور المروزي، أما بقية كتبه الفقهية التي ذكرتها مصادر ترجمته فلم تنقل فهارس المكتبات منها شيئاً.

ولعل سبب اندثار هذه الكتب الفقهية هو الإمام إسحاق نفسه، فقد قال الحاكم أبو عبد الله: إسحاق بن راهويه وابن المبارك ومحمد بن يحيى هؤلاء دفنوا كتبهم [١].

وفاته:

أكمل الإمام إسحاق رسالته في الحياة فنشر السنة في بلاد خراسان، وحارب أهل البدع والضلال، وفي ليلة باردة من ليالي نصف شعبان، سنة ثمان وثلاثين ومائتين، استجاب الإمام إسحاق نداء ربه، وصعدت روحه إلى بارئها، عن عمر ناهز السبع والسبعين، وصلى عليه تلميذه الوفي إسحاق بن منصور الكوسج، وحزن لفراقه كثير من الناس، وأكثر الشعراء من رثائه فقال أحدهم:

يا هدة ما هددتنا ليلة الأحد ... في نصف شعبان لا تنسى مدى الأبد.

وأنشد آخر على قبره:

وكيف احتمالي للسحاب صنيعه ... بإسقائه قبراً وفي لحده بحر

وقال السبكي: أخبرني علي بن سلمة الكرابيسي - وهو من

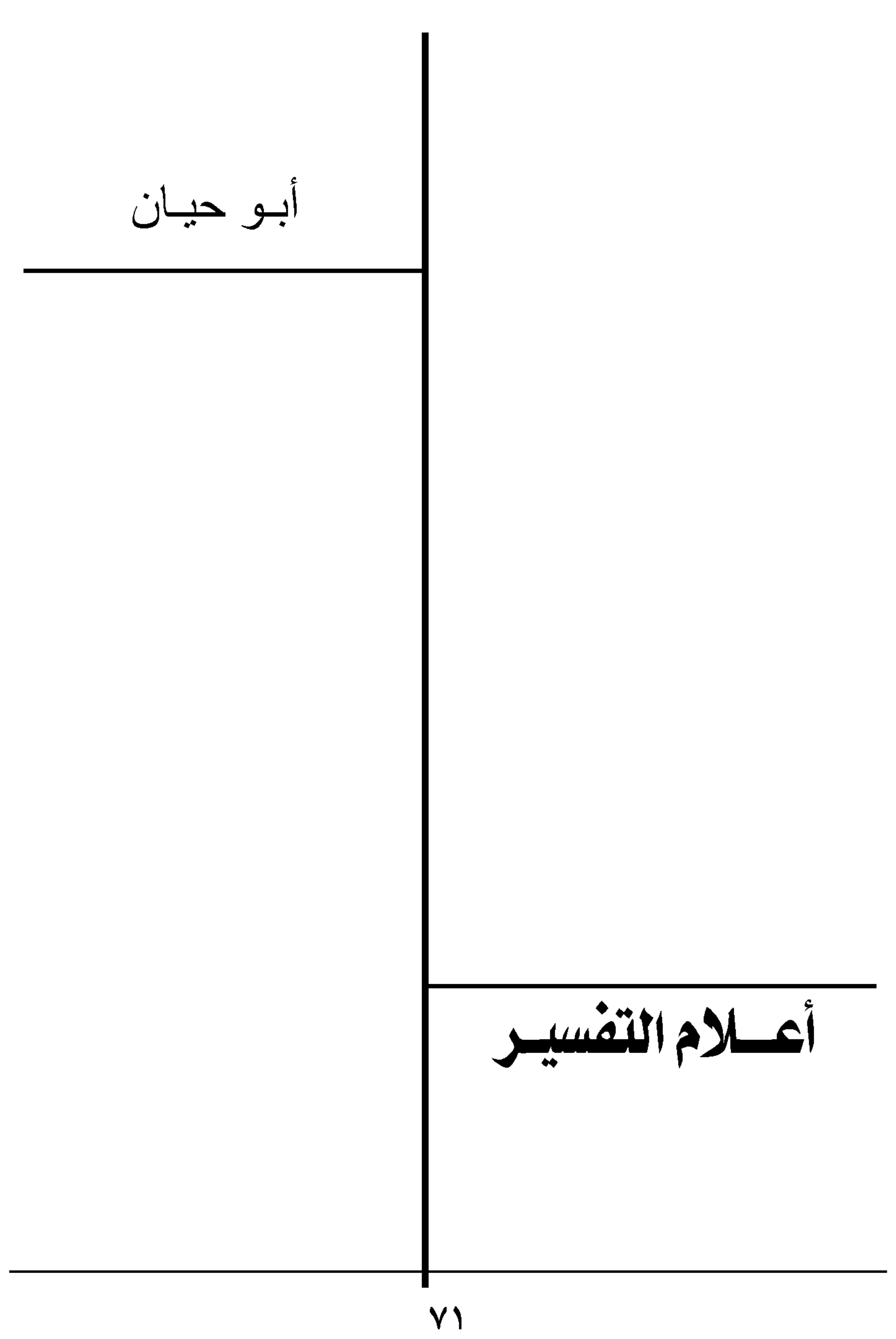
(١) إسحاق بن منصور المروزي، مسائل الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، ص ١٦٤.

الصالحين - قال: رأيت ليلة مات إسحاق الحنظلي كأن قمراً ارتفع من الأرض إلى السماء من سكة إسحاق ثم نزل فسقط في الموضع الذي دفن فيه إسحاق، قال: ولم أشعر بموته، فلما غدوت إذا بحفار يحفر قبر إسحاق في الموضع الذي رأيت القمر وقع فيه.

رحم الله الإمام إسحاق وجزاه خير ما يجزي به عباده الصالحين إنه على كل شيء قدير [١].

* * *

(١) المصدر السابق، ص ١٧٠.


أبـو حيـان
أعــلام التفسيــر

أبو حيان
وتفسيره: " البحر المحيط "

هو أثير الدين، أبو عبد الله، محمد بن يوسف بن عليّ بن يوسف ابن حيان، الأندلسى، الغرناطى، الحيَّانى، الشهير بأبى حيَّان، المولود سنة ٦٥٤ هـ (أربع وخسمين وستمائة من الهجرة). كان - رحمه الله - مُلّماً بالقراءت صحيحها وشاذها، قرأ القرآن على الخطيب عبد الحق ابن علىّ إفرادًا وجمعاً، ثم على الخطيب أبى جعفر ابن الطباع، ثم على الحافظ أبى علىّ بن أبى الأحوص بمالقة، وسمع الكثير من العلماء ببلاد الأندلس وإفريقية، ثم قَدِمَ الإسكندرية فقرأ القراءات على عبد النصير بن علىّ المريوطى، وبمصر على أبي طاهر إسماعيل بن عبد الله المليجى، ولازم بها الشيخ بهاء الدين بن النحاس، فسمع عليه كثيراً من كتب الأدب. قال أبو حيان: " وعدة مَن أخذتُ عنه أربعمائة وخمسون شخصاً، وأما مَنْ أجازنى فكثير جداً، وقال الصفدى: " لم أره قط إلا يسمع، أو يشتغل، أو يكتب، أو ينظر في كتاب، ولم أره على غير ذلك ".

كذلك عُرِف أبو حيان، بكثرة نظمه للأشعار والموشحات، كما كان على جانب كبير من المعرفة باللغة، أما النحو والتصريف فهو الإمام المطلق فيهما، خدم هذا الفن أكثر عمره، حتى صار لا يُذكر أحد في أقطار الأرض فيهما غيره، وبجانب هذا كله كان لأبى حيان اليد الطولى في التفسير، والحديث، وتراجم الرجال، ومعرفة طبقاتهم، خصوصاً المغاربة.

ولقد أخذ كثير عنه العلم حتى صار من تلامذته أئمة وأشياخ في حياته، وهو الذي جَسَّر الناس على كتب ابن مالك ورغَّبتهم فيها وشرح لهم غامضها. وأما مؤلفاته فكثيرة، انتشرت في حياته وبعد وفاته في كثير من أقطار الأرض وتلقاها الناس بالقبول، ومن أهمها:

تفسير البحر المحيط الذي نحن بصدده الآن، وغريب القرآن في مجلد واحد، وشرح التسهيل، ونهاية الإعراب، وخلاصة البيان، وله منظومة على وزن الشاطبية في القراءات بغير رموز، وهي أخصر وأكثر فوائد، ولكنها لم ترزق من القبول حظ الشاطبية، هذا، وقد قيل: إن أبا حيان كان ظاهرى المذهب، ثم رجع عنه وتبع الشافعى على مذهبه، وكان عرياً من الفسلفة، بريئاً من الاعتزال والتجسيم، متمسكاً بطريقة السلف. أما وفاته فكانت بمصر سنة ٧٤٥ هـ (خمس وأربعين وسبعمائة من الهجرة)، فرحمه الله ورضى عنه.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يقع هذا التفسير في ثمان مجلدات كبار، وهو مطبوع ومتداول بين أهل العلم. ومعتبر عندهم المرجع الأول والأهم لمن يريد أن يقف على وجوه الإعراب لألفاظ القرآن الكريم، إذ إن الناحية النحوية هى أبرز ما فيه من البحوث التي تدور حول آيات الكتاب العزيز، والمؤلف إذ يتكلم عن هذه الناحية، فهو ابن بجدتها، وفارس حلبتها، غير أنه - والحق يقال - قد أكثر من مسائل النحو في كتابه، مع توسعه في مسائل الخلاف بين النحويين، حتى أصبح الكتاب أقرب ما يكون إلى كتب النحو منه إلى كتب التفسير.

هذا.. وإن أبا حيان وإن غلبت عليه الصناعة النحوية في تفسيره إلا أنه مع ذلك لم يهمل ما عداها من النواحى التي لها اتصال بالتفسير، فنراه يتكلم على المعاني اللغوية للمفردات، ويذكر أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والقراءات الواردة مع توجيهها، كما أنه لا يغفل الناحية البلاغية في القرآن، ولا يهمل الأحكام الفقهية عندما يمر بآيات الأحكام، مع ذكره لما جاء عن السلف ومن تقدمه من الخلف في ذلك، كل هذا على طريقة وضعها لنفسه، ومشى عليها في كتابه، ونبهنا عليها فلى مقدمته، وذلك حيث يقول: " وترتيبى في هذا

الكتاب، أنى أبتدئ أولاً بالكلام على مفردات الآية التي أفسرها لفظة لفظة، فيما يحتاج إليه من اللغة والأحكام النحوية التي لتلك اللفظة قبل التركيب، وإذا كان للكلمة معنيان أو معان ذكرتُ ذلك في أول موضع فيه تلك الكلمة، ليُنظر ما يناسب لها من تلك المعاني في كل موضع تقع فيه فيحمل عليه، ثم أشرع في تفسير الآية ذاكراً سبب نزولها إذا كان لها سبب، ونسخها، ومناسبتها، وارتباطها بما قبلها، حاشداً فيها القراءات، شاذها ومستعملها. ذاكراً توجيه ذلك في علم العربية، ناقلاً أقاويل السَلَف والخلَف في فهم معانيها، متكلماً على جليها وخفيها، بحيث أنى لا أغادر منها كلمة وإن اشتهرت حتى أتكلم عليها، مبدياً ما فيها من غوامض الإعراب، ودقائق الآداب، من بديع وبيان، مجتهداً أنى لا أكرر الكلام في لفظ سبق، ولا في جملة تقدَّم الكلام عليها، ولا في آية فُسِّرت، بل أذكر في كثير منها الحوالة على الموضع الذي تُكلِّم فيه على تلك اللفظة أو الجملة أو الآية، وإن عرض تكرير فبمزيد فائدة، ناقلاً أقاويل الفقهاء الأربعة وغيرهم في الأحكام الشرعية مما فيه تعلق باللفظ القرآنى، مُحيلاً على الدلائل التي في كتب الفقه، وكذلك ما نذكره من القواعد النحوية أحيل في تقريرها والاستدلال عليها على كتب النحو، وربما أذكر الدليل إذا كان الحكم غريباً أو خلاف مشهور ما قال معظم الناس، بادئاً بمقتضى الدليل وما دَلَّ عليه ظاهر اللفظ مرجِّحاً له لذلك، ما لم يصد عن الظاهر ما يجب إخراجه به عنه متنكباً في الإعراب عن الوجوه التي تنزّه القرآن عنها، مبيِّناً أنها مما يجب أن يُعدل عنه وأنه ينبغى أن يُحمل على أحسن إعراب وأحسن تركيب، إذ كلام الله تعالى أفصح الكلام، فلا يجوز فيه جميع ما يُجوِّزه النحاة في شعر الشماخ والطرماح وغيرهما من سلوك التقادير البعيدة، والتراكيب القلقة، والمجازات المعقَّدة، ثم أختتم في جملة من الآيات التي فسرتُها إفراداً

وتركيباً بما ذكروا فيها من علم البيان والبديع ملخصاً، ثم أتبع آخر الآيات بكلام منثور، أشرح به مضمون تلك الآيات على ما أختاره من تلك المعاني، ملخصاً جملها أحسن تلخيص، وقد ينجر معها ذكر معان لم تتقدم في التفسير، وصار ذلك أنموذجاً لمن يريد أن يسلك ذلك فيما بقى من سائر القرآن، وستقف على هذا المنهج الذي سلكته إن شاء الله تعالى، وربما ألممت بشئ من كلام الصوفية بما فيه بعض مناسبة لمدلول اللفظ، وتجنبت كثيراً من أقاويلهم ومعانيهم التي يُحمِّلون الألفاظ وتركتُ أقوال الملحدين الباطنية، المخرجين الألفاظ العربية عن مدلولاتها في اللغة، إلى هذيان افتروه على الله، وعلى عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه، وعلى ذُرِّيته، ويسمونه علم التأويل.. ".

هذا.. وإن أبا حيان - رحمه الله تعالى - ينقل في تفسيره كثيراً من تفسير الزمخشرى، وتفسير ابن عطية، خصوصاً ما كان من مسائل النحو ووجوه الإعراب، كما أنه يتعقبهما كثيراً بالرد والتفنيد لما قالاه في مسائل النحو على الخصوص، ولكثرة هذا التعقيب منه على كلام الزمخشرى وابن عطية تجد تلميذه تاج الدين أحمد بن عبد القادر (بن أحمد) بن مكتوم المتوفى سنة ٧٤٩ هـ (تسع وأربعين وسبعمائة من الهجرة) يختصر هذا التفسير في كتاب سمَّاه: " الدُّرّ اللقيط من البحر المحيط " يكاد يقتصر فيه على مباحثه مع ابن عطية والزمخشرى ورده عليهما وهذا المختصر تُوجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة الأزهر، كما أنه مطبوع على هامش البحر المحيط.

كذلك نجد الشيخ يحيى الشاوى المغربى يفرد مؤلفاً عنوانه: " بين أبى حيان والزمخشرى " يجمع فيه اعتراضات أبى حيان على الزمخشرى وهو مخطوط في مجلد كبير بالمكتبة الأزهرية.

وكثيراً ما يحمل أبو حيان على الزمخشرى حملات ساخرة قاسية من

أجل آرائه الاعتزالية (جـ ٢ ص ٢٧٦ ص ٨٥)، ومع ذلك نجده يشيد با لزمخشرى من مهارة فائقة في تجلية بلاغة القرآن وقوة بيانه. حيث يصفه بأنه أوتى من علم القرآن أوفر حظ، وجمع بين اختراع المعنى وبراعة اللفظ (جـ ص ٨٥).

هذا.. وإن أبا حيان يعتمد في أكثر نقول كتابه هذا ـ كما يقول ـ : " على كتاب التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير، من جمع شيخه الصالح، القدوة، الأديب، جمال الدين أبى عبد الله، محمد بن سليمان ابن حسن بن حسين المقدسى، المعروف بابن النقيب، رحمه الله. إذ هو أكبر كتاب صُنِّف في علم التفسير، يبلغ في العدد مائة سِفْرٍ أو يكاد ".

ونهاية القول، فإن أبا حيان قد غلبت عليه في تفسيره الناحية التي برز فيها وبرع فيها وهى الناحية النحوية التي طغت على ما عداها من نواحى التفسير [١].

* * *

(١) الدكتور محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، ٤ / ٦٢ - ٦٣.

الإمام الطبري

أعـــلام التفسيـــر

الإمام الفقيه الطبري

في بلاد (طبرستان).. بلاد العلم والأدب والفقه، وفي أجمل مدنها..مدينة (آمُل) العريقة عاصمة طبرستان، والتي تقع الآن في دولة أذربيجان، جنوب بحر قزوين، وُلد حجَّة العلوم، وعالم العلماء في عصره، الإمام (محمد بن جرير الطبري)سنة ٢٢٤هـ، ولُقب بالطبري لأن أهل طبرستان جميعًا يُنْسَبون إليها؛ فيقال لكل واحد منهم طبري، فكان أهل طبرستان كثيري الحروب، فكان كل منهم يحمل سلاحه في يده، وهو نوع من الأشجار يسمى (الطبر).

لم يكد الطبري يبلغ السن التي تؤهله للتعلم حتى عهد به والده إلى علماء (آمُل) وسرعان ما تفتح عقله، وبدت عليه علامات النبوغ، فكان هذا النبوغ المبكر حافزًا لأبيه على إكمال تعليم ابنه، وبخاصة أنه رأى رؤية تفاءل من تأويلها، قال الطبري: (رأى أبي في النوم أنني بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعي مِخلاة مملوءةٌ بالأحجار، وأنا أرمي بين يديه) وقصَّ رؤياه على مفسر للأحلام، فقال له: إن ابنك إن كبر نصح في دينه، ودافع عن شريعته، فحرص أبي على معونتي من أجل طلب العلم وأنا حينئذ صبي صغير.

أخذ ابن جرير الطبري يرحل في طلب العلم، فتعلم الفقه ببغداد، والمغازي والسير في الكوفة، ثم توجه ناحية مصر، وفي طريقه إليها مرَّ ببيروت، وقضى بها عدة أيام حتى قرأ القرآن برواية الشاميين، ثم واصل مسيرته، وفي مصر تلقى الطبري العلم، فأخذ من علمائها قراءة (حمزة) (وَوَرْش) ثم عاد إلى بغداد مرة أخرى، وانقطع للعلم والدراسة والتأليف في كثير من الأوقات، وكان يتاجر بقية الوقت ليأتي برزقه.

وكان الطبري عالي الهمة، عظيم الاجتهاد؛ ومما يحكى عنه: أن رجلاً جاءه يسأله في العَرُوض (وهو علم يعرف به الشعر من النثر)

ولم يكن الطبري له إلمام كبير بهذا العلم فقال له: علي قولٌ ألا أتكلم اليوم في شيء من العروض، فإذا كان في غد فتعالَ إليّ، ثم طلب أبو جعفر كتاب العروض، فتدارسه في ليلته، وقال: أمسيت غير عَرُوضي، وأصبحت عروضيًّا.

وقد تمكن ابن جرير من نواحي العلم، وأدلى بدلوه فيها، حتى أصبح إمام عصره بغير منازع، وقد قيل عنه: كان كالقارئ الذي لا يعرف إلا القرآن، وكالمحدث الذي لا يعرف إلا الحديث، وكالفقيه الذي لا يعرف إلا الفقه، وكالنحوي الذي لا يعرف إلا النحو.. وظل الطبري أربعين عامًا يكتب كل يوم أربعين ورقة، قاصدًا بذلك وجه الله، بما ينفع به الإسلام والمسلمين، وكان رحمه الله من العباد الزهاد، يقوم الليل، نظيفًا في ظاهره وباطنه، ظريفًا، حسن العشرة، مهذبًا في جميع أحواله.

مؤلفات الطبري:

كان الطبري من أكثر علماء عصره نشاطا في التأليف، أشهر مؤلفاته تفسيره المعروف بتفسير الطبري، وكتاب " تاريخ الأمم والملوك " روي عنه أنه قال: استخرت الله وسألته العون على ما نويته من تصنيف التفسير قبل أن أعمله ثلاث سنين فأعانني [(١)].

قال الحاكم سمعت أبا بكر بن بالويه يقول: قال لي أبو بكر بن خزيمة: بلغني أنك كتبت التفسير عن محمد بن جرير: قلت: بلى كتبته عنه إملاء قال: كله؟ قلت: نعم. قال: في أي سنة؟ قلت: من سنة ثلاث وثمانين ومائتين إلى سنة تسعين ومائتين قال: فاستعاره مني أبو بكر ثم رده بعد سنين ثم قال لقد نظرت فيه من أوله إلى آخره

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٩٥/١١.

وما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير [١].

قال أبو محمد الفرغاني تم من كتب محمد بن جرير كتاب التفسير الذي لو ادعى عالم أن يصنف منه عشرة كتب كل كتاب يحتوي على علم مفرد مستقصى لفعل [٢].

وتم من كتبه " كتاب التاريخ " إلى عصره وتم أيضا كتاب " تاريخ الرجال من الصحابة والتابعين وإلى شيوخه الذين لقيهم " وتم له كتاب " لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام " وهو مذهبه الذي اختاره وجوده واحتج له وهو ثلاثة وثمانون كتابا وتم له كتاب " القراءات والتنزيل والعدد " وتم له كتاب " اختلاف علماء الأمصار " وتم له كتاب " الخفيف في أحكام شرائع الإسلام " وهو مختصر لطيف وتم له كتاب " التبصير " وهو رسالة إلى أهل طبرستان يشرح فيها ما تقلده من أصول الدين وابتدأ بتصنيف كتاب " تهذيب الآثار " وهو من عجائب كتبه ابتداء بما أسنده الصديق مما صح عنده سنده وتكلم على كل حديث منه بعلله وطرقه ثم فقهه واختلاف العلماء وحججهم وما فيه من المعاني والغريب والرد على الملحدين فتم منه مسند العشرة وأهل البيت والموالي وبعض مسند ابن عباس فمات قبل تمامه. قلت هذا لو تم لكان يجيء في مائة مجلد، قال وابتدأ بكتابه " البسيط " فخرج منه كتاب الطهارة فجاء في نحو من ألف وخمسمائة ورقة لأنه ذكر في كل باب منه اختلاف الصحابة والتابعين وحجة كل قول وخرج منه أيضا أكثر كتاب الصلاة وخرج منه آداب الحكام وكتاب المحاضر والسجلات و " كتاب ترتيب العلماء " وهو من كتبه النفيسة ابتدأه بآداب النفوس وأقوال الصوفية ولم يتمه وكتاب " المناسك " وكتاب " شرح السنة " وهو لطيف بين

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٩٤/١١.
(٢) المصدر السابق، ٢٩٤/١١.

فيه مذهبه واعتقاده وكتابه " المسند المخرج " يأتي فيه على جميع ما رواه الصحابي من صحيح وسقيم ولم يتمه ولما بلغه أن أبا بكر بن أبي داود تكلم في حديث غدير خم عمل كتاب " الفضائل " فبدأ بفضل أبي بكر ثم عمر وتكلم على تصحيح حديث غدير خم واحتج لتصحيحه ولم يتم الكتاب.

وقال بعض العلماء: لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل تفسير محمد بن جرير لم يكن كثيرا.

أسلوبه في التأليف:

يقول أحمد بن خلكان: " لأبي جعفر في تأليفه عبارة وبلاغة فمما قاله في كتاب الآداب النفيسة والأخلاق الحميدة القول في البيان عن الحال الذي يجب على العبد مراعاة حاله فيما يصدر من عمله لله عن نفسه قال إنه لا حالة من أحوال المؤمن يغفل عدوه الموكل به عن دعائه إلى سبيله والقعود له رصدا بطرق ربه المستقيمة صادا له عنها كما قال لربه عز ذكره إذ جعله من المنظرين{لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ} [الأعراف: ١٦، ١٧]، طمعا منه في تصديق ظنه عليه إذ قال لربه:{لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: ٦٢]، فحق على كل ذي حجى أن يجهد نفسه في تكذيب ظنه وتخييبه منه أمله وسعيه فيما أرغمه ولا شيء من فعل العبد أبلغ في مكروهه من طاعته ربه وعصيانه أمره ولا شيء أسر إليه من عصيانه ربه واتباعه أمره فكلام أبي جعفر من هذا النمط وهو كثير مفيد ".

وروي عن أبي سعيد الدينوري مستملي ابن جرير " أخبرنا أبو جعفر محمد بن جرير الطبري بعقيدته فمن ذلك وحسب امرئ أن يعلم أن ربه هو الذي على العرش استوى فمن تجاوز ذلك فقد خاب وخسر وهذا تفسير هذا الإمام مشحون في آيات الصفات بأقوال السلف على

الإثبات لها لا على النفي والتأويل وأنها لا تشبه صفات المخلوقين أبدا " (١).

ثناء العلماء عليه:

قال أبو سعيد بن يونس: محمد بن جرير من أهل آمل كتب بمصر ورجع إلى بغداد وصنف تصانيف حسنة تدل على سعة علمه.

وقال الخطيب البغدادي: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب كان أحد أئمة العلماء يُحكم بقوله ويُرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره فكان حافظا لكتاب الله عارفا بالقراءات بصيرا بالمعاني فقيها في أحكام القرآن عالما بالسنن وطرقها صحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها عارفا بأقوال الصحابة والتابعين عارفا بأيام الناس وأخبارهم. وكان من أفراد الدهر علما وذكاء وكثرة تصانيف قل أن ترى العيون مثله.

مواقف من حياته:

قيل: إن المكتفي أراد أن يحبس وقفا تجتمع عليه أقاويل العلماء فأحضر له ابن جرير فأملى عليهم كتابا لذلك فأخرجت له جائزة فامتنع من قبولها فقيل له: لا بد من قضاء حاجة قال: اسأل أمير المؤمنين أن يمنع السؤال يوم الجمعة ففعل ذلك وكذا التمس منه الوزير أن يعمل له كتابا في الفقه فألف له كتاب الخفيف فوجه إليه بألف دينار فردها.

وروي عن محمد بن أحمد الصحاف السجستاني سمعت أبا العباس البكري يقول: جمعت الرحلة بين ابن جرير وابن خزيمة ومحمد بن نصر المروزي ومحمد بن هارون الروياني بمصر فأرملوا ولم يبق عندهم ما يقوتهم وأضر بهم الجوع فاجتمعوا ليلة في منزل كانوا

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٩٥/١١.

يـأوون إليـه فـاتفق رأيهـم علـى أن يسـتهموا ويضـربوا القرعـة فمـن خرجت عليه القرعة سأل لأصحابه الطعام فخرجت القرعة على ابن خزيمة فقال لأصحابه أمهلوني حتى أصلي صلاة الخيرة قال: فاندفع في الصلاة فإذا هم بالشموع ورجل من قبل والـي مصـر يـدق البـاب ففتحوا فقال: أيكم محمد بن نصر؟ فقيل: هو ذا فأخرج صرة فيها خمسون دينـارا فدفعها إليـه ثم قـال وأيكم محمد بـن جريـر فأعطـاه خمسين دينارا وكذلك للروياني وابن خزيمة ثم قـال: إن الأمير كـان قائلا بالأمس فرأى في المنام أن المحامد جياع قد طووا كشحهم فأنفذ إليكم هذه الصرر وأقسم عليكم إذا نفذت فابعثوا إليَّ أحدكم.

وقال أبو محمد الفرغاني في ذيل تاريخه على تـاريخ الطبري قـال حدثني أبو علي هارون بن عبد العزيز أن أبـا جعفر لمـا دخـل بغداد وكانت معه بضـاعة يتقوت منهـا فسرقت فأفضـى بـه الحـال إلـى بيع ثيابه وكمي قميصه فقال له بعض أصدقائه تنشط لتأديب بعض ولـد الوزير أبي الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان؟ قـال: نعم فمضـى الرجل فـأحكم لـه أمره وعـاد فأوصله إلـى الـوزير بعد أن أعـاره مـا يلبسه فقربـه الـوزير ورفع مجلسه وأجرى عليـه عشرة دنـانير فـي الشهر فاشترط عليه أوقـات طلبه للعلم والصلوات والراحة وسـأل استلافه رزق شـهر ففعل وأدخـل فـي حجـرة التأديـب وخـرج إليـه الصبي وهو أبو يحيى فلما كتبه أخذ الخادم اللوح ودخلوا مستبشرين فلم تبق جارية إلا أهدت إليه صينية فيها دراهم ودنـانير فـرد الجميع وقال: قد شرطت على شيء فلا آخذ سواه فدرى الوزير ذلك فأدخلـه إليه وسأله فقال هؤلاء عبيد وهم لا يملكون فعظم ذلك في نفسه.

وكان ربما أهدى إليـه بعض أصدقائه الشـيء فيقبلـه ويكافئـه أضـعافا لعظم مروءتـه. وكـان ممن لا تأخذه فـي الله لومـة لائـم مـع عظـيم مـا يلحقه من الأذى والشناعات من جاهل وحاسد وملحد فأما أهل الـدين

والعلم فغير منكرين علمه وزهده في الدنيا ورفضه لها وقناعته رحمه الله بما كان يرد عليه من حصة من ضيعة خلفها له أبوه بطبرستان يسيرة، وكان ينشد لنفسه:

إذا أعسرت لم يعلم رفيقي ::: وأستغني فيستغني صديقي
حيائي حافظ لي ماء وجهي ::: ورفقي في مطالبتي رفيقي
ولو أني سمحت بماء وجهي ::: لكنت إلى العلى سهل الطريق
وله خلقان لا أرضى فعالهما ::: بطر الغنى ومذلة الفقر
فإذا غنيت فلا تكن بطرا ::: وإذا افتقرت فتِهْ على الدهر

قال أبو القاسم بن عقيل الوراق: إن أبا جعفر الطبري قال لأصحابه هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا قالوا كم قدره فذكر نحو ثلاثين ألف ورقة فقالوا هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه فقال إنا لله ماتت الهمم فاختصر ذلك في نحو ثلاثة آلاف ورقة ولما أن أراد أن يملي التفسير قال لهم نحوا من ذلك ثم أملاه على نحو من قدر التاريخ[١].

وكان الطبري لا يقبل المناصب خوفا أن تشغله عن العلم من ناحية ولأن من عادة العلماء البعد عن السلطان من ناحية أخري، فقد روى المراغي قال: لما تقلد الخاقاني الوزارة وجه إلى أبي جعفر الطبري بمال كثير فامتنع من قبوله فعرض عليه القضاء فامتنع فعرض عليه المظالم فأبى فعاتبه أصحابه وقالوا لك في هذا ثواب وتحيي سنة قد درست وطمعوا في قبوله المظالم فذهبوا إليه ليركب معهم لقبول ذلك فانتهرهم وقال: قد كنت أظن أني لو رغبت في ذلك لنهيتموني عنه قال فانصرفنا خجلين.

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٩٤/١١ - ٢٩٧.

وفاتـه:

قال أبو محمد الفرغاني: حدثني أبو بكر الدينوري قال: لما كان وقت صلاة الظهر من يوم الاثنين الذي توفي في آخره ابن جرير طلب ماءً ليجدد وضوءه فقيل له تؤخر الظهر تجمع بينها وبين العصر فأبى وصلى الظهر مفردة والعصر في وقتها أتم صلاة وأحسنها، وحضر وقت موته جماعة منهم أبو بكر بن كامل فقيل له قبل خروج روحه: يا أبا جعفر أنت الحجة فيما بيننا وبين الله فيما ندين به فهل من شيء توصينا به من أمر ديننا وبينة لنا نرجو بها السلامة في معادنا؟ فقال: الذي أدين الله به وأوصيكم هو ما ثبت في كتبي فاعملوا به وعليه وكلاما هذا معناه وأكثر من التشهد وذكر الله عز وجل ومسح يده على وجهه وغمض بصره بيده وبسطها وقد فارقت روحه الدنيا.

قال أحمد بن كامل: توفي ابن جرير عشية الأحد ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاث مئة ودفن في داره برحبة يعقوب يعني ببغداد قال ولم يغير شيبة وكان السواد فيه كثيرا وكان أسمر أقرب إلى الأدمة (السواد) أعين نحيف الجسم طويلا فصيحا وشيعه من لا يحصيهم إلا الله تعالى.

حقيقة تشيع الطبري!! :

نود أن نثبت أن الذي أثار هذه التهمة قديماً هو الحافظ أحمد بن علي السليماني وهو الذي صرح أن الطبري يضع الحديث للروافض وإزاء تلكم المقولة قال الحافظ أبو حيان: إن ابن جرير إمام من أئمة الشيعة الإمامية. وقبل أن نتحدث عن معطيات وأسباب هذا الاتهام أود أن نثبت رأي علماء الجرح والتعديل يدلون بشهادتهم لتستبين حقيقة هذه التهمة:

قال الحافظ أبو الوفاء الحلبي الطرابلسي ت ٨٤١هـ:

" محمد بن جرير الطبري الإمام المفسر أبو جعفر شيخ الإسلام وصاحب التصانيف الباهرة توفي سنة عشر وثلاثمائة ثقة صادق فيه تشيع وموالاة لاتضرأقذع أحمد بن علي السليماني الحافظ فقال كان يضع للروافض " (١).

وقال الحافظ المؤرخ شمس الدين الذهبي ت٧٤٨هـ:

" محمد بن جرير بن يزيد الطبري الإمام الجليل المفسر أبو جعفر صاحب التصانيف الباهرة ثقة صادق فيه تشيع يسير وموالاة لاتضر. أقذع أحمد بن علي السليماني الحافظ فقال: كان يضع للروافض كذا قال السليماني. وهذا رجم بالظن الكاذب بل إن ابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين وما ندعي عصمته من الخطأ ولايحل لنا أن نؤذيه بالباطل والهوى، فإن كلام العلماء بعضهم في بعض ينبغي أن يتأنى فيه ولاسيما في مثل إمام كبير " (٢).

لكن كيف يتهم إمام حافظ مثل السليماني على جلالة قدره لابن جرير الطبري؟! فما أدلته على هذه التهمة؟!

يجيب على هذه الشبهة أيضاً الحافظ شمس الدين الذهبي:

" فلعل السليماني أراد الآتي: محمد بن جرير بن رستم أبو جعفر الطبري رافضي له تواليف منها كتاب الرواة عن أهل البيت رماه بالرفض عبد العزيز الكتاني " (٣).

أما الحافظ ابن حجر العسقلاني ت٨٥٢هـ، فيقول عن الطبري: " محمد بن جرير بن يزيد الطبري الإمام الجليل المفسر صاحب التصانيف الباهرة مات سنة عشر وثلاث مائة، ثقة صادق فيه تشيع يسير وموالاة لاتضر أقذع أحمد بن علي السليماني الحافظ فقال كان

(١) أبوالفواء الحلبي الطرابلسي، الكشف الحثيث، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ٢٢١/١.
(٢) الذهبي، ميزان الإعتدال، دار الكتب العلمية، بيروت، ٩٠/٦.
(٣) الذهبي، ميزان الإعتدال، دار الكتب العلمية، بيروت، ٩٠/٦.

يضع للروافض كذا قال السليماني وهذا رجم بالظن الكاذب بل ابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين وما ندعي عصمته من الخطأ ولا يحل لنا أن نؤذيه بالباطل والهوى فإن كلام العلماء بعضهم في بعض ينبغي أن يتأنى فيه ولاسيما في مثل إمام كبير مثل السليماني فلعل السليماني أراد (محمد بن جرير بن رستم أبو جعفر) ولو حلفت أن السليماني ما أراد إلا (محمد بن جرير بن رستم أبو جعفر) لبررت والسليماني حافظ متقن كان يدري ما يخرج من رأسه فلا أعتقد أنه يطعن في مثل هذا الإمام بهذا الباطل والله أعلم.

وقد اغتر شيخ شيوخنا أبو حيان بكلام السليماني فقال في الكلام على الصراط في أوائل تفسيره وقال أبو جعفر الطبري وهو إمام من أئمة الإمامية. ونبهت عليه لئلا يغتر به فقد ترجمه أئمة النقل في آلاف[(١)] وبعده فلم يصفوه بذلك وإنما ضره الاشتراك في اسمه واسم أبيه ونسبه وكنيته ومعاصرته وكثرة تصانيفه " [(٢)].

وهذه شهادة الحافظ أحمد بن علي أبي بكر الخطيب البغدادي ت٤٦٣هـ يترجم للطبري ترجمة مطولة في تاريخه نختار منها:

قال الشيخ أبو بكر: " استوطن الطبري بغداد وأقام بها إلى حين وفاته وكان أحد أئمة العلماء يحكم بقوله ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل الآلاف وكان حافظا لكتاب الله عارفا بالقراءات بصيراً بالمعاني فقيها في أحكام القرآن عالما بالسنن وطرقها صحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها عارفا بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الخالفين في الأحكام ومسائل الحلال والحرام عارفا بأيام الناس وأخبارهم وله الكتاب المشهور في تارخ الأمم والملوك وكتاب في التفسير لم يصنف أحد

(١) الألاف: بتشديد اللام الذين يؤلفون الكتب.

(٢) ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، مؤسسة الأعلمي لمطبوعات، بيروت، ١٠٠/٥.

مثله وكتاب سماه تهذيب الآثار لم أر سواه في معناه إلا أنه لم يتمه وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة واختيار من أقاويل الفقهاء وتفرد بمسائل حفظت عنه وسمعت على بن عبيد الله بن عبد الغفار اللغوي المعروف بالسمسماني يحكى أن محمد بن جرير مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة وبلغني عن أبي حامد أحمد بن أبي طاهر الفقيه الإسفرائيني أنه قال: لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيرا أو كلاما هذا معناه أخبرنا القاضي أبو عبد الله محمد قال: ثنا علي بن أحمد بن الصناع عبيد الله بن أحمد السمسار وأبي أن أبا جعفر الطبري قال لأصحابه: أتنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟ فقال: ثلاثون ألف ورقة فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة ثم قال: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا؟ قالوا: كم قدره؟ فذكر نحواً مما ذكره في التفسير فأجابوه بمثل ذلك فقال: إنا لله ماتت الهمم " (١).

في ضوء ماسبق نستطيع أن نخلص بالنتائج التالية:

- لا نستطيع أن نجزم اتهام الحافظ العلامة ابن جرير الطبري مما هو منسوب إليه من تهمة الرفض والتشيع ووضع أحاديث لمصلحة أهل البيت.

- قد يكون الحافظ السليماني اختلط عليه الأمر حيث ظن أن الشيعي أباجعفر محمد بن جرير بن رستم هو نفسه أبو جعفر بن جرير الطبري صاحب التاريخ والتفسير.

- أما الرجل الآخر الذي يتفق اسمه وكنيته ولقبه مع ابن جرير السني يقول عنه الحافظ ابن حجر: " محمد بن جرير بن رستم أبو

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٦٢/٢ ومابعدها.

جعفر الطبري رافضي له تواليف منها كتاب الرواة عن أهل البيت رماه بالرفض عبد العزيز الكتاني انتهى وقد ذكره أبو الحسن بن بابويه في تاريخ الري بعد ترجمة محمد بن جرير الإمام فقال: هو الآملي قدم الري وكان من جلة المتكلمين على مذهب المعتزلة وله مصنفات روى عنه الشريف أبو محمد الحسن بن حمزة الرعيني وروى أيضا عن أبي عثمان المازني وجماعة وعنه أبو الفرج الأصبهاني في أول ترجمة ابن الأسود من كتابه وذكر شيخنا في الذيل بما تقدم أولا وكأنه سقط من نسخته أراد الآتي بعد لعل السليماني الى آخره وكأنه لم يعلم بأن في الرافضة من شاركه في اسمه واسم أبيه ونسبه وإنما يفترقان في اسم الجد ولعل ما حكي عن محمد بن جرير الطبري من الاكتفاء في الوضوء بمسح الرجلين إنما هو هذا الرافضي فإنه مذهبهم " [(١)].

(د) الطبري من أئمة علماء أهل السنة بشهادة علماء الجرح والتعديل وصيارفة الإسلام في علم أحوال الرجال كالذهبي وابن حجر والبغدادي والطرابلسي وغيرهم.

(هـ) أما أنه كان فيه تشيع يسير وموالاة لأهل البيت لا تضر.. لايعني ذلك أن الرجل كان يميل إلى عقيدة الشيعة بالمعنى الانحرافي؛ فالطبري شأنه شأن بعض العلماء الذين يوالون علياً رضي الله عنه في خلافه مع معاوية رضي الله عنه فقط. وهذه النعوت كان يستخدمها بعض علماء أهل السنة كابن قتيبة فكان يقول عن الرجل أو الراوي أنه شيعي بمجرد الموالاة لعلي بن أبي طالب وآل بيته دون الحط من منزلة الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ودون أن يستتبع ذلك غلو أو سب في عموم الصحابة فإذا تجاوز هذا الحد إلى درجة الغلو فهنا يتحول المصطلح من شيعي إلى

(١) لسان الميزان، ١٠٣/٥.

رافضي وهم خارجون على منهج أهل السنة والجماعة. هذا هو المقصود من مصطلح شيعي قديماً أما بعد تطور هذا المصطلح عقب العصور المختلفة في تاريخ الإسلام فقد تغير مدلوله الآن وصارمصطلحاً يتناقض ومنهج أهل السنة ومن ثم فلا يتصور أن يستخدم هذا المصطلح في وقتنا الحاضر بغية نعت أحد علماء أهل السنة بحجة أنه يوالي علياً رضي الله عنه وآل البيت لأن كلمة شيعي الآن لها دلالة تختلف عن معناها الاصطلاحي قديماً.

حقيقة اتهام الطبري أنه كان يروي عن بعض الرواة الضعفاء المتهمين لدى علماء الجرح والتعديل كأبي مخنف ومحمد بن السائب الكلبي وابنه هشام وغيرهم.

مما لاشك فيه أن الطبري روى عن أبي مخنف وابن الكلبي؛ ولنا وقفة مع هؤلاء الإخباريين بعد أن نلقي الضوء على أهم المصادر التي استند عليها الطبري في تاريخه:

الأول: تاريخ الطبري يبدأ منذ بدء الخليقة حتى أحداث سنة ٣٠٢هـ.

الثاني: مصادر الطبري في تاريخ الرسل والأنبياء ابن إسحاق وكتب وهب بن منبه.

الثالث: في تاريخ العرب قبل الإسلام على مرويات عبيد بن شرية ومحمد بن كعب القرظي وهشام الكلبي وابن إسحاق أيضاً.

الرابع: وفي السيرة النبوية استند إلى مرويات أبان بن عثمان وعروة ابن الزبير وموسى بن عقبة وعاصم بن عمر والزهري وابن إسحاق وشرحبيل بن سعد.

الخامس: مصادره عن حروب الردة عن مرويات سيف بن عمر والمدائني.

السادس: أما مصادره في معركتي الجمل ٣٦هـ، وصفين ٣٧هـ فعلى

مرويات أبي مخنف ومحمد بن السائب وابنه هشام الكلبي وسيف ابن عمر.

السابع: ومصادره عن الدولة الأموية من مرويات عوانة بن الحكم وأبي مخنف والواقدي وابن الكلبي وعمر بن شبة.

الثامن: مصادره عن العصر العباسي على مرويات أحمد بن أبي خيثمة وابن ززهير والمدائني وعمر بن راشد والهيثم بن عدي والواقدي.

نلاحظ أنه لم يعتمد على مرويات أبي مخنف وابني الكلبي فقط بل إنه قد نوع مصادره كما هو واضح. لكن أخطر مصادره بحق هي مرويات أبي مخنف عن موقعتي الجمل وصفين لأن هناك تزويراً وتلفيقاً وسباً يخلص المرء بعد قراءته لهاتين الموقعتين أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا مجموعة من أصحاب الدنيا الذين يتقاتلون على ملك زائل يشتم بعضهم بعضاً ويسب بعضهم بعضاً وصحابة رسول الله براء من هذه المرويات الكاذبة التي رواها أبو مخنف وابنا الكلبي، ومن ثم لزم علينا أن نلقي الضوء على هؤلاء الإخباريين:

أما أبو مخنف لوط بن يحيى ت١٥٧هـ:

يقول عنه ابن حجر العسقلاني: " إخباري تالف لايوثق به تركه أبو حاتم وغيره، وقال الدارقطني: ضعيف. وقال يحيى بن معين: ليس بثقة، وقال مرة ليس بشيء. وقال ابن عدي: شيعي محترق. وقال أبو عبيد الآجري: سألت أبا حاتم عنه فنفض يده وقال: أحد يسأل عن هذا وذكره في الضعفاء " [١].

وقال فيه الحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي ت٢٧٢هـ: " قرئ

(١) لسان الميزان، ٤/٤٩٣.

على العباس بن محمد الدوري قال: سمعت يحيى بن معين يقول: أبومخنف ليس بثقة نا عبد الرحمن قال: سمعت أبي يقول: متروك " [١].

وقال الحافظ أبو أحممد عبد الله بن عدي ت٢٦٥هـ: " معروف بكنيته واسمه حدث بأخبار من تقدم من السلف الصالحين ولايبعد منه أن يتناولهم وهو شيعي محترق صاحب أخبارهم " [٢].

أما عن محمد بن السائب الكلبي ت١٤٦هـ:

يقول الذهبي: " العلامة الأخباري أبو النضر محمد بن السائب بن المفسر وكان أيضا رأسا في الأنساب إلا أنه شيعي متروك الحديث يروي عنه ولده هشام وطائفة " [٣].

وقال الذهبي أيضاً في ميزان الاعتدال عن محمد بن السائب الكلبي:

" وقال يزيد بن زريع: وكان سبئيا قال أبو معاوية: قال الأعمش: اتق هذه السبئية فإني أدركت الناس وإنما يسمونهم الكذابين. وقال ابن حبان (عن ابن الكلبي): سبئيا من أولئك الذين يقولون إن عليا لم يمت وإنه راجع إلى الدنيا ويملؤها عدلا كما ملئت جوراً وإن رأوا سحابة قالوا أمير المؤمنين فيها. وقال الجوزجاني وغيره: كذاب وقال الدارقطني وجماعة: متروك. وقال ابن حبان: مذهبه في الدين ووضوح الكذب فيه أظهر من أن يحتاج إلى الإغراق في وصفه " [٤].

وقال ابن حجر العسقلاني في تقريب التهذيب: " محمد بن السائب

---

(١) عبد الرحمن بن أبي حاتم، الجرح والتعديل، دار إحياء التراث، بيروت، ١٨٢/٧.
(٢) ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال، دار الفكر، بيروت، ٩٣/٦.
(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٤٨/٦.
(٤) ميزان الإعتدال، ١٦١/٦.

أبو النضر الكوفي النسابة المفسر متهم بالكذب ورمي بالرفض " [١].

أما هشام بن السائب الكلبي ت٢٠٤هـ:

يقول عنه ابن حجر: " هشام بن محمد بن أبو المنذر الأخباري النسابة العلامة روى عن أبيه أبي المفسر وعن مجالد وحدث عنه جماعة قال أحمد ابن حنبل: إنما كان صاحب سمر ونسب ما ظننت أن أحداً يحدث عنه وقال الدارقطني وغيره: متروك وقال ابن عساكر: رافضي ليس بثقة " [٢].

وذكره الخطيب البغدادي بعد أن ساق بسنده قائلاً: " حدثنا عبد الله ابن أحمد قال: سمعت أبى يقول: هشام بن محمد بن من يحدث عنه إنما هو صاحب نسب وسمر وما ظننت أن أحداً يحدث عنه بلغني أن هشام مات في سنة أربع ومائتين وقيل سنة ست ومائتين " [٣].

وقال ابن عدي في كتابه الكامل في ضعفاء الرجال: " هشام بن محمد ابن السائب ومحمد بن السائب والده صاحب التفسير سمعت ابن حماد يقول: حدثني عبد الله سمعت أبى يقول: هشام من يحدث عنه إنما هو صاحب سمر ونسبة وما ظننت أن أحدا يحدث عنه وهذا كما قال أحمد هشام الغالب عليه الأخبار والأسمار والنسبة ولا أعرف له شيئا من المسند " [٤].

صفوة القول: إن أبامخنف إخباري رافضي تالف متهم بالكذب، شيعي محترق. أما محمد بن السائب الكلبي وابنه هشام فهما إخباريان متهمان بالرفض والتشيع وتلفيق المرويات التاريخية.

لكن يبقى السؤال قائماً: لماذا روى الطبري عن هؤلاء الإخباريين

(١) ابن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب، دار الرشيد، سوريا، ٤٧٩/١.
(٢) لسان الميزان، ١٩٦/٦.
(٣) تاريخ بغداد، ٤٥/١٤.
(٤) الكامل في ضعفاء الرجال، ١١٠/٧.

رغم تجريح العلماء لهم؟

نجد الإجابة على هذا التساؤل في مقدمة تاريخ الطبري إذ يوضح لنا منهجه بكل صراحة حين يقول:

" فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ولا معنى في الحقيقة فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا " (١).

هكذا يلقي الطبري تبعة الرواية على عهدة الراوي لأنه يعلم أنه بمجرد ذكراسم الراوي الذي أخذ عنه الخبر أو الحديث فإنه يكون قد أدى الأمانة لأصحابها لأن الناظر علمه بحال الراوي وخاصة في حالة الرواة المجروحين فإنه لن يقبل هذه الرواية الواهية أو المكذوبة. وهذه كانت طريقة كثير من علماء السلف قديما الذين لم يكونوا يشترطون على أنفسهم الصحة في كل المرويات التي يكتبونها. وكنا نود أن يعلق الطبري على الأخبار والخرافات والأساطير والأكاذيب التي قيلت في حق الصحابة رضوان الله عليهم وخاصة في موقعتي الجمل وصفين تلك المرويات التي اعتمد عليها كل من أراد النيل من تاريخ الصحابة الأخيار رضوان الله عليهم حتى صار الأمر ببعض البسطاء باعتقادهم أن ماشجر بين الصحابة مسلم به لأنه مروي عن ابن جرير لأنه المصدر الأساسي لكل هذه الكتب التي تناولت الحقبة التاريخية الأولى التي رواها الإخباري الخبيث أبو مخنف وابنا الكلبي (٢).

ونريد أن نقول: أن اتهام الطبري بالتشيع لم يثبت، وإن كانت كتاباته

---

(١) ابن جريرالطبري، تاريخ الطبري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ٥/١.
(٢) هاني السباعي، مدير مركز المقريزي للدراسات التاريخية بلندن.

كانت نقلا (في أحيان كثيرة) عمن اتهم ليس بالتشيع فقط بل بالرفض والوضع والتشنيع علي الصحابة الأطهار الأخيار وأهل السنة الأبرار، لذا وجب التنويه علي القارىء والباحث في كتابات الطبري توخي الحذر من مروياته لاسيما في الجوانب الخلافية بين الصحابة وأهل السنة والجماعة والشيعة.

حول تفسير الطبرى القرآن " جامع البيان " :

اعتُبِر الطبرى أباً للتفسير. كما اعتُبِر أباً للتاريخ الإسلامى، وذلك بالنظر لما في هذين الكتابين من الناحية العلمية العالية. ويقول ابن خلكان: إنه كان من الأئمة المجتهدين، لم يقلد أحداً، ونُقِل أن الشيخ أبا إسحاق الشيرازى ذكره في طبقات الفقهاء في جملة المجتهدين. قالوا: وله مذهب معروف، وأصحاب ينتحلون مذهبه يقال لهم " الجريرية "، ولكن هذا المذهب الذي أسسه - على ما يظهر - بعد بحث طويل، ووجد له أتباعاً من الناس، لم يستطع البقاء إلى يومنا هذا كغيره من مذاهب المسلمين، ويظهر أن ابن جرير كان قبل أن يبلغ هذه الدرجة من الاجتهاد متُمذهباً بمذهب الشافعى، يدلنا على ذلك ما جاء في الطبقات الكبرى لابن السبكى، من أن ابن جرير قال: أظهرتُ فقه الشافعى، وأفتيتُ به ببغداد عشر سنين، وتلقاه منى ابن بشار الأحول، أستاذ أبى العباس بن سريج. وقال السيوطى في طبقات المفسِّرين: وكان أولاً شافعياً ثم انفرد بمذهب مستقل، وأقاويل واختيارات، وله أتباع مقلّدون، وله في الأصول والفروع كتب كثيرة.

وذكره صاحب لسان الميزان فقال: " ثقة، صادق، فيه تشيع يسير، وموالاة لا تضر... " ثم قال: أقذع أحمد بن على السليمانى الحافظ فقال: كان يضع للروافض، وهذا رجم بالظن الكاذب، بل ابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين، وما ندَّعى عصمته من الخطأ، ولا

يحل لنا أن نؤذيه بالباطل والهوى، فإن كلام العلماء بعضهم في بعض ينبغى أن يُتأنَّى فيه، ولا سيما في مثل إمام كبير، ولعل السليمانى أراد الآتى - يريد محمد بن جرير بن رستم الطبرى الرافضى - قال: ولو حلفتُ أن السليمانى ما أراد إلا الآتى لبررت، والسليمانى حافظ متقن، كان يدرى ما يخرج من رأسه، فلا أعتقد أنه يطعن في مثل هذا الإمام بهذا الباطل ".

هذا هو ابن جرير، وهذه هى نظرات العلماء إليه، وذلك هو حكمهم عليه، ومن كل ذلك تتبين لنا قيمته ومكانته.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلف فيه:

يعتبر تفسير ابن جرير من أقوم التفاسير وأشهرها، كما يعتبر المرجع الأول عند المفسِّرين الذين عنوا بالتفسير النقلى، وإن كان في الوقت نفسه يُعتبر مرجعاً غير قليل الأهمية من مراجع التفسير العقلى، نظراً لما فيه من الاستنباط، وتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، ترجيحاً يعتمد على النظر العقلى، والبحث الحر الدقيق.

ويقع تفسير ابن جرير في ثلاثين جزءاً من الحجم الكبير، وقد كان هذا الكتاب من عهد قريب يكاد يُعتبر مفقوداً لا وجود له، ثم قدَّر الله له الظهور والتداول، فكانت مفاجأة سارة للأوساط العلمية في الشرق والغرب أن وُجِدَت في حيازة أمير " حائل " الأمير حمود ابن الأمير عبد الرشيد من أمراء نجد نسخه مخطوطة كاملة من هذا الكتاب، طُبع عليها الكتاب من زمن قريب، فأصبحت في يدنا دائرة معارف غنية في التفسير المأثور.

ولو أننا تتبعنا ما قاله العلماء في تفسير ابن جرير، لوجدنا أن الباحثين في الشرق والغرب قد أجمعوا الحكم على عظيم قيمته، واتفقوا على أنه مرجع لا غِنَى عنه لطالب التفسير، فقد قال

السيوطى رضى الله عنه: " وكتابه - يعنى تفسير محمد بن جرير - أجلَّ التفاسير وأعظمها، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، والإعراب، والاستنباط، فهو يفوق بذلك على تفاسير الأقدمين ". وقال النووى: " أجمعت الأمة على أنه لم يُصنَّف مثل تفسير الطبرى " وقال أبو حامد الإسفراييني: " لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل على كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيراً "، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: " وأما التفاسير التي في أيدى الناس، فأصحها تفسير ابن جرير الطبرى، فإنه يذكر مقالات السَلَف بالأسانيد الثابتة، وليس فبه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين، كمقاتل بن بكير والكلبى ".

ويذكر صاحب لسان الميزان: أن ابن خزيمة استعار تفسير ابن جرير من ابن خالويه فرده بعد سنين ثم قال: " نظرتُ فيه من أوله إلى آخره فما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير " فابن خزيمة ما شهد هذه الشهادة إلا بعد أن اطلع على ما في هذا التفسير من علم واسع غزير.

وهذا قد كتب " نولدكه " في سنة ١٨٦٠ بعد اطلاعه على بعض فقرات من هذا الكتاب: " لو كان بيدنا هذا الكتاب لاستغنينا به عن كل التفاسير المتأخرة، ومع الأسف فقد كان يظهر أنه مفقود تماماً، وكان مثل تاريخه الكبير مرجعاً لا يغيض معينه أخذ عنه المتأخرون معارفهم ".

ويظهر مما بأيدينا من المراجع، أن هذا التفسير كان أوسع مما هو عليه اليوم، اختصر مؤلفه إلى هذا القدر الذي هو عليه الآن، كما أن كتابه في التاريخ ظفر بمثل هذا البسط والاختصار، فابن السبكى يذكر في طبقاته الكبرى: " أن أبا جعفر قال لأصحابه: أتنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟، فقال: ثلاثون ألف ورقة،

فقالوا: هذا ربما تفنى الأعمار قبل تمامه، فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة، ثم قال: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا؟ قالوا: كم قدره؟، فذكر نحواً مما ذكره في التفسير، فأجابوه بمثل ذلك، فقال: إنَّا لله، ماتت الهمم.. فاختصره في نحو ما اختصر التفسير ".

وهذا ونستطيع أن نقول إن تفسير ابن جرير هو التفسير الذي له الأوَّلية بين كتب التفسير، أوَّلية زمنية، وأوَّلية من ناحية الفن والصناعة.

أما أوَّليته الزمنية، فلأنه أقدم كتاب في التفسير وصل إلينا، وما سبقه من المحاولات التفسيرية ذهبت بمرور الزمن، ولم يصل إلينا شئ منها، اللَّهم إلا ما وصل إلينا منها في ثنايا ذلك الكتاب الخالد الذي نحن بصدده.

وأما أوَّليته من ناحية الفن والصناعة، فذلك أمر يرجع إلى ما يمتاز بهن الكتاب من الطريقة البديعة التي سلكها فيه مؤلفه، حتى أخرجه للناس كتاباً له قيمته ومكانته.

ونريد أن نعطى هنا مثالاً لطريقة ابن جرير في تفسيره، بعد أن أخذنا فكرة عامة عن الكتاب، حتى يتبين للقارئ أن الكتاب واحد في بابه، سبق به مؤلفه غيره من المفسِّرين، فكان عمدة المتأخرين، ومرجعاً مهماً من مراجع المفسِّرين، على اختلاف مذاهبهم، وتعدد طرائقهم، فنقول:

طريقة ابن جرير في تفسيره:

تتجلَّى طريقة ابن جرير في تفسيره بكل وضوح إذا نحن قرأنا فيه وقطعنا في القراءة شوطاً بعيداً، فأول ما نشاهده، أنه إذا أراد أن يفسِّر الآية من القرآن يقول: " القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا " ثم يفسِّر الآية ويستشهد على ما قاله بما يرويه بسنده إلى الصحابة أو

التابعين من التفسير المأثور عنهم في هذه الآية، وإذا كان في الآية قولان أو أكثر، فإنه يعرض لكل ما قيل فيها، ويستشهد على كل قول بما يرويه في ذلك عن الصحابة أو التابعين.

ثم هو لا يقتصر على مجرد الرواية، بل نجده يتعرض لتوجيه الأقوال، ويرجح بعضها على بعض، كما نجده يتعرض لناحية الإعراب إن دعت الحال إلى ذلك، كما أنه يستنبط الأحكام التي يمكن أن تؤخذ من الآية، مع توجيه الأدلة وترجيح ما يختار.

إنكار على مَن يفسِّر بمجرد الرأى:

ثم هو يخاصم بقوة أصحاب الرأى المستقلين في التفكير، ولا يزال يُشدِّد في ضرورة الرجوع إلى العلم الراجع إلى الصحابة أو التابعين، والمنقول عنهم نقلاً صحيحاً مستفيضاً، ويرى أن ذلك وحده هو علامة التفسير الصحيح، فمثلاً عندما تكلَّم عن قوله تعالى:{ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾} [يوسف: ٤٩]. نجده يذكر ما ورد في تفسيرها عن السلَف مع توجيهه للأقوال وتعرّضه للقراءات بقدر ما يحتاج إليه تفسير الآية، ثم يعرج بعد ذلك على مَنْ يفسِّر القرآن برأيه، وبدون اعتماد منه على شئ إلا على مجرد اللغة، فيفند قوله، ويبطل رأيه، فيقل ما نصه: "... وكان بعض مَن لا علم له بأقوال السلَف من أهل التأويل، ممن يُفسِّر القرآن برأيه على مذهب كلام العرب، يوجه معنى قوله:{وَفِيهِ يَعْصِرُونَ} [يوسف: ٤٩]. إلى: وفيه ينجون من الجدب والقحط بالغيث، ويزعم أنه مِنَ العصر، والعصر التي بمعنى المنجاة، من قول أبى زبيد الطائى:

صادياً يستغيث غير مغاث ::: ولقد كان عصرة المنجود

أى المقهور - ومِنْ قول لبيد:

فبات وأسرى القوم آخر ليلهم ::: وما كان وقافاً بغير معصر

وذلك تأويل يكفى من الشهادة على خطئه خلافه قول جميع أهل العلم

من الصحابة والتابعين ".

وكثيراً ما يقف ابن جرير مثل هذا الموقف حيال ما يروى عن مجاهد أو الضحاك أو غيرهما ممن يروون عن ابن عباس.

فمثلاً عند قوله تعالى:{ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾} [البقرة: ٦٥]. يقول ما نصه: " حدَّثني المثنى، قال. حدَّثنا أبو حذيفة، قال: حدَّثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد:{ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾} [البقرة: ٦٥]، قال: " مُسِخَتَ قلوبهم ولم يَمُسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله لهم، كمثل الحمار يحمل أسفاراً ".

ثم يعقب ابن جرير بعد ذلك على قول مجاهد فيقول ما نصه: " وهذا القول الذي قاله مجاهد، قول لظاهر ما دلَّ عليه كتاب الله مخالف "... إلخ.

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى:{تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ} [البقرة: ٢٢٩]. نجده يروى عن الضحاك في معنى هذه الآية: أنَ مَنْ طلَّق لغير العِدَّة فقد اعتدى وظلم نفسه، ومَنْ يتعدَّ حدود الله فأولئك هم الظالمون. ثم يقول: " وهذا الذي ذُكر عن الضحاك لا معنى له في هذا الموضع، لأنه لم يجر للطلاق في العِدَّة ذكر فيقال:{تِلْكَ حُدُودُ}، وإنما جرى ذكر العدد الذي يكون للمطلّق فيه الرجعة والذي لا يكون له فيه الرجعة، دون ذكر البيان عن الطلاق للعِدَّة ".

... وهكذا نجد ابن جرير في غير موضع من تفسيره، ينبرى للرد على مثل هذه الآراء التي لا تستند على شيء إلا على مجرد الرأى أو محض اللغة.

موقفه من الأسانيد:

ثم إن ابن جرير وإن التزم في تفسيره ذكر الروايات بأسانيدها، إلا أنه في الأعم الأغلب لا يتعقب الأسانيد بتصحيح ولا تضعيف، لأنه كان يرى - كما هو مقرر في أصول الحديث - أنَّ مَن أسند لك فقد حملك البحث عن رجال السند ومعرفة مبلغهم من العدالة أو الجرح، فهو بعمله هذا قد خرج من العهدة، ومع ذلك فابن جرير يقف من السند أحياناً موقف الناقد البصير، فيُعَدِّل مَنْ يُعَدِّل من رجال الإسناد، ويُجرِّح مَنْ يُجَرِّح منهم، ويرد الرواية التي لا يثق بصحتها، ويُصرِّح برأيه فيها بما يناسبها، فمثلاً نجده عنده تفسيره لقوله تعالى:{فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا} [الكهف: ٩٤]. يقول ما نصه: " رُوى عن عكرمة في ذلك - يعنى في ضم سين " سداً " وفتحها - ما حدَّثنا به أحمد ابن يوسف.

قال: حدَّثنا القاسم، قال: حدَّثنا حجاج، عن هارون، عن أيوب، عن عكرمة قال: ما كان من صنعة بنى آدم فهو السَّد - يعنى بفتح السين، وما كان من صنع الله فهو السُّد، ثم يعقب على هذا السند فيقول: وأما ما ذكره عن عكرمة في ذلك، فإنَّ الذي نقلَ عن أيوب: " هارون "، و في نقله نظر، ولا نعرف ذلك عن أيوب من رواية ثقاة أصحابه ".

تقديره للإجماع:

كذلك نجد ابن جرير في تفسيره يُقدِّر إجماع الأمَّة، ويعطيه سلطاناً كبيراً في اختيار ما يذهب إليه من التفسير، فمثلاً عند قوله تعالى:{ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ} [البقرة: ٢٣٠]. يقول ما نصه: " فإن قال قائل: فأى النكاحين عَنِىَ الله بقوله:{فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ} [البقرة: ٢٣٠]؟ النكاح الذي هو جماع؟ أم النكاح الذي هو عقد تزويج؟ قيل: كلاهما، وذلك أن المرأة إذا نكحت زوجاً نكاح تزويج ثم لم يطأها في ذلك النكاح ناكحها ولم يجامعها حتى

يُطلّقها لم تحل للأول، وكذلك إن وطئها واطئ بغير نكاح لم تحل للأول، لإجماع الأمَّة جميعاً، فإذا كان ذلك كذلك، فمعلوم أن تأويل قوله:{فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ} [البقرة: ٢٣٠]، نكاحاً صحيحاً، ثم يجامعها فيه، ثم يُطلّقها، فإن قال: فإن ذكر الجِماع غير موجود في كتاب الله تعالى ذكره، فما الدلالة على أن معناه ما قلت؟ قيل: الدلالة على ذلك إجماع الأمَّة جميعاً على أن ذلك معناه ".

موقفه من القراءات:

كذلك نجد ابن جرير يعنى بذكر القراءات وينزلها على المعاني المختلفة، وكثيراً ما يرد القراءات التي لا تعتمد على الأئمة الذين يعتُبرون عنده وعند علماء القراءات حُجَّة، والتي تقوم على أُصول مضطربة مما يكون فيه تغيير وتبديل لكتاب الله، ثم يتبع ذلك برأيه في آخر الأمر مع توجيه رأيه بالأسباب، فمثلاً عند قوله تعالى:{وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً} [الأنبياء: ٨١]. يذكر أن عامة قُرَّاء الأمصار قرؤوا " الريحَ " بالنصب على أنها مفعول لـ " سخَّرنا " المحذوف، وأن عبد الرحمن الأعرج قرأ " الريحُ " بالرفع على أنها مبتدأ ثم يقول: والقراءة التي لا أستجيز القراءة بغيرها في ذلك ما عليه قُرَّاء الأمصار لإجماع الحُجَّة من القُرّاء عليه.

ولقد يرجع السبب في عناية ابن جرير بالقراءات وتوجيهها إلى أنه كان من علماء القراءات المشهورين، حتى إنهم ليقولون عنه: إنه ألّف فيها مؤلّفاً خاصاً في ثمانية عشر مجلداً، ذكر فيه جميع القراءات من المشهور والشواذ وعلّل ذلك وشرحه، واختار منها قراءة لم يخرج بها عن المشهور، وإن كان هذا الكتاب قد ضاع بمرورالزمن ولم يصل إلى أيدينا، شأن الكثير من مؤلفاته.

موقفه من الإسرائيليات:

ثم إننا نجد ابن جرير يأتي في تفسيره بأخبار مأخوذة من القصص

الإسرائيلى، يرويها بإسناده إلى كعب الأحبار، ووهب بن منبِّه، وابن جريج، والسدى، وغيرهم، ونراه ينقل عن محمد بن إسحاق كثيراً مما رواه عن مسلمة النصارى. ومن الأسانيد التي تسترعى النظر، هذا الإسناد: حدَّثنى ابن حميد، قال: حدَّثنا سلمة عن ابن إسحاق عن أبى عتاب - رجل من تغلب - كان نصرانياً عمراً من دهره ثم أسلم بعد فقرأ القرآن وفقه في الدين، وكان فيما ذكر، أنه كان نصرانياً أربعين سنة ثم عمر في الإسلام أربعين سنة.

يذكر ابن جرير هذا الإسناد، ويروى لهذا الرجل النصرانى الأصل خبراً عن آخر أنبياء بنى إسرائيل، عند تفسيره لقوله تعالى: {إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾} [الإسراء: ٧].

كما نراه عند تفسيره لقوله تعالى:{قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا} [الكهف: ٩٤]. يسوق هذا الإسناد: حدَّثنا ابن حميد قال: حدَّثنا سلمة قال: حدَّثنا محمد ابن إسحاق قال: حدَّثنى بعض مَن يسوق أحاديث الأعاجم من أهل الكتاب ممن قد أسلم، مما توارثوا من علم ذى القرنين أنَّ ذا القرنين كان رجلاً من أهل مصر، اسمه مرزبا بن مردبة اليونانى من ولد يونن ابن يافث بن نوح.. إلخ ".

... وهكذا يُكثر ابن جرير من رواية الإسرائيليات، ولعل هذا راجع إلى ما تأثَّر به من الروايات التاريخية التي عالجها في بحوثه التاريخية الواسعة.

وإذا كان ابن جرير يتعقب كثيراً من هذه الروايات بالنقد، فتفسيره لا يزال يحتاج إلى النقد الفاحص الشامل، احتياج كثير من كتب التفسير التي اشتملت على الموضوع والقصص الإسرائيلى، على أن ابن

جرير - كما قدَّمنا - قد ذكر لنا السند بتمامه في كل رواية يرويها، وبذلك يكون قد خرج من العهدة، وعلينا نحن أن ننظر في السند ونتفقد الروايات.

انصرافه عما لا فائدة فيه:

ومما يلفت النظر في تفسير ابن جرير أن مؤلّفه لا يهتم فيه - كما يهتم غيره من المفسِّرين - بالأمور التي لا تغنى ولا تفيد، فنراه مثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في سورة المائدة:{ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾} [المائدة: ١١٢ - ١١٤]. يعرض لذكر ما ورد من الروايات في نوع الطعام الذي نزلت به مائدة السماء.. ثم يُعقّب على هذا بقوله: " وأما الصواب من القول فيما كان على المائدة فأن يقال: كان عليها مأكول، وجائز أن يكون سمكاً وخبزاً، وجائز أن يكون ثمراً من الجنة، وغير نافع العلم به، ولا ضار الجهل به، إذا أقرَّ تالى الآية بظاهر ما احتمله التنزيل ".

كما نراه عند تفسير قوله تعالى:{ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾} [يوسف: ٢٠]. يعرض لمحاولات قدماء المفسِّرين في تحديد عدد الدراهم، هل هى عشرون؟ أو اثنان وعشرون؟ أو أربعون؟.. إلى آخر ما ذكره من الروايات.. ثم يُعقَّب على ذلك كله بقوله: " والصواب من القول أن يقال: إنَّ الله - تعالى ذكره - أخبر أنهم باعوه بدراهم معدودة غير موزونة، ولم يحد مبلغ ذلك بوزن ولا عدد، ولا وضع عليه دلالة في كتاب ولا خبر من الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد يحتمل أن يكون كان اثنين

وعشرين، وأن يكون كان أربعون، وأقل من ذلك وأكثر، وأي ذلك فإنها كانت معدودة غير موزونة، وليس في العلم بملغ وزن ذلك فائدة تقع في دين، ولا في الجهل به دخول ضُرٍّ فيه، والإيمان بظاهر التنزيل فرض، وما عداه فموضوع عنا تكلف علمه ".

احتكامه إلى المعروف من كلام العرب:

وثمة أمر آخر سلكه ابن جرير في كتابه، ذلك أنه اعتبر الاستعمالات اللغوية بجانب النقول المأثورة وجعلها مرجعاً موثوقاً به عند تفسيره للعبارات المشكوك فيها، وترجيح بعض الأقوال على بعض.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى:{ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾} [هود: ٤٠] - نراه يعرض لذكر الروايات عن السَلَف في معنى لفظ " التنور "، فيروى لنا قول مَنْ قال: إن التنور عبارة عن وجه الأرض، وقول مَنْ قال: إنه عبارة عن تنوير الصبح، وقول مَنْ قال: إنه عبارة عن أعلى الأرض وأشرفها، وقول مَنْ قال: إنه عبارة عما يُختبز فيه.. ثم يقول بعد أن يفرغ من هذا كله: " وأوْلى هذه الأقوال عندنا بتأويل قوله " التنور " قول من قال: التنور: الذي يُختبز فيه، لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب، وكلام الله لا يُوَّجه إلا إلى الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب، إلا أن تقوم حُجَّة على شيء منه بخلاف ذلك فيُسلَّم لها، وذلك أنه جَلَّ ثناؤه إنما خاطبهم بما خاطبهم به لإفهامهم معنى ما خاطبهم به... "

رجوعه إلى الشعر القديم:

كذلك نجد ابن جرير يرجع إلى شواهد من الشعر القديم بشكل واسع، متبعاً في هذا ما أثاره ابن عباس في ذلك، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى:{فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ} [البقرة: ٢٢]. يقول ما نصه: قال أبو جعفر: والأنداد: جمع ند، والند: العدل والمثل، كما قال حسان

بن ثابت:

أتهجوهُ وليستَ له بندٍ ::: فشرُّكما لِخَيرِكُما الفِداءُ

يعنى بقوله: " وليستَ له بند " : " ليست له بمثل ولا عدل، وكل شيء كان نظيراً لشئ وشبيهاً فهو له ند " ثم يسوق الروايات عمن قال ذلك من السلَف.

اهتمامه بالمذاهب النحوية:

كذلك نجد ابن جرير يتعرَّض كثيراً لمذاهب النحويين من البصريين والكوفيين في النحو والصرف، ويوجه الأقوال، تارة على المذهب البصرى، وأخرى على المذهب الكوفى، فمثلاً عند قوله تعالى:{ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٍۖ} [إبراهيم: ١٨]. يقول ما نصه: " اختلف أهل العربية في رافع " مثل " فقال بعض نحويى البصرة: إنما هو كأنه قال: ومما نَقُصُّ عليكم مَثَل الذين كفروا، ثم أقبل يُفسِّره كما قال: مثل الجنة.. وهذا كثير. وقال بعض نحويى الكوفيين: إنما المَثَل للأعمال، ولكن العرب تُقدِّم الأسماء لأنها أعرف، ثم تأتى بالخبر الذي تُخْبر عنه مع صاحبه، ومعنى الكلام: مَثَلُ أعمال الذين كفروا بربهم كرماد.. إلخ ".

وهكذا يُكثر ابن جرير في مناسبات متعددة من الاحتكام إلى ما هو معروف من لغة العرب، ومن الرجوع إلى الشِعر القديم يستشهد به على ما يقول، ومن التعرض للمذاهب النحوية عند ما تمس الحاجة، مما جعل الكتاب يحتوى على جملة كبيرة من المعالجات اللغوية والنحوية التي أكسبت الكتاب شهرة عظيمة.

والحق أنَّ ما قدَّمه لنا ابن جرير في تفسيره من البحوث اللغوية المتعددة والتي تعتبر كنزاً ثميناً ومرجعاً مهماً في بابها، أمر يرجع إلى ما كان عليه صاحبنا من المعرفة الواسعة بعلوم اللغة وأشعار العرب، معرفة لا تقل عن معرفته بالدين والتاريخ. ونرى أن ننبه

هنا إلى أن هذه البحوث اللغوية التي عالجها ابن جرير في تفسيره لم تكن أمراً مقصوداً لذاته، وإنما كانت وسيلة للتفسير، على معنى أنه يتوصل بذلك إلى ترجيح بعض الأقوال على بعض، كما يحاول بذلك - أحياناً - أن يوفق بين ما صح عن السَلَف وبين المعارف اللغوية بحيث يزيل ما يُتوهم من التناقض بينهما.

معالجته للأحكام الفقهية:

كذلك نجد في هذا التفسير آثاراً للأحكام الفقهية، يعالج فيها ابن جرير أقوال العلماء ومذاهبهم، ويخلص من ذلك كله برأى يختاره لنفسه، ويرجحه بالأدلة العلمية القيمة، فمثلاً نجده عند تفسيره لقوله تعالى:{ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾} [النحل: ٨]. نجده يعرض لأقوال العلماء في حكم أكل لحوم الخيل والبغال والحمير، ويذكر قول كل قائل بسنده... وأخيراً يختار قول مَنْ قال: إن الآية لا تدل على حُرْمة شئ من ذلك، ووجَّه اختياره هذا فقال ما نصه: " والصواب مِنَ القول في ذلك عندنا ما قاله أهل القول الثاني - وهو أن الآية لا تدل على الحُرْمة - وذلك أنه لو كان في قوله - تعالى ذكره -{لِتَرْكَبُوهَا} دلالة على أنها لا تصلح إذا كانت للركوب للأكل، لكان في قوله:{فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} [النحل: ٥]، دلالة على أنها لا تصلح إذ كانت للأكل والدفء للركوب. وفي إجماع الجميع على أنَّ ركوب ما قال تعالى ذكره:{وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} [النحل: ٥]، جائز حلال غير حرام، دليل واضح على أن أكل ما قال:{لِتَرْكَبُوهَا} جائز حلال غير حرام، إلا بما نص على تحريمه، أو وضع على تحريمه دلالة من كتاب أو وحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأما بهذه الآية فلا يحرم أكل شئ. وقد وضع الدلالة على تحريم لحوم الحُمُر الأهلية بوحيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى البغال بما قد بيَّنا في

كتابنا " كتاب الأطعمة " بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع، إذ لم يكن هذا الموضع من مواضع البيان عن تحريم ذلك، وإنما ذكرنا ما ذكرنا ليدل على أن لا وجه لقول من استدَّل بهذه الآية على تحريم لحم الفرس ".

خوضه في مسائل الكلام:

ولا يفوتنا أن ننبه على ما نلحظه في هذا التفسير الكبير، من تعرض صاحبه لبعض النواحى الكلامية عند كثير من آيات القرآن، مما يشهد له بأنه كان عالماً ممتازاً في أمور العقيدة، فهو إذا ما طبُّق أصول العقائد على ما يتفق مع الآية أفاد في تطبيقه، وإذا ناقش بعض الآراء الكلامية أجاد في مناقشته، وهو في جدله الكلامى وتطبيقه ومناقشته، موافق لأهل السُّنَّة في آرائهم، ويظهر ذلك جلياً في رده على القدرية في مسألة الاختيار.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى:{غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ} [الفاتحة: ٧]. نراه يقول ما نصه: " وقد ظن بعض أهل الغباء من القدَرية أن في وصف الله جَلَّ ثناؤه النصارى بالضلال بقوله:{وَلَا ٱلضَّآلِّينَ} [الفاتحة: ٧]، وإضافة الضلال إليهم دون إضافة إضلالهم إلى نفسه، وتركه وصفهم بأنهم المضللون كالذى وصف به اليهود أنه مغضوب عليهم، دلالة على صحة ما قاله إخوانه من جهلة القدَرية، جهلاً منه بسعة كلام العرب وتصاريف وجوهه. ولو كان الأمر على ما ظنه الغبى الذي وصفنا شأنه، لوجب أن يكون كل موصوف بصفة أو مضاف إليه فعل لا يجوز أن يكون فيه سبب لغيره، وأن يكون كل ما كان فيه من ذلك من فعله، ولوجب أن يكون خطأ قول القائل: تحركت الشجرة إذا حرَّكتها الرياح، واضطربت الأرض إلى حرَّكتها الرياح، واضطربت الأرض إذا حرَّكتها الزلزلة، وما أشبه ذلك من الكلام الذي يطول بإحصائه الكتاب، وفي قوله جَلَّ

ثناؤه:{حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم} [يونس: ٢٢]، وإن كان جريها بإجراء غيرها إياها، ما يدل على خطأ التأويل الذي تأوَّله مَن وصفنا قوله في قوله:{وَلَا ٱلضَّآلِّينَ} [الفاتحة: ٧]. وادعائه أن في نسبة الله جَلَّ ثناؤه الضلالة إلى مَن نسبها إليه من النصارى تصحيحاً لما ادَّعى المنكرون أن يكوِّن الله عَزَّ ذكره نصاً في آى كثيرة من تنزيله: أنه المضل الهادى، فمن ذلك قوله جَلَّ ثناؤه: {أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾} [الجاثية: ٢٣]. فأنبأ جَلَّ ذكره أنه المِضِّلُ الهادى دونَ غيره، ولكن القرآن نزل بلسان العرب على ما قدَّمنا البيان عنه في أول الكتاب، ومن شأن العرب إضافة الفعل إلى مَنْ وُجِدَ منه وإن كان مشيئة غير الذي وُجِدَ منه الفعل غيره، فكيف بالفعل الذي يكتسبه العبد كسباً، ويُوجِدِه الله جَلَّ ثناؤه عَيْناً منشأة، بل ذلك أحرى أن يُضاف إلى مكتسبه كسباً له بالقوة منه عليه، والاختيار منه له، وإلى الله جلَّ ثناؤه بإيجاد عَيْنه وإنشائها تدبيراً ".

وكثيراً ما نجد ابن جرير يتصدى للرد على المعتزلة في كثير من آرائهم الاعتقادية، فنراه مثلاً يجادلهم مجادلة حادة في تفسيرهم العقلى التنزيهى للآيات التي تثبت رؤية الله عند أهل السُّنَّة، كما نراه يذهب إلى ما ذهب إليه السلف من عدم صرف آيات الصفات عن ظاهرها، مع المعارضة لفكرة التجسيم والتشبيه، والرد على أولئك الذين يَشَبِّهون الله بالإنسان.

... وهكذا نجد ابن جرير لم يقف كمفسِّر موقفاً بعيداً عن مسائل النزاع التي تدور حول العقيدة في عصره، بل نراه يشارك في هذا المجال من الجدل الكلامى بنصيب لا يُستهان به، مع حرصه كل الحرص على أن يحتفظ بسُنِّيته ضد وجوه النظر التي لا تتفق وتعاليم أهل السُّنَّة.

وبعد.. فإن ما جمعه ابن جرير في كتابه من أقوال المفسِّرين الذين تقدَّموا عليه، وما نقله لنا من مدرسة ابن عباس، ومدرسة ابن مسعود، ومدرسة على بن أبى طالب، ومدرسة أُبَىّ بن كعب، وما استفاده مما جمعه ابن جريج والسدى وابن إسحاق وغيرهم من التفاسير جعلت هذا الكتاب أعظم الكتب المؤلَّفة في التفسير بالمأثور، كما أن ما جاء في كتاب من إعراب، وتوجيهات لُغوية، واستنباطات في نواح متعددة، وترجيح لبعض الأقوال على بعض، كان نقطة التحول في التفسير، ونواة لما وُجِد بعد من التفسير بالرأى، كما كان مظهراً من مظاهر الروح العلمية السائدة في هذا العصر الذي يعيش فيه ابن جرير.

وفي الحق إن شخصية ابن جرير الأدبية والعلمية، جعلت تفسيره مرجعاً مهماً من مراجع التفسير بالرواية، فترجيحاته المختلفة تقوم على نظرات أدبية ولُغوية وعلمية قيِّمة، فوق ما جمع فيه من الروايات الأثرية المتكاثرة.

وعلى الإجمال، فخير ما وُصِف به هذا الكتاب ما نقله الداودى عن أبى محمد عبد الله بن أحمد الفرغانى في تاريخه حيث قال: " فتم من كتبه - يعنى محمد بن جرير - كتاب تفسير القرآن، وجوَّده، وبيَّن فيه أحكامه، وناسخه ومنسوخه، ومشكله غريبه، ومعانيه، واختلاف أهل التأويل والعلماء في أحكامه وتأويله، والصحيح لديه من ذلك، وإعراب حروفه، والكلام على الملحدين فيه، والقصص، وأخبار الأمَّة والقيامة، وغير ذلك مما حواه من الحكم والعجائب كلمة كلمة، وآية آية، من الاستعاذة، وإلى أبى جاد، فلو ادَّعى عالم أن يصنف منه عشرة كتب كل كتاب منها يحتوى على علم مفرد وعجيب مستفيض لفعل ".

هذا وقد جاء في معجم الأدباء (الجزء ١٨ ص ٦٤ - ٦٥) وصف

مسهب لتفسير ابن جرير، جاء في آخره ما نصه: "... وذكر فيه من كتب التفاسير المصنَّفة عن ابن عباس خمسة طرق، وعن سعيد بن جبير طريقين، وعن مجاهد بن جبر ثلاثة طرق، وعن الحسن البصرى ثلاثة طرق، وعن عكرمة ثلاثة طرق، وعن الضحاك بن مزاحم طريقين، وعن عبد الله بن مسعود طريقاً، وتفسير عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وتفسير ابن جريج، وتفسير مقاتل بن حبان، سوى ما فيه من مشهور الحديث عن المفسِّرين وغيرهم، وفيه من المسند حسب حاجته إليه، ولم يتعرض لتفسير غير موثوق به، فإنه لم يُدخل في كتابه شيئاً عن كتاب محمد بن السائب الكلبى، ولا مقاتل بن سليمان، ولا محمد بن عمر الواقدى، لأنهم عنده أظنَّاء والله أعلم. وكان إذا رجع إلى التاريخ والسير وأخبار العرب حكى عن محمد بن السائب الكلبى، وعن ابنه هشام، وعن محمد بن عمرالواقدى، وغيرهم فيما يُفتقر إليه ولا يُؤخذ إلا عنهم.

وذكر فيه مجموع الكلام والمعانى من كتاب علىّ بن حمزة الكسائى، ومن كتاب يحيى بن زيادة الفرَّاء، ومن كتاب أبى الحسن الأخفش، ومن كتاب أبى علىّ قطرب، وغيرهم مما يقتضيه الكلام عند حاجته إليه، إذ كان هؤلاء هم المتكلمون في المعاني، وعنهم يؤخذ معانيه وإعرابه، وربما لم يسمهم إذا ذكر شيئاً من كلامهم، وهذا كتاب يشتمل على عشرة آلاف ورقة أو دونها حسب سعة الخط أو ضيقه ".

كما نجد في معجم الأدباء أيضاً قبل ذلك بقليل، ما يدل على أن الطبرى أتم تفسيره هذا في سبع سنوات، إملاءً على أصحابه، فقد جاء في الجزء (١٨ ص ٤٢) على أبى بكر بن بالويه أنه قال: " قال لى أبو بكر محمد بن إسحاق - يعنى ابن خزيمة - : بلغنى أنك كتبت التفسير عن محمد بن جرير؟ قلت: نعم، كتبنا التفسير عنه إملاءً،

قال: كله؟ قلت: نعم، قال: في أى سنة؟ قلت: من سنة ثلاث وثمانين إلى سنة تسعين... " إلخ.

وبعد.. فأحسب أنى قد أفضت في الكلام عن هذا التفسير، وتوسعت في الحديث عنه، وأقول: إن السر في ذلك هو أن الكتاب يُعتبر المرجع الأول والأهم للتفسير بالمأثور، وتلك ميزة لا نعرفها لغيره من كتب التفسير بالرواية [١].

* * *

(١) الدكتور محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، ٤ / ٢٣ - ٣٠.

النيسابوري

أعلام التفسير

النيسابورى
وتفسيره: " غرائب القرآن ورغائب الفرقان "

هو الإمام الشهير، والعلاَّمة الخطير، نظام الدين بن الحسن بن محمد بن الحسين، الخراسانى، النيسابورى، المعروف بالنظام الأعرج. أصله وموطن أهله وعشيرته مدينة " قُم "، وكان منشؤه وموطنه بديار نيسابور. كان رحمه الله من أساطين بنيسابور، مُلّماً بالعلوم العقلية، جامعاً لفنون اللغة العربية، له القدم الرساخ في صناعة الإنشاء، والمعرفة الوافرة بعلم التأويل والتفسير وهو معدود في عِداد كبار الحفَّاظ والمقرئين، وكان مع هذه الشهرة العلمية الواسعة على جانب كبير من الورع والتقوى، وعلى مبلغ عظيم من الزهد والتصوف، ويظهر أثر ذلك واضحاً جلياً في تفسيره الذي أودع فيه مواد جيدة الروحية، وفيوضاته الربانية، ولقد خَلَّف رحمه الله للناس كتبا مفيدة نافعة، ومصنَّفات فريدة واسعة، فمن ذلك شرحه على متن الشافية في فن الصرف للإمام ابن الحاجب، وهو معروف بشرح النظام، وشرحه على تذكرة الخواجة نصير المِلّة والدين الطوسى في علم الهيأة، وهو المسمى بتوضيح التذكرة، ورسائل في علم الحساب، وكتاب في أوقات القرآن على حذو ما كتبه السجاوندى المشهور، وأهم مصنَّفاته تفسيره لكتاب الله تعالى المعروف بـ " غرائب القرآن ورغائب الفرقان "، وهو ما نحن بصدده الآن، وله مجلد آخر في لب التأويل نظير تأويلات المولى عبد الرزاق لقاشانى.

أما تاريخ وفاته، فلم نعثر عليه في الكتب التي بين أيدينا، وكل ما عثرنا عليه هو قول صاحب روضات الجنَّات: " إنه كان من علماء رأس المائة التاسعة، على قرب من درجة السيد الشريف، والمولى جلال الدين الدوانى، وابن حجر العسقلانى، وقرنائهم الكثيرين من علماء الجمهور، وتاريخ إنهاء مجلدات تفسيره المذكور، صادفت

حدود ما بعد الثمانمائة والخمسين من الهجرة " قال: " ويوجد أيضاً بالبال نسبة التشيع إليه في بعض مصنفات الأصحاب ".

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

اختصر النيسابورى تفسيره هذا من التفسير الكبير للفخر الرازى، وضم إلى ذلك بعض ما جاء في الكشاف وغيره من التفاسير، وما فتح الله به عليه من الفهم لحكم كتابه، وضمَّنه ما ثبت لديه من تفاسير سَلَف هذه الأمَّة من الصحابة والتابعين.

موقفه من الزمخشرى والفخر الرازى:

وهو إذ يختصر كلام الفخر الرازى، أو يقتبس من تفسير الكشاف أو غيره، لا يقف عند النص وقوف مَنْ يجمد عند النصوص ويرى أنها ضربة لازب عليه فلا يعترض ولا يتصرف، بل نجده حراً في تفكيره، متصرفاً فيما يختصر أو يقتبس، فإن وجد فساداً نَبَّه عليه وأصلحه، وإن رأى نقصاً تداركه فأتمه وأكمله.

وكثيراً ما نجده ينقل عن الكشاف فيقول: قال في الكشاف كذا وكذا، أو قال جار الله كذا وكذا، وقد ينقل ما ذكره صاحب الكشاف وما اعترض به عليه الفخر الرازى ثم ينصب نفسه حَكَماً بين الإمامين، ويبدى رأيه على حسب ما يظهر له.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى:{وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ } [الزمر: ٦٧]. يقول ما نصه: " قال جار الله: الغرض من هذا الكلام - إذا أخذته كما هو بجملته - تصوير عظمته، والتوقيف على كنه جلاله، من غير ذهاب بالقبضة واليمين إلى جهة حقيقة أو إلى جهة مجاز، وكذلك حكم ما يُروى عن عبد الله بن مسعود: أن رجلاً من أهل الكتاب جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال: يا أبا القاسم؛ إن الله يمسك السموات يوم القيامة على إصبع، والأرض على إصبع،

والجبال على إصبع، والشجر على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك. فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجباً مما قال، وأنزل الله الآية تصديقاً له. قال جار الله: وإنما ضحك أفصح العرب وتعجب لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهمه علماء البيان من غير تصور إمساك، ولا إصبع، ولا هز، ولا شئ من ذلك، ولكن فهمه وقع أول شئ وآخره على الزُبْدة والخلاصة، التي هى الدلالة على القدرة الباهرة. وأن الأفعال العظام التي لا تكتنهها الأوهام هيِّنة عليه.. ثم ذكر كلاماً آخر طويلاً، واعترض عليه الإمام فخر الدين الرازى: بأن هذا الكلام الطويل لا طائل تحته، لأنه هل يسلم أن الأصل في الكلام حمله على حقيقته أم لا؟ وعلى الثاني يلزم خروج القرآن بكليته عن كونه حُجَّة، فإن الكل أحد حينئذ أن يؤول الآية بما يشاء، وعلى الأول - وهو الذي عليه الجمهور - يلزم بيان أنه لا يمكن حمل اللفظ الفلانى على معناه الحقيقى لتعين المصير إلى التأويل، ثم إن كان هناك مجازان وجب إقامة الدليل على تعيين أحدهما، ففى هذه الصورة لا شك أن لفظ القبضة واليمين مشعر بهذه الجوارح، إلا أن الدلائل العقلية قامت على امتناع الأعضاء والجوارح لله تعالى، فوجب المصير إلى التأويل صوناً للنص عن التعطيل، ولا تأويل إلا أن يُقال: المراد كونها تحت تدبيره وتسخيره، كما يقال: فلان في قبضة فلان. وقال تعالى:{وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ } [الأحزاب: ٥٠]، ويقال: هذه الدار في يد فلان ويمينه، وفلان صاحب اليد.

وأنا أقول: هذا الذي ذكره الإمام طريق أصولى، والذي ذكره جار الله طريق بيانى. وإنهم يحيلون كثيراً من المسائل إلى الذوق فلا منافاة بينها، ولا يرد اعتراض الإمام تشنيعه، وقد مرَّ لنا في هذا الكتاب الأصل الذي كان يعمل به السَلَف في باب المتشابهات في

مواضع، فتذكر ".

منهجه في التفسير:

ثم إننا نجد الإمام النيسابورى، قد سلك في تفسيره مسلكاً قد يكون منفرداً به من بين المفسِّرين، ذلك أنه يذكر الآيات القرآنية أولاً، ثم يذكر القراءات، مع التزامه ألا يذكر ما كان منها منسوباً إلى الأئمة العشرة، وإضافة كل قراءة إلى صاحبها الذي تُنسب إليه، ثم بعد ذلك يذكر الوقوف مع التعليل لكل وقف منها، ثم بعد ذلك يشرع في التفسير، مبتدئاً بذكر المناسبة وربط اللاحق بالسابق مع عناية كبيرة بذلك سرت إليه من التفسير الكبير للفخرالرازى، ثم بعد ذلك يبين معانى الآيات بأسلوب بديع، يشتمل على إبراز المقدرات، وإظهار المضمرات، وتأويل المتشابهات، وتصريح الكنايات، وتحقيق المجاز والاستعارات، وتفصيل المذاهب الفقهية، مع توجيه أدلة كل مذهب وما حُمِلت عليه الآية القرآنية، لتكون مؤيدة لمذهب من المذاهب، أو غير متعارضة معه ولا منافية له.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى:{ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا } [المائدة: ٣٨]، نجده يقول: " واعلم أن الكلام في السرقة، يتعلق بأطراف المسروق، ونفس السرقة، والسارق ".. ثم يمضى فيتكلم عن هذه النواحى الثلاث من الناحية الفقهية، بتفصيل واسع وتوجيه للأدلة.

خوضه في المسائل الكلامية:

كذلك نجده يخوض في المسائل الكلامية، فيذكر مذهب أهل السُّنَّة ومذهب غيرهم، مع ذكره لأدلة كل مذهب، وانتصاره لمذهب أهل السُّنَّة وتأييده له، وردّ ما يرد عليه من جانب المخالفين.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى:{ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا } [الأنعام: ٢٥]... الآية، تجده يقول: " وفي الآية

دلالة على أن الله تعالى هو الذي يصرف عن الإيمان، ويحول بين المرء وبين قلبه، وقالت المعتزلة: لا يمكن إجراؤها على ظاهرها، وإلا كان حُجَّة للكفار، ولأنه يكون تكليفاً للعاجز، ولم يتوجه ذمهم في قولهم:{وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ} [البقرة: ٨٨]، فلا بد من التأويل. وذلك من وجوه.. ثم ساق خمسة أوجه للمعتزلة، وبعد أن فرغ منها تعقبها بالرد عليها، تفنيداً لمذهب المعتزلة، وتصحيحاً لمذهب أهل السُّنَّة.

خوضه في المسائل الكونية والفلسفية:

كذلك إذا مرّ النيسابورى على آية من الآيات الكونية فإنه لا يمر عليها بدون أن يخوض بأسرار الكون وكلام الطبيعيين والفلاسفة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى:{يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ} [البقرة: ١٨٩]، نراه يذكر سبب نزول الآية، ثم يبين الحكمة التي أرادها الله من وراء جوابه لهم على غير مقصودهم، وهنا يتعرض للسبب الذي من أجله يبدو الهلال دقيقاً ثم يزيد شيئاً فشيئاً حتى يصير بدراً، ثم يأخذ في النقصان إلى أن يعود كما بدأ.

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى:{ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا} [الزمر: ٤٢].. الآية، يقول ما نصه: " وقال حكماء الإسلام: النفس الإنسانية جوهر مشرق نورانى، إذا تعلق بالبدن حصل ضوءه في جميع الأعضاء ظاهرها وباطنها، وهو الحياة واليقظة، وأما في وقت النوم فإن ضوء لا يقع إلا على باطن البدن وينقطع عن ظاهره، فتبقى نفس الحياة التي بها النفس وعمل القوى البدنية في الباطن ويفنى ما به التمييز والعقل، وإذا انقطع هذا الضوء بالكلية عن البدن فهو الموت ".

وهذا المسلك الذي سلكه النيسابورى في الكونيات والآراء الفلسفية. ليس هو في الواقع إلا صدى لما جاء في تفسير الفخر الرازى الذي لخَّص منه تفسيره. وإن كان النيسابورى ليس بوقاً للرازى في كل ما

يقول بل كثيراً ما يستدرك عليه ولا يرتضى قوله.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى:{إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢} [الانفطار: ١ - ٢]، يقول ما نصه: " وفيه - يعنى في قوله تعالى:{إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١}، وكذا في قوله:{وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ} - إبطال قول من زعم أن الفلكيات لا تنخرق، أما الدليل المعقول الذي ذكره الإمام فخر الدين الرازى في تفسيره، وهو أن الأجسام متماثلة في الجسمية. فيصح على كل واحد منهما ما يصح على الباقى، لكن السفليات يصح عليها الانخراق، فيصح على العلويات أيضاً، فغير مفيد ولا مقنع، لأن الخصم لو سلَّم الصحة فله أن ينازع في الوقوع لمانع، كالصورة الفلكية وغيرها ".

النزعة الصوفية في تفسير النيسابورى:

ثم إن النيسابورى بعد أن يفرغ من تفسير الآية عن التأويل، والتأويل الذي يتكلم عنه هو عبارة عن التفسيرات الإشارية للآيات القرآنية التي يفتح الله بها على عقول أهل الحقيقة من المتصوِّفة، والنيسابورى - رحمه الله - كان صوفياً كبيراً، أفاض من روحه الصوفية الصافية على تفسيره، فنراه لذلك يستطرد أثناء التفسير إلى كثير من المواعظ والمبكيات. والحكم والغاليات، كما نراه في تأويله الإشارى يمثل الفلسفة التصوفية بأعلى أنواعها.

ليس في تفسير النيسابورى ما يدل على تشيعه:

وعلى كثرة ما قرأت في هذا التفسير لم أقع على نص منه يدل على تشيع مؤلفه، وكل ما وقعت عليه، أنه قال في خاتمة تفسيره (جـ ٣٠ ص ٢٢٨): " وإنى أرجو فضل الله العظيم، وأتوسل إليه بوجهه الكريم، ثم بنبيه القرشى الأبطحى ووليه المعظم العلى.. إلخ " وهذه الجملة الأخيرة: " ووليه المعظم العلى " وإن كانت اعترافاً منه بولاية علىّ رضى الله عنه، ليست دليلاً قاطعاً على تشيعه، بل نجد

النيسابورى على العكس من ذلك يعترف في نفس خاتمة تفسيره (جـ ٣٠ ص ٢٢٤) بأنه لم يمل في تفسيره إلا إلى مذهب أهل السُّنَّة والجماعة، وإذا رجعت إلى تفسيره لقوله تعالى:{ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ } [المائدة: ٥٤].. إلخ (جـ ٦ ص ١٩٦ وما بعدها) لوجدته يرد على الشيعة استدلالهم بهاتين الآيتين على ولاية علىّ رضى الله عنه وأنه الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كان ما ذكره تلخيصاً لما قال الفخر الرازى في تفسيره.

وهنا - وبعد ما ذكرت - أرى لزاماً علىَّ أن أذكر كلام النيسابورى الذي أوضح فيه مسلكه في تفسيره ومنهجه الذي نهجه فيه، فإن صاحب البيت أعرف به وأدرى بما فيه.

قال رحمه الله في مقدمة تفسيره ما نصه: " إذا وفَّقنى الله تعالى لتحريك القلم في أكثر الفنون المنقولة والمعقولة - كما اشتهر بحمد الله تعالى ومنه فيما بين أهل الزمان - وكان علم التفسير من العلوم بمنزلة الإنسان من العين والعين من الإنسان، وكان قد رزقنى الله تعالى من إبَّان الصبا وعنفوان الشباب، حفظ لفظ القرآن وفهم معنى الفرقان، وطالما طالبنى بعض أجِلَّة الإخوان، وأعِزَّة الأخدان ممن كنت مشاراً إليه عندهم بالبنان في البيان - والله المنَّان يجازيهم عن حسن ظنونهم، ويوفقنا لإسعاف سؤلهم، وإنجاح مطلوبهم - أن أجمع كتاباً في علم التفسير، مشتملاً على المهمات، منبئاً عما وقع إلينا من نقل الإثبات، وأقوال الثقات من الصحابة والتابعين، ثم من العلماء الراسخين، والفضلاء المحققين، المتقدمين والمتأخرين - جعل الله تعالى سعيهم مشكوراً، وعملهم مبروراً - فاستعنتُ بالمعبود، وشرعتُ في المقصود، معترفاً بالعجز والقصور في هذا الفن، وفي سائر الفنون لا كمن هو بابنه مفتون، كيف وقد قال عَزَّ مِنْ قائل:{وَمَآ

أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } [الإسراء: ٨٥]، ومَن أصدق من الله قيلاً، وكفى بالله ولياً، وكفى بالله وكيلاً.

ولما كان التفسير الكبير المنسوب إلى الإمام الأفضل، والهمام الأمثل، والحَبْر النِحْرير، والبحر الغزير، الجامع بين المعقول والمنقول، الفائز بالفروع والأصول، أفضل المتأخرين، فخر المِلَّة والحق والدين، محمد بن عمر بن الحسين الخطيب الرازى، تغمَّده الله برضوانه وأسكنه بحبوبة جنانه، اسمه مطابق لمسماه وفيه من اللطائف والبحوث ما لا يُحصى، ومن الزوائد والفتوى ما لا يُخفى، فإنه قد بذل مجهوده، ونثل موجوده، حتى عَسَّرَ كتبه على الطالبين، وأعْوَزَ تحصيله على الراغبين، فحاذيتُ سياق مرامه، وأوردتُ حاصل كلامه، وقرَّبتُ مسالك أقدامه، والتقطتُ عقود نظامه، من غير إخلال بشئ من الفوائد. وإهمال لما يُعَد من اللطائف والفرائد، وضممتُ إليه ما وجدتُ في الكشاف وفي سائر التفاسير من اللطائف المهمات، أو رزقني الله تعالى من البضاعة المزجاة، وأثبت القراءات المعتبرات والوقوف المعللات، ثم التفسير المشتمل على المباحث اللفظيات، والمعنويات مع إصلاح ما يجب إصلاحه وإتمام ما ينبغي إتمامه من المسائل الموردة في التفسير الكبير والاعتراضات، ومع كل ما يُوجد في الكشاف من المواضع المعضلات، سوى الأبيات المعقدات، فإن ذلك يوردها مَنْ ظن أن تصحيح القراءات وغرائب القرآن، إنما يكون بالأمثال والمستشهدات، كلاً فإن القرآن حُجَّة على غيره وليس غيره حُجَّة عليه، فلا علينا أن نقتصر في غرائب القرآن على تفسيرها بالألفاظ المشتهرات، وعلى إيراد بعض المتجانسات التي نعرف منها أصول الاشتقاقات، وذكرتُ طرفاً من الإشارات المقتنعات، والتأويلات الممكنات، والحكايات المبكيات، والمواعظ الرادعة عن المنهيات،

الباعثة على أداء الواجبات، والتزمتُ إيراد لفظ القرآن الكريم أولاً، مع ترجمته على وجه بديع، وطريق منيع، يشتمل على إبراز المقدرات، وإظهار المضمرات، وتأويل المتشابهات، وتصريح الكنايات، وتحقيق المجازات والاستعارات، فإن هذا النوع من الترجمة مما تُسكب فيه العبرات، وترن المترحمون هنالك إلى العثرات، وقلَّما يفطن له الناشئ الواقف على متن اللغة العربية، فضلاً عن الدخيل الزحيل القاصر في العلوم الأدبية، واجتهدتُ كل الاجتهاد، في تسهيل سبيل الرشاد، ووضعت الجميع على طرف التمام، ليكون الكتاب كالبدر التمام، وكالشمس في إفادة الخاص والعام، من غير تطويل يُورث الملام، ولا تقصير يُوعر مسالك السالك ويبدد نظام الكلام، فخير الكلام ما قلَّ ودَلَّ: " وحسبك من الزاد ما بلغك المحل ".

وقال في آخر تفسيره ما نصه: " وقد تضمن كتابى هذا حاصل التفسير الكبير، الجامع لأكثر التفاسير، وجُلَّ كتاب الكشاف الذي رُزق له القبول من أساتذة الأطراف والأكتاف، واحتوى على ذلك على النكت المستحسنة الغريبة، والتأويلات المحكمة العجيبة، مما لم يوجد في سائر تفاسير الأصحاب، أو وُجِدَت متفرقة الأسباب، أو مجموعة طويلة الذيول والأذناب.

أما الأحاديث، فإما من الكتب المشهورة، كجامع الأصول، والمصابيح وغيرها، وإما من كتاب الكشاف والتفسير الكبير ونحوهما، إلا الأحاديث الموردة في الكشاف في فضائل السور، فإنَّا قد أسقطناها لأن النقد زَيَّفها إلا ما شَذَّ منها.

وأما الوقوف فللإمام السجاوندى، مع اختصار لبعض تعليلات، وإثبات للآيات لتوقفها على التوقيف.

وأما أسباب النزول، فمن كتاب جامع الأصول، والتفسيرين، أو من

تفسير الواحدى.

وأما اللغة، فمن صحاح الجوهرى، ومن التفسيرين كما نُقلا.

وأما المعاني والبيان وسائر المسائل الأدبية، فمن التفسيرين، والمفتاح، وسائر الكتب العربية.

وأما الأحكام الشرعية، فمنهما، ومن الكتب المعتبرة في الفقه، ولا سيما شرح الوجيز للإمام الرافعى.

وأما التأويل، فأكثرها للشيخ المحقق، المتقى المتقن نجم المِلَّة والدين المعروف بـ " داية " قُدِس نفسه ورُوِّح رمسه، وطرف منها مما دار بخلدى، وسمحت به ذات يدى غير جازم بأنه المراد من الآية، بل خائف من أن يكون ذلك جرأة منى وخصوصاً فيما لا يعنينى، وإنما شجعنى على ذلك سائر الأئمة الذين اشتهروا بالذوق والوجدان، وجمعوا بين العرفان والإيمان، والإتقان في معنى القرآن، الذي هو باب واسع، يطمع في تصنيفه كل طامع، فإن أصبتُ فبها، وإن أخطأتُ فعلى الإمام ما سها، والعذر مقبول عند أهل الكرم والنهى، والله المستعان لنا ولهم في مظان الخلل والزلل، وعلى رحمته التكلان في محال الخطأ والخطل، فعلى المرء أن يبذل وسعه لإدراك الحق، ثم الله معين لإرادة الصواب، ومعين لإلهام الصدق.

وكذا الكلام في بيان الرباطات والمناسبات بين السور والآيات، وفي أنواع التكريرات وأصناف المشتبهات، فإن للخواطر والظنون فيها مجالاً، وللناس الأكياس في استنباط الوجوه والنسب هناك مقالاً ".

ثم مضى فقال: " وإنى لم أمل في هذا الإملاء إلا إلى مذهب أهل السُّنَّة والجماعة، فبيَّنت أصولهم، ووجوه استدلالاتهم بها، وما ورد عليها من الاعتراضات، والأجوبة عنها.

وأما في الفروع، فذكرتُ استدلال كل طائفة بالآية على مذهبه، من

غير تعصب ومراء وجدال وهراء ".

ثم مضى فقال: " ولقد وُفّقتُ لإتمام هذا الكتاب في مدة خلافة علىّ رضى الله عنه، وكنا نُقدِّر إتمامه في مدة خلافة الخلفاء الراشدين وهى ثلاثون سنة، ولو لم يكن ما اتفق في أثناء التفسير من وجود الأسفار الشاسعة، وعدم الأسفار النافعة، ومن غموم لا يُعد عديدها، وهموم لا يُنادَى وليدها - لكان يمكن إتمامه في مدة خلافة أبى بكر، كما وقع لجار الله العلاّمة ".

هذا.. وقد نَوَّه صاحب روضات الجنَّات بمكانة هذا التفسير فقال: " وتفسيره - يريد النيسابورى - من أحسن شروح كتاب الله المجيد، وأجمعها للفوائد اللفظية والمعنوية، وأحوزها للفوائد القشرية واللُّبية، وهو قريب من تفسير مجمع البيان كمًّا وكيفاً، وسِمَة وترتيباً، بزيادة أحكام الأوقاف في أوائل تفسير الآى، ومراتب التأويل في آخره، والإشارة إلى جملة من دقائق نكات العربية في البيِّن ".

والكتاب مطبوع على هامش تفسير ابن جرير الطبرى ومتداوَل بين أهل العلم (١).

* * *

(١) الدكتور محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، ٤ / ٦٤ - ٨٦.

الحافظ ابن كثير

أعلام التفسير

الحافظ ابـن كثير

هو الإمام الحافظ، المحدث، المؤرخ، عماد الدين، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن ضوء بن درع القرشي الدمشقي الشافعي.

ولد بقرية " مِجْدَل " من أعمال بصرى، وهي قرية أمه، سنة سبعمائة للهجرة أو بعدها بقليل.

نشأ الحافظ ابن كثير في بيت علم ودين، فأبوه عمر بن حفص بن كثير أخذ عن النواوي والفزاري وكان خطيب قريته، وتوفى أبوه وعمره ثلاث سنوات أو نحوها، وانتقلت الأسرة بعد موت والد ابن كثير إلى دمشق في سنة ٧٠٧ هـ، وخلف والده أخوه عبد الوهاب، فقد بذل جهدًا كبيرًا في رعاية هذه الأسرة بعد فقدها لوالدها، وعنه يقول الحافظ ابن كثير: " وقد كان لنا شقيقا، وابنا رفيقًا شفوقًا، وقد تأخرت وفاته إلى سنة ٧٥٠ هـ فاشتغلت على يديه في العلم فيسر الله منه ما تيسر وسهل منه ما تعسر " (١).

شيوخه:

تلقي الحافظ ابن كثير العلم علي يد كثير من الشيوخ منهم:

شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية، رحمه الله و الحافظ أبو الحجاج يوسف المزي، رحمه الله.

و الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، رحمه الله.

و الشيخ أبو العباس أحمد الحجار الشهير بـ " ابن الشحنة ".

والشيخ أبو إسحاق إبراهيم الفزاري، رحمه الله والحافظ كمال الدين عبد الوهاب الشهير بـ " ابن قاضي شهبة " والإمام كمال الدين أبو المعالي محمد بن الزملكاني، رحمه الله و الإمام محيي الدين أبو

---

(١) البداية والنهاية، ١٤/ ٣٢.

زكريا يحيى الشيباني، رحمه الله و الإمام علم الدين محمد القاسم البرزالي، رحمه الله والشيخ شمس الدين أبو نصر محمد الشيرازي، رحمه الله والشيخ شمس الدين محمود الأصبهاني، رحمه الله و عفيف الدين إسحاق بن يحيى الآمدي الأصبهاني، رحمه الله و الشيخ بهاء الدين القاسم بن عساكر، رحمه الله و أبو محمد عيسى بن المطعم، رحمه الله وجمال الدين سليمان بن الخطيب، قاضي القضاة ومحمد بن جعفر اللباد، شيخ القراءات وجمال الدين أبو العباس أحمد بن القلانسي، رحمه الله.وغيرهم الكثير.

ومن تلاميذه:

الحافظ علاء الدين بن حجي الشافعي، رحمه الله ومحمد بن محمد ابن خضر القرشي، رحمه الله وشرف الدين مسعود الأنطاكي النحوي، رحمه الله ومحمد بن أبي محمد بن الجزري، شيخ علم القراءات، رحمه الله وابنه محمد بن إسماعيل بن كثير، رحمه الله والإمام ابن أبي العز الحنفي، رحمه الله والحافظ أبو المحاسن الحسَيني، رحمه الله.

ثناء العلماء عليه:

كان ابن كثير، رحمه الله، من أفذاذ العلماء في عصره، أثنى عليه معاصروه ومن بعدهم الثناء الجم:

فقد قال الحافظ الذهبي في طبقات شيوخه: " وسمعت مع الفقيه المفتي المحدِّث، ذى الفضائل، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البصروي الشافعي.. سمع من ابن الشحنة وابن الزراد وطائفة، له عناية بالرجال والمتون والفقه، خرَّج وناظر وصنف وفسر وتقدم " [١].

(١) طبقات الحفاظ للذهبي، ٤/ ٢٩، أحمد شاكر، عمدة التفسير، ١/ ٢٥.

وقال عنه أيضًا في المعجم المختص: " الإمام المفتي المحدِّث البارع، فقيه متفنن، محدث متقن، مفسر نقال " [١].

وقال تلميذه الحافظ أبو المحاسن الحسيني: " صاهر شيخنا أبا الحجاج المزي فأكثر، وأفتى ودرس وناظر، وبرع في الفقه والتفسير والنحو وأمعن النظر في الرجال والعلل " [٢].

وقال العلامة ابن ناصر الدين: " الشيخ الإمام العلامة الحافظ عماد الدين، ثقة المحدثين، عمدة المؤرخين، علم المفسرين " [٣].

وقال ابن تغري بردي: " لازم الاشتغال، ودأب وحصل وكتب وبرع في الفقه والتفسير والفقه والعربية وغير ذلك، وأفتى ودرس إلى أن توفى " [٤].

وقال ابن حجر العسقلاني: " كان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة، سارت تصانيفه في البلاد في حياته، وانتفع الناس بها بعد وفاته " [٥].

وقال ابن حبيب: " إمام روى التسبيح والتهليل، وزعيم أرباب التأويل، سمع وجمع وصنف، وأطرب الأسماع بالفتوى وشنف، وحدث وأفاد، وطارت أوراق فتاويه إلى البلاد، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهت إليه رياسة العلم في التاريخ، والحديث والتفسير " [٦].

وقال العيني: " كان قدوة العلماء والحفاظ، وعمدة أهل المعاني والألفاظ، وسمع وجمع وصنف، ودرس، وحدث، وألف، وكان له

---

(١) المعجم المختص للذهبي.

(٢) ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني ص ٥٨، وعمدة التفسير لأحمد شاكر (١/ ٢٦).

(٣) الرد الوافر.

(٤) النجوم الزاهرة (١١/ ١٢٣).

(٥) الدرر الكامنة.

(٦) شذرات الذهب لابن العماد (٦/ ٢٣٢).

اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهى إليه رياسة علم التاريخ والحديث والتفسير وله مصنفات عديدة مفيدة " [١].

وقال تلميذه ابن حجي: " أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث، وأعرفهم بجرحها ورجالها وصحيحها وسقيمها، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك، وكان يستحضر شيئا كثيرا من الفقه والتاريخ، قليل النسيان، وكان فقيها جيد الفهم، ويشارك في العربية مشاركة جيدة، ونظم الشعر، وما أعرف أني اجتمعت به على كثرة ترددي إليه إلا واستفدت منه " [٢].

وقال الداودي: " أقبل على حفظ المتون، ومعرفة الأسانيد والتعلل والرجال والتاريخ حتى برع في ذلك وهو شاب " [٣].

مؤلفاته:

أ – في علوم القرآن:

١ - تفسير القرآن العظيم.

٢ - فضائل القرآن.

ب – في السنة وعلومها:

٣ - أحاديث الأصول.

٤ - شرح صحيح البخاري.

٥ - التكميل في الجرح والتعديل ومعرفة الثقات والمجاهيل.

٦ - اختصار علوم الحديث.

٧ - جامع المسانيد والسنن الهادي لأقوم سنن.

---

(١) النجوم الزاهرة (١١/ ١٢٣).

(٢) شذرات الذهب لابن العماد (٦/ ٢٣٢).

(٣) طبقات المفسرين.

٨ - مسند أبي بكر الصديق، رضي الله عنه.
٩ - مسند عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.
١٠ - الأحكام الصغرى في الحديث.
١١ - تخريج أحاديث أدلة التنبيه في فقه الشافعية.
١٢ - تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب.
١٣ - مختصر كتاب " المدخل إلى كتاب السنن " للبيهقي.
١٤ - جزء في حديث الصور.
١٥ - جزء في الرد على حديث السجل.
١٦ - جزء في الأحاديث الواردة في فضل أيام العشرة من ذي الحجة.
١٧ - جزء في الأحاديث الواردة في قتل الكلاب.
١٨ - جزء في الأحاديث الواردة في كفارة المجلس.

جـ - في الفقه وأصوله:

١٩ - الأحكام الكبرى.
٢٠ - كتاب الصيام.
٢١ - أحكام التنبيه.
٢٢ - جزء في الصلاة الوسطى.
٢٣ - جزء في ميراث الأبوين مع الإخوة.
٢٤ - جزء في الذبيحة التي لم يذكر اسم الله عليها.
٢٥ - جزء في الرد على كتاب الجزية.
٢٦ - جزء في فضل يوم عرفة.
٢٧ - المقدمات في أصول الفقه.

د - في التاريخ والمناقب:

٢٨ - البداية والنهاية.

٢٩ - جزء مفرد في فتح القسطنطينية.

٣٠ - السيرة النبوية.

٣١ - طبقات الشافعية.

٣٢ - الواضح النفيس في مناقب محمد بن إدريس.

٣٣ - مناقب ابن تيمية.

٣٤ - مقدمة في الأنساب.

وفاته ورثاؤه:

في يوم الخميس السادس والعشرين من شهر شعبان سنة أربع وسبعين وسبعمائة توفي الحافظ ابن كثير بدمشق، ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية، رحمه الله.

وقد ذكر ابن ناصر الدين أنه " كانت له جنازة حافلة مشهودة، ودفن بوصية منه في تربة شيخ الإسلام ابن تيمية بمقبرة الصوفية ".

وقد قيل في رثائه، رحمه الله:

لفقدك طلاب العلوم تأسفوا ::: وجادوا بدمع لا يبير غزير
ولو مزجوا ماء المدامع بالدما ::: لكان قليلا فيك يا بن كثير [1]

التعريف بتفسير ابن كثير:

تفسير ابن كثير من أشهر ما دُوِّن في التفسير المأثور، ويُعتبر في هذه الناحية الكتاب الثاني بعد كتاب ابن جرير. اعتنى فيه مؤلفه بالرواية عن مفسِّرى السَلَف، ففسَّر فيه كلام الله تعالى بالأحاديث

(١) مقدمة تفسير القرآن العظيم، لأبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق سامي بن محمد سلامة، نشر دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

والآثار مسندة إلى أصحابها، مع الكلام عما يحتاج إليه جرحاً وتعديلاً. وقد طُبع هذا التفسير مع معالم التفسير للبغوى، ثم طُبع مستقلاً في أربعة أجزاء كبار.

وقد قدَّم له مؤلفه بمقدمة طويلة هامة، تعرَّض فيها لكثير من الأمور التي لها تعلق واتصال بالقرآن وتفسيره، ولكن أغلب هذه المقدمة مأخوذ بنصه من كلام شيخه ابن تيمية الذي ذكره في مقدمته في أصول التفسير.

ولقد قرأتُ في هذا التفسير فوجدته يمتاز في طريقته بأنه يذكر الآية، ثم يُفسِّرها بعبارة سهلة موجزة، وإن أمكن توضيح الآية بآية أخرى ذكرها وقارن بين الآيتين حتى يتبين المعنى ويظهر المراد، وهو شديد العناية بهذا النوع من التفسير الذي يسمونه تفسير القرآن بالقرآن، وهذا الكتاب أكثر ما عُرف من كتب التفسير سرداً للآيات المتناسبة في المعنى الواحد.

ثم بعد أن يفرغ من هذا كله، يشرع في سرد الأحاديث المرفوعة التي تتعلق بالآية، ويبين ما يُحتَج به وما لا يُحتَج به منها، ثم يردف هذا بأقوال الصحابة والتابعين ومَن يليهم من علماء السَلَف. ونجد ابن كثير يُرَجِّح بعض الأقوال على بعض، ويُضَعِّف بعض الروايات، ويُصحِّح بعضاً آخر منها، ويُعَدِّل بعض الرواة ويُجَرِّح بعضاً آخر. وهذا يرجع إلى ما كان عليه من المعرفة بفنون الحديث وأحوال الرجال.

وكثيراً ما نجد ابن كثير ينقل من تفسير ابن جرير، وابن أبى حاتم، وتفسير ابن عطية، وغيرهم ممن تقدَّمه.

ومما يمتاز به ابن كثير، أنه يُنَبِّه إلى ما في التفسير المأثور من منكرات الإسرائيليات، ويُحَذِّر منها على وجه الإجمال تارة، وعلى وجه التعيين والبيان لبعض منكراتها تارة أخرى.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية [٦٧] وما بعدها من سورة البقرة:{إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةً} [البقرة: ٦٧].. إلى آخر القصة، نراه يقص لنا قصة طويلة وغريبة عن طلبهم للبقرة المخصوصة، وعن وجودهم لها عند رجل من بنى إسرائيل كان من أَبَرِّ الناس بأبيه.. إلخ، ويروى كل ما قيل من ذلك عن بعض علماء السَلَف:. ثم بعد أن يفرغ من هذا كله يقول ما نصه: " وهذه السياقات عن عبيدة وأبى العالية والسدىّ وغيرهم، فيها اختلاف، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بنى إسرائيل، وهى مما يجوز نقلها ولكن لا تُصَدَّق ولا تُكَذَّب، فلهذا لا يُعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا. والله أعلم ".

ومثلاً عند تفسيره لأول سورة " ق " نراه يعرض لمعنى هذا الحرف في أول السورة " ق " ويقول: ".. وقد روى عن بعض السَلَف أنهم قالوا: " ق " جبل محيط بجميع الأرض يقال له جبل قاف، وكأن هذا - والله أعلم - من خرافات بنى إسرائيل التي أخذها عنهم مما لا يُصدَّق ولا يُكَذَّب، وعندى أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يُلَبِّسون به على الناس أمر دينهم، كما افترى في هذه الأُمَّة مع جلالة قدر علمائها وحُفَّاظها وأئمتها أحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم، وما بالعهد من قِدَم، فكيف بأُمَّه بنى إسرائيل مع طول المدى وقِلَة الحُفَّاظ النُقَّاد فيهم، وشربهم الخمور وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته؟ وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله:{وحدِّثوا عن بنى إسرائيل ولا حَرَج} فيما قد يُجَوِّزه العقل، فأما فيما تحيله العقول، ويُحكم فيه بالبطلان، ويغلب على الظنون كذبه، فليس من هذا القبيل. والله أعلم ".

كما نلاحظ على ابن كثير أنه يدخل في المناقشات الفقهية، ويذكر أقوال العلماء وأدلتهم عندما يشرح آية من آيات الأحكام، وإن شئتَ أن ترى مثالاً لذلك فارجع إليه عند تفسير قوله تعالى:{فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ

ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَ} [البقرة: ١٨٥].. الآية، فإنه ذكر أربع مسائل تتعلق بهذه الآية، وذكر أقوال العلماء فيها، وأدلتهم على ما ذهبوا إليه، وارجع إليه عند تفسير قوله تعالى:{فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ} [البقرة: ٢٣٠].. الآية، فإنه قد تعرَّض لما يُشترط في نكاح الزوج المحلّل، وذكر أقوال العلماء وأدلّتهم.

وهكذا يدخل ابن كثير في خلافات الفقهاء، ويخوض في مذاهبهم وأدلّتهم كلما تكلّم عن آية لها تعلق بالأحكام، ولكنه مع هذا مقتصد مُقِلٌ لا يُسرف كما أسرف غيره من فقهاء المفسِّرين.

وبالجملة.. فإن هذا التفسير من خير كتب التفسير بالمأثور، وقد شهد له بعض العلماء فقال السيوطى في ذيل " تذكرة الحفَّاظ " والزرقانى في " شرح المواهب " : إنه لم يُؤَلَّف على نمطه مثله [1].

* * *

(١) الدكتور محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، ٤ / ٣٧.

جلال الدين السيوطى

جلال الدين السيوطي

أعــلام التفسيــر

الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي
وتفسيره: " الدر المنثور "

هو إمام المتأخرين، وعلم أعلام الدين، وخاتمة الحفاظ أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكربن محمد ابن سابق الدين بن الفخر عثمان الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الهمام الخضيري الأسيوطي، ولقب رحمه الله بجلال الدين. وكنيته أبو الفضل.

ولده ولد رحمه الله بعد المغرب ليلة الأحد مستهل رجب سنة وأربعين وثمانمائة هجرية، فقد ولد رحمه الله في بيت عرف بالعلم والأدب وسمو المكانة وعلو المننزلة، ولا عجب فقد كان أبوه، علما من الاعلام وفقيها من فقهاء الشافعية المرموقين، فقد ولي رحمه الله في مستهل حياته منصب القضاء في أسيوط ثم انتقل إلى مصر حيث أسند إليه بها منصب الإفتاء على مذهب الإمام الشافعي. وتوفي ولده وله من العمر خمس سنوات وسبعة أشهر وقد وصل من حفظ القرآن إذ ذاك إلى سورة التحريم ولكن الله تعالى قد كلاه بعنايته وأحاطه برعايته فقيض له العلامة الكمال ابن الهمام، فكان رحمه الله يرعاه ويتابعه في تحفيظ القرآن وذلك من فضل الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم.

نشأ رحمه الله نشأة علمية منذ نعومة أظفاره، فقد كان ولده رحمه الله شديد الحرص على توجيهه الوجهة الصالحة إذ كان يحفظ القرآن الكريم في صغره ويستصحبه إلى دور العلم ومجالس القضاء ودروس الفقهاء وسماع الحديث. ويذكر المؤرخون الذين ترجموا له رحمه الله أن أباه قد طلب من الشيخ شهاب الدين بن حجر العسقلاني صاحب الفتح أن يدعو له بالبركة والتوفيق، وكان رحمه الله يرى في الحافظ ابن حجر مثله الاعلى وكان يترسم خطاه ويحذو حذوه فيما

بعد حتى قيل إنه شرب من ماء زمزم بنية أن يجعله الله مثل ابن حجر فاستجاب الله سبحانه وتعالى له فكان من أكبر الحفاظ.

وكان السيوطي رحمه الله شديد الذكاء، قوي الذاكرة، حفظ القرآن وهو دون ثماني سنين حفظ عمدة الأحكام وشرحه لابن دقيق العيد ثم حفظ منهاج الإمام النووي في فقه الشافعية ثم منهاج البيضاوي في الأصول ثم ألفية ابن مالك في النحو ثم تفسير البيضاوي. وعرض ذلك رحمه الله على طائفة من مشايخ الإسلام مثل البلقيني وعز الدين الحنبلي وشيخ الأقصراني فأجازه هؤلاء وغيرهم. ولم يدع رحمه الله من فروع المعرفة ولا نوعا من أنواع العلم إلا وقد أدلى فيه بدلو وتلقاه عند أهله، فأخذ الفقه عن شيخ الشيوخ سراج الدين البلقيني وقد لازمه إلى أن توفي فلازم من بعده ولده علم الدين. أخذ الفرائض عن فرضي زمانه الشيخ شهاب الدين الشارمساحي، ولازم الشرف المناوي أبا زكريا محمد بن عبد الرؤوف شارح الجامع الصغير. وأخذ العلوم العربية عن الإمام العلامة تقي الدين الشبلي الحنفي وكتب له تقريظا على شرح ألفية ابن مالك. ولزم العلامة محيي الدين الكافيجي أربع عشرة سنة فأخذ عنه التفسير والأصول والعربية والمعاني وأخذ عن جلال الدين المحلي وعن المعز الكناني أحمد بن إبراهيم الحنبلي، وحضر على الشيخ سيف الدين الحنفي دروسا عديدة في الكشاف والتوضيح وحاشية عليه وتلخيص المفتاح في البلاغة، وقد أجيز بتدريس في مستهل سنة ست وستين وثمانمائة، أي في سن الخامسة عشرة وأخذ أيضا عن المجد بن السباع وعبد العزيز الوفائي الميقات، وأخذ الطب عن محمد بن إبراهيم الدواني الرومي. والمتتبع لنشأة السيوطي يجد أنه قد أخذ الكثير من العلوم عن الكثير من المشايخ. وقد ذكر بعض أهل العلم ممن ترجموا له أن شيوخه قد وصلوا نحو ستمائة ولا غرابة في ذلك

ولا عجب فإن السيوطي قد عاش حياته يأخذ العلم حيث وجده وعن كل من يلقاه وأنه أكثر من السفر والترحال في سبيل تحصيل العلم ورواية الحديث. وذكر أيضا في بعض الروايات أنهم مائة وخمسون شيخا وشيخة وفي بعضها قارب عدد هم الستمائة على ما ذكر آنفا.

قيامه بالتدريس:

كان الإمام السيوطي رحمه الله خير مؤدبي عصره وأفضل مدرسيه إذ اشتهر بالبراعة في الشرح والروعة في الإملاء ومن ثم شدت إليه الرحال من كل مكان فكان رحمه الله يدرس العربية في سن مبكرة إذ كان عمره وقت إجازته بالتدريس خمسة عشر عاما فقط وهي قصيرة من أعمار العلماء الأعلام ثم شرع أيضا في تدريس الفقة وإملاء الحديث سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة أي بعد مباشرته تدريس العربية بنحو ست سنوات ثم شرع بعد ذلك يزاول التدريس والإملاء، في مختلف العلوم وشتى الفنون فقال متحدثا عن نفسه متحدثا بنعمة الله أنه رزق التبحر في سبعة علوم: التفسير والفقه والحديث والنحو والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب البلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة.

وكان رحمه الله يقول أيضا إنه بلغ الاجتهاد إذ قال: وقد كملت عندي الآن آلات الاجتهاد وبحمد الله تعالى أقول ذلك متحدثا بنعمة الله تعالى لا فخر، ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفا بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ومداركها ونقوحها وأجوبتها والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرت على ذلك من فضل الله؟

مصنفاته:

لم يدع السيوطي فنا إلا وكتب فيه، وبدأ في التأليف في سن مبكرة إذ ذكر المترجمون له أنه شرع في التصنيف سنة ست وستين وثمانمائة هجرية وكان أول شيء ألفه في التفسير وهو تفسير

للاستعاذة والبسملة وقد عرضه على شيخ الإسلام علم الدين البلقيني فأجازه وكتب له تقريظا حسنا، ثم توالى بعد ذلك تأليفه. وقد اختلف الباحثون في عدد المصنفات التي أثرى بها الحافظ الجلال السيوطي المكتبة اختلف الباحثون في عدد المصنفات التي أثرى بها الحافظ الجلال السيوطي المكتبة الإسلامية فمنهم من يرى أنها تبلغ إحدى وستين وخمسمائة وهو ما ذهب إليه فلوجل وأما ما ذهب إليه بروكلمان فقد عد له خمسة عشر وأربعمائة كتاب.

ولقد حدثنا رجل فاضل أنه ألف كتابا للحافظ السيوطي تكلم عنه وترجم له وعد مصنفاته حتى بلغت ستاً وألف كتاب وهذا إن دل إنما يدل على سعة تبحره كما ذكرنا. وهنا أورد بعض مصنفات هذا الإمام الجليل. فمن أهم تصانيفة على سبيل المثال لا الحصر:

- إسعاف المبطأ برجال الموطأ.
- الآية الكبرى في شرح قصة الإسراء.
- الأشباه والنظائر.
- الإتقان في علوم القرآن.
- الجامع الصغير من حديث البشير النذير.
- الجامع الكبير.
- الحاوي للفتاوى.
- الحبائك في أخبار الملائك.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور.
- الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة.
- الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج.
- الروض الأنيق في فضل الصديق.

- العرف الوردي في أخبار المهدي.
- الغرر في فضائل عمر.
- ألفية السيوطي.
- الكاوي على تاريخ السخاوي (ألفه بسبب خصومته مع السخاوي).
- اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة.
- المَدْرَج إلى المُدْرَج.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها.
- المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب.
- أسباب ورود الحديث.
- أسرار ترتيب القرآن.
- أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب.
- إرشاد المهتدين إلى نصرة المجتهدين.
- إعراب القرآن.
- إلقام الحجر لمن زكى ساب أبي بكر وعمر.
- تاريخ الخلفاء.
- تحذير الخواص من أحاديث القصاص.
- تحفة الأبرار بنكت الأذكار النووية.
- تدريب الراوى في شرح تقريب النواوي.
- تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك.
- تمهيد الفرش في الخصال الموجبة لظل العرش.
- تنوير الحوالك شرح موطأ مالك.
- تنبيه الغبيّ في تبرئة ابن عربي.

- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة.
- در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة.
- ذم المكس.
- شرح السيوطي على سنن النسائي.
- صفة صاحب الذوق السليم.
- طبقات الحفّاظ.
- طبقات المفسرين.
- عقود الجمان في علم المعاني والبيان.
- عقود الزبرجد على مسند الإمام أحمد في إعراب الحديث.
- عين الإصابة في معرفة الصحابة.
- كشف المغطي في شرح الموطأ.
- لب اللباب في تحرير الأنساب.
- لباب الحديث.
- لباب النقول في أسباب النزول.
- ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين.
- مشتهى العقول في منتهى النقول.
- مطلع البدرين فيمن يؤتى أجره مرتين.
- مفتاح الجنة في الاعتصام بالسنة.
- مفحمات الأقران في مبهمات القرآن.
- نظم العقيان في أعيان الأعيان.
- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع.
- الفارق بين المصنف والسارق وهو أول كتاب فقهي حول الملكية

الفكرية التي لم يتعرف عليها العالم إلا في عام ١٨٨٦م، من خلال اتفاقية برن لحقوق المؤلف.

وغير ذلك مما حوته كتب التراجم.

ثناء العلماء عليه:

لم أجد ترجم لهذا الإمام إلا وقد شهد له بالبراعة والتبحر، ولقد أثنى عليه شيوخه وأقرانه وتلاميذه والعلماء من بعده ممن قرأ كتبه. فيقول أبو الحسنات محمد محمد عبد الحليم اللكنوي في حواشيه على الموطأ بعد أن ذكر السيوطي: وتصانيفه كلها مشتملة على فوائد لطيفة وفرائد شريفة تشهد كلها بتبحره وسعة نظره ودقة فكره وأنه حقيق بأن يعد من مجددي الملة المحمدية في بدء المائة العاشرة وآخر التاسعة كما ادعاه بنفسه وشهد بكونه حفيا به ممن جاء بعده كعلي القارئ المكي في المرآة.

انقطاعه عن التدريس والقضاء والإفتاء :

قضى السيوطي فترة غير قصيرة في خصومات مع عدد من علماء عصره، كان ميدانها الحملات الشرسة في النقد اللاذع في الترجمة المتبادلة، ومن خصومه: البرهان الكركي، وأحمد بن محمد القسطلاني، والشمس الجوجري، غير أن أشد خصوماته وأعنفها كانت مع شمس الدين السخاوي، الذي اتهم السيوطي بسرقة بعض مؤلفاته، واغتصاب الكتب القديمة التي لا عهد للناس بها ونسبتها إلى نفسه. ولم يقف السيوطي مكتوف الأيدي في هذه الحملات، بل دافع عن نفسه بحماسة بالغة وكان من عادته أن يدعم موقفه وقراره بوثيقة ذات طابع أدبي، فألف رسالة في الرد على السخاوي، اسمها " مقامة الكاوي في الرد على السخاوي " نسب إليه فيها تزوير التاريخ، وأكل لحوم العلماء والقضاة ومشايخ الإسلام. وكان لهذه العلاقة المضطربة بينه وبين بعض علماء عصره، وما تعرض له

من اعتداء في الخانقاه البيبرسية أثر في اعتزال الإفتاء والتدريس والحياة العامة ولزوم بيته في روضة المقياس على النيل، وهو في الأربعين من عمره، وألف بمناسبة اعتزاله رسالة أسماها " المقامة اللؤلؤية "، ورسالة " التنفيس في الاعتذار عن ترك الإفتاء والتدريس ". وقد تنبه بعض خصوم السيوطي إلى خطئهم فيما صوبوه إلى هذا العالم الجليل من سهام في النقد والتجريح وخصومات ظالمة، فأعلنوا عن خطئهم، وفي مقدمتهم الشيخ القسطلاني الذي أراد أن يسترضي هذا العالم الجليل الذي لزم بيته وعزف عن لقاء الناس، فتوجه إليه حافيًا معتذرًا، غير أن هذا الأمر لم يجعل السيوطي يقطع عزلته ويعود إلى الناس، ولكنه استمر في تفرغه للعبادة والتأليف.

اعتزال السلاطين:

عاصر السيوطي ثلاثة عشر سلطانًا مملوكيًا، وكانت علاقته بهم متحفظة، وطابعها العام المقاطعة وإن كان ثمة لقاء بينه وبينهم، وضع نفسه في مكانته التي يستحقها، وسلك معهم سلوك العلماء الأتقياء، فإذا لم يقع سلوكه منهم موقع الرضا قاطعهم وتجاهلهم، فقد ذهب يومًا للقاء السلطان الأشرف قايتباي وعلى رأسه الطيلسان - عمامة طويلة - فعاتبه البعض، فأنشأ رسالة في تبرير سلوكه أطلق عليها " الأحاديث الحسان في فضل الطيلسان ". وفي سلطنة طومان باي الأول حاول هذا السلطان الفتك بالسيوطي، لكن هذا العالم هجر بيته في جزيرة الروضة واختفى فترة حتى عُزل هذا السلطان. وكان بعض الأمراء يأتون لزيارته، ويقدمون له الأموال والهدايا النفيسة، فيردها ولا يقبل من أحد شيئا، ورفض مرات عديدة دعوة السلطان لمقابلته، وألف في ذلك كتابًا أسماه " ما وراء الأساطين في عدم التردد على السلاطين ".

ريادة ثقافية في عصر العلماء:

كان السيوطي من أبرز معالم الحركة العلمية والدينية والأدبية في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري، حيث ملأ نشاطه العلمي في التأليف مختلف الفروع في ذلك الزمان من تفسير وحديث وفقه وتاريخ وطبقات ونحو ولغة وأدب وغيرها، فقد كان موسوعي الثقافة والاطلاع. وقد أعانه على كثرة تأليفه انقطاعه التام للعمل وهو في سن الأربعين حتى وفاته، وثراء مكتبته وغزارة علمه وكثرة شيوخه ورحلاته، وسرعة كتابته، فقد اتسع عمره التأليفي لمدة ٤٥ سنة، حيث بدأ التأليف وهو في السابعة عشرة من عمره، وانقطع له مدة ٢٢ عامًا متواصلة، ولو وُزع عمره على الأوراق التي كتبها لأصاب اليوم الواحد ٤٠ ورقة، على أن القسم الأكبر من تأليفه كان جمعًا وتلخيصًا وتذييلا على مؤلفات غيره، أما نصيبه من الإبداع الذاتي فجِدّ قليل. وقد تمنى السيوطي أن يكون إمام المائة التاسعة من الهجرة لعلمه الغزير، فيقول: " إني ترجيت من نعم الله وفضله أن أكون المبعوث على هذه المائة، لانفرادي عليها بالتبحر في أنواع العلوم ". وزادت مؤلفات السيوطي على الثلاثمائة كتاب ورسالة، عدّ له بروكلمان ٤١٥ مؤلفا، وأحصى له " حاجي خليفة " في كتابه " كشف الظنون " حوالي ٥٧٦ مؤلفا، ووصل بها البعض كابن إياس إلى ٦٠٠ مؤلف. ومن مؤلفاته في علوم القرآن والتفسير: " الإتقان في علوم التفسير "، و " متشابه القرآن "، و " الإكليل في استنباط التنزيل "، و " مفاتح الغيب في التفسير "، و " طبقات المفسرين "، و " الألفية في القراءات العشر ".

أما الحديث وعلومه، فكان السيوطي يحفظ مائتي ألف حديث كما روى عن نفسه، وكان مغرما بجمع الحديث واستقصائه لذلك ألف عشرات الكتب في هذا المجال، يشتمل الواحد منها على بضعة أجزاء، وفي أحيان أخرى لا يزيد عن بضع صفحات.. ومن كتبه: "

إسعاف المبطأ في رجال الموطأ "، و " تنوير الحوالك في شرح موطأ الإمام مالك "، و " جمع الجوامع "، و " الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة "، و " المنتقى من شعب الإيمان للبيهقي "، و " أسماء المدلسين "، و " آداب الفتيا "، و " طبقات الحفاظ ". وفي الفقه ألف " الأشباه والنظائر في فقه الإمام الشافعي "، و " الحاوي في الفتاوي "، و " الجامع في الفرائض " و " تشنيف الأسماع بمسائل الإجماع ". وفي اللغة وعلومها كان له فيها أكثر من مائة كتاب ورسالة منها: " المزهر في اللغة "، و " الأشباه والنظائر في اللغة "، و " الاقتراح في النحو "، و " التوشيح على التوضيح "، و " المهذب فيما ورد في القرآن من المعرب "، و " البهجة المرضية في شرح ألفية ابن مالك ". وفي ميدان البديع كان له: " عقود الجمان في علم المعاني والبيان "، و " الجمع والتفريق في شرح النظم البديع "، و " فتح الجليل للعبد الذليل ". وفي التاريخ والطبقات ألف أكثر من ٥٥ كتابًا ورسالة يأتي في مقدمتها: " حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة "، و " تاريخ الخلفاء "، و " الشماريخ في علم التاريخ "، و " تاريخ الملك الأشرف قايتباي "، و " عين الإصابة في معرفة الصحابة "، و " بغية الوعاة في طبقات النحاة "، و " نظم العقيان في أعيان الأعيان "، و " در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة "، و " طبقات الأصوليين ". ومن مؤلفاته الأخرى الطريفة: " منهل اللطايف في الكنافة والقطايف "، و " الرحمة في الطب والحكمة "، و " الفارق بين المؤلف والسارق "، و " الفتاش على القشاش "، و " الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض ". وقد شاءت إرادة الله أن تحتفظ المكتبة العربية والإسلامية بأغلب تراث الإمام السيوطي، وأن تطبع غالبية كتبه القيمة وينهل من علمه الكثيرون.

وفاته ورثائه :

توفي رضي الله عنه في سحر ليلة الجمعة تاسع جمادى الأولى سنة إحدى وعشرة وتسعمائة في منزله بروضة المقياس عن عمر بلغ اثنين وستين عاما وكان له مشهد عظيم، ودفن في حوش قوصون خارج باب القرافة، وصلي عليه بدمشق بالجامع الأموي يوم الجمعة، وقيل أخذ الناس قميصه وقبعته فاشترى بعض الناس قميصه من الناس بخمسة دنانير للتبرك به وباع قبعته بثلاثة دنانير لذلك أيضا.

وقد رثاه عبد الباسط بن خليل الحنفي بقوله:

مات جلال الدين غيث الورى ::: مجتهد العصر إمام الوجود

وحافظ السنة مهدي الهدى ::: ومرشد الضال بنفع يعود

فيا عيون انهملي بعده ::: ويا قلوب انفطري بالوقود

واظلمي يا دنيا إذ حق ذا ::: بل حق أن ترعد فيك الرعود

وحق للضوء بأن ينطفي ::: وحق للقائم فيك القعود

وحق للنور بأن يختفي ::: ولليالي البيض أن تبقى سود

وحق للناس بأن يحزنوا ::: بل حق أن كل بنفس يجود

وحق للأجيال خسرا وأن ::: تطوى السماء طيا كيوم الوعود

وأن يفور الماء والأرض أن ::: تميد وعم المصاب الوجود

مصيبة حلت فحلت بنا ::: وأرثت نار اشتعال الوجود

صبرنا الله عليها وأولاده ::: نعيما حل دار الخلود (١)

(١) انظر مقدمة كتاب حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة للحافظ جلال الدين السيوطي - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة - الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ=١٩٦٧م، وكتاب روضة الطالبين وعمدة المفتين للنووي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود - على محمد معوض، نشر دار الكتب العلمية، وكتاب جلال الدين السيوطي لمصطفى الشكعة: - ط مطبعة الحلبي ١٤٠١هـ، ١٩٨١م، وكتاب الحافظ جلال الدين السيوطي لعبد الحفيظ فرغلي القرني: - سلسلة أعلام العرب - الهيئة المصرية العامة

التعريف بتفسير السيوطي " الدر المنثور " وطريقة مؤلفه فيه:

عرَّف الجلال السيوطى نفسه هذا التفسير، وبيَّن لنا الحامل له على تأليفه، وذلك بمجموع ما ذكره في آخر كتاب الإتقان له، وما ذكره في مقدمة الدُرّ المنثور نفسه، فقال في آخر الإتقان (٢/ ١٨٣): " وقد جمعت كتاباً مسنداً فيه تفاسير النبى صلى الله عليه وسلم، فيه بضعة عشر ألف حديث ما بين مرفوع وموقوف، وقد تم ولله الحمد في أربع مجلدات، وسميته " ترجمان القرآن ".

وقال في مقدمة الدُرِّ المنثور (١/ ٢): " وبعد.. فلما ألَّفتُ كتاب ترجمان القرآن - وهو التفسير المُسْنَد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - وتم بحمد الله في مجلدات، فكان ما أوردته فيه من الآثار بأسانيد الكتب المخرَّجة منها واردات، رأيتُ قصور أكثر الهمم عن تحصيله، ورغبتهم في الاقتصار على متون الأحاديث دون الإسناد وتطويله، فلخَّصتُ منه هذا المختصر، مقتصراً فيه على متن الأثر، مصدراً بالعزو والتخريج إلى كل كتاب معتبر، وسميته بالدُرِّ المنثور، في التفسير المأثور ". ومن هاتين العبارتين يتبين لنا أن السيوطى اختصر كتابه الدُرّ المنثور من كتابه ترجمان القرآن، وحذف الأسانيد مخافة الملل، مع عزوه كل رواية إلى الكتاب الذي أخذها منه.

ويقول السيوطى في آخر الإتقان (٣/ ١٩): " وقد شرعتُ في تفسير جامع لجميع ما يُحتاج إليه من التفاسير المنقولة، والأقوال المعقولة، والاستنباطات والإشارات، والأعاريب واللغات، ونكت البلاغة ومحاسن البدائع وغير ذلك، بحيث لا يُحتاج معه إلى غيره أصلاً، وسميته بمجمع البحرين ومطلع البدرين، وهو الذي جعلت هذا

للكتاب - القاهرة - ١٩٩٠.

الكتاب - يعنى الإتقان مقدمة له ".

ومن هذه العبارة يتبين لنا أن كتاب: " مجمع البحرين، ومطلع البدرين " يشبه في منهجه وطريقته - إلى حد كبير - تفسير ابن جرير الطبرى، ولكن لا ندرى إذا كان السيوطى قد أتم هذا التفسير أم لا، ويظهر لنا أنه لا صلة بينه وبين كتاب الدُرّ المنثور، وذلك لأنى استعرضتُ كتاب الدُرّ المنثور فوجدته لا يتعرض فيه مطلقاً لما ذكره من منهجه في مجمع البحرين ومطلع البدرين، فلا استنباط، ولا إعراب، ولا نكات بلاغية، ولا مُحَسِّنات بديعية، ولا شيء مما ذكر أنه سيعرض له في مجمع البحرين ومطلع البدرين، وكل ما فيه هو سرد الروايات عن السَلَف في التفسير بدون أن يُعقّب عليها، فلا يُعَدِّل ولا يَجَرِّح، ولا يُضَعِّف ولا يُصَحِّح، فهو كتاب جامع فقط لما يُروى عن السَلَف في التفسير، أخذه السيوطى من البخارى، ومسلم، والنسائى، والترمذى، وأحمد، وأبى داود، وابن جرير، وابن أبى حاتم، وعبد بن حميد، وابن أبى الدنيا، وغيرهم ممن تَقَدَّمه ودَوَّن التفسير.

والسيوطى رجل مُغرم بالجمع وكثرة الرواية، وهو مع جلالة قدره، ومعرفته بالحديث وعلله، لم يتحر الصحة فيما جمع في هذا التفسير، وإنما خلط فيه بين الصحيح والعليل، فالكتاب يحتاج إلى تصفية حتى يتميز لنا عنه من سمينه، وهو مطبوع في ست مجلدات، ومتداوَل بين أهل العلم.

ولا يفوتنا هنا أن ننبه إلى أن كتاب الدُرّ المنثور، هو الكتاب الوحيد الذي اقتصر على التفسير المأثور من بين هذه الكتب التي تكلمنا عنها، فلم يخلط بالروايات التي نقلها شيئاً من عمل الرأى كما فعل غيره.

وإنما اعتبرنا كل هذه الكتب من كتب التفسير بالمأثور، نظراً لما امتازت به عمَّا عداها من الإكثار في النقل، والاعتماد على الرواية، وما كان وراء ذلك من محاولات تفسيرية أو استطرادات إلى نواح تتصل بالتفسير، فذلك أمر يكاد يكون ثانوياً بالنسبة لما جاء فيها من روايات عن السلَف في التفسير.

وإلى هنا نمسك عن الكلام عن بقية الكتب المؤلَّفة في التفسير المأثور لما قدّمناه من عدم وصول جميعها إلينا، ومن مخافة التطويل.. ولعل القارئ الكريم يتفق معى على أن هذه الكتب التي تقدَّمت، يغنى الكلام عنها عن الكلام عما عداها من الكتب التي نهجت هذا المنهج وسلكت هذا الطريق [١].

* * *

(١) الدكتور محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، ٤ / ٤٠.

ابن عطية

ابـن عطية

صاحب تفسير: المحرر الوجيز في الكتاب العزيز

ابن عطيه هو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسى المغربى الغرناطى الحافظ القاضى. ولى القضاء بمدينة المرية بالأندلس ولما تولّى توخى الحق وعدل في الحكم وأعز الخطة. ويقال: إنه قصد مرسية بالمغرب ليتولى قضاءها، فصُدَّ عن دخولها، وصُرِف منها إلى الرقة بالمغرب، واعتُدى عليه رحمه الله، وكان مولده سنة ٤٨١ هـ (إحدى وثمانين وأربعمائة)، وتُوفى بالرِّقة سنة ٥٤٦ هـ (ست وأربعين وخمسمائة من الهجرة)، وقيل غير ذلك.

مكانته العلمية:

نشأ القاضى أبو محمد بن عطية في بيت علم وفضل، فأبوه أبو بكر غالب بن عطية، إمام حافظ، وعالم جليل. رحل في طلب العلم وتفقه على العلماء. وجدَه عطية أنسل كثيراً لهم قدر وفيهم فضل، فلا عجب إذن أن يشبه الفرع أصله.

كان أبو محمد ابن عطية غاية في الدهاء والذكاء وحسن الفهم وجلاله التصرف، شغوفًا باقتناء الكتب، وكان على مبلغ عظيم من العلم، فكان فقيهاً جليلاً، عارفاً بالأحكام والحديث والتفسير، نحوياً لُغوياً، أديباً شاعراً، مقيداً ضابطاً، سُنِّياً فاضلا. وصفه صاحب " قلائد العقيان " بالبراعة في الأدب، والنظم، والنثر، وذكر شيئًا من شِعره، ووصفه أبو حيان في مقدمة البحر المحيط بأنه: " أجل مَنْ صنَّف في علم التفسير، وأفضل مَنْ تعرَّض فيه للتنقيح والتحرير ".

روى عن أبيه، وأبى علىّ الغسَّانى، والصفدى. وروى عنه أبو بكر ابن أبى حمزة، وأبو القاسم بن حبيش، وأبو جعفر بن مضاء، وغيرهم.

وقد خلَّف من المؤلفات كتاب التفسير، المسمى بـ " المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز "، وهو الكتاب الذي ترجمنا له وستتكلم عنه، كما ألَّف برنامجاً ضمنه مروياته وأسماء شيوخه، وقد حرر هذا الكتاب وأجاد فيه.

وعلى الجملة، فالقاضى أبو محمد ابن عطية عالِم له شهرته العلمية في نواح مختلفة، وقد عدَّه ابن فرحون في " الديباج المذهب " من أعيان مذهب المالكية، كما عدَّه السيوطى في " بغية الوعاة " من شيوخ النحو وأساطين النحاة.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

تفسير ابن عطية المسمى بـ " المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز " تفسير له قيمته العالية بين كتب التفسير وعند جميع المفسِّرين، وذلك راجع إلى أن مؤلفه أضفى عليه من روحه العلمية الفيّاضة ما أكسبه دقة، ورواجاً، وقبولاً. وقد لخصه مؤلفه - كما يقول ابن خلدون في مقدمته - من كتب التفاسير كلها - أى تفاسير المنقول - وتحرَّى ما هو أقرب إلى الصحة منها، ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس، حسن المنحى ".

والحق أن ابن عطية أحسن في هذا التفسير وأبدع، حتى طار صيته كل مطار، وصار أصدق شاهد لمؤلفه بإمامته في العربية وغيرها من النواحى العلمية المختلفة، ومع هذه الشهرة الواسعة لهذا الكتاب فإنه لا يزال مخطوطاً إلى اليوم، وهو يقع في عشر مجلدات كبار، ويوجد منه في دار الكتب المصرية أربعة أجزاء فقط: الجزء الثالث، والخامس، والثامن، والعاشر. وقد رجعتُ إلى هذه الأجزاء وقرأتُ منها ما شاء الله أن أقرأ، فوجدتُ المؤلف يذكر الآية ثم يفسِّرها بعبارة عذبة سهلة، ويورد من التفسير المأثور ويختار منه في غير إكثار، وينقل عن ابن جرير الطبرى كثيراً، ويناقش المنقول عنه

أحياناً، كما يناقش ما ينقله عن غير ابن جرير ويرد عليه. وهو كثير الاستشهاد بالشعر العربى، مَعْنِى بالشواهد الأدبية للعبارات، كما أنه يحتكم إلى اللغة العربية عندما يُوجه بعض المعاني، وهو كثير الاهتمام بالصناعة النحوية، كما أنه يتعرض كثيراً للقراءات ويُنزل عليها المعاني المختلفة.

ونجد أبا حيان في مقدمة تفسيره يعقد مقارنة بين تفسير ابن عطية وتفسير الزمخشرى فيقول: " وكتاب ابن عطية أنقل، وأجمع، وأخلص، وكتاب الزمخشرى ألخص، وأغوص ".

ونجد ابن تيمية يعقد مقارنة بين الكتابين - كتاب ابن عطية وكتاب الزمخشرى - في فتاواه فيقول: " وتفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشرى، وأصح نقلاً وبحثاً، وأبعد عن البدع وإن اشتمل على بعضها، بل هو خير منه بكثير، بل لعله أرجح هذه التفاسير ". كما يعقد مثل هذه المقارنة في مقدمته في أصول التفسير فيقول: " وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسُّنَّة والجماعة، وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشرى، ولو ذكر كلام السَلَف الموجود في التفاسير المأثورة عنهم على وجهه لكان أحسن وأجمل، فإنه كثيراً ما ينقل من تفسير محمد بن جرير الطبرى - وهو من أجَّلِ التفاسير وأعظمها قدراً - ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السَلَف لا يحكيه بحَال، ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين، وإنما يعنى بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم، وإن كان أقرب إلى السُّنَّة من المعتزلة ".

وأنا في أثناء قراءتى في هذا التفسير، رأيت ابن عطية عند تفسيره لقوله تعالى:{لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ} [يونس: ٢٦].. يقول ما نصه: " قالت فرقة هى الجمهور: الحُسنى: الجنة. والزيادة: النظر إلى الله عزَّ وجَلَّ، ورُوى في ذلك حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم،

رواه صهيب، ورُوى هذا القول عن أبى بكر الصدِّيق، وحُذيفة، وأبى موسى الأشعرى.. " ثم يقول: " وقالت فرقة: الحُسنى هى الحسنة، والزيادة هى تضعيف الحسنات إلى سبعمائة، فروتها حسب ما روى في نص الحديث وتفسير قوله تعالى:{يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ} [البقرة: ٢٦١]، وهذا قول يعضده النظر، ولولا عظم القائلين بالقول الأول لترجح هذا القول ".. ثم يأخذ في ذكر طرق الترجيح للقول الثاني.

وهذا يدلنا على أنه يميل إليه المعتزلة، أو على الأقل يقدِّر ما ذهبت إليه المعتزلة في مسألة الرؤية وإن كان يحترم مع ذلك رأى الجمهور. ولعل مثل هذا التصرف من ابن عطية هو الذي جعل ابن تيمية يحكم عليه بحكمه السابق (١).

* * *

(١) الدكتور محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، ٤ / ٣٥ - ٣٦.

البيضاوي

أعـــلام التفسيـــر

البيضاوى
وتفسيره : أنوار التنزيل وأسرار التأويل

البيضاوي هو قاضى القضاة، ناصر الدين أبو الخير، عبد الله بن عمر بن محمد بن علىّ، البيضاوى الشافعى، وهو من بلاد فارس، قال ابن قاضى شهبة في طبقاته: " صاحب المصنفات، وعالم أذربيجان، وشيخ تلك الناحية. ولى قضاء شيراز ". وقال السبكى: " كان إماماً مُبرَزاً نظَّاراً خَيِّراً، صالحاً متعبداً ". وقال ابن حبيب: " تكلَّم كل من الأئمة بالثناء على مصنفاته، ولو لم يكن له غير المنهاج الوجيز لفظه المحرر لكفاه ". ولى القضاء بشيراز، وتوفى بمدينة تبريز. قال السبكى والأسنوى: سنة ٦٩١ هـ (إحدى وتسعين وستمائة)، وقال ابن كثير وغيره: " سنة ٦٨٥هـ (خمس وثمانين وستمائة). ومن أهم مصنفاته: كتاب المنهاج وشرحه في أصول الفقه، وكتاب الطوالع في أصول الدين، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل في التفسير، وهو ما نحن بصدده الآن. وهذه الكتب الثلاثة من أشهر الكتب وأكثرها تداولاً بين أهل العلم.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

تفسير العلامة البيضاوى، تفسير متوسط الحجم، جمع فيه صاحبه بين التفسير والتأويل، على مقتضى قواعد اللغة العربية، وقرر فيه الأدلة على أصول أهل السُّنَّة. وقد اختصر البيضاوى تفسيره من الكشاف للزمخشرى، ولكنه ترك ما فيه من اعتزالات، وإن كان أحياناً يذهب إلى ما يذهب إليه صاحب الكشاف، ومن ذلك أنه عندما فسَّر قوله تعالى:{ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ} [البقرة: ٢٧٥] الآية، وجدناه يقول: " إلا قياماً كقيام المصروع، وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيُصرَع ".. ثم يفسِّر المس بالجنون ويقول: " وهذا أيضاً من

زعمانهم أنَّ الجنى يمس الرجل فيختلط عقله ".

ولا شك أن هذا موافق لما ذهب إليه الزمخشرى من أن الجن لا تسلط لها على الإنسان إلا بالوسوسة والإغواء.

كما أننا نجد البيضاوى قد وقع فيما وقع فيه صاحب الكشاف، من ذكره في نهاية كل سورة حديثاً في فضلها وما لقارئها من الثواب والأجر عند الله، وقد عرفنا قيمة هذه الأحاديث، وقلنا إنها موضوعة باتفاق أهل الحديث، ولستُ أعرف كيف اعترَّ بها البيضاوى فرواها وتابع الزمخشرى في ذكرها عند آخر تفسيره لكل سورة، مع ما له من مكانة علمية، وسيأتى اعتذار بعض الناس عنه في ذلك، وإن كان اعتذاراً ضعيفاً، لا يكتفى لتبرير هذا العمل الذي لا يليق بعالم كالبيضاوى له قيمته ومكانته. وكذلك استمد البيضاوى تفسيره من التفسير الكبير المسمى بمفاتيح الغيب للفخر الرازى، ومن تفسير الراغب الأصفهانى، وضم لذلك بعض الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين، كما أنه أعمل فيه عقله، فضمنه نكتاً بارعة، ولطائف رائعة، واستنباطات دقيقة، كل هذا في أسلوب رائع موجز، وعبارة تدُق أحياناً وتخفى إلا على ذى بصيرة ثاقبة، وفطنة نيِّرة. وهو يهتم أحياناً بذكر القراءات، ولكنه لا يلتزم المتواتر منها فيذكر الشاذ، كما أنه يعرض للصناعة النحوية، ولكن بدون توسع واستفاضة، كما أنه يتعرض عند آيات الأحكام لبعض المسائل الفقهية بدون توسع منه في ذلك، وإن كان يظهر لنا أنه يميل غالباً لتأييد مذهبه وترويجه، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: { وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ } [البقرة: ٢٢٨].. يقول ما نصه: وقُروء جمع قُرء، وهو يُطلق للحيض كقوله عليه الصلاة والسلام:{دَعِى الصلاة أيام أقرائك} وللطُهر الفاصل بين الحيضتين، كقول الأعشى:

مورثة مالاً وفي الحى رفعة ::: لما ضاع فيها من قُروء نسائكما

وأصله الانتقال من الطهر إلى الحيض، وهو المراد في الآية، لأنه الدال على براءة الرحم لا الحيض كما قاله الحنفية، لقوله تعالى: {فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ } [الطلاق: ١]، أى وقت عدّتهن، والطلاق المشروع لا يكون في الحيض. وأما قوله عليه الصلاة والسلام:{**طلاق الأمة تطليقتان وعِدتَّها حيضتان**}، فلا يُقاوم ما رواه الشيخان في قصة ابن عمر:{**مُرْهُ فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعد، وإن شاء طلق قبل أن يمس، فتلك العِدَّة التي أمر الله تعالى أن تُطَلَّق لها النساء**}... إلخ. كذلك نجد البيضاوى كثيراً ما يقرر مذهب أهل السُّنَّة ومذهب المعتزلة، عندما يعرض لتفسير آية لها صلة بنقطة من نقط النزاع بينهم.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى:{ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ } [البقرة: ٢ - ٣]، نراه يعرض لبيان معنى الإيمان والنفاق عند أهل السُّنَّة والمعتزلة والخوارج. بتوسع ظاهر، وترجيح منه لمذهب أهل السُّنَّة.

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في أول سورة البقرة أيضاً:{وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ } [البقرة: ٣]، نراه يتعرض للخلاف الذي بين أهل السُّنَّة والمعتزلة فيما يُطلق عليه اسم الرزق، ويذكر وجهة نظر كل فريق، مع ترجيحه لمذهب أهل السُّنَّة.

والبيضاوى رحمه الله مُقلٌ جداً من ذكر الروايات الإسرائيلية، وهو يُصدِّر الرواية بقوله: رُوى، أو قيل... إشعاراً منه بضعفها.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى:{ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾} [النمل: ٢٢]، يقول بعد فراغه في تفسيرها: رُوى أنه عليه السلام لما أتم بناء بيت المقدس تجهز للحج.. إلى آخر القصة التي يقف البيضاوى بعد روايتها موقف المجوِّز لها. غير القاطع بصحتها، حيث يقول ما نصه: " ولعله في

عجائب قدرة الله وما خصّ به خاصة عباده أشياء أعظم من ذلك، يستكبرها مَن يعرفها، ويستنكرها مَن ينكرها ".

ثم إن البيضاوى إذا عرض للآيات الكونية، فإنه لا يتركها بدون أن يخوض في مباحث الكون والطبيعة، ولعل هذه الظاهرة سرت إليه من طريق التفسير الكبير للفخر الرازى، الذي استمد منه كما قلنا. فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى:{فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ} [الصافات: ١٠]، نراه يعرض لحقيقة الشهاب فيقول: الشهاب ما يُرى كان كوكباً انقض، ثم يرد على مَن يخالف ذلك فيقول: وما قيل إنه بخار يصعد إلى الأثير فيشتعل فتخمين - إن صَحَّ - لم يُناف ذلك ".. إلى آخر كلامه في هذا الموضوع.

هذا وأرى أن أسوق لك بعض العبارات الشارحة لمنهج البيضاوى في تفسيره، والمبيِّنة لمصادره التي رجع إليها واختصره منها، كشاهد على بعض ما ذكرناه من ناحية، وتتميماً للفائدة من ناحية أخرى.

قال البيضاوى نفسه في مقدمة تفسيره هذا بعد الديباجة ما نصه: " ولطالما أحدَّث نفسى بأن أصنِّف في هذا الفن - يعنى التفسير - كتاباً يحتوى على صفوة ما بلغنى من عظماء الصحابة، وعلماء التابعين ومَن دونهم من السَلَف الصالحين، وينطوى على نِكات بارعة، ولطائف رائعة، استنبطتها أنا ومن قبلى مِن أفاضل المتأخرين، وأماثل المحققين، ويعرب عن وجوه القراءات المشهورة المْزِّية إلى الأئمة الثمانية المشهورين، والشواذ المروية عن القرَّاء المعتبرين، إلاَّ أن قصور بضاعتى يُثبطنى عن الإقدام، ويمنعنى عن الانتصاب في هذا المقام، حتى سنح لى بعد الاستخارة ما صمم به عزمى على الشروع فيما أردته، ولاإتيان بما قصدته، ناوياً أن أسميه بأنوار التنزيل وأسرار التأويل ".

ويقول في آخر الكتاب ما نصه: " وقد اتفق إتمام تعليق سواد هذا الكتاب المنطوى على فوائد ذوى الألباب. المشتمل على خلاصة أقوال أكابر الأئمة، وصفوة آراء أعلام الأمة، في تفسير القرآن وتحقيق معانيه. والكشف عن عويصات ألفاظه ومعجزات مبانيه، مع الإيجاز الخالى عن الإخلال، والتلخيص العارى عن الإضلال، الموسوم بأنوار التنزيل وأسرار التأويل ".

وكأنِّى به في هذه الجملة الأخيرة، يشير إلى أنه اختصر من تفسير الكشاف ولخَّصَ منه، ضمن ما اختصره ولخَّصَه من كتب التفسير الأخرى، غير أنه ترك ما فيه من نزعات الضلال، وشطحات الاعتزال.

ويقول جلال السيوطى - رحمه الله - في حاشيته على هذا التفسير المسماة بـ " نواهد الأبكار وشوارد الأفكار " ما نصه: " وإن القاضى ناصر الدين البيضاوى لخَّصَ هذا الكتاب فأجاد، وأتى بكل مُستجاد، وماز فيه أماكن الاعتزال، وطرح موضع الدسائس وأزال، وحرَّر مُهمات، واستدرك تتمات، فظهر كأنه سبيكة نِضار، واشتهر اشتهار الشمس في رائعة النهار، وعكف عليه العاكفون، ولهَج بذكر محاسنه الواصفون، وذاق طعم دقائقه العارفون، فأكَبَّ عليه العلماء تدريساً ومطالعة، وبادروا إلى تلقيه بالقبول رغبة فيه ومسارعة ".

ويقول صاحب كشف الظنون ما نصه: " وتفسيره هذا - يريد تفسير البيضاوى - كتاب عظيم الشأن غنى عن البيان، لخَّصَ فيه من الكشاف ما يتعلق بالإعراب والمعانى والبيان، ومن التفسير الكبير ما يتعلق بالحكمة والكلام، ومن تفسير الراغب ما يتعلق بالاشتقاق وغوامض الحقائق ولطائف الإشارات. وضم إليه ما وَرَّى زناد فكره من الوجوه المعقولة، فجلا رين الشك عن السريرة، وزاد في العلم بسطة وبصيرة، كما قال مولانا المنشى:

أولـــــوا الألبــــــاب لم يـــــأتوا ::: بكشـــــف قنــــاع مـــــا يُتلــــى
ولكــــــن كــــــان القاضـــــى ::: يــــــد بيضــــــاء لا تُبلــــــى

ولكونـه متبحـراً جـال فـي ميدان فرسـان الكـلام، فـأظهر مهارتـه فـي العلوم حسبما يليق بالمقام، كشف القناع عن تـارة عن وجوه محاسن الإشــارة، ومُلــح الاســتعارة، وهتــك الأســتار أخــرى عــن أســرار المعقولات بيد الحكمة ولسانها. وترجمان المناطقة وميزاتها، فحل ما أشْكَلَ علـى الآنـام، وذلّـل لهـم صِعاب المـرام، وأورد فـي المباحـث الدقيقة مـا يُؤْمَنُ بـه عن الشُبَه المضـلة، وأوضـح لهـم منـاهج الأدلـة. والذي ذكره من وجوه التفسير ثانياً أو ثالثاً أو رابعاً بلفظ " قيل "، فهو ضعيف ضعف المرجوح أو ضعف المردود.

وأما الوجه الذي تفرَّد فيه، وظن بعضهم أنـه ممـا لا ينبغـى أن يكون من الوجوه التفسيرية السُّنِّية، كقوله: وحمل الملائكة العرش وحفيفهم حولـه مجـاز عـن حفظهم وتـدبيرهم لـه، ونحـوه، فهـو ظـن مـن لعلـه يقصر فهمه عن تصور مبانيه، ولا يبلغ علمه إلـى الإحاطـة بمـا فيـه، فمَن اعترض بمثله علـى كلامـه كأنـه ينصب الحبالـة للعنقاء، ويروم أن يقـنص نسـر السـماء، لأنـه مالـك زمـام العلـوم الدينيـة، والفنـون اليقينيـة، علـى مذهب أهـل السُّنَّة والجماعـة. وقد اعترفوا لـه قاطبـة بالفضـل المطلـق، وسلّموا إليـه قصـب السـبق، فكـان تفسيره يحتـوى فنوناً من العلم وعرة المسالك، وأنواعاً من القواعد المختلفة الطرائق، وقلّ من برز في فن إلا وصدَّه عن سواه وشغله، والمرء عدو لمـا جهله، فلا يصل إلى مرامه إلا من نظر إليه بعين فكره، وأعمى عين هواه، واستعبد نفسه في طاعة مولاه، حتـى يسلم من الغلط والزلـل، ويقتدر علـى رد السفسطة والجدل.

وأما أكثر الأحاديث التي أوردها في أواخر السور، فإنه لكونه ممن صفت مرآة قلبه، وتعرّض لنفحات ربه، تسامح فيه، وأعرض عن أسباب التجريح والتعديل، ونحا نحو الترغيب والتأويل، عالماً بأنها مما فاه صاحبه بزور، ودلَّى بغرور.

ثم إن هذا الكتاب رُزق من عند الله سبحانه وتعالى بحسن القبول عند جمهور الأفاضل والفحولَ، فعكفوا عليه بالدرس والتحشية، فمنهم من علَّق تعليقه على سورة منه، ومنهم من حشى تحشية تامة، ومنهم من كتب على بعض مواضع منه ".. ثم عَدَّ من هذه الحواشى ما يزيد عدده على الأربعين، ولا أطيل بذكرها، ومَن شاء الاطلاع على ذلك فليرجع إليه في موضعه الذي أشرت إليه، وحسبى أن أقول: إن أشهر هذه الحواشى وأكثرها تداولاً ونفعاً: حاشية القاضى زاده، وحاشية الشهاب الخفاجى، وحاشية القونوى.

وجملة القول.. فالكتاب من أمهات كتب التفسير، التي لا يستغنى عنها من يريد أن يفهم كلام الله تعالى، ويقف على أسراره ومعانيه، وهو مطبوع عدة طبعات، ومتوسط في حجمه [1].

* * *

(١) الدكتور محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، ٤ / ٥٥ - ٥٧.

النسفـــي

أعــلام التفسيـر

النسفى

وتفسيره: " مدارك التنزيل وحقائق التأويل "

النسفي هو أبو البركات، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى الحنفى، أحد الزُّهاد المتأخرين، والأئمة المعتبرين، كان إماماً كاملاً عديم النظير في زمانه، رأساً في الفقه والأصول، بارعاً في الحديث ومعانيه، بصيراً بكتاب الله تعالى، وهو صاحب التصانيف المفيدة المعتبرة في الفقه والأصول وغيرهما. فمن مؤلفاته: متن الوافى في الفروع، وشرحه الكافى، وكنز الدقائق في الفقه، والعُمدة في أصول الدين، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل، وهو التفسير الذي نحن بصدد الكلام عنه، وغير ذلك من المؤلَّفات التي تداولها العلماء، وتناولوها دراسة وبحثاً، وليس هذا التراث العلمى بكثير على رجل تفقَّه على كثير من مشايخ عصره وأخذ عنهم، ومن هؤلاء: شمس الأئمة الكردى وعليه تفقه، وأحمد بن محمد العتابى الذي روى عنه الزيادات. وكانت وفاة النسفى - رحمه الله - سنة ٧٠١ هـ (إحدى وسبعمائة من الهجرة)، ودفن ببلدة أيذج فرضى الله عنه وأرضاه.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

هذا التفسير، اختصره النسفى - رحمه الله - من تفسير البيضاوى ومن الكشاف للزمخشرى، غير أنه ترك ما في الكشاف من الاعتزالات، وجرى فيه على مذهب أهل السُّنَّة والجماعة، وهو تفسير وسيط بين الطول والقصر، جمع فيه صاحبه بين وجوه الإعراب والقراءات، وضمنه ما اشتمل عليه الكشاف من النكت البلاغية، والمحسنَّات البديعية، والكشف عن المعاني الدقيقة الخفية، وأورد فيه ما أورده الزمخشرى في تفسيره من الأسئلة والأجوبة، لكن لا على طريقته من قوله: " فإن قيل... قلت " بل جعل ذلك في الغالب كلاماً مدرجاً في ضمن شرحه للآية، كما أنه لم يقع فيما وقع

فيـه صـاحب الكشـاف مـن ذكـره للأحاديـث الموضـوعة فـي فضـائل السور.

هذا وقد أورد النسفى في مقدمة تفسيره عبارة قصيرة، أوضح فيها عـن طريقتـه التـي سـلكها فيـه، وأرى أن أسـوقها لـك بنصـها لتمـام الفائدة:

قـال رحمـه الله: " قـد سـألنى مـن تتعـين إجابتـه، كتابـاً وسـطاً فـي التأويلات، جامعا لوجوه، الإعراب والقراءات، متضمناً لدقائق علمى البـديع والإشـارات، حاليـاً بأقاويـل أهل السُّنَّة والجماعـة، خاليـاً عن أباطيـل أهـل البـدع والضـلالة، لـيس بالطويـل الممـل، ولا بالقصـير المخل، وكنت أُقدِّم فيه رِجْلاً وأؤخـر أخرى، استقصـاراً لقوة البَشـر عن درك هذا الوطر، وأخذاً لسبيل الحذر عن ركوب متن الخطر، حتى شرعتُ فيه بتوفيق الله والعوائق كثيرة، وأتممته في مدة يسيرة، وسميته بمدارك التنزيل وحقائق التأويل ".

وقـال صـاحب كشـف الظنـون: " اختصـره - يعنـى تفسير النسـفى - الشيخ زين الدين، أبو محمد، عبد الرحمن بن أبى بكر بن العينـى، وزاد فيه ". ولكن لم يقع في يدنا هذا المختصر، ولـم نظفر بـه حتـى نحكم عليه.

قرأتُ فـي هـذا التفسـير فوجدتـه كمـا قلـت آنفـاً مـوجز العبـارة سـهل المأخـذ، مختصـراً مـن تفسـير الكشـاف، جامعـاً لمحاسـنه، متحاشـياً لمساوئه، ومن تفسير البيضاوى أيضاً حتى إنه ليأخذ عبارتـه بنصـها أو قريباً منه ويضمنها تفسيره.

خوضه في المسائل النحوية:

كـذلك وجدتـه - كمـا يقـول صـاحبه - جامعـاً بـين وجـوه الإعـراب والقراءات، غير أنه من ناحية الإعراب لا يستطرد كثيراً. ولا يزج

بالتفاصيل النحوية في تفسيره كما يفعل غيره، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى:{ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ } [البقرة: ٢١٧].. الآية.

يقول ما نصه: " والمسجد الحرام " : عطف على " سبيل الله "، أى وَصَدّ عن سبيل الله وعن المسجد الحرام، وزعم الفرّاء أنه معطوف على الهاء في " به "، أى كفر به وبالمسجد الحرام، ولا يجوز عند البصريين العطف على الضمير المجرور إلا بإعادة الجار، فلا تقول: مررت به وزيد، ولكن تقول: بزيد، ولو كان معطوفاً على الهاء هنا لقيل: وكفر به وبالمسجد الحرام.

موقفه من القراءات:

وأما من ناحية القراءات فهو ملتزم للقراءات السبع المتواترة مع نسبة كل قراءة إلى قارئها.

خوضه في مسائل الفقه:

كذلك عند تفسيره لآية من آيات الأحكام نجده يعرض للمذاهب الفقهية التي لها تعلق وارتباط بالآية، ويوجه الأقوال ولكن بدون توسع.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى:{ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ } [البقرة: ٢٢٢].

يقول ما نصه: "... ثم عند أبى حنيفة وأبى يوسف - رحمهما الله - يجتنب ما اشتمل عليه الإزار. ومحمد - رحمه الله - لا يُوجب إلا اعتزال الفَرْج، وقالت عائشة رضى الله عنها: يجتنب شعار الدم وله ما سوى ذلك.

{وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ} مجامعين، أو: ولا تقربوا مجامعتهن{حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ}

بالتشديد - كوفى غير حفص - أى يغتسلن، وأصله يتطهرن فأدغم التاء في الطاء لقرب مخرجيهما. وغيرهم{يَطْهُرْنَ} أى ينقطع دمهن، والقراءتان كآيتين، فعملنا بهما. وقلنا: له أن يقربها في أكثر الحيض بعد انقطاع الدم وإن لم تغتسل، عملاً بقراءة التخفيف، وفي أقل منه لا يقربها حتى تغتسل أو يمضى عليها وقت الصلاة، عملاً بقراءة التشديد، والحمل على هذا أول من العكس، لأنه حينئذ يجب ترك العمل بإحداهما لما عُرف. وعند الشافعى - رحمه الله - لا يقربها حتى تطهر وتتطهر، دليله قوله تعالى:{فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ} [البقرة: ٢٢٢]: فجامعوهن، فجمع بينهما.. ".

وهو ينتصر لمذهبه الحنفى ويرد على مَنْ خالفه في كثير من الأحيان، وإن أردت الوقوف على ذلك فارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالى:{ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ } [البقرة: ٢٢٨].. (جـ ١ ص ٨٩)؛ وعند تفسيره لقوله تعالى:{وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ } [البقرة: ٢٣٧]. (جـ ١ ص ٩٥) وعند تفسيره لقوله تعالى:{أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ} [الطلاق: ٦]. الآية، (جـ ٤ص ٢٠١).

موقفه من الإسرائيليات:

ومما نلحظه على هذا التفسير أنه مُقِل جداً في ذكره للإسرائيليات، وما يذكره من ذلك يمر عليه بدون أن يتعقبه أحياناً، وأحياناً يتعقبه ولا يرتضيه.

فمثلاً نجده عند تفسيره لقوله تعالى:{وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ} [النمل: ١٦]، يقول: روى أنه صاحب فاختة فأخبر أنها تقول: ليت ذا الخلق لم يُخلقوا، وصاح طاووس فقال: يقول: كما تدين تدان. وصاح هدهد فقال: يقول: استغفروا الله يا مذنبون. وصاح

خطاف فقال: يقول: قدِّموا خيراً تجدوه، وصاحت رخمة فقال: تقول: سبحان ربى الأعلى ملء سمائه وأرضه، وصاح قمرى فأخبر أنه يقول: سبحان ربى الأعلى، وقال: الحدأة تقول: كل شيء هالك إلا الله، والقطاة تقول: مَن سكت سلم، والديك يقول: اذكروا الله يا غافلون، والنسر يقول: يا بن آدم، عِشْ ما شئت آخرك الموت، والعُقاب يقول: في البُعد عن الناس أُنس. والضفدع يقول: سبحانه ربى القدوس.

ثم يتكلم عن قوله تعالى:{وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ} [النمل: ١٦]، بدون أن يتعقب ما ذكره من ذلك كله.

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى:{وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾} [النمل: ٣٥].. نراه يذكر خبر هدية بلقيس لسليمان وما كان من امتحانها له، وهو خبر أشبه ما يكون بقصة نسجها خيال شخص مسرف في تخيله، ومع ذلك فلا يُعَقّب عليها الإمام النسفى بكلمة واحدة.

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى:{وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾} [ص: ٢١ - ٢٢].. نراه - بعد أن يذكر من الروايات ما لا يتنافى مع عصمة داود عليه السلام - يقول ما نصه: " وما يُحكى أنه بعث مرة بعد مرة أوريا إلى غزوة البلقاء وأحب أن يُقتل ليتزوجها - يعنى زوجه أوريا - فلا يليق من المتسلمين بالصلاح من أفناء الناس، فضلاً عن بعض أعلام الأنبياء، وقال علىّ رضى الله عنه: مَن حدَّثكم بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص، جلدته مائة وستين، وهو حد الفرية على الأنبياء ".

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى:{ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ

أَنَابَ ﴿٣٤﴾} [ص: ٣٤].. نراه يذكر من الروايات ما لا يتنافى مع عمصة سليمان عليه السلام، ثم يقول ما نصه: " وأما ما يُروى من حديث الخاتم والشيطان، وعبادة الوثن في بيت سليمان عليه السلام، فمن أباطيل اليهود ".

ففى هذه الآية الأخيرة وما قبلها نجد النسفى - رحمه الله - يتصدى للتنبيه والرد على القصص المكذوب الذي يتنافى مع عصمة الأنبياء، ولا يتساهل هنا كما تساهل فيما مثّلنا به قبل ذلك، ولعله يرى أن كل ما يمس العقيدة من هذا القصص يجب التنبيه على عدم صحته، وما لا يمس العقيدة فلا مانع من روايته بدون تعقيب عليه، ما دام يحتمل الصدق والكذب في ذاته، ولا يتنافى مع العقل أو يتصادم مع الشرع. هذا.. وإن الكتاب لمتداول بين أهل العلم، ومطبوع في أربعة أجزاء متوسطة الحجم، وقد نَفَّعَ الله به الناس كما نفَّعَهم بغيره من مؤلّفات النسفى رحمه الله [١].

* * *

(١) الدكتور محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، ٤ / ٥٧ - ٥٩.

الخازن علاء الدين

أعـلام التفسيـر

الخازن علاء الدين أو الحسن
صاحب تفسير: لباب التأويل في معانى التنزيل

الخازن هو علاء الدين، أبو الحسن، علىّ بن محمد بن إبراهيم بن عمر بن خليل الشيحى. البغدادى، الشافعى، الصوفى، المعروف بالخازن. اشتهر بذلك لأنه كان خازن كتب خانقاه السميساطية بدمشق. ولد ببغداد سنة ٦٧٨ هـ (ثمان وسبعين وستمائة من الهجرة)، وسمع بها من ابن الدوليبى، وقدم دمشق فسمع من القاسم ابن مظفر ووزيرة بنت عمر، واشتغل بالعلم كثيراً. قال ابن قاضى شهبة: " كان من أهل العلم، جمع وألَّف، وحدَّث ببعض مصنفاته ". وقد خَلَّف رحمه الله كتباً جمَّة في فنون مختلفة، فمن ذلك: لُبَاب التأويل في معانى التنزيل، وهو التفسير الذي نريد الكلام عنه، وشرح عمدة الأحكام، ومقبول المنقول في عشر مجلدات، جمع فيه بين مسندى الشافعى وأحمد والكتب الستة والموطأ وسنن الدارقطنى، ورتَّبه على الأبواب، وجمع سيرة نبوية مطوَّلة، وكان رحمه الله صوفياً حسن السمت بشوش الوجه، كثير التودد للناس. توفى سنة ٧٤١ هـ (إحدى وأربعين وسبعمائة من الهجرة) بمدينة حلب، فرحمه الله رحمة واسعة.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

هذا التفسير اختصره مؤلفه من معالم التنزيل للبغوى، وضم إلى ذلك ما نقله ولخّصه من تفاسير من تقدَّم عليه، وليس له فيه - كما يقول - سوى النقل والانتخاب، مع حذف الأسانيد وتجنب التطويل والإسهاب.

وهو مكثر من رواية التفسير المأثور إلى حد ما، مَعْنِيٌّ بتقرير الأحكام وأدلتها، مملوء بالأخبار التاريخية، والقصص الإسرائيلى الذي لا يكاد يسلم كثير منه أمام ميزان العلم الصحيح، والعقل السليم،

وأرى أن أسوق هنا ما قاله الخازن نفسه في مقدمة تفسيره، مبيِّناً به طريقته التي سلكها، ومنهجه الذي نهجه فيه، وفيها غِنى عن كل شئ.
قال رحمه الله تعالى: ولما كان كتاب معالم التنزيل، الذي صنَّفه الشيخ الجليل، والحَبْر النبيل، الإمام العالم محيى السُّنَّة، قدوة الأمة، وإمام الأئمة، مفتى الفرق، ناصر الحديث، ظهير الدين، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوى - قدَّس الله روحه، ونوَّر ضريحه - مِن أجَّلَّ المصنفات في علم التفسير وأعلاها، وأنبلها وأسناها. جامعاً للصحيح من الأقاويل، عارياً عن الشُبه والتصحيف والتبديل، محلىّ بالأحاديث النبوية، مطرزاً بالأحكام الشرعية، موشىً بالقصص الغريبة، وأخبار الماضين العجيبة، مُرصعاً بأحسن الإشارات، مخرجاً بأوضح العبارات، مُفرغاً في قالب الجمال بأفصح مقال، فرحم الله تعالى مُصنِّفه وأجزل ثوابه. وجعل الجنة متقلبه ومآبه.
لما كان هذا كتاب كما وصفتُ، أحببتُ أن أنتخب من غُرَرِ فوائده، ودُرَرِ فرائده، وزواهر نصوصه، وجواهر فصوصه، مختصراً جامعاً لمعانى التفسير، ولُباب التأويل والتعبير، حاوياً لخلاصة منقوله، متضمناً لنكته وأصوله، مع فوائد نقلتها، وفرائد لخَّصتها من كتب التفسير المصنَّفة، في سائر علومه المؤلَّفة، ولم أجعل لنفسى تصرفاً سوى النقل والانتخاب، مجتنباً حد التطويل والإسهاب، وحذفتُ منه الإسناد لأنه أقرب إلى تحصيل المراد، فما أوردتُ فيه من الأحاديث النبوية والأخبار المصطفوية، على تفسير آية أو بيان حكم - فإن الكتاب يُطلب بيانه من السُّنَّة، وعليها مدار الشرع وأحكام الدين - عزوتُه إلى مخرجه، وبيَّنتُ اسم ناقله، وجعلتُ عوض كل اسم حرفاً يُعرف به، ليهون على الطالب طلبه. فما كان من صحيح أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى فعلامته قبل ذكر الصحابى

الراوى للحديث (خ). وما كان من صحيح أبى الحسين مسلم ابن الحجاج النيسابورى فعلامته (م). وما كان مما اتفقا عليه فعلامته (ق). وما كان من كتب السنن، كسنن أبى داود، والترمذى، والنسائى فإنى أذكر اسمه بغير علامة. وما لم أجده في هذه الكتب ووجدت البغوى قد أخرجه بسند له انفرد به. قلت: روى البغوى بسنده، وما رواه البغوى بإسناد الثعلبى قلت: روى البغوى بإسناد الثعلبى. وما كان فيه من أحاديث زائدة وألفاظ متغيرة فاعتمده، فإنى اجتهدت في تصحيح ما أخرجته من الكتب المعتبرة عند العلماء كالجمع بين الصحيحين للحميدى، وكتاب جامع الأصول لابن الأثير الجزرى، ثم إنى عوَّضتُ عن حذف الإسناد شرح غريب الحديث وما يتعلق به. ليكون أكمل فائدة في هذا الكتاب، وأسهل على الطُلاب، وسقته بأبلغ ما قدرتُ عليه من الإيجاز وحسن الترتيب، مع التسهيل والتقريب. وينبغى لكل مؤلف كتاباً في فن قد سُبق إليه، أن لا يخلو كتابه من خمس فوائد: استنباط شيء إن كان معضلاً. أو جمعه إن كان متفرقاً. أو شرحه إن كان غامضاً. أو حُسْن نظم وتأليف. أو إسقاط حشو وتطويل، وأرجو ألاَّ يخلو هذا الكتاب عن هذه الخصال التي ذكرت. وسمَّيته: " لُباب التأويل في معانى التنزيل ".

ثم قدَّم الخازن لتفسيره بخمسة فصول:

الفصل الأول: في فضل القرآن وتلاوته وتعليمه.

الفصل الثاني: في وعيد مَن قال في القرآن برأيه من غير علم، ووعيد من أوتى القرآن فنسيه ولم يتعهده.

الفصل الثالث: في جمع القرآن وترتيب نزوله، وفي كونه نزل على سبعة أحرف.

الفصل الرابع: في كون القرآن نزل على سبعة أحرف وما قيل في ذلك.

الفصل الخامس: في معنى التفسير والتأويل. ثم ابتدأ بعد ذلك في التفسير.

توسعه في ذكر الإسرائيليات:

وقد قرأت في هذا التفسير كثيراً فوجدته يتوسع في ذكر القصص الإسرائيلى وكثيراً ما ينقل ما جاء من ذلك عن بعض التفاسير التي تعنى بهذه الناحية كتفسير الثعلبى وغيره، وهو في الغالب لا يُعقّب على ما يذكر من القصص الإسرائيلى، ولا ينظر إليه بعين الناقد البصير، وإن كان في بعض المواضيع لا يترك القصة تمر بدون أن يُبَيِّن لنا ضعفها أو كذبها، ولكن على ندرة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى:{وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ} [ص: ٢١ - ٢٤]، نراه يسوق قصصاً أشبه ما يكون بالخرافة كقصة الشيطان الذي تمثَّل لداود في صورة حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن، وجناحاها من الدُّر والزبرجد، فطارت ثم وقعت بين رجليه وألهته عن صلاته، وقصة المرأة التي وقع بصره عليها فأعجبه جمالها فاحتال على زوجها حتى قُتِل رجاء أن تسلم له هذه المرأة التي فُتِنَ بها وشُغِفَ بحبها، وغير ذلك من الروايات العجيبة الغريبة، ولكنه يأتى بعد كل هذا فيقول: " فصل في تنزيه داود عليه الصلاة والسلام عما لا يليق به ويُنسب إليه " ويُفَنِّد في هذا الفصل كل ما ذكره مما يتنافى مع عصمة نبى الله داود عليه السلام.

ولكنَّا نرى الخازن يمر بقصص كثيرة لا يُعقّب عليها، مع أن بعضها

غاية في الغرابة، وبعضها مما يخل بمقام النبوَّة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى:{إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ} [الكهف: ١٠].. الآية، نراه يذكر قصة أصحاب الكهف، وسبب خروجهم إليه عن محمد بن إسحاق ومحمد بن يسار، وهى غاية في الطول والغرابة ومع ذلك فهو يذكرها ولا يُعقّب عليها بلفظ واحد.

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى:{وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ} [الأنبياء: ٨٣ - ٨٤].. نراه يروى في حق أيوب عليه السلام، قصة طويلة جداً عن وَهب ابن منبَّه، وهى مما لا يكاد يقرها الشرع أو يُصدِّقها العقل، لما فيها من المنافاة لمقام النبوَّة، ومع ذلك، فهو يذكر هذه القصة ويمر عليها بدون أن يُعَقّب عليها بأية كلمة.

عنايته بالأخبار التاريخية:

كذلك نلاحظ على هذا التفسير أنه يفيض في ذكر الغزوات التي كانت على عهد النبى صلى الله عليه وسلم وأشار إليها القرآن. فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى:{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾} [الأحزاب: ٩] نراه بعد أن يفرغ من التفسير يقول: " ذكر غزوة الخندق وهى الأحزاب " ثم يذكر وقائع الغزوة وما جرى فيها باستفاضة وتوسع.

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى:{ وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴿٢٧﴾} [الأحزاب: ٢٧].. نراه يستطرد إلى ذكر غزوة بنى قريظة، بتوسع ظاهر، وتفصيل تام.

عنايته بالناحية الفقهية:

كذلك نجد هذا التفسير يعنى جد العناية بالناحية الفقهية، فإذا تكلَّم عن آية من آيات الأحكام، استطرد إلى مذاهب الفقهاء وأدلَّتهم، وأقحم في التفسير فروعاً فقهية كثيرة، قد لا تهم المفسِّر بوصف كونه مفسِّراً في قليل ولا كثير.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى:{ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾} [البقرة: ٢٢٦]، نراه بعد أن ينتهى من التفسير يقول: " فروع تتعلق بحكم الآية " ثم يذكر خمسة فروع - الفرع الأول: في حكم ما إذا حف أنه لا يقرب زوجته أبداً أو مدة هى أكثر من أربعة أشهر، والثانى: في حكم ما لو حلف ألا يطأها أقل من أربعة أشهر، والثالث: في حكم ما لو حلف ألا يطأها أربعة أشهر، والرابع: في مدة الإيلاء في حق الحر والعبد واختلاف المذاهب في ذلك، والخامس: فيما إذا خرج من الإيلاء بالوطء، فهل تجب عليه كفَّارة أو لا تجب؟.

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى:{ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ } [البقرة: ٢٢٨].. الآية، نراه يعرض لمذاهب الحنفية ومذهب الشافعية فيما تنقضي به عِدَّة الحائض.. ثم يقول: " فصل في أحكام العِدَّة، وفيه مسائل " فيذكر أربع مسائل، يتكلم في المسألة الأولى منها: عن عِدَّة الحوامل، وفي الثانية: عن عِدَّة المتوفى عنها زوجها، وفي الثالثة: عن عِدَّة المطلَّقة المدخول بها، وفي الرابعة: عن عِدَّة الإماء..

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى:{فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ} [البقرة: ٢٢٩].. الآية، نجده يقول: " فصل في حكم الخُلع، وفيه مسائل " ويذكر ثلاث مسائل؛ المسألة الأولى: فيما يُباح من أجله الخُلع، والثانية: في جواز الخُلع بأكثر مما أعطاها وعدم جوازه، الثالثة: في اختلاف العلماء في الخُلع هل هو فسخ أو طلاق؟

ومثلاً عند تفسيره لآية الظِّهَار التي في أول سورة المجادلة نراه يسوق فصلاً في أحكام الكفَّارة، وما يتعلق بالظِّهَار، ويورد فيه ثمانى مسائل لا نطيل بذكرها.

عنايته بالمواعظ:

ثم إنَّ هذا التفسير كثيراً ما يتعرض للمواعظ والرقاق، ويسوق أحاديث الترغيب والترهيب، ولعل نزعه الخازن الصوفية هى التي أثَّرت فيه فجعلته يعنى بهذه الناحية ويستطرد إليها عند المناسبات. فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى:{ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ} [السجدة: ١٦].. الآية؛ نراه يقول بعد الانتهاء من التفسير: " فصل في فضل قيام الليل والحث عليه ".. ثم يسوق في ذلك أحاديث كثيرة عن النبى صلى الله عليه وسلم كلها تدور على البخارى ومسلم والترمذى. وهكذا نجد هذا التفسير يطرق موضوعات كثيرة في نواح من العلم مختلفة. ولكن شُهْرته القصصية، وسُمْعه الإسرائيلية، أساءت إليه كثيراً، وكادت تصد الناس عن الرجوع إليه والتعديل عليه!!. ولعل الله يهيئ لهذا الكتاب مَنْ يعلق عليه بتعليقات توضح غَثَّهُ مِن سَمِينه، وتستخلص صحيحه مِنْ سقيمه. والكتاب مطبوع في سبعة أجزاء متوسطة الحجم، وهو متداول بين الناس، خصوصاً مَنْ له شغف بالقصص وولوع بالأخبار (١).

* * *

(١) الدكتور محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، ٤ / ٥٩ - ٦١.

القرطبـــي

أعــلام التفسيــر

القرطبي
صاحب تفسير: " الجامع لأحكام القرآن "

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح (بإسكان الراء وبالحاء المهملة)، الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي المفسر، كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين، الورعين الزاهدين في الدنيا، المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة. أوقاته معمورة ما بين توجه وعبادة وتصنيف.

سمع من الشيخ أبى العباس بن عمر القرطبى، مؤلف " المفهم في شرح صحيح مسلم " بعضَ هذا الشرح، وحدَّث عن أبى علىّ الحسن ابن محمد البكرى، وغيرهما. وكان مستقراً بمنية ابن خصيب، وتُوفى ودُفن بها في شوَّال سنة ٦٧١ هـ (إحدى وسبعين وستمائة من الهجرة)، فرحمه الله رحمة واسعة [١].

مؤلفاته:

كانت أوقاته - رحمه الله - كلها معمورة بالتوجه إلى الله وعبادته تارة، وبالتصنيف تارة أخرى، حتى أخرج للناس كتباً انتفعوا بها. ومن مصنفاته:

١ - الجامع لأحكام القرآن.

٢ - وله كتاب " الأسنى، في شرح أسماء الله الحسنى ".

٣ - وكتاب " التذكار، في أفضل الاذكار ". وضعه على طريقة التبيان للنووي، لكن هذا أتم منه وأكثر علما.

٤ - وكتاب " التذكرة، بأمور الآخرة ".

---

(١) انظر عن ذلك كتاب: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون، ونفح الطيب للمقرى.

٥ - وكتاب " شرح التقصي ".

٦ - وكتاب " قمع الحرص بالزهد والقناعة، ورد ذلك السؤال بالكتب والشفاعة ". قال ابن فرحون: لم أقف على تأليف أحسن منه في بابه.

٧ - أرجوزة جمع فيها أسماء النبي صلى الله عليه وسلم ".

٨ - وشرح أسماء الله الحُسنى

٩ - الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، وإظهار محاسن دين الإسلام، وإثبات نبوة محمد عليه السلام.

وله تآليف وتعاليق مفيدة غير هذا.

إنصاف القرطبى وعدم تعصبه:

وخير ما في الرجل أنه لا يتعصب لمذهبه المالكى، بل يمشى مع الدليل حتى يصل إلى ما يرى أنه الصواب أياً كان قائله.

فمثلاً عندما تعرَّض لقوله تعالى:{وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾} [البقرة: ٤٣].. نجده عند المسألة السادسة عشرة من مسائل هذه الآية يعرض لإمامة الصغير، ويذكر أقوال مَن يجزيها ومَن يمنعها، ويذكر أن من المانعين لها جملة: مالكاً، والثورى، وأصحاب الرأى، ولكنَّا نجده يخالف إمامه لما ظهر له من الدليل على جوازها، وذلك حين يقول: " قيل: إمامة الصغير جائزة إذا كان قارئاً، ثبت في صحيح البخارى عن عمرو بن سلمة قال: كنا بماء ممر الناس، وكان يمر بنا الناس فنسألهم ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون: يزعم أن الله أرسله.. أوحى إليه كذا.. أوحى إليه كذا، فكنت أحفظ هذا الكلام، فكأنما يقر في صدرى، وكانت العرب تلوم بإسلامها فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبى صادق، فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم، وبدر أبى قومى بإسلامهم، فلما قدم قال: جئتكم واللهِ من عند نبى الله حقاً.. قال: " صلوا صلاة كذا في حين كذا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذِّن أحدكم، وليؤمكم أكثركم قرآناً "،

فنظروا فلم يكن أحد أكثر منى قرآناً، لما كنت أتلقى من الركبان. فقدَّمونى بين أيديهم وأنا ابن ست أو سبع سنين، وكانت على بُردة إذا سجدتُ تقلَّصت عنى، فقالت امرأة من الحى: ألا تغطون عنا إست قارئكم؟ فاشتروا فقطعوا لى قميصاً، فما فرحتُ بشىء فرحى بذلك القميص ".

ومثلاً عندما تعرَّض لقوله تعالى:{فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ} [البقرة: ١٧٣].. نراه يعقد المسألة الثانية والثلاثين من مسائل هذه الآية في اختلاف العلماء فيمن اقترن بضرورته معصية، فيذكر أن مالكاً حظر ذلك عليه. وكذا الشافعى في أحد قوليه، ونقل عن ابن العربى أنه قال: " عجباً ممن أبيح له ذلك مع التمادى على المعصية، وما أظن أحداً يقوله، فإن قاله فهو مخطىء قطعاً "، ثم يعقب القرطبى على هذا كله فيقول: " قلت: الصحيح خلاف هذا. فإن إتلاف المرء نفسه في سفر المعصية أشد معصية مما هو فيه، قال الله تعالى:{وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ} [النساء: ٢٩]، وهذا عام ولعله يتوب في ثانى الحال. فتمحو التوبة عنه ما كان ".

ومثلاً عندما تعرَّض لقوله تعالى:{شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ} [البقرة: ١٨٥]... الآية، نجده يعقد المسألة السابعة عشرة من المسائل التي تتعلق بهذه الآية في اختلاف العلماء في حكم صلاة عيد الفطر في اليوم الثاني، فيذكر عن ابن عبد البر أنه لا خلاف عن مالك وأصحابه أنه لا تُصَلَّى صلاة العيد في غير يوم العيد، ويذكر عنه أيضاً أنه قال: " لو قُضِيَت صلاة العيد بعد خروج وقتها لأشبهت الفرائض، وقد أجمعوا في سائر السنن أنها لا تُقضى، فهذه مثلها "، ثم يُعَقِّب القرطبى على هذا فيقول: " قلت: والقول بالخروج - يعنى لصلاة العيد في اليوم الثاني - إن شاء الله أصح، للسُّنَّة الثابتة في ذلك، ولا يمتنع أن يستثنى الشارع من السُنَن ما شاء، فيأمر بقضائه بعد خروج وقته، وقد روى الترمذى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :{مَن لم يُصَلِّ ركعتى الفجر فليُصَلِّهما بعد ما

تطلع الشمس} قلت: وقد قال علماؤنا: مَن ضاق عليه الوقت، وصَلَّى الصبح، وترك ركعتى الفجر، فإنه يصليهما بعد طلوع الشمس إن شاء، وقيل: لا يصلهما حينئذ، ثم إذا قلنا يصليهما.. فهل ما يفعله قضاء؟ أو ركعتان ينوب له ثوابهما عن ثواب ركعتى الفجر؟ قال الشيخ أبو بكر: وهذا الجارى على أصل المذهب، وذِكْر القضاء تجوُّز. قلت: ولا يبعد أن يكون حكم صلاة الفطر في اليوم الثاني على هذا الأصل، لا سيما مع كونها مرة واحدة في السنة، مع ما ثبت من السُّنَّة. ثم روى عن النسائى بسنده: " أن قوماً رأوا الهلال فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم فأمرهم أن يفطروا بعد ما ارتفع النهار، وأن يخرجوا إلى العيد من الغد. وفي رواية: ويخرجوا لمُصَلَاهم من الغد ".

ومثلاً نجده عندما تعرَّض لقوله تعالى:{أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ} [البقرة: ١٨٧]...الآية، نجده في المسألة الثانية عشرة من مسائل هذه الآية يذكر خلاف العلماء في حكم مَن أكل في نهار رمضان ناسياً.. فيذكر عن مالك أنه يفطر وعليه القضاء، ولكنه لا يرضى ذلك الحكم فيقول: " وعند غير مالك ليس بمفطر كل مَن أكل ناسياً لصومه. قلت: وهو الصحيح، وبه قال الجمهور إن مَن أكل أو شرب ناسياً فلا قضاء عليه، وإن صومه تام، لحديث أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :{إذا أكل الصائم ناسياً، أو شرب ناسياً فإنما هو رزق ساقه الله تعالى إليه، ولا قضاء عليه [(١)]}...

ومثلاً عندما تعرَّض لقوله تعالى:{لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾} [البقرة: ٢٣٦]، نجده يذكر في المسألة السادسة من مسائل هذه الآية اختلاف العلماء في حكم المتعة، فيذكر مَن يقول بوجوبها، ويذكر مَن يقول بندبها، ويعد في ضمن القائلين

(١) د. محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، ٤ /٣٧٤.

بالندب مالكاً رحمه الله، ثم يقول: " تمسك أهل القول الأول بمقتضى الأمر، وتمسك أهل القول الثاني بقوله تعالى:{حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ}، و{عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ} ولو كانت واجبة لأطلقها على الخلق أجمعين. والقول الأول أولى، لأن عمومات الأمر بالامتناع في قوله: {وَمَتِّعُوهُنَّ}، وإضافة الإمتاع إليهم بـ " لام التمليك " في قوله: أظهر في الوجوب منه في الندب. وقوله:{وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ} تأكيد لإيجابها، لأن كل واحد يجب عليه أن يتقى الله في الإشراك به ومعاصيه، وقد قال تعالى في القرآن في الآية من سورة البقرة:{هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}.

موقفه من حملات ابن العربى على مخالفيه:

كذلك نجد القرطبى - رحمه الله - كثيراً ما يدفعه الإنصاف إلى أن يقف موقف الدفاع عمن يهاجمهم ابن العربى من المخالفين، مع توجيه اللَّوم إليه أحياناً، على ما يصدر منه من عبارات قاسية في حق علماء المسلمين، الذاهبين إلى ما لم يذهب إليه.

فمثلاً عندما تعرَّض لقوله تعالى:{ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟} [النساء: ٣].. نراه يروى عن الشافعى أنه فسَّرها على معنى: الا تكثر عيالكم، ثم يقول: " قال الثعلبى: وما قال هذا غيره وإنما يقال: أعال يعيل إذا كثر عياله، وزعم ابن العربى: أن عال على سبعة معان لا ثامن لها، يقال عال: مال، الثاني: زاد، الثالث: جار. الرابع: افتقر. الخامس: أثقل.. حكاه ابن دريد. قالت الخنساء: " ويكفى العشيرة ما عالها ". السادس: عال: قام بمؤنة العيال، ومنه قوله عليه السلام:{وابدأ بمن تعول}. السابع: عال: غلب، ومنه: عيل صبره أى غلب، ويقال: أعال الرجل: كثر عياله. وأما " عال " بمعنى كثر عياله فلا يصح، قلت: أما قول الثعلبى: " ما قاله غيره " فقد أسنده الدارقطنى في سُنَنه عن زيد بن أسلم، وهو قول جابر بن زيد.. فهذان إمامان من علماء المسلمين وأئمتهم قد سبقا الشافعى إليه. وأما ما ذكره ابن العربى من الحصر وعدم الصحة فلا يصح. وقد ذكرنا: عال الأمر: اشتد وتفاقم..

حكاه الجوهرى. وقال الهروى في غريبه: " وقال أبو بكر: يقال: عال الرجل في الأرض يعيل فيها: إذا ضرب فيها. وقال الأحمر: يقال: عالنى الشيء يعيلنى عَيْلاً ومعيلاً: إذا أعجزك، وأما " عال " : كثر عياله، فذكره الكسائى وأبو عمرو الدورى وابن الأعرابى. قال الكسائى أبو الحسن علىّ ابن حمزة: العرب تقول عال يعول وأعال يعيل أى كثر عياله. وقال أبو حاتم: كان الشافعى أعلم بلغة العرب منا.. ولعله لغة. قال الثعلبى المفسِّر: قال أستاذنا أبو القاسم ابن حبيب: سألت أبا عمرو الدورى عن هذا - وكان إماماً في اللُّغة غير مدافع - فقال: هى لغة حِمْيَر وأنشد:

وإن المـوت يأخـذ كـل حـى ::: بـلا شـك وإن أمشـى وعـالا

يعنى: وإن كثر ماشيته وعياله. وقال أبو عمرو بن العلاء: لقد كثرت وجوه العرب حتى خشيتُ أن آخذ على لاحن لحناً. وقرأ طلحة ابن مصرف: " ألا تعيلوا "، وهي حُجَّة الشافعى رضى الله عنه. قدح الزجَّاج وغيره في تأويل " عال " من العيال بأن قال: إن الله تعالى قد أباح كثرة السرارى وفي ذلك تكثير العيال. فكيف يكون أقرب إلى ألا تكثر العيال؟ وهذا القدح غير صحيح، لأن السرارى إنما هى مال يُتصرف فيه بالبيع، وإنما القادح: الحرائر ذوات الحقوق الواجبة. وحكى ابن الأعرابى: أن العرب تقول: عال الرجل إذا كثر عياله ".

ومثلاً عندما تعرَّض لقوله تعالى:{وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًا } [النحل: ٦٧]... نراه يعيب على ابن العربى تشنيعه على مَن يقول من الحنفية وغيرهم بحل النبيذ، وجعله إياهم مثل أغبياء الكفار فيقول: " وهذا تشنيع شنيع، حتى يلحق فيه العلماء الأخيار في قصور الفهم بالكفار ".

وعلى الجملة.. فإن القرطبى رحمه الله في تفسيره هذا حُرٌّ في بحثه، نزيهٌ في نقده، عفٌ في مناقشته وجدله، مُلِمٌ بالتفسير من جميع نواحيه، بارع في كل فن استطرد إليه وتكلَّم فيه.

أما الكتاب فقد كان الناس محرومين منه إلى زمن قريب، ثم أراد الله له الذيوع بين أُولى العلم فقامت دار الكتب المصرية بطبعه [(١)].

جمع في تفسير القرآن كتابا كبيرا في اثني عشر مجلدا، سماه كتاب " الجامع لأحكام القرآن ".

وصف العلامة ابن فرحون هذا التفسير فقال: " هو من أجَلِّ التفاسير وأعظمها نفعاً، أسقط منه القصص والتواريخ، وأثبت عوضها أحكام القرآن واستنباط الأدلة، وذكر القراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ "، وذكر المؤلف رحمه الله في مقدمة هذا التفسير السبب الذي حمله على تأليفه، والطريق الذي رسمه لنفسه ليسير عليه فيه، وشروطه التي اشترطها على نفسه في كتابه فقال: " وبعد.. فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجمع علوم الشرع الذي استقل بالسُّنَّة والفرض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض، رأيت أن أشتغل به مدى عمرى، وأستفرغ فيه منتى، بأن أكتب فيه تعليقاً وجيزاً يتضمن نكتاً من التفسير، واللُّغات، والإعراب، والقراءات، والرد على أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات، جامعاً بين معانيها، ومبيناً ما أشكل منها بأقاويل السَلَف ومَن تبعهم من الخَلَف.. وشرطى في هذا الكتاب: إضافة الأقوال إلى قائليها، والأحاديث على مصنفيها، فإنه يقال: من بركة العلم أن يُضاف الأقوال إلى قائليها، والأحاديث إلى مصنفيها، فإنه يقال: من بركة العلم أن يُضاف القول إلى قائله، وكثيراً ما يجئ الحديث في كتاب الفقه والتفسير مبهماً، لا يعرف من أخرجه إلا مَن اطلع على كتب الحديث، فيبقى مَن لا خبرة له بذلك حائراً لا يعرف الصحيح من السقيم، ومعرفة ذلك علم جسيم. فلا يُقبل منه الاحتجاج به ولا الاستدلال حتى يضيفه إلى مَن خرَّجه من الأئمة الأعلام، والثقات المشاهير من علماء الإسلام، ونحن نشير إلى جُمَل من ذلك في هذا

(١) د. محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، ٤ /٣٧٥.

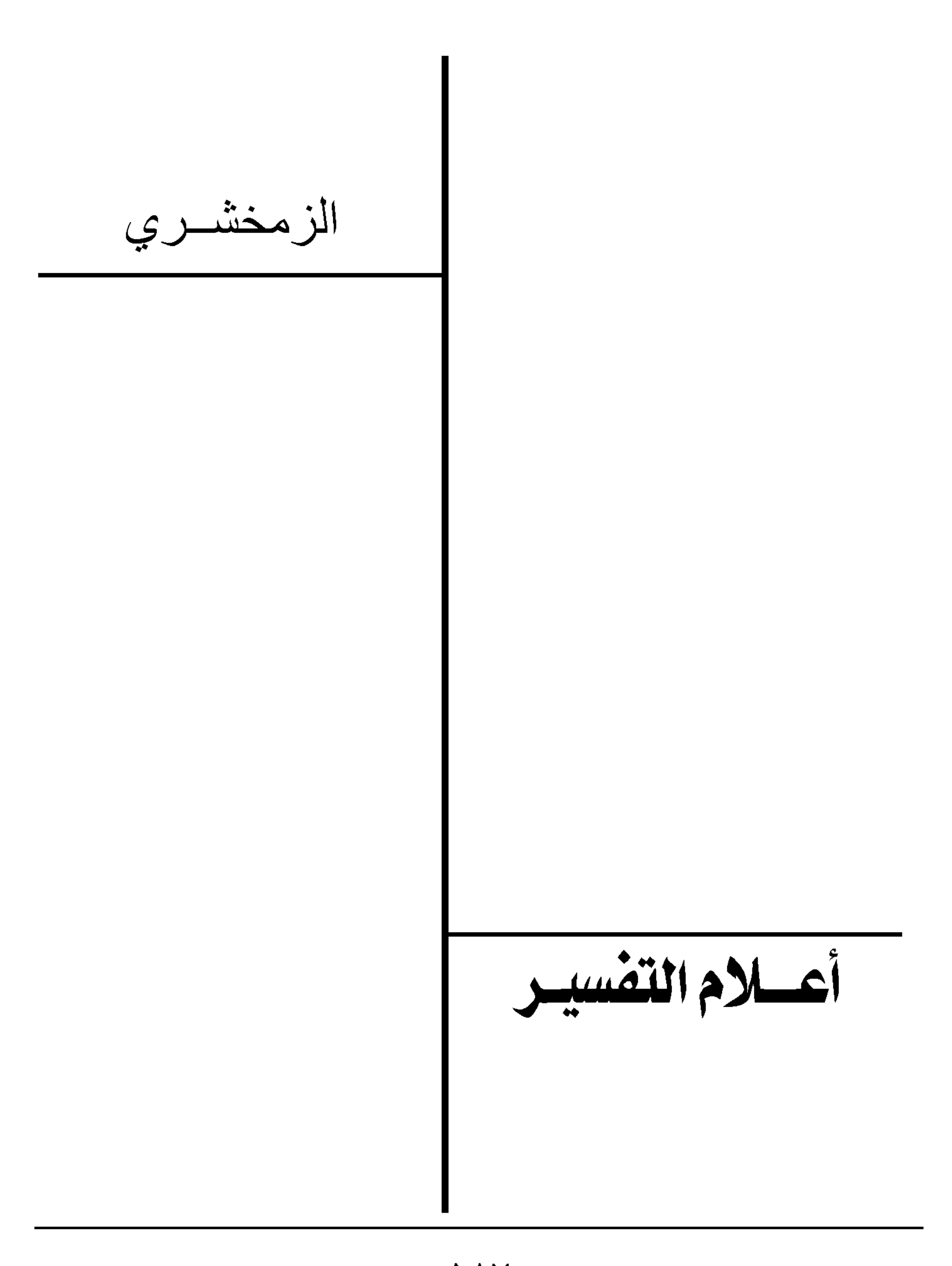
الكتاب، والله الموفق للصواب. وأضرب عن كثير من قصص المفسِّرين، وأخبار المؤرخين، إلا ما لا بد منه، وما لا غنى عنه للتبيين، واعتضت من ذلك تبيين آي الأحكام، بمسائل تُفسِّر عن معناها، وتُرشد الطالب إلى مقتضاها، فضمنت كل آية تتضمن حكماً أو حكمين فما زاد مسائل أُبيِّن فيها ما تحتوى عليه من أسباب النزول، والتفسير، والغريب، والحكم. فإن لم تتضمن حكماً ذكرتُ ما فيها من التفسير والتأويل... وهكذا إلى آخر الكتاب، وسميته بـ " الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السُّنَّة وأحكام الفرقان... ".

والذي يقرأ في هذا التفسير يجد أن القرطبى - رحمه الله - قد وفي بما شرط على نفسه في هذا التفسير، فهو يعرض لذكر أسباب النزول، والقراءات، والإعراب، ويبين الغريب من ألفاظ القرآن، ويحتكم كثيراً إلى اللُّغة، ويُكثر من الاستشهاد بأشعار العرب، ويرد على المعتزلة، والقدرية، والروافض، والفلاسفة، وغلاة المتصوفة، ولم يسقط القصص بالمرة، كما تفيده عبارة ابن فرحون، بل أضرب عن كثير منها، كما ذكر في مقدمة تفسيره، ولهذا نلاحظ عليه أنه يروى أحياناً ما جاء من غرائب القصص الإسرائيلى.

هذا.. وإن القرطبي - رحمه الله - ينقل عن السَلَف كثيراً مما أُثِر عنهم في التفسير والأحكام، مع نسبة كل قول إلى قائله وفاءً بشرطه، كما ينقل عمن تقدمه في التفسير، خصوصاً مَن أَلَّف منهم في كتب الأحكام، مع تعقيبه على ما ينقل منها. وممن ينقل عنهم كثيراً: ابن جرير الطبرى، وابن عطية، وابن العربى، والكيا الهراسى، وأبو بكر الجصَّاص. وأما من ناحية الأحكام، فإنَّا نلاحظ عليه أنه يفيض في ذكر مسائل الخلاف ما تعلق منها بالآيات عن قُرْب، وما تعلق بها عن بُعْد، مع بيان أدلة كل قول [١].

(١) د. محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، ٤ /٣٧٣.

الزمخشــرى



الزمخشري الجار الله
صاحب تفسير: " الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل "

هو أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري - ولد في السابع والعشرين من شهر رجب سنة ٤٦٧هـ " سبع وستين وأربعمائة " بزمخشر[1]، وتلقى العلم في بلاده، ورحل إلى بخارى في طلبه، وأخذ الأدب عن شيخه منصور أبي مضر، ثم رحل إلى مكة وجاور بها زمانًا، فقيل له " جار الله " وبها ألّف كتابه في التفسير " الكشاف في حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل " وأصابه خراج في رجله فقطعها وصنع عوضها رجلاً من خشب وكان إذا مشى ألقى عليها ثيابه الطوال فيظن من يراه أنه أعرج. وتوفي الزمخشري سنة ٥٣٨هـ " ثمان وثلاثين وخمسمائة "، بجرجانية خوارزم بعد رجوعه من مكة، ورثاه بعضهم بأبيات منها:

فأرض مكة تذري الدمع مقلتها ::: حزنًا لفرقة جار الله محمود

وكانت له بعض الأشعار الغير محكمة فقد ذكر التاج الكندي أنه رآه على باب الإمام أبي منصور بن الجواليقي.

وقال الكمال الأنباري لما قدم الزمخشري للحج، أتاه شيخنا أبو السعادات بن الشجري مهنئا بقدومه، وقال:

كانت مساءلة الركبان تخبرني ::: عن أحمد بن علي أطيب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت أذني ::: بأحسن مما قد رأى بصري

(١) وهي قرية كبيرة من قرى خوارزم.

وأثنى عليه، ولم ينطق الزمخشري حتى فرغ أبو السعادات، فتصاغر له، وعظمه، وقال: إن زيد الخيل دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرفع صوته بالشهادتين، فقال له: يا زيد كل رجل وصف لي وجدته دون الصفة إلا أنت، فإنك فوق ما وصفت. وكذلك الشريف ودعا له وأثنى عليه.

قلت: روى عنه بالإجازة أبو طاهر السلفي، وزينب بنت الشعري.

وروى عنه أناشيد إسماعيل بن عبد الله الخوارزمي، وأبو سعد أحمد بن محمود الشاشي، وغيرهما.

وكان رأسا في البلاغة والعربية والمعاني والبيان، وله نظم جيد.

قال السمعاني: أنشدنا إسماعيل بن عبد الله، أنشدني الزمخشري لنفسه يرثي أستاذه أبا مضر النحوي:

وقائلة ما هذه الدرر التي ::: تساقطها عيناك سمطين سمطين
فقلت هو الدر الذي قد حشا به ::: أبو مضر أذني تساقط من عيني

أنبأني عدة عن أبي المظفر بن السمعاني، أنشدنا أحمد بن محمود القاضي بسمرقند، أنشدنا أستاذي محمود بن عمر:

ألا قل لسعدى ما لنا فيك من وطر ::: وما تطبينا النجل من أعين البقر
فإنا اقتصرنا بالذين تضايقت ::: عيونهم والله يجزي من اقتصر
مليح ولكن عنده كل جفوة ولم ::: أر في الدنيا صفاء بلا كدر
ولم أنس إذ غازلته قرب روضة ::: إلى جنب حوض فيه للماء منحدر
فقلت له جئني بورد وإنما ::: أردت به ورد الخدود وما شعر
فقال انتظرني رجع طرف أجئ ::: به فقلت له هيهات ما في منتظر
فقال ولا ورد سوى الخد حاضر ::: فقلت له إني قنعت بما حضر

علمه ومؤلفاته:

والزمخشري إمام من أئمة اللغة والمعاني والبيان، وكثيرًا ما يجد

القارئ في كتب النحو والبلاغة استشهادات له من كتبه للاحتجاج بها، فيقولون: قال الزمخشري في كشافه، أو في أساس البلاغة، وهو صاحب رأي وحجة في كثير من مسائل العربية، وليس من هؤلاء النفر الذين ينهجون نهج غيرهم فيجمعون وينقلون، ولكنه صاحب رأي يقتفي غيره أثره وينقل عنه، وله تصانيف في الحديث والتفسير والنحو واللغة والمعاني والبيان وغير ذلك، منها:

١ - كتابه في تفسير القرآن " الكشاف ".

٢ - والفائق في تفسير الحديث.

٣ - والمنهاج في الأصول.

٤ - والمفصل في النحو.

٥ - وأساس البلاغة في اللغة.

٦ - ورءوس المسائل الفقهية.

٧ - و " ربيع الأبرار ".

٨ - و " مشتبه أسامي الرواة ".

٩ - وكتاب " النصائح ".

١٠ - و " ضالة الناشد ".

مذهبه وعقيدته:

والزمخشري حنفي المذهب، معتزلي العقيدة، يؤوِّل الآيات وفق مذهبه وعقيدته بلحن لا يدركه إلا الخاصة، ويسمِّى المعتزلة: إخوانه في الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية [١].

تفسيره: وكتاب الكشاف للزمخشري من أشهر كتب المفسرين بالرأي، الماهرين في اللغة، وينقل عنه الآلوسي، وأبو السعود،

(١) مباحث في علوم القرآن، ص ٣٩٧.

والنسفي، وغيرهم من المفسرين بدون نسبة إليه، واعتزالياته في التفسير قد تولى التنقيب عنها العلامة أحمد المنير. وسماها بالانتصاف، وفيها يناقش الزمخشري فيما أورده من العقائد على مذهب المعتزلة ويورد ما يقابلها، كما يناقشه في كثير من أبواب اللغة، وقد طبعت المكتبة التجارية بمصر " الكشاف " طبعة أخيرة رتبها مصطفى حسين أحمد، وذُيِّلت بأربعة كتب، الأول: " الانتصاف " السابق، والثاني " الكافي الشافي في تخريج أحاديث الكشاف " للحافظ ابن حجر العسقلاني، والثالث: " حاشية الشيخ محمد عليان المرزوقي على تفسير الكشاف " كـ " الانتصاف "، والرابع: " مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف " للمرزوقي المذكور - وقد ضمَّن تفسيره كثيرًا من عقائد المعتزلة على طريق الإشارة، وقد ذكرنا قبل ما نُقِل عن البلقيني أنه قال: استخرجت من الكشاف اعتزالاً بالمناقيش [(١)].

والذي يمكن أن نقوله عن الزمخشري وكتاباته لا سيما تفسيره المسمي " الكشاف " :

١ - الزمخشري إمام من أئمة المعتزلة وقد أودع في كشافه مقالات المعتزلة وصاغها باسلوب أدبي وبلاغة رائعة حتى أصبح اكتشافها عسيراً على كثير من طلبة العلم. وقد تتبعه في ذلك ابن المنير، والطيبي وبينا كثيراً من تلك الاعتزاليات، وفاتهما بعض الشيء.

٢ - الزمخشري عفا الله عنه بدأ كتابه بقوله: (الحمد لله الذي خلق القرآن) فنبهه بعض المقربين منه إلى أن هذا المطلع مدعاة إلى النفور من الكتاب فغيره، ذكر ذلك الطيبي في فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب.

---

(١) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ٢ / ٢٢٧٩ - ٢٨٠، مباحث في علوم القرآن، ص ٣٩٨.

٣ - يلحظ القارئ للكشاف قلة الآثار، وكثرة الآراء الكلامية والعبارات الموحشة.

٤ - الزمخشري زهد بالأحاديث النبوية فلم يورد منها إلا القليل وقد يورد قطعة من الحديث دون إشارة إلى أنه حديث، وكثير من تلك الأحاديث موضوعة أو ضعيفة، وقد تتبعه فيها ابن حجر في كتابه " الشاف الكافي ".

٥ - عرض في تفسيره لكثير من القراءات ولم يقتصر على الثابت منها بل شحنه بالقراءات الشاذة.

٦ - اعتني بالبلاغة عناية فائقة، واهتم باللغة والإعراب.

٧ - لم يتوسع في ذكر الروايات الإسرائيلية.

٨ - في كشاف الزمخشري فوائد لا توجد في غيره، و طوام لا توجد إلا فيه.

وخلاصة القول: أنه يعتبر تفسيره من أمهات كتب التفسير بالرأي، كما أن تفسير الطبري من أمهات التفسير بالمأثور، بيد أن الزمخشري كان معتزلي الاعتقاد، متظاهرا بالاعتزال، فيقرأ كتابه على حذر، قال السبكي: (واعلم أن الكشاف كتاب عظيم في بابه، ومصنفه إمام في فنه، إلا أنه رجل مبتدع متجاهر ببدعته، يضع من قدر النبوة كثيرا، ويسيء أدبه على أهل السنة والجماعة).

لذا، ينصح قارئ الكشاف بقراءته مع أحد حواشيه، وأحسنها حاشية (فتوح الغيب) للإمام شرف الدين الحسن بن محمد الطيبي، أو حاشية الكشاف على الكشاف لسراج الدين البلقيني، أو حاشية (الانتصاف) لناصر الدين ابن المنير الإسكندري.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

- قصة تأليف الكشاف:

قبل الخوض في التعريف بالكشاف للزمخشرى، أرى أن أسوق لك قصة تأليفه وما كان من الزمخشرى من التردد بين الإقدام عليه والإحجام عنه أولاً.. ثم العزم المصمم منه على تأليفه حتى أخرجه للناس كتاباً جامعاً نافعاً.

أسوق هذه القصة نقلاً عن الزمخشرى في مقدمة كشافه، فقد أوضح ما كان منه أول الأمر، وكشف عن السبب الذي دعاه إلى تأليف كتابه في التفسير فقال: " ولقد رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية، كلما رجعوا إلىَّ في تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحُجُب، أفاضوا في الاستحسان والتعجب، واستطيروا شوقاً إلى مُصنَّف يضم أطرافاً من ذلك، حتى اجتمعوا إلى مقترحين أن أُملى عليهم الكشف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل، في وجوه التأويل، فاستعفيت، فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين، وعلماء العدل والتوحيد. والذي حدانى إلى الاستعفاء - على علمى أنهم طلبوا ما الإجابة إليه علىَّ واجبة، لأن الخوض فيه كفرض العَيْن - ما أرى عليه الزمان من رثاثة أحواله، وركاكة رجاله، وتقاصر هممهم عن أدنى عدد هذا العلم، فضلاً أن تترقى إلى الكلام المؤسس على علمى البيان والمعانى، فأمليت عليهم مسألة في الفواتح، وطائفة من الكلام في حقائق سورة البقرة، وكان كلاماً مبسوطاً كثير السؤال والجواب، طويل الذيول والأذناب، وإنما حاولت به التنبيه على غزارة نكت هذا العلم، وأن يكون لهم مناراً ينتحونه، ومثالاً يحتذونه، فلما صمم العزم على معاودة جوار الله، والإناخة بحرم الله، فتوجهت تلقاء مكة، وجدت في مجتازى بكل بلد مَن فيه مسكة من أهلها - وقليل ما هم - عطشى الأكباد إلى العثور على ذلك المملى، متطلعين إلى إيناسه، حراصاً على اقتباسه، فهزَّ ما

رأيت من عِطفى، وحرَّك الساكن من نشاطى، فلما حططت الرَحْل بمكة إذا أنا بالشعبة السنية من الدرجة الحسنية: الأمير الشريف، الإمام شرف آل رسول الله، أبى الحسن، ابن حمزة بن وهاس - آدم الله مجده - وهو النكتة والشامة في بنى الحسن، مع كثرة محاسنهم، وجموم مناقبهم، أعطش الناس كبداً، وألهبهم حشىً، وأوفاهم رغبة، حتى ذكر أنه كان يُحدِّث نفسه في مدة غيبتى عن الحجاز مع تزاحم ما هو فيه من المشادة، بقطع الفيافى وطى المهامه، والإفادة علينا بخوارزم، ليتوصل إلى إصابة هذا الغرض، فقلت: قد ضاقت على المستعفى الحيل، وعيّت به العلل. ورأيتنى قد أخذت منى السن، وتقعقع الشن، وناهزت العشر التي سمتها العرب دقاقة الرقاب، فأخذت في طريقة أخصر من الأولى، مع ضمان التكثير من الفوائد، والفحص عن السرائر، ووفَّق الله وسدَّد، ففُرغمنه في مقدار مدة خلافة أبو بكر الصدِّيق رضى الله عنه وكان يُقدَّر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة. وما هى إلا آية من آيات هذا البيت المحرَّم، وبركة أُفيضت علىّ من بركات هذا الحرم المعظَّم. أسأل الله أن يجعل ما تعبت فيه سبباً ينجينى، ونوراً لى على الصراط يسعى بين يدى ويمينى، ونِعْم المسؤول ".

هذه قصة تأليف الكشاف كما يرويها الزمخشرى نفسه.

قيمة الكشاف العلمية:

وأما قيمة هذا التفسير. فهو - بصرف النظر عما فيه من الاعتزال - تفسير لم يُسبق مؤلفه إليه، لما أبان فيه من وجوه الإعجاز في غير ما آية من القرآن، ولما ظهر فيه من جمال النظم القرآنى وبلاغته، وليس كالزمخشرى مَن يستطيع أن يكشف لنا عن جمال القرآن وسحر بلاغته، لما برع فيه من المعرفة بكثير من العلوم. لا سيما ما برز فيه من الإلمام بلغة العرب. والمعرفة بأشعارهم. وما امتاز به

من الإحاطة بعلوم البلاغة، والبيان والإعراب، والأدب، ولقد أضفى هذا النبوغ العلمى والأدبى على تفسير الكشاف ثوباً جميلاً، لفت إليه أنظار العلماء وعلّق به قلوب المفسِّرين. هذا.. وقد أحس الزمخشرى إحساساً قوياً بضرورة الإلمام بعلمى المعاني والبيان قبل كل شئ، لمن يريد أن يُفسِّر كتاب الله عَزَّ وجلَّ، وجهر بذلك وأنهضها بما يُبهر الألباب القوارح، من غرائب نكت يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدق سبكها، علم التفسير، الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذى علم - كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن - فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بَزَّ أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القِرِّية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصرى أوعظ، والنحوى وإن كان أنحى من سيبويه، واللُّغوى وإن علك اللغات بقوة لحييه، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شئ من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما: علم المعاني، وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حُجَّة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ، جامعاً بين أمرين: تحقيق وحفظ، كثير المطالعات، طويل المراجعات، قد رَجَعَ زماناً ورُجِعَ إليه، ورَدَّ ورُدَّ عليه، فارساً في علم الإعراب، مقدَّماً في حملة الكتاب، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقَّادها، يقظان النفس، دراً كاللمحة وإن لطف شأنها، منتبهاً على الرمزة وإن خفى مكانها، لا كزّاً جاسياً، ولا غليظاً جافياً، متصرفاً ذا دراية بأساليب النظم والنثر، مرتاضاً غير ريض بتلقيح بنات الفكر، قد علم كيف يُرتَّب الكلام ويُؤلَّف، وكيف يُنظَّم ويُرصَّف، طالما دفع إلى مضايقه.

ووقع في مداحضه ومزالقه ".

وفي الحقيقة أن الزمخشرى قد جمع كل هذه الوسائل التي لا بد منها للمفسِّر، فأخرج للناس هذا الكتاب العظيم في تفسير القرآن " الكشاف عن حقائقه، المخلص من مضايقه، المطلع على غوامضه، المثبت في مداحضه، المُلخِّص لنكته ولطائف نظمه، المُنَقّر عن فِقره وجواهر علمه، المكتنز بالفوائد المفتنَّة التي لا تُوجد إلا فيه، المحيط بما لا يكتنه من بدع ألفاظه ومعانيه، مع الإيجاز الحاذف للفضول، وتجنب المستكرة المملول، ولو لم يكن في مضمونه إلا إيراد كل شيء على قانونه، لكفى به ضالة ينشدها محققة الأخبار، وجوهرة يتمنى العثور عليها غاصة البحار ".

ولما علم الزمخشرى أن كتابه قد تحلَّى بهذه الأوصاف قال متحدثاً بنعمة الله:

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد :: وليس فيها لعَمْرى مثل كشاف
إن كنت تبغى الهدى فالزم قراءته ::: فالجهل كالداء والكشاف كالشافي

وإذا كان الزمخشرى قد اعتزَّ بكشافه، وبلغ إعجابه به إلى حد جعله يقول فيه ما قال من تقريظ له، وإطراء عليه، فإنَّا نعذره في ذلك ولا نلومه عليه، فالكتاب واحدٌ في بابه، وعَلَمٌ شامخ في نظر علماء التفسير وطُلابه، ولقد اعترف له خصومه بالبراعة وحسن الصناعة، وإن أخذوا عليه بعض المآخذ التي يرجع أغلبها إلى ما فيه من ناحية الاعتزال، وإليك مقالات بعض العلماء في الكشاف:

مقالة ابن بشكوال في الكشاف:

وإنَّا لنجد في مقدمة تفسير أبى حيان، مقارنة للحافظ أبى القاسم ابن بشكوال، بين تفسير ابن عطية وتفسير الزمخشرى، ووصفاً رقيقاً وتحليلاً عميقاً لكتاب الكشاف يقول فيها: " وكتاب ابن عطية أنقل

وأجمع وأخلص. وكتاب الزمخشرى ألخص وأغوص، إلا أن الزمخشرى قائل بالطفرة، ومقتصر من الذؤابة على الوفرة، فربما سنح له آبى المقادة فأعجزه اعتياصه، ولم يمكنه لتأنيه اقتناصه، فتركه عقلاً لمن يصطاده، وغفلاً لمن يرتاده. وربما ناقض هذا المنزع، فثنى العنان إلى الواضح والسهل اللائح، وأجال فيه كلاماً، ورمى نحو غرضه سهاماً. هذا مع ما في كتابه من نصرة مذهبه، وتقحم مرتكبه، وتجشم حمل كتاب الله عَزَّ وجَلَّ عليه، ونسبة ذلك إليه، فمغتفر إساءته لإحسانه، ومصفوح عن سقطه في بعض، لإصابته في أكثر تبيانه ".

مقالة الشيخ حيدر الهروى:

كذلك نجد للشيخ حيدر الهروى - أحد الذين عَلَّقوا على الكشاف - وصفاً دقيقاً لكتاب الكشاف وهذا نصه:

وبعد، فإن كتاب الكشاف، كتاب عَلَيُّ القدر رفيع الشأن، لم يُرَ مثله في تصانيف الأوَّلين، ولم يرد شبيهه في تآليف الآخرين. اتفقت على متانة تراكيبه الرشيقة كلمة المهرة المتقنين، واجتمعن على محاسن أساليبه الأنيقة ألسنة الكلمة المفلقين. ما قصَّرَ في قوانين التفسير وتهذيب براهينه. وتمهيد قواعده وتشييد معاقده. وكل كتاب بعده في التفسير، ولو فُرض أنه لا يخلو عن النقير والقطمير، إذا قيس به لا تكون له تلك الطلاوة، ولا يُوجد فيه شيء من تلك الحلاوة، على أن مؤلفه يَقتفى أثره، ويَسأل خبره. وقلَّما غيَّر تركيباً من تراكيبه إلاوقع في الخطأ والخطل، وسقط من مزالق الخبط والزلل، ومع ذلك كله إذا فتشت عن حقيقة الخبر، فلا عين منه ولا أثر، ولذلك قد تداولته أيدى النظار، فاشتهر في الأقطار، كالشمس في وسط النهار، إلا أنه لإخطائه سلوك الطرق الأدبية، وإغفاله عن إجمال أرباب الكمال. أصابته عين الكلالة. فالتزم في كتابه أُموراً أذهبت رونقه وماءه،

وأبطلت منظره ورواءه، فتكدرت مشارعه الصافية، وتضيَّقت موارده الضافية، وتزلزلت رتبة العالية.

منها: أنه كلما شرع في تفسير آية من الآي القرآنية مضمونها لا يساعد هواه، ومدلولها لا يطاوع مشتهاه، صرفها عن ظاهرها بتكلفات باردة، وتعسفات جامدة، وصرف الآية - بلا نكتة بلاغية لغير الضرورة - عن الظاهر، وفيه تحريف لكلام الله سبحانه وتعالى، وليته يكتفى بقدر الضرورة، بل يبالغ في الإطناب والتكثير، لئلا يوهم بالعجز والتقصي، فتراه مشحوناً بالاعتزالات الظاهرة التي تتبادر إلى الإفهام، والخفية التي لا تتسارق إليها الأوهام، بل لا يهتدى إلى حبائله إلا ورَّاد بعد ورَّد من الأذكياء الحذَّاق، ولا ينتبه لمكائده إلا واحد من فضلاء الآفاق. وهذه آفة عظيمة ومصيبة جسيمة.

ومنها: أنه يطعن في أولياء الله المرتضين من عباده، ويغفل عن هذا الصنيع لفرط عناده. ونِعْمَ ما قال الرازى في تفسير قوله تعالى:{يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ} [المائدة: ٥٤].. خاض صاحب الكشاف في هذا المقام في الطعن في أولياء الله تعالى، وكتب فيها ما لا يليق بعاقل أن يكتب مثله في كتب الفحش، فهب أنه اجترأ على الطعن في أولياء الله تعالى، فكيف اجتراؤه على كتبه ذلك الكلام الفاحش في تفسير كلام الله المجيد.

ومنها: أنه أورد فيه أبياتاً كثيرة، وأمثالاً غزيرة بنى على الهزل والفكاهة أساسها. وأورد على المزاح البارد نبراسها. وهذا أمر من الشرع والعقل بعيد، لا سيما عند أهل العدل والتوحيد.

ومنها: أنه يذكر أهل السُّنَّة والجماعة - وهم الفرقة الناجية - بعبارات فاحشة، فتارة يُعبِّر عنهم بالمُجَبِّرة، وتارة ينسبهم على سبيل التعريض إلى الكفر والإلحاد. وهذه وظيفة السفهاء الشطار، لا

طريقة العلماء الأبرار ".

مقالة أبى حيان:

ونجد أبا حيان صاحب البحر المحيط عند تفسيره لقوله تعالى:{قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾} [النمل: ٤٩].. يتعقب الزمخشرى في تفسيره لقوله تعالى:{وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ}.. ثم يصفه بقوله: " وهذا الرجل وإن كان أُوتِىَ من علم القرآن أوفر حظ، وجمع بين اختراع المعنى وبراعة اللفظ، ففى كتابه في التفسير أشياء منتقدة، وكنت قريباً من تسطير هذه الأحرف قد نظمت قصيداً في شغل الإنسان بكتاب الله، واستطردت إلى مدح كتاب الزمخشرى، فذكرت أشياء من محاسنه، ثم نبهت على ما فيه مما يجب تجنبه، ورأيت إثبات ذلك هنا لينتفع بذلك مَن يقف على كتابى هذا، ويتنبه على ما تضمنه من القبائح، فقلت بعد ذكر ما مدحته به:

ولكنه فيه مجال لناقد ::: وزلات سوء قد أخذن المخانقا
فيثبت موضوع الأحاديث جاهلاً ::: يعزو إلى المعصوم ما ليس لائقا
ويشتم أعلام الأئمة ضلة ::: لا سيما إن أولجوه المضايقا
ويُسهب في المعنى الوجيز دلالة ::: تكثير ألفاظ تسمى الشقاشقا
يُقوِّل فيها الله ما ليس قائلا ::: وكان محباً في الخطابة وامقا
ويخطئ في تركيبه لكلامه ::: فليس لما قد ركَّبوه موافقا
وينسب إبداء المعاني لنفسه ::: لِيُوهم أغماراً وإن كان سارقا
ويخطئ في فهم القرآن لأنه ::: يُجَوِّز إعراباً أبى أن يطابقا
وكم بين مَن يؤتى البيان سليقة ::: وآخر عاناه فما هو لاحقا
ويحتال للألفاظ حتى يديرها ::: لمذهب سوء فيه أصبح مارقا
فيا خسرة شيخ تخرَّق صيته ::: مغارب تخريق الصبا ومشارقا
لئن لم تداركه من الله رحمة ::: لسوف يُرى للكافرين مرافقا "

وأحسب أن القارئ لا يفوته أن يدرك ما في الوصف من قسوة على الزمخشرى، وما فيه من اتهمه بقِلَّة بضاعته في البيان والعربية، مع أنه سلطان هذه الطريقة في التفسير غير مدافع.

مقالة ابن خلدون:

وهذا هو العلاَّمة ابن خلدون، نجده عندما تكلم عن القسم الثاني من التفسير وهو ما يرجع إلى اللسان، من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب. يقول: " ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشرى من أهل خوارزم العراق، إلا أن مؤلّفه من أهل الاعتزال في العقائد، فيأتى بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة حيث تعرَض له في آى القرآن من طرق البلاغة، فصار بذلك للمحققين من أهل السُّنَّة انحراف عنه، وتحذير للجمهور من مكانته، مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة، وإذا كان الناظر فيه واقفاً مع ذلك على المذاهب السُّنِّية، محسناً للحجاج عنها، فلا جرم أنه مأمون من غوائله، فلتغتنم مطالعته لغرابة فنونه في اللسان. ولقد وصل إلينا في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين، وهو شرف الدين الطيبى من أهل توريز، من عراق العجم، شرح فيه كتاب الزمخشرى هذا، وتَتَبَّع ألفاظه، وتَعَرَّض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة تُزيفها، وتُبيِّن أن البلاغة إنما تقع في الآية على ما يراه أهل السُّنَّة، لا على ما يراه المعتزلة، فأحسن في ذلك ما شاء، مع إمتاعه في سائر فنون البلاغة، وفوق كل ذى علم عليم ".

مقالة التاج السبكى:

وأخيراً.. فهذا هو العلاَّمة تاج الدين السبكى يقول في كتابه " معيد النِعَم ومبيد النِقم " : " واعلم أن الكشاف كتاب عظيم في بابه، ومصنِّفه إمام في فنه، إلا أنه رجل مبتدع متاجر ببدعته، يضع من

قدر النبوة كثيراً، ويسئ أدبه على أهل السُّنَّة والجماعة، والواجب كشط ما في الكشاف من ذلك كله، ولقد كان الشيخ الإمام - يعنى والده تقى الدين السبكى - يقرأه فإذا انتهى إلى كلامه في قوله تعالى:{إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾} [التكوير: ١٩]، أعرض عنه صفحاً، وكتب ورقة حسبة سماها " سبب الانكفاف، عن إقراء الكشاف " وقال فيها: قد رأيت كلامه على قوله تعالى:{عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ} [التوبة: ٤٣]، وكلامه في سورة التحريم وغير ذلك من الأماكن التي أساء أدبه فيها على خير خلق الله تعالى، سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأعرضتُ عن إقراء كتابه حياءً من النبى صلى الله عليه وسلم، مع ما في كتابه من الفوائد والنكت البديعة ".

هذه هى شهادات بعض العلماء في تفسير الكشاف بما له وما عليه. ومهما يكن من شئ، فالكل مجمع عن أن الزمخشرى هو سلطان الطريقة اللُّغوية في تفسير القرآن، وبها أمكنة أن يكشف عن وجه الإعجاز فيه، ومن أجلها طار كتابه في أقصى المشرق والمغرب، واشتهر في الآفاق، واستمد كل من جاء بعده من المفسِّرين من بحره الزاخر، وارتشف من معينه الفيَّاض، واعتنى الأئمة المحققون بالكتابة عليه: فمن مميِّز لما جاء فيه من الاعتزال، ومن مناقش لما أتى فيه من وجوه الإعراب، ومن محش وضَّحَ ونَقَّحَ واستشكل وأجاب، ومن مخرج لأحاديثه عَزَا وأسنَدَ وصَحَّحَ وأنقد، ومن مختصر لَخَّص وأوجز.

ولا أطيل بذكر الكتب التي عَنِيَ فيها أصحابها بهذه النواحى، ويكفى أن أقول: إن من أهم الحواشى على تفسير الكشاف، حاشية العلامة شرف الدين الحسن بن محمد الطيبى، المتوفى سنة ٧٤٣ هـ (ثلاث وأربعين وسبعمائة من الهجرة)، وهى تقع في ست مجلدات كباراً، وهى التي أشار إليها ابن خلدون في مقالته السابقة. وقد سماها

صاحبها " فتوح الغيب، في الكف عن قناع الريب ".

هذا.. وإن حظوة الكشاف بهذا التقدير والإعجاب حتى من خصومه، وظفره بهذه الشهرة الواسعة التي أغرت العلماء بالكتابة عليه بمثل هذه الكثرة الوافرة الزاخرة من المؤلفات، لدليل قاطع على أنه تفسير في أعلى القمة.

وليس عجباً أن يكون الكشاف كذلك وهو أول كتاب في التفسير كشف لنا على سر بلاغة القرآن، وأبان لنا عن وجوه إعجازه، وأوضح لنا عن دقة المعنى الذي يُفهم من التركيب اللفظى. كل هذا في قالب أدبى رائع، وصوغ إنشائى بديع، لا يتفق لغير الزمخشرى، إمام اللُّغة وسلطان المفسِّرين. وإذا كان الزمخشرى قد تأثر في تفسيره بعقيدته الاعتزالية فمال بالألفاظ القرآنية إلى المعاني التي تشهد لمذهبه، أو تأوَّلها بحيث لا يتنافى معه على الأقل، فإنه في محاولاته هذه قد برهن بحق على براعته وقوة ذهنه، وصوَّر لنا مقدار ما كان من التأثر بين التفسير وهوى العقيدة، وما كان لنا بعد هذا كله أن نغض الطرف عن هذا التفسير، تأثراً بمذهبنا السُّنِّى، وكراهة لمذهب المعتزلة، وبخاصة بعد ما هو ثابت وواقع من ثناء كثير من علماء أهل السُّنَّة عليه - فيما عدا ناحيته الاعتزالية - واعتماد معظم مفسِّريهم عليه وأخذهم منه. فالكشاف - والحق يقال - قد بلغ في نجاحه مبلغاً عظيماً، ليس فقط لأنه لا يمكن الاستغناء عنه في بيان الأقوال الكثيرة لقدماء المعتزلة، بل لأنه استطاع أيضاً أن يكون معتَرفاً به من الأصدقاء والخصوم على السواء ككتاب أساسى للتفسير، وأن يأخذ طابعاً شعبياً يغرى الكل ويتسع للجميع.

وبهذا ننهي حديثنا عن الزمخشري دون تعليق عليه، تاركين الحديث عنه للمدافعين عن القراءات، الرادين لسهام الطاعنين، فحديثهم عن

ذلك فيه الكفاية والنهاية [1].

(١) الـدكتور محمـد حسـين الـذهبى، التفسـير والمفسـرون، ٤ / ١٠٨، مجلـة البحـوث الإسلامية، ٣٥ /٢٢٢.

محمد الطاهر بنْ عاشور
وتفسيره المسمي: التحرير والتنوير
أو: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد
من تفسير الكتاب المجيد

كَانَ جَامع الزيتونة مصنعا لرجال أفذاذ قادوا حَيَاة شعوبهم قبل أن يقودوا حياتهم، فِي وَقت اضْطَرَبَتْ فِيهِ معالم الْحَيَاة، فكَانُوا منارات للهدى وعلامات لطريق السداد. و " مُحَمَّد الطَّاهِر بن عاشور " هُوَ أحد أعْلَام هَذَا الْجَامِع، وَمن عظمائهم المجددين. حَيَاته المديدة الَّتِي زَادَت على ٩٠ عَاما كَانَت جهادًا فِي طلب الْعلم، وجهادا فِي كسر وتحطيم أطواق الجمود والتقليد الَّتِي قيدت الْعقل الْمُسلم عَن التفاعل مَعَ الْقُرْآن الْكَرِيم والحياة المعاصرة.

أحدثت آراؤه نهضة فِي عُلُوم الشَّرِيعَة وَالتَّفْسِير والتربية والتعليم والإصلاح، وكَانَ لَهَا أَثَرهَا الْبَالِغ فِي استِمْرَار الزيتونة " فِي الْعَطاء والريادة ".

وَإِذا كَانَ من عَادَة الشرق عدم احتفاظه بكنوزه، فَهُوَ غَالِبا مَا ينسى عمالقته وروَاده الَّذين كَانُوا ملْء السّمع وَالْبَصَر، ويتطلع إِلَى أفكار مستوردة وتجارب سَابِقَة التَّجْهِيز، وينسى مصلحيه ومجدديه، وَنبت بيئته وغرس مبادئه!!

لم يلق الطَّاهِر تَمام حَقه من الاهتمام بِهِ وباجتهاداته وأفكاره الإصلاحية؛ وَرُبمَا رَجَعَ ذَلِك لأن اجتهاداته تحارب الجمود الْعقلِيّ والتقليد من نَاحيَة، وتصطدم بالاستبداد من نَاحيَة أُخْرَى، كَمَا أَن أفكاره تسْعَى للنهوض والتقدم وفْق مَنْهَج عَقلِي إسلامي، وَلَعَلَّ هَذَا يبين لنا سَبَب نِسْيَان الشرق فِي هَذِه الفترة لرواده وعمالقته!!

آل عاشور:

أصل هَذِهِ الشَّجَرَة الزكية الأول هُوَ مُحَمَّد بن عاشور، ولد بِمَدِينَة سلا من المغرب الأقصَى بعد خُرُوج وَالِده من الأندلس فارًّا بِدِينِهِ من القَهْر والتنصير. توفّي سنة ١١١٠هـ وَقد سَطَعَ نجم آخر وَهُوَ الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بن عاشور وَهُوَ جد مترجمنا، ولد سنة ١٢٣٠هـ وَقد تقلد مناصب هَامة كالقضاء والإفتاء والتدريس والإشراف على الأوْقاف الخَيْرِيَّة والنظارة على بَيت المَال والعضوية بِمَجْلِس الشورى.

وَمن أشهر تلاميذه الشَّيْخ مُحَمَّد الْعَزِيز بوعتور وَالشَّيْخ يُوسُف جعيط وَالشَّيْخ أَحْمد بن الخوجة. وَالشَّيْخ سَالم بوحاجب وَالشَّيْخ مَحْمُود بن الخوجة وَالشَّيْخ مُحَمَّد بيرم. وَمن سلالة آل عاشور وَالِد شَيخنَا الشَّيْخ مُحَمَّد ابْن عاشور وَقد تولى رئاسة مجْلِس إدارة جمعية الأوْقاف ثمَّ خَلفه عَلَيْهَا " أَبُو النخبة المثقفة " مُحَمَّد البشير صفر حَيْثُ عينته الدولة نَائِبا عَنْهَا فِي تِلْكَ المؤسسة وَقد تدعمت الصِّلَة وتمتنت بَين الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور الجد وتلميذه مُحَمَّد الْعَزِيز بوعتور الْوَزير نتج عَنْهَا زيجة شَرْعِيَّة لابنَة الثَّانِي - مُحَمَّد الْعَزِيز بوعتور - على ابْن الأول - الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور الْجد - وَهَكَذَا تمت أواصر هَذِهِ العائلة بالعائلات التونسية وَأخذت مَكَانهَا وارتبطت صلاتهَا فَكَانَت شَجَرَة طيبَة زيتونة لا شرقية وَلَا غربية أَصْلهَا ثَابت وفرعها فِي السَّمَاء تؤتي أكلهَا كل حِين بِإِذن ربهَا.

مولده ونشأته (١٨٧٩/ ١٩٧٣):

بشّرت هَذِهِ العائلة الشَّرِيفَة بِولادَة الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور بالمرسى ضاحية من ضواحي العاصمة التونسية فِي جُمَادَى الأولى سنة ١٢٩٦ هـ المُوَافق لشهر سبتمبر ١٨٧٩م.

نَشأ الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور فِي بيئة علمية لجده للأب قاضِي قُضَاة الْحَاضِرَة التونسية وجده للأم الشَّيْخ مُحَمَّد الْعَزِيز بوعتور.

فَفِي مثل هَذَا الوسط العلمي والسياسي والإصلاحي شب مترجمنا فحفظ القُرْآن الكَرِيم حفظا متقنا مُنْذُ صغر سنه وَحفظ المُتُون العلمية كَسَائِر أبنَاء عصره من التلاميذ ثمَّ تعلم مَا تيَسّر لَهُ من اللُّغَة الفرنسية.

ارتحل إِلَى المشرق العَرَبِيّ وأوروبا وشارك فِي عدَّة ملتقيات إسلامية. كَانَ عضوا مراسلا لمجمع اللُّغَة العَرَبِيَّة بِالقَاهِرَةِ سنة ١٩٥٦م، وبالمجمع العلمي العَرَبِيّ بِدِمَشْق سنة ١٩٥٥م. اشْتهر بِالصبرِ والاعتزاز بِالنَّفسِ والصمود أمَام الكوارث، والترفع عَن الدُّنْيَا، حاول أقصَى جهده إنقاذ التَّعْلِيم الزيتوني وتصدى لَهُ بمعارفه ويقينه وَلَكِن أيدي الأعادي تسلطت على هَذِه المنارة العلمية فألغتها سنة ١٩٦١م فتَوَلّى العلم بتونس وانزوى حَتَّى توفّي الإمَام الشَّيْخ رَحمَه الله يَوْم الأحَد ١٢ أوت ١٩٧٣م وَدفن بمقبرة الزلاج بِمَدِينَة تونس رَحمَه الله تَعَالَى وَجَعَلنَا خير خلف لخير سلف.

مسيرته الدراسية والعلمية:

التحق الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور بِجَامِع الزيتونة فِي سنة ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٦ م وثابر على تَعْلِيمه بِهِ حَتَّى أحرز على شَهَادَة التطويع سنة ١٣١٧هـ/١٨٩٩م وَسمي عدلا مبرزا. ابْتِدَاء من سنة ١٩٠٠ م إِلَى سنة ١٩٣٢ أقبل على التدريس بِجَامِع الزيتونة والمدرسة الصادقية مدرسا من الدرجَة الثَّانِيَة فمدرسا من الدرجَة الأولى سنة ١٩٠٥م، ثمَّ عضوا مؤسسا للجنة إصْلَاح التَّعْلِيم بِجَامِع الزيتونة سنة ١٩١٠م. التحق الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور بِالقَضَاءِ سنة ١٩١١م فكَانَ عضوا بالمحكمة العقارية وقاضيا مالكيا ثمَّ مفتيا مالكيا سنة ١٩٢٣م فكبير المُفْتِينَ سنة ١٩٢٤م فَشَيْخ الإسلام للمَذْهَب المَالِكِي سنة ١٩٣٢م، وَقد بَاشر رَحمَه الله كل هَذِه المهام بمهارة ودقة علمية نادرة وبنزاهة وَحسن نظر فكَانَ حجَّة ومرجعا

فِي مَا يقضِي بِهِ. سمي شيخ جَامع الزيتونة وفروعه لأوّل مرّة فِي سبتمبر سنة ١٩٣٢م بعد أن اشْترك فِي إدارة الكُلية الزيتونية، ولَكنه استقال من مشيخة جَامع الزيتونة بعد سنة (سبتمبر سنة ١٩٣٣م) ثمَّ سمي من جَدِيد شَيخا لجامع الزيتونة فِي سنة ١٩٤٥م. وَفِي سنة ١٩٥٦م شَيخا عميدا للكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدَّين حَتَّى سنة ١٩٦٠م حَيْثُ أُحيل إِلى الرَّاحَة بِسَبَب موقفه تجاه الحملة الَّتِي شنها بورقيبة يَوْمئِذٍ ضد فَريضَة الصّيام فِي رَمَضَان. كَانَ مُقبلا على الْكِتَابَة وَالتَّحْقِيق والتأليف، فقد شَارك فِي إنْشَاء مجلة السَّعَادَة الْعُظَمَى سنة ١٩٥٢م وَهِي أول مجلة تونسية مَعَ صديقه الْعَلامَة الشَّيْخ مُحَمَّد الْخضر حُسَيْن رَحمَه الله. وَنشر بحوثا عديدة خُصُوصا فِي المجلة الزيتونية ومجلات مشرقية مثل هدى الإسلام والمنار وَالْهدَايَة الإسلامية وَنور الإسلام ومجلة مجمع اللُّغَة الْعَرَبيَّة بِالْقَاهِرَةِ. كَمَا نشرت لَهُ مجلة الْمجمع العلمي بِدِمَشْق. شَارك فِي الموسوعة الْفِقْهيَّة الَّتِي تشرف عَلَيْهَا وزارة الأوْقَاف والشئون الإسلامية بالكويت بمبحث قيم.

شُيُوخه:

اكْتسب الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور ثقافة وَاسِعَة شملت التَّفْسِير والْحَدِيث والقراءات ومصطلح الحَدِيث وَالْبَيَان واللغة والتاريخ والمنطق وَعلم الْعرُوض وأعمل فكره فِيمَا حصله وَتوسع فِي ذَلِك وحلله. فقد تخرج على أيدي ثلة من عُلَمَاء عصره امتازوا بثقافة موسوعية فِي عُلُوم الدَّين وقواعد اللُّغَة الْعَرَبيَّة وبلاغتها وبيانها وبديعها إِلَى جَانب قدرَة على التَّبْلِيغ وَمَعْرِفَة بطرق التدريس والتركيز على تربية الملكات فِي الْعُلُوم وَمن أشهرهم الشَّيْخ مُحَمَّد النجار وَالشَّيْخ سَالم بوحاجب وَالشَّيْخ مُحَمَّد النخلي وَالشَّيْخ مُحَمَّد بن يُوسُف وَالشَّيْخ عمر بن عاشور وَالشَّيْخ صَالح الشريف رَحِمهم الله

تَعَالَى جَمِيعًا.

وَإذا تصفحنا حَيَاة هَؤُلاءِ الأعْلام وجدناها حَيَاة علمية زاخرة حافلة بجلائل الأعْمَال قد أعْطوا الحَيَاة التونسية عَطاء جزيلا فِي الدَّين والاجتماع وَالأدب والسياسة وَهَؤُلاء النبغاء وَإن لم يتركُوا مؤلفات ضخمة إلا أنهم تركُوا تلاميذ شهدُوا لهُم بطول الباع فِي نقد الآثار والمناهج وتتبع الهنات اللُّغَويَّة، وَقد كَانَ الشَّيْخ بوحاجب أخصائيا فِي عُلُوم اللُّغَة والنحو والبلاغة وَالأدب.

والأستاذ عمر بن الشَّيْخ ماهر فِي الْفِقْه والمنطق وَالْكَلام والفلسفة. وَالشَّيْخ مُحَمَّد النجار كَانَ جَامعا لشتى الْعُلُوم الَّتِي تدرس بِجَامِع الزيتونة.

وَهَؤُلاء الْعلمَاء الَّذين تتلمذ عَلَيْهِم الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور كَانُوا ثَمَرَة لمصلحين أسهموا الْحَيَاة التونسية إسهاما جَلِيلاً على شَتَّى المستويات الأدبية والاجتماعية أَمْثَال الشَّيْخ إِبْرَاهِيم الريَاحي وَإِسْمَاعِيل التَّمِيمِي والوزير خير الدَّين باشا صَاحب أقوم المسالك وَالشَّيْخ مَحْمُود قبادو. وَلَقَد كَانَ هَؤُلاءِ الْعلمَاء زعماء المدرسَة الإصلاحية التونسية، وَكَانَت فرعا مهما للمدارس الإصلاحية الَّتِي نشرت فِي الْعَالم الإسلامي كالمدرسة الدهلوية والمدرسة الوهابية والمدرسة الأفغانية - نِسْبَة إِلَى جمال الدَّين الأفغاني - وَهَذِه المدرسَة إِلَى جَانب المدرسَة المغربية تتفق مَعَ مدارس الْعَالم الإسلامي فِي الأسس والمبادئ وتختلف عَنْهَا فِي الأساليب والطرائق. بيد أَنَّهَا تلتقي جَمِيعًا حول هدف موحد هُوَ مقاومة التَّخَلُّف المزري الَّذِي تردى فِيهِ الْمُسلمُونَ بالرغم من أن دينهم دين الْفِكر والحضارة وَالْعلم والمدنية.

تأثره بمفكري عصره:

لقد كَانَ للحركة الإصلاحية الَّتِي تزعمها السَّيِّد جمال الدَّين الأفغاني

وتابعها تِلْمِيذه الشَّيْخ مُحَمَّد عَبده صداها الْبعيد فِي الْعَالم الإسلامي، فقد فتحت بصائر النَّاس وحركتهم عَن طَرِيق مجلة العروة الوثقى والزيارات المتتابعة للبلدان الإسلامية من قبل الشَّيْخَيْنِ الأفغاني وَمُحَمّد عَبده. وَفِي هَذَا النطاق تتدرج زيارتي الشَّيْخ مُحَمَّد عَبده إِلَى تونس الأولى كَانَت سنة ١٨٨٥م وكَانَ عمر الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور ثَمَانِي سنوات. والأرجح أن مترجمنا لم يتطلع إِلَى هَذِه الآراء الإصلاحية بعد نظرا لصِغَر سنه.

أما الزِّيَارَة الثَّانِيَة لمفتي الديار المصرية فَكَانَت سنة ١٩٠٣م/١٣٢١هـ وكَانَ عمر الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور ثلاث وَعشْرين سنة وَهُوَ يشغل خطة مدرس من الطَّبَقَة الثَّانِيَة وَقد نجح فِي هَذِه الخطة فِي نفس هَذِه السّنة.

فَهُوَ فِي مقتبل الْعُمر وَقد نَضِجَتْ أفكاره وتشبع وَقَرَأَ كثيرا من آرائه، وتشوفت نَفسه للقاء هَذَا المصلح الْكَبِير. وَتحقق لَهُ ذَلِك فقد حل مُحَمَّد عَبده ضيفا بالمرسى عِنْد الْوَزير خَلِيل أَبُو حَاجِب بقصره الْمَعْرُوف. وَقد عقدت مجَالِس علمية بَين الشبخ مُحَمَّد عَبده وَبَين مفكري الْبِلَاد التونسيين. وكَانَ الشَّيْخ الأسْتَاذ ابْن عاشور لا يتَخَلَّف عَنْهَا وكَانَ من بَين الَّذين تقدمُوا للأستاذ الإمَام باقتراح يطْلبُونَ فِيهِ مِنْهُ بِأَن يلقِي درسا بالجمعية الخلدونية وكَانَ عضوا بمجلسها الإداري، وَقد كَانَ لَهُ ذَلِك وَأُلْقِي الدَّرْس فِي جُمَادَى الثَّانِيَة سنة ١٣٢١هـ/ سبتمبر ١٩٠٣م.

وَلم يقْتَصر الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور على اجتماعه بمصلحي الشرق فَحسب بل اجْتمع بمفكري الْعَالم الغربي من ذَلِك اجتماعه بالمستشرق اوبنهايم الْمَعْرُوف بمناهجه الفلسفية والدينية ومقارنة الأدْيَان والمذاهب وأصولها ومبادئها. وَله فِي هَذَا المجال بَاعَ وَلَقد فاجئني فِي كِتَابه " أَلَيْسَ الصُّبْح بقريب " بإشاراته الباهرة إِلَى

مفكري الغرب ونظرته لأفكارهم بعَين النَّقد، يوحي إِلَيْك من خلالها أنه مُتَمَكن من اللُّغَة الفرنسية على أقل شَيْء.

إصلاحاته ورؤيته للإصلاح:

بَدَأَ الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بن عاشور بمساعدة ثلة من الأنْصَار الأوفياء فِي تخطيط مراحل الإِصْلَاح وتطبيق النّظم الَّتِي يَرَاهَا كفيلة بتحقيق الهدف الَّذِي يصبو إِلَيْهِ لِلْخُرُوج بهَذَا المعهد الْعَظِيم من كبوته بعد أن تكلم عَن أساليب التَّعْلِيم " الزيتوني " ومناهجه بِلِسَان النَّقد فِي كِتَابه " أَلَيْسَ الصُّبْح بقريب " الَّذِي ألفه سنة ١٩٠٧م - ١٣٢١هـ وَالَّذِي ضمنه رُؤْيَته للإصلاح وحدد فِيهِ أَسبَاب تخلف الْعُلُوم مصنفا كل علم على حِدة وَاعْتبر أن إصْلَاح حَال الأمة لا يكون إلا بإصلاح مناهج التَّعْلِيم وَالْقِيَام على هَذَا الجَانِب، كتب كِتَابه هَذَا وعمره لم يتَجَاوَز الْخَمْسَة وَعشْرين سنة مِمَّا يدل على أن هَذَا الشَّيْخ الجَلِيل كرس حَيَاته للنهوض بالجامع الأعْظَم وبالتالي على مكمن الدَّاء فِي تخلف الأمة، وَلَئِن أحس الشَّيْخ بجسامة المهمة والبون الشاسع بَين وَاقع الْمُسلمين وَمَا وصلت إِلَيْهِ الأمَم الغربية من امتلاك أَسبَاب النهضة والرقي إلا أنه لم يدّخر جهدا وَلم يثن عزما فِي السّير فِي هَذَا الطَّرِيق المليء بالأشواك.

لقد شملت عناية الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور إصْلَاح الْكتب الدراسية وأساليب التدريس ومعاهد التَّعْلِيم. وَقد اهتمت لجان من شُيُوخ الزيتونة بتشجيع مِنْهُ بهَذَا الْغَرَض. وَنظرت فِي الْكتب الدراسية على مُخْتَلف مستوياتها وَعمل الشَّيْخ على استبدال كتب كَثِيرَة كَانَت مُنْذُ عصور مَاضِيَة تدرّس وصبغ عَلَيْهَا قدم الزَّمَان صبغة احترام وقداسة موهومة.

لقد حرص الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور على خاصتي التَّعْلِيم الزيتوني: الصبغة الشَّرْعِيَّة واللغة الْعَرَبيَّة وللوصول إِلَى هَذَا الهدف

لابد من تَخْصِيص كتب دراسية شهد لهَا الْعلمَاء بغزارة الْعلم وإحكام الصَّنْعَة وتنمية الملكات فِي التَّحْرِير ليتخرج من " الزيتونة " الْعَالم المقتدر على الْخَوْض فِيمَا درس من الْمسَائِل وتمحيصها ونقدها. ولتحقيق هَذِه الأهداف دَعَا الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور المدرسين إِلَى التقليل من الإلْقاء والإكثار من الأشغال التطبيقية. حَتَّى تتربى للطَّالِب ملكة بهَا يسْتَقلّ فِي الْفَهم. ويعول على نَفسه فِي التَّحْصِيل على ثقافته الْعَامَّة والخاصة. وَقد حث المدرسين على نقد الأساليب والمناهج الدراسية وَاخْتِيَار أحْسنهَا أثْنَاء الدَّرْس ومراعاة تربية الملكة، بدل شحن الْعقل بمعلومات كَثِيرَة قد لا يحسن الطَّالِب التَّصَرُّف فِيهَا. فكَانَت دَعوته للإصلاح ذَات بعدِي التنظير والتطبيق الميداني [١].

تطور الْعُلُوم:

يَقُول الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بن عاشور فِي كِتَابه " أَلَيْسَ الصُّبْح بقريب " - إيذانًا مِنْهُ بِقرب النَّصْر واستعادة الأمة مجدها وتخلصها من المستعمر الفرنسي الَّذِي باغتها فِي عقر دارها - : " رَأَيْت الَّذِي يطْمع فِي الْبَحْث عَن مُوجبَات تدلي الْعُلُوم يَرْمِي بِنَفسِهِ إِلَى متسع رُبمَا لا يجد مِنْهُ مخرجا فِي أمد غَيره طَوِيل، وأيقنت أن لأسباب تَأَخّر الْمُسلمين عُمُوما رابطة وَثِيقَة بِأَسْبَاب تَأَخّر الْعُلُوم ". أحس الشَّيْخ ابْن عاشور بِقِيمَة الْعلم فِي سَبِيل نهوض الأمة وحاول من خلال كِتَابه الْمَذْكُور أن يقدم بديلا لما سَاد فِي أوساط الْجَامِع الْمَعْمُور من مناهج لتدريس الطّلبَة الْعُلُوم الشَّرْعِيَّة الَّتِي توارثها الأجيال أبَا عَن جد دون نظر وإعمال للرأي ومكنت الغرب بالتالي من استحكام سيطرته على الْعَالم الإسلامي والقطر التّونسِيّ جُزْء

(١) مُحَمَّد الْعَزِيز بْن عاشور، جَامع الزيتونة الْمَعْلم وَرِجَاله، ص، ١٢٥، مقدمة كتاب التفسير " التحرير والتنوير " لمحمد الطاهر بن عاشور، ص١٢٥.

مِنْهُ.

وَقبل أن يسْرد سببين رئيسيين لتأخر الْعُلُوم وَيزِيد عَلَيْهِمَا خَمْسَة عشر سَببا فرعيا، قدم نظرته إِلَى الْعُلُوم ورسم منهجه فِي التَّعَامُل مَعَ الْعلم وأطواره، فقسم الْعُلُوم قسمَيْنِ من جِهَة ثَمَرَتهَا:

١ - مَا تنشأ عَنْهَا ثَمَرَة هِيَ من نوع مَوْضُوعَات مسَائِله، كعلم النَّحْو فثمرته تجتنى مِنْهُ وَهِي ثَمَرَة لفظية مَحْضَة.

٢ - مَا يبْحَث عَن أَشْيَاء لا لذاتها بل لاستنتاج نتائج عَنْهَا مثل علم التَّارِيخ والفلسفة والهندسة النظرية وأصول الْفِقْه وَغَيرهَا، فبالتاريخ يَسْتَعِين مزاولة على عقل التجارب وتجنب مضار الحضارات والأخطاء الَّتِي وَقعت فِيهَا الأُمَم السَّابِقَة، والفلسفة تنير الْعقل وتدربه على فتح أَبْوَاب الْحَقَائِق وهاته الأَشْيَاء لا تقرأ فِي الفلسفة وَإِنَّمَا يتعودها الذِّهْن فِي ضمن ممارساته وَمثل ذَلِك علم البلاغة وَجَمِيع الْعُلُوم البرهانية النظرية، وأصول الْفِقْه فِي فلسفة الاستنباط.

يضيف فِي كِتَابه " أَلَيْسَ الصُّبْح بقريب " ليقول كَلمته الحاسمة فِي التَّعَامُل مَعَ الْعُلُوم بمنطق النَّقْد والتطوير دون الْخُرُوج عَن أدب الالْتِزَام بمناهج القدماء من سلف الأمة، فَيَقُول: " وَإِن أطوار الْعُلُوم فِي الأمة تشبه أطوارها فِي الأَفْرَاد ذَلِك أن الْعلم فِي الأمة كَمَا هُوَ فِي الْفَرد لَهُ أَرْبَعَة أطوار:

١ - طور الْحِفْظ والتقليد وَالْقبُول للمسائل كَمَا هِيَ من غير انتساب بَعْضهَا من بعض وَلا تفكر فِي غايتها بل لقصد الْعَمَل.

٢ - طور انتساب بَعْضهَا من بعض وتنويعها وَالانْتِفَاع بِبَعْضِهَا فِي بعض.

٣ - طور الْبَحْث فِي عللها وأسرارها وغاياتها.

٤ - الحكم عَلَيْهَا بِاعْتِبَار تِلْكَ الْعِلَل بالتصحيح والنقد وَهُوَ طور

التضلع والتحرير.

المسيرة النضالية:

عُزز موقف الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بن عاشور بتسميته شَيخا لِلإِسْلام المَالِكِي سنة ١٩٣٢م ثمَّ بتكليفه فِي شهر سبتمبر من نفس السّنة ١٩٣٢م بمهام شيخ مدير الجَامِع الأعْظَم وفروعه فتيسر لَهُ الشُّرُوع فِي تطبيق آرائه الإصلاحية الَّتِي كَانَت شغله الشاغل إلا أن الدسائس والمؤامرات الَّتِي كَانَت تحاك ضِدّه من طرف معارضيه " الزيتونيين " من المتحفظين على خطواته الإصلاحية من جِهَة وأعدائه وخصومه السياسيين " زعماء الحزب الحر الدستوري الجَدِيد " الَّذين شعروا بنفوذه وقبوله من طرف كل المحيطين بِهِ والدور الَّذِي يُمكن أن يلعبه فِي سحب البسَاط من تَحت أرجُلهم من جِهَة ثَانِيَة جعلته يقدم استقالته فِي سبتمبر السّنة الموالية ١٩٣٣م. وَفِي سنة ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م عيّن مرّة ثَانِيَة شَيخا للجامع الأعْظَم وفروعه وقوبلت عودة الشَّيْخ بحماس فياض من طرف الأوساط الزيتونية والرأي التّونسِيّ بصفة عَامَّة واهتز المعهد الزيتوني وفروعه سُرُورًا فانتظمت عدَّة تظاهرات تكريما وارتياحا لعودة الشَّيْخ بالعاصمة وَمِنْهَا الاسْتِقْبَال الحَار الَّذِي خصته بِهِ فروع سوسة والقيروان وصفاقس بمناسبة الزِّيَارَة التفقدية الَّتِي قامَ بهَا الشَّيْخ ابْن عاشور فِي ماي ١٩٤٥م فَور تَسْمِيَته من جَدِيد على رَأس إدارة التَّعْلِيم الزيتوني فانْطَلَقت أَلسِنَة الأدباء وَالشعرَاء بالقصائد الحماسية والأناشيد.

واستأنف الشَّيْخ تطبيق برنامجه الإصلاحي فَجعل الفُرُوع الزيتونية تَحت مراقبة إدارة مشيخة الجَامِع رَأسا بَعْدَمَا كَانَت ترجع شؤونها بِالنّظرِ إِلَى السلط الشَّرْعِيَّة الجهوية. كَمَا زَاد الشَّيْخ ابْن عاشور فِي عدد الفُرُوع الزيتونية الَّذِي ارْتقى فِي مُدَّة سبع سنوات (١٩٤٩ - ١٩٥٦م) من ثَمَانِيَة إِلَى خمس وَعشْرين (مِنْهَا اثْنَان للفتيات فِي

تـونس وصـفاقس) وَصَـارَ عـدد تلامـذة الزيتونـة وفروعهـا ينـاهز الْعشْرين ألف تلميذ فِي حُدُود ١٩٥٦م.

كَمَا امتدت شبكة فروع الزيتونة إِلى الْقطر الجزائري بإنشاء فرعين فِي مَدِينَة قسنطينة.

وحـرص الشَّـيْخ ابْـن عاشـور علـى أن يحسـن مـن أوضـاع الطّلبَـة المعيشـية والاجتماعيـة لهُـم لمـا لـهُ قيمَـة فِـي رفـع معنويـات الطّلبَـة الزيتونيين إزاء إخْوَانهمْ الميسرين، وأمام الضغوط من حَولهمْ على الْقضَاء على التَّعْلِيم الزيتوني والحيرة الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا أغلب أبنَاء الزيتونة والآفاق الَّتِي يُمكن أن يرسموها لمستقبلهم، فأنشئت مطابخ ببَعْض الْمدَارِس مكنت الطّلبَة من تنَاول الطَّعَام ثَلَاث مَرَّات فِي الْيَوْم بأسعار زهيدة. إلا أن ذَلِك لم يكن شَيْئا يذكر أَمَام البنايات الْقَدِيمَة وَضعف مَالِيَّة إدارة المشيخة وَهِي حَقِيقَة عاشها كل الزيتونيين.

تجدر الإشَارَة إِلى أن سلطات الحماية حاولت تَعْطِيل إنجاز برنامج الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور بطرق متنوعة مِنْهَا مقاومة إنْشَاء الْفُرُوع... وَقد زَاد تفاقم الْوَضع الظروف السياسية فِي البلاد وانعكاسها على الأوساط الزيتونية انعكاسا تسبب فِي اضْطِرَاب دَاخل الْجَامِع. وبسبب تمسك الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور بمبدأ عدم الاستجابة لرغبة الأحْزَاب السياسية فَاشْتَدَّ الْخلاف بَينه وَبَين الوزارة فِي سنة ١٩٥٠م، خُصُوصا إثْر رفض الشَّيْخ بْن عاشور لطلب تِلْكَ الوزارة بطرد بعض الطّلبَة أعْضَاء صَوت الطَّالِب الزيتوني المناهض للحزب. وَقد قررت السلطة إبعاد الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور عَن مُبَاشرَة وظيفته مَعَ إبقائه فِي خطته وتكليف كاهيته الشَّيْخ عَليّ النيفر بإدارة المشيخة. وَفِي سنَة ١٩٥٦م عَاد الشَّيْخ ابْن عاشور إِلى مُبَاشرَة شؤون التَّعْلِيم الزيتوني بعنوان شيخ عميد للجامعة الزيتونية من سنة ١٩٥٦ إِلى ١٩٦٠م تَارِيخ الْقضَاء على

الزيتونة والتعليم الزيتوني.

كتاباته ومؤلفاته:

كَانَ أول من حَاضر بِالْعَرَبِيَّةِ بتونس فِي هَذَا الْقرن، أما كتبه ومؤلفاته فقد وصلت إِلَى الأَرْبَعين هِيَ غَايَة فِي الدقة العلمية. وتدل على تبحر الشَّيْخ فِي شَتَّى الْعُلُوم الشَّرْعِيَّة وَالأدب. وَمن أجلّها كِتَابه فِي التَّفْسِير " التَّحْرِير والتنوير " مَوْضُوع بحثنا. وَكتابه الثمين والفريد من نَوعه " فِي مَقَاصِد الشَّرِيعَة الإسلامية "، وَكتابه حَاشِيَة التَّنْقِيح للقرافي، و " أصُول الْعلم الاجتماعي فِي الإسلام "، وَالْوَقْف وآثاره فِي الإسلام، وَنقد علمي لكتاب أصُول الحكم، وكشف المعطر فِي أَحَادِيث الْمُوَطَّأ، والتوضيح والتصحيح فِي أصُول الْفِقْه، وموجز البلاغة، وَكتاب الإنْشَاء والخطابة، شرح ديوَان بشار وديوان النَّابِغَة...إلخ.

وَلا تزَال العديد من مؤلفات الشَّيْخ مخطوطة مِنْهَا: مَجْمُوع الْفَتَاوَى، وَكتاب فِي السِّيرَة، ورسائل فقهية كَثِيرَة.

وَقد قسمت مؤلفاته إِلَى قسمَيْن مِنْهَا مؤلفات فِي الْعُلُوم الإسلامية، وَأُخْرَى فِي الْعَرَبِيَّة وآدابها:

الْعُلُوم الإسلامية:

١ - التَّحْرِير والتنوير

٢ - مَقَاصِد الشَّرِيعَة الإسلامية

٣ - أصُول النظام الاجتماعي فِي الإسلام

٤ - أَلَيْسَ الصُّبْح بقريب

٥ - الْوَقْف وآثاره فِي الإسلام

٦ - كشف الْمُعْطى من الْمعَانِي والألفاظ الْوَاقِعَة فِي الْمُوَطَّأ

٧ - قصَّة المولد

٨ - حَوَاشِي على التَّنْقِيح لشهاب الدِّين الْقرَافِيّ فِي أصُول الْفِقْه

٩ - رد على كتاب الإسلام وأصول الحكم تأليف على عبد الرازق

١٠ - فتَاوَى ورسائل فقهية

١١ - التَّوْضِيح والتصحيح فِي أصُول الْفِقْه

١٢ - النّظر الفسيح عِنْد مضايق الأنظار فِي الْجَامِع الصَّحِيح

١٣ - تَعْلِيق وَتَحْقِيق على شرح حَدِيث أم زرع

١٤ - قضايا شَرْعِيَّة وَأَحْكَام فقهية وآراء اجتهادية ومسائل علمية

١٥ - آمال على مُخْتَصر خَلِيل

١٦ - تعاليق على العلول وحاشية السياكوتي

١٧ - آمال على دَلَائِل الإعجاز

١٨ - أصُول التَّقَدُّم فِي الإسلام

١٩ - مراجعات تتَعَلَّق بكتابي: معجز أحْمد واللامع للعزيزي

اللُّغَة الْعَرَبيَّة وآدابها:

١ - أصُول الإنْشَاء والخطابة

٢ - موجز البلاغة

٣ - شرح قصيدة الأعْشَى

٤ - تَحْقِيق ديوَان بشار

٥ - الْوَاضِح فِي مشكلات المتنبي

٦ - سرقات المتنبي

٧ - شرح ديوَان الحماسة لأبي تَمام

٨ - تَحْقِيق فَوَائِد العقيان لِلْفَتْح ابْن خاقان مَعَ شرح ابْن زاكور

٩ - ديوَان النَّابِغَة الذُّهَبِيّ

١٠ - تَحْقِيق " مُقدّمَة فِي النَّحْو " لخلف الأَحْمَر

١١ - تراجم لبَعض الأعْلام

١٢ - تَحْقِيق كتاب " الاقتضاب " للبطليوسي مَعَ شرح كتاب أدب الْكَاتِب

١٣ - جمع وَشرح ديوَان سحيم

١٤ - شرح معلقة امْرِئ الْقَيْس

١٥ - تَحْقِيق لشرح الْقرشِي على ديوَان المتنبي

١٦ - غرائب الاسْتِعْمَال

١٧ - تَصْحِيح وَتَعْلِيق على كتاب " الانتصار " لِجَالِينُوسَ للحكيم ابْن زهر.

وَقد عدد الدكتور مُحَمَّد الحبيب بن الخوجة المجلات العلمية الَّتِي أسْهم فِيهَا الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور، نذْكر مِنْهَا:

- السَّعَادَة الْعُظْمَى

- المجلة الزيتونية

وَمن الصُّحُف والمجلات الشرقية:

- هدى الإسلام

- نور الإسلام

- مِصْبَاح الشرق

- مجلة الْمنَار

- مجلة الْهِدَايَة الإسلامية

- مجلة مجمع اللُّغَة الْعَرَبيَّة بِالْقَاهِرَةِ

- مجلة الْمجمع العلمي بِدِمَشْق.

وَقد شغل مهمة عُضْو مراسل لمجمعي اللُّغَة الْعَرَبيَّة بِالْقَاهِرَةِ ودمشق

مُنْذُ سنة ١٩٥٥م [١].

مَقَاصِد الشَّرِيعَة:

كَانَ الطَّاهِر بن عاشور فَقِيها مجددا، يرفض مَا يردده بعض أدعياء الْفِقه من أن بَاب الاجْتِهَاد قد أغلق فِي أعقاب الْقرن الْخَامِس الهجري، وَلَا سَبِيل لفتحه مرّة ثَانِيَة، وَكَانَ يرى أن ارتهان الْمُسلمين لهَذِهِ النظرة الجامدة المقلدة سَيُصِيبُهُمْ بالتكاسل وسيعطل إعْمَال الْعقل لإيجاد الْحُلُول لقضاياهم الَّتِي تَجِد فِي حياتهم.

وَإِذا كَانَ علم أصُول الْفِقه هُوَ الْمنْهَج الضَّابِط لعملية الاجْتِهَاد فِي فهم نُصُوص الْقُرْآن الْكَرِيم واستنباط الأَحْكَام مِنْهُ فَإِن الاختلال فِي هَذَا العلم هُوَ السَّبَب فِي تخلي الْعلمَاء عَن الاجْتِهَاد. وَرَأى أن هَذَا الاختلال يرجع إِلَى توسيع العلم بِإِدْخَال مَا لا يحْتَاج إِلَيْهِ الْمُجْتَهد، وَأَن قَوَاعِد الأُصُول دونت بعد أن دون الْفِقه، لذَلِك كَانَ هُنَاكَ بعض التَّعَارُض بَين الْقَوَاعِد وَالْفُرُوع فِي الْفِقه، كَذَلِك الْغَفْلَة عَن مَقَاصِد الشَّرِيعَة؛ إِذْ لم يدون مِنْهَا إلا الْقَلِيل، وَكَانَ الأولى أن تكون الأَصْل الأول لِلأُصُول لأن بهَا يرْتَفع خلاف كَبِير.

وَيعْتَبر كتاب " مَقَاصِد الشَّرِيعَة " من أفضل مَا كتب فِي هَذَا الْفَنّ وضوحا فِي الْفِكر ودقة فِي التَّعْبِير وسلامة فِي الْمنْهَج واستقصاء للموضوع.

محنة التَّجْنِيس:

لم يكن الطَّاهِر بن عاشور بَعيدا عَن سِهَام الاستعمار والحاقدين عَلَيْهِ والمخالفين لمنهجه الإصلاحي التجديدي، فتعرض الشَّيْخ لمحنة قاسية استمرت ٣ عُقُود عرفت بمحنة التَّجْنِيس، وملخصها أن

---

(١) مُحَمَّد العَزِيز ابْن عاشور، جَامع الزيتونة المَعْلم وَرِجَاله، ص، ١١٥، مقدمة كتاب التفسير " التحرير والتنوير " لمحمد الطاهر بن عاشور ١٢٥.

الاستعمار الفرنسي أصدر قانونا فِي (شَوَّال ١٣٢٨ هـ = ١٩١٠م) عرف بقانون التَّجْنِيس، يتيح لمن يرغب من التونسيين التجنس بالجنسية الفرنسية؛ فتصدى الوطنيون التونسيون لهَذَا القانون وَمنعُوا المتجنسين من الدّفن فِي الْمَقَابِر الإسلامية؛ مِمَّا أربك الفرنسيين فلجأت السلطات الفرنسية إِلَى الْحِيلَة لاستصدار فَتْوَى تضمن للمتجنسين التَّوْبَة من خلال صِيغَة سُؤال عَامَّة لا تتَعَلَّق بالحالة التونسية توجه إِلَى الْمجْلس الشَّرْعِيّ.

وكَانَ الطَّاهِر يتَوَلَّى فِي ذَلِك الْوَقْت سنة (١٣٥٢ هـ = ١٩٣٣م) رئاسة الْمجْلس الشَّرْعِيّ لعلماء الْمَالِكِيَّة فأفتى المجْلس صَرَاحَة بِأَنَّهُ يتَعَيَّن على المتجنس عِنْد حُضُوره لَدَى القاضِي أن ينْطق بِالشَّهَادَتَيْنِ ويتخلى فِي نفس الْوَقْت عَن جنسيته الَّتِي اعتنقها، لَكِن الاستعمار حجب هَذِه الْفَتْوَى، وبدأت حَملَة لتلويث سمعة هَذَا الْعَالم الْجَلِيل، وتكررت هَذِه الحملة الآثمة عدَّة مَرَّات على الشَّيْخ، وَهُوَ صابر محتسب.

صدق الله وَكذب بورقيبة:

وَمن المواقف الْمَشْهُورَة للطاهر بن عاشور رفضه القَاطِع استصدار فَتْوَى تبيح الفطر فِي رَمَضَان، وكَانَ ذَلِك عَام (١٣٨١ هـ = ١٩٦١م) عِنْدَمَا دَعَا " الحبيبُ بورقيبة " الرئيسُ التونسِيّ السَّابِق العمالَ إِلَى الفطر فِي رَمَضَان بِدَعْوَى زِيَادَة الإنتاج، وَطلب من الشَّيْخ أن يُفْتِي فِي الإذاعة بِمَا يُوَافق هَذَا، لَكِن الشَّيْخ صرح فِي الإذاعة بِمَا يُرِيدهُ الله تَعَالَى، بعد أن قَرَأَ آيَة الصّيام، وَقَالَ بعْدهَا: " صدق الله وَكذب بورقيبة "، فخمد هَذَا التطاول المقيت وَهَذِه الدعْوَة الْبَاطِلَة بِفضل مقولة ابْن عاشور.

وَفَاته:

وَقد توفّي الطَّاهِر بن عاشور فِي (١٣ رَجَب ١٣٩٣ هـ = ١٢

أغسطس ١٩٧٣م) بعد حَيَاة حافلة بِالْعلمِ والإصلاح والتجديد على مستوى تونس والعالم الإسلامي [(١)].

التحرير والتنوير:

وَتَفْسِيره الْمُسَمّى بالتحرير والتنوير اسْمه الأَصْلِيّ: " تَحْرِير الْمَعْنى السديد وتنوير الْعقل الْجَدِيد وَتَفْسِير الكتاب الْمجِيد ".

وَالْكتاب لَهُ طبعتان: طبعة على هَيْئَة أجزَاء مُتَفَرِّقَة نشرتها الدَّار التونسية للنشر، وطبعة فِي خمس مجلدات، وطبعة قديمَة سنة ١٣٨٤هـ بمطبعة عِيسَى البابي الْحلَبِي لم أقف مِنْهَا على غير الْجُزْء الأول فقط.

قدم لَهُ الْمُؤلف بتمهيد واف ذكر فِيهِ مُرَاده من هَذَا التَّفْسِير وَقَالَ:

فَجعلت حقًا عَليّ أن أبدي فِي تَفْسِير الْقُرْآن نكتا لم أر من سبقني إِلَيْهَا، وَأَن أقف موقف الحكم بَين طوائف الْمُفَسّرين تَارَة لَهَا وآونة عَلَيْهَا، فَإِن الاقتِصَار على الحَدِيث المعَاد، تَعْطِيل لفيض الْقُرْآن الَّذِي مَاله من نفاد، وَلَقَد رَأَيْت النَّاس حول كَلام الأقدمين أحد رجلَيْن: رجل معتكف فِيمَا شاده الأقدمون، وَآخر آخذ بمعوله فِي هدم مَا مَضَت عَلَيْهِ الْقُرُون وَفِي تِلْكَ الْحَالَتَيْنِ ضرّ كثير، وهنالك حَالَة أُخْرَى ينجبر بهَا الْجنَاح الكسير، وَهِي أن نعمد إِلَى مَا أشاده الأقدمون فنهذبه ونزيده وحاشا أن ننقضه أو نبيده، علما بِأَن غمص فَضلهمْ كفران للنعمة، وَجحد مزايا سلفها لَيْسَ من حميد خِصَال الأمة.

وَقد ذكر فِيهَا أهم التفاسير فِي نظره فبدأها بتفسير الْكَشَّاف ثمَّ الْمُحَرر الْوَجِيز ثمَّ مَفَاتِيح الْغَيْب وَتَفْسِير الْبَيْضَاوِيّ والآلوسي وَذكر

---

(١) مُحَمَّد العَزِيز ابْن عاشور، جَامع الزيتونة المَعْلم وَرجَاله، ص، ١١٥، مقدمة كتاب التفسير " التحرير والتنوير " لمحمد الطاهر بن عاشور ١٢٥.

بعض الْحَوَاشِي على الْكَشَّاف والبيضاوي وَتَفْسِير أبي السُّعُود والقرطبي وَتَقْيِيد الأبي على ابْن عَرَفَة وَتَفْسِير ابْن جرير ودرة التَّنْزِيل. ثمَّ قَالَ: ولقصد الاخْتِصَار أعرض عَن الْعزو إِلَيْهَا.

فَكَأَنَّهَا مراجعه الأساسية.

وَلَقَد أخر مَا حَقه التَّقْدِيم فَجعل أولهَا كتاب الْكَشَّاف المعتزلي وَجعل فِي آخرهَا كتاب ابْن جرير أعظم الْمُفَسّرين وعمدة السَّابِقين واللاحقين مِمَّا يُعْطي الانطباع بِأَن مَنْهَج الشَّيْخ عقلاني أَكثر مِنْهُ أثري.

ثمَّ قَالَ: وَقد ميزت مَا يفتح الله لي من فهم فِي مَعَاني كِتَابه وَمَا أجلبه من الْمسَائِل العلمية مِمَّا لا يذكرهُ الْمُفَسِّرُونَ.

كَمَا وضح أن فن البلاغة لم يَخُصُّهُ أحد من الْمُفَسّرين بِكِتَاب كَمَا خصوا أفانين الْقُرْآن الْأُخْرَى وَمن أجل ذَلِك التزم أن لا يغْفل التَّنْبِيه على مَا يلوح لَهُ مِنْهُ كلما ألهمه.

وأخيرًا فَهُوَ يمتدح كِتَابه بقوله: فَفِيهِ أحسن مَا فِي التفاسير، وَفِيه أحسن مِمَّا فِي التفاسير.

وَقد أتبع كَلَامه عَن تَفْسِيره بِعشر مُقدمَات:

الأولى: فِي التَّفْسِير والتأويل وَتعرض فِيهِ لبَيَان أن التَّفْسِير لَيْسَ علما إلا على وَجه التسامح وناقش ذَلِك بمقدمات منطقية ترسم أبعادًا لمنهجه العقلاني الَّذِي يَتَّضِح من خلال مطالعة تَفْسِيره شَيْئا فَشَيْئًا.

وَقد أثنى فِي تِلْكَ الْمُقدمَة على تفسيري الْكَشَّاف وَابْن عَطِيَّة وَقَالَ: وَكِلاهُمَا عضادتا الْبَاب ومرجع من بعدهمَا من أولي الْأَلْبَاب.

وسوف يَأْتِي ذكر بَقِيَّة الْمُقدمَات فِي غُضُون كلامنا عَن الْمنْهَج التفصيلي.

المَنْهَج الْعَام للتفسير:

وَتَفْسِير التَّحْرِير والتنوير بعتير فِي الجُمْلَة تَفْسِيرا بلاغيا بَيَانا لغويا عقلانيا لا يغْفل الْمَأْثُور ويهتم بالقراءات. وَطَرِيقَة مُؤَلفه فِيهِ أن يذكر مقطعا من السُّورَة ثمَّ بشرع فِي تَفْسِيره مبتدئا بِذكر الْمُنَاسبَة ثمَّ لغويات المقطع ثمَّ التَّفْسِير الإجمالي ويتعرض فِيهِ للقراءات والفقهيات وَغَيرهَا.

وَهُوَ يقدم عرضا تفصيليا لما فِي السُّورَة ويتحدث عَن ارتباط آياتها(١).

المَنْهَج التفصيلي للمؤلف:

أولا: أسمَاء السُّور وَعدد الآيَات وَالْوُقُوف وَبَيَان المناسبات:

لقد أفرد ابْن عاشور الْمُقدمَة الثَّامِنَة من مقدماته وَجعلهَا فِي اسْم الْقُرْآن وآياته وسوره وترتيبها وأسمائها.

ثمَّ هُوَ يتَعَرَّض أثْنَاء التَّفْسِير لأسماء السُّور وَمن ذَلِك فِي سُورَة الْفَاتِحَة إِذْ يَقُول: سُورَة الْفَاتِحَة من السُّور ذَات الأسْمَاء الْكَثِيرَة. أنهاها صَاحب الإتقان إِلَى نَيف وَعشْرين بَين ألقاب وصفات وَجَرت على أَلسِنَة الْقُرَّاء من عهد السّلف، وَلم يثبت فِي السّنة الصَّحِيحَة والمأثور من أسمائها إلا فَاتِحَة الْكتاب، والسبع المثاني، وَأم الْقُرْآن، أو أم الْكتاب، فلنقتصر على بَيَان هَذِه الأسْمَاء الثَّلاثَة.

وَمِمَّا قَالَه فِي تَقْدِيمه لكتابه: واهتممت أيْضا بِبَيَان تناسب اتِّصَال الآي بَعْضهَا بِبَعْض وَبَين أن الْبَحْث عَن تناسب مواقع السُّور لَيْسَ حَقًا على الْمُفَسّر.

---

(١) المهدي بن حميدة، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رائد الفكر الإسلامي بتصرف، مُحَمَّد الْعَزِيز ابْن عاشور، جَامع الزيتونة المَعْلم وَرجَاله، ص، ١١٥، مقدمة كتاب التفسير " التحرير والتنوير " لمحمد الطاهر بن عاشور.

ويتعرض لمكية السُّور ومدنيتها وترتيب نُزُولهَا كَمَا فِي الفَاتِحَة وَالْبَقَرَة وَغيرهمَا. وَفِي تَرْتِيب النُّزُول جَاءَ قَوْله:

تحير الْمُفَسِّرُونَ فِي مَحل هاته الْحُرُوف الوَاقِعَة فِي أول هاته السُّور، وَفِي فواتح سور أُخْرَى عدَّة جَمِيعهَا تسع وَعِشْرُونَ سُورَة ومعظمها فِي السُّور المكية، وَكَانَ بَعْضهَا فِي ثَانِي سُورَة نزلت وهى:{نٓۚ وَٱلْقَلَمِ} [القلم: ١]، وأخلق بهَا أن تكون مثار حيرة ومصدر أقوَال مُتعَدِّدَة وأبحاث كَثِيرَة.

وَعند النّظر لأوّل وهلة يتَبَيَّن أن تَحْدِيد المُصَنّف لتِلْك السُّورَة بِأَنَّهَا ثَانِي سُورَة نزلت لَيْسَ بِصَحِيح فَإِن أولى السُّور نزولا هِيَ العلق ثمَّ التحرير والتنوير المدثر وَالْخلاف مَحْصُور فيهمَا مَعَ الْفَاتِحَة، فسورة ن هِيَ الرَّابِعَة على أقل تَقْدِير. وَهُوَ يتَعَرَّض لعد الآي وَمن ذَلِك قَوْله فِي سُورَة الْبَقَرَة: وَعدد آيها مِائَتَان وَخمْس وَثَمَانُونَ آيَة عِنْد أهل الْعدَد بِالْمَدِينَةِ وَمَكَّة وَالشَّام، وست وَثَمَانُونَ عِنْد أهل الْعدَد بِالْكُوفَةِ، وَسبع وَثَمَانُونَ عِنْد أهل الْعدَد بِالْبَصْرَةِ.

وَقد تعرض للخلاف فِي عد الفواتح.

موقفه من العقيدة:

وَهُوَ فِي العقيدة يسْلك مَسْلك المؤولة:

يَقُول: فوصف الله تَعَالَى بِصِفَات الرَّحْمَة فِي اللُّغَات نَاشِئ على مِقْدَار عقائد أهلهَا فِي مَا يجوز على الله ويستحيل، وَكَانَ أَكثر الْأُمَم مجسمة، ثمَّ يَجِيء ذَلِك فِي لِسَان الشَّرَائِع تعبيرًا على الْمعَانِي الْعَالِيَة بأقصى مَا تسمح بِهِ اللُّغَات مَعَ اعْتِقَاد تَنْزِيه الله عَن أَعْرَاض الْمَخْلُوقَات بِالدَّلِيلِ الْعَام على التَّنْزِيه وَهُوَ مَضْمُون قَول الْقُرْآن:{لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ} [الشورى: ١١]، فَأهل الْإِيمَان إِذا سمعُوا أَو أطْلقُوا وصفي: الرَّحْمَن الرَّحِيم؛ لَا يفهمون مِنْهُ حُصُول ذَلِك الانفعال

الملحوظ فِي حَقِيقة الرَّحْمَة فِي مُتَعَارَف اللُّغَة الْعَرَبيَّة لسطوع أدِلَّة تَنْزِيه الله تَعَالَى عَن الأعْرَاض بل إِنَّه يُرَاد بِهَذَا الْوَصْف فِي جَانب الله تَعَالَى إِثْبَات الْغَرَض الأسمى من حَقِيقَة الرَّحْمَة وَهُوَ صُدُور آثَار الرَّحْمَة من الرِّفْق واللطف وَالإِحْسَان والإعانة لأن ماعدا ذَلِك من الْقُيُود الملحوظة فِي مُسَمّى الرَّحْمَة فِي مُتَعَارَف النَّاس لا أهمية لَهُ، لَوْلا أنه لا يُمكن بِدُونِهِ حُصُول آثاره فيهم ألا ترى أن الْمَرْء قد يرحم أحدا وَلا يملك لَهُ نفعا لعجز أَو نَحوه وَقد أَشَارَ إِلَى مَا قُلنَاهُ أَبُو حَامِد الْغَزالِيّ فِي الْمَقصد الأسْنَى بقوله: الَّذِي يُرِيد قَضَاء حَاجَة الْمُحْتَاج وَلا يَقضِيهَا فَإِن كَانَ قَادِرًا على قَضَائهَا لم يسم رحِيما إِذْ لَو تمت الإِرَادَة لوفى بهَا وَإِن كَانَ عَاجِزا فقد يُسمى رحِيما بِاعْتِبَار مَا اعْتَبرهُ من الرَّحْمَة والرقة وَلَكِن نَاقص.

وَبِهَذَا تعلم أَن إِطْلاق نَحْو هَذَا الْوَصْف على الله تَعَالَى لَيْسَ من الْمُتَشَابه لتبادر الْمَعْنى الْمُرَاد مِنْهُ بِكَثْرَة اسْتِعْمَاله وَتحقق تنزه الله عَن لَوَازِم الْمَعْنى الْمَقصُود فِي الْوَضع مِمَّا لا يَلِيق بِجلال الله، كَمَا نطلق الْعَلِيم على الله مَعَ التيقن بتجرد علمه عَن الْحَاجة إِلَى النّظر وَالاسْتِدْلال وَسبق الْجَهْل، وكما نطلق الْحَيّ عَلَيْهِ تَعَالَى مَعَ الْيَقِين بتجرد حَيَاته عَن الْعَادة والتكون، ونطلق الْقُدْرَة مَعَ الْيَقِين بتجرد قدرته عَن المعالجة والاستعانة، فوصفه تَعَالَى بالرحمن الرَّحِيم من المنقولات الشَّرْعِيَّة فقد أثبت الْقُرْآن رَحْمَة الله فِي قَوْله:{وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} [الأعراف: ١٥٦]، فَهِيَ منقولة فِي لِسَان الشَّرْع إِلَى إِرَادَة الله إِيصَال الإِحْسَان إِلَى مخلوقاته فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا وغالب الأسْمَاء الْحسنى من هَذَا الْقبيل.

وَيَقُول: وَإِذا كَانَت حَقِيقَة الْغَضَب يَسْتَحِيل اتصاف الله تَعَالَى بهَا، وإسنادها إِلَيْهِ على الْحَقِيقة، للأدلة القطعية الدَّالَّة على تَنْزِيه الله تَعَالَى عَن التغيرات الذاتية والعرضية؛ فقد وَجب على الْمُؤمن صرف إسْنَاد الْغَضَب إِلَى الله عَن مَعْنَاهُ الْحَقِيقِيّ، وَطَرِيقَة أهل الْعلم وَالنَّظر

فِي هَذَا الصّرْف أن يصرف اللَّفْظ إِلى المجَاز بعلاقة اللُّزُوم أو إِلى الْكِنَايَة بِاللَّفْظِ عَن لازم مَعْنَاهُ، فَالَّذِي يكون صفة لله من معنى الْغَضَب هُوَ لازمه، أعنِي: العقاب والإهانة يَوْم الْجَزَاء واللعنة أي الإبعاد عَن أهل الدَّين وَالصَّلاح فِي الدُّنْيَا أو هُوَ من قبيل التمثيلية. وَكَانَ السّلف فِي الْقرن الأول ومنتصف الْقرن الثَّانِي يمسكون عَن تَأْوِيل هَذِه المتشابهات، لما رَأوْا فِي ذَلِك الإمْسَاك من مصلحَة الاشْتِغَال بِإِقَامَة الأعْمَال الَّتِي هِيَ مُرَاد الشَّرْع من النَّاس، فَلَمَّا نَشأ النّظر فِي الْعلم وطلبوا معرفَة حقائق الأشْيَاء وَحدث قَول النَّاس فِي مَعَاني الدَّين بِمَا لا يلائم الْحق، لم يجد أهل الْعلم بَدًا من توسيع أساليب التَّأْوِيل الصَّحِيح لإفهام المُسلم وكبت الملحد، فَقَامَ الدَّين بصنيعهم على قوَاعِده، وتميز المخلص لَهُ عَن ماكره وجاحده، وكل فِيمَا صَنَعُوا على هدى. وَبعد الْبَيَان لا يرجع إِلى الإجْمَال أبدا، وَمَا تأولوه إلا بِمَا هُوَ مَعْرُوف فِي لِسَان الْعَرَب مَفْهُوم لأهله. فَغَضب الله تَعَالَى على الْعُمُوم يرجع إِلى مُعَامَلَته الحائدين عَن هَدْيه العاصين لأوامره وَيَتَرَتَّب عَلَيْهِ الانتقام وَهُوَ مَرَاتِب أقصاها عِقَاب الْمُشْركين وَالْمُنَافِقِينَ بالخلود فِي الدَّرك الأسْفَل من النَّار وَدون الْغَضَب الْكَرَاهِيَة. وَقد يستطرد أحْيَانًا فِي تِلْكَ القضايا المُتَعَلّقة بِالصِّفَاتِ وَيَكْفِي الْقَارئ لمعْرِفَة مدى الاستطراد الَّذِي وَقع فِيهِ الْمُؤلف الْخَارج عَن نطاق التَّفْسِير أن يقرَأ هَذِه الْفقرَة الَّتِي سَاقهَا ضمن كَلامه الطَّوِيل عَن الحَمد: قَالَ:... وَمِنْه أنه يكون ثَنَاء على الْجَمِيل الاخْتِيَارِيّ: وَبِهَذَا يَنْدَفع الإشْكَال عَن حمدنا الله تَعَالَى على صِفَاته الذاتية كَالْعلم وَالْقُدْرَة دون صِفَات الأفْعَال، وَإِن كَانَ اندفاعه على اخْتِيَار الْجُمْهُور أيْضا ظَاهرا؛ فَإِن مَا ورد عَلَيْهِم من أن مَذْهَبهم يسْتَلْزم أن لا يحمد الله تَعَالَى على صِفَاته لأنَّهَا ذاتية، فَلا تُوصَف بِالاخْتِيَار إِذْ الاخْتِيَار يسْتَلْزم إمْكَان الاتصاف. وَقد أجابوا عَنهُ إِمَّا بِأَن تِلْكَ الصِّفَات الْعلية

نزلت منزلة الاختيارية لاستقلال موصوفها وَإِمَّا بِأَن ترَتّب الآثار الاختيارية عَلَيْهَا يَجْعَلهَا كالاختيارية، وَإِمَّا بِأَن المُرَاد بالاختيارية أَن يكون الْمَحْمُود فَاعِلا بِالاخْتِيَارِ وَإِن لم يكن الْمَحْمُود عَلَيْهِ اختياريًا. وَعِنْدِي أَن الْجَواب أَن نقُول: إِن شَرط الاخْتِيَارِيّ فِي حَقِيقَة الْحَمد - عِنْد مثبته - لإِخْرَاج الصِّفَات غير الاختيارية، لأَن غير الاخْتِيَارِيّ فِينَا لَيْسَ من صِفَات الْكَمَال إِذْ لا تترتب عَلَيْهَا الآثار الْمُوجبَة للحمد، فكَانَ شَرط الاخْتِيَار فِي حمدنا زِيَادَة فِي تحقق كَمَال الْمَحْمُود، أما عدم الاخْتِيَار الْمُخْتَص بِالصِّفَاتِ الذاتية الإلهية فَإِنَّهُ لَيْسَ عبارَة عَن نقص فِي صِفَاته، وَلَكنه كَمَال نَشأ من وجوب الصّفة للذات لقدم الصّفة فَعدم الاخْتِيَار فِي صِفَات الله تَعَالَى زِيَادَة فِي الْكَمَال لأَن أَمْثَال تِلْكَ الصِّفَات فِينَا لا تكون وَاجِبَة للذات مُلازمَة لَهَا، فكَانَ عدم الاخْتِيَار فِي صِفَات الله تَعَالَى دَلِيلا على زِيَادَة الْكَمَال، وَفينَا دَلِيلا على النَّقْص. وَمَا كَانَ نقصا فِينَا بِاعْتِبَار مَا، قد يكون كمالا لله تَعَالَى بِاعْتِبَار آخر، مثل عدم الْوَلَد، فَلا حَاجَة إِلَى الأَجْوِبَة المبنية على التَّنْزِيل إِمَّا بِاعْتِبَار الصّفة أَو بِاعْتِبَار الْمَوْصُوف، على أَن تَوْجِيه الثَّنَاء إِلَى الله تَعَالَى بمادة (حمد) هُوَ أقصَى مَا تسمى بِهِ اللُّغَة الْمَوْضُوعَة لأَدَاء الْمعَانِي المتعارفة لَدَى أهل تِلْكَ اللُّغَة، فَلمَّا طرأت عَلَيْهم المدارك الْمُتَعَلّقَة بالحقائق الْعَالِيَة عبر لَهُم عَنْهَا بأقصى مَا يقربهَا من كَلامهم. وَيَقُول فِي خلق الأَفْعَال وَقَضِيَّة اللطف وَهُوَ كَلام يشم مِنْهُ رَائِحَة الاعتزال:

{فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا} [البقرة: ١٠]، وَإِنَّمَا أسندت زِيَادَة مرض قُلُوبهم إِلَى الله تَعَالَى مَعَ أَن زِيَادَة هاته الأَمْرَاض القلبية من ذَاتهَا، لأَن الله تَعَالَى لما خلق هَذَا التولد وأسبابه وَكَانَ أمره خفِيا، نبه النَّاس على خطر الاسترسال فِي النوايا الخبيثة والأعمال الْمُنكرَة، وَأَنه من شَأْنه أَن يزِيد تِلْكَ النوايا تمَكنا من الْقلب فيعسر أَو يَتَعَذَّر الإقلاع عَنْهَا بعد

تمكنها، وأسندت تِلْكَ الزِّيَادَة إِلى اسْمه تَعَالَى لأن الله غضب عَلَيْهِم فأهملهم وشأنهم وَلم يتداركهم بِلُطْفِهِ الَّذِي يوقظهم من غفلاتهم لينبه الْمُسلمين إِلَى خطر أمرهَا وَأَنَّهَا مِمَّا يعسر إقلاع أصْحَابهَا عَنْهَا ليَكُون حذرهم من معاملتهم أَشد مَا يُمكن.

وَله كَلَام جيد فِي تَقْدِير الْمَحْذُوف فِي لا إِلَه إِلا الله:

قَالَ: قد أفادت جملَة (لا إِلَه إلا هُوَ) التَّوْحِيد لأَنَّهَا نفت حَقِيقَة الألوهية عَن غير الله تَعَالَى. وَخبر " لا " مَحْذُوف دلّ عَلَيْهِ مَا فِي " لا " من معنى النَّفْي لأن كل سامع يعلم أن المُرَاد نفي هَذِه الْحَقِيقَة فالتقدير لا إِلَه مَوْجُود إِلا هُوَ، وَقد عرضت حيرة للنحاة فِي تَقْدِير الْخَبَر فِي هاته الْكَلِمَة... إلخ كَمَا تعرض للخلاف فِي مُسَمّى الإِيمَان فَأطَال فِيهِ إطالة خرجت عَن حد التَّفْسِير وتورط فِيهَا ورطة كَبِيرَة كَمَا سَيَأْتِي فِي نِهَايَة حديثنا عَن هَذَا التَّفْسِير.

وَله ردود ومناقشات مَعَ الْفرق وَمن ذَلِك:

حَملته فِي الْمُقدمَة الثَّالِثَة على تَفْسِير الباطنية وَقد عرج على التَّفْسِير الإشاري وخرجه تخريجًا يوحي بقبوله لَهُ وَقَالَ فِي بعض أنحائه: وَرَأَيْت الشَّيْخ محيي الدَّين يُسَمِّي هَذَا النَّوْع سَمَاعا وَلَقَد أبدع. وَقد تعرض للإباضية وَقَوْلهمْ فِي الإِيمَان كَمَا تعرض لبَعض الخلافات بَين الأشاعرة والمعتزلة وَابْن عاشور يُؤْخَذ عَلَيْهِ أنه ينْقل عَن أنَاس معروفين بالزيغ فِي بَاب الاعْتِقَاد فَهُوَ ينْقل عَن ابْن سينا وَأَمْثَاله إِذْ يَقُول بعد ذكر كَلَام للرازي:

قلت: وَلم يسم الإِمَام الْمرتبَة الثَّالِثَة باسم وَالظَّاهِر أَنَّهَا مُلْحقَة فِي الاسْم فِي الْمرتبَة الثَّالِثَة أعنِي الْعُبُودِيَّة لأن الشَّيْخ ابْن سينا قَالَ فِي الإشارات: الْعَارِف يُرِيد الْحق لا لشَيْء غَيره وَلا يُؤثر شَيْئا على عرفانه وتعبده لَهُ فَقَط لأَنَّهُ مُسْتَحقّ لِلْعِبَادَةِ وَلأَنَّهَا نِسْبَة شريفة إِلَيْهِ لا لرغبة أو رهبة اهـ فجعلهما حَالَة وَاحِدَة. كَمَا ينْقل عَنهُ مرّة ثَانِيَة

بعْدهَا بصفحة فَيَقُول:

وَأقل مِنْهُ قول الشَّيْخ ابْن سينا فِي الإشارات: لما لم يكن الإنْسَان بِحَيْثُ يسْتَقلّ وَحده بِأَمْر نَفسه إلا بمشاركة آخر من بني جنسه وبمعاوضة ومعارضة تجريان بَينهمَا يفرغ كل وَاحِدَة مِنْهُمَا لصَاحبه عَن مُهمّ لَو تولاه لنَفسِهِ لازدحم على الْوَاحِد كثير وَكَانَ مِمَّا يتعسر إن أمكن، وَجب أن يكون بَين النَّاس مُعَاملَة وَعدل يحفظه شرع يفرضه شَارِع متميز بِاسْتِحْقَاق الطَّاعَة، وَوَجَب أن يكون للمحسن والمسيء جَزَاء من عِنْد الْقَدِير الْخَبِير، فَوَجَبَ معرفَة الْمجَازِي والشارع، وَأن يكون مَعَ المعرفَة سَبَب حَافظ للمعرفة ففرضت عَلَيْهِم الْعِبَادَة المذكّرة للمعبود، وكررت عَلَيْهِم ليستحفظ التَّذْكِير بالتكرير ا.هـ وَتقدم نَقله عَن ابْن عَرَبِيّ. كَمَا تأثر بِمن لَدَيْهِ انحراف فِي عقيدته وَنقل عَنهُ كثيرا أمْثَال الزَّمَخْشَرِيّ، وَهُوَ يثني على الْغَزالِيّ وينقل عَنهُ كثيرا أَيْضا [١].

وقد وجه لابن عاشور جملة من الانتقادات منها:

أولا: كونه ذُو ثِقَة زَائِدَة بِنَفسِهِ أوقعته فِي مزالق:

فَمن مَوَاقِف ثقته الزَّائِدَة بِنَفسِهِ وتفرده قَوْله:

وَالظَّاهِر أن الْمُرَاد بالقبلة المنسوخة وَهِي اسْتِقْبَال بَيت الْمُقَدّس أعنِي الشرق وَهِي قبْلَة الْيَهُود وَلم يشف أحد من الْمُفَسّرين وَأَسْبَاب النُّزُول الغليل فِي هَذَا على أن الْمُنَاسبَة بَينهَا وَبَين الآي الَّذِي قبلهَا غير وَاضِحَة فَاحْتَاجَ بعض الْمُفَسّرين إِلَى تكلّف إبدائها.

وَقَوله: وَأَنا أَقُول كلمة أربأ بهَا عَن الانحياز إِلَى نصْرَة وَهِي أن اخْتِلاف الْمُسلمين فِي أول خطوَات مَسِيرهمْ وَأول موقف من مَوَاقِف

(١) المهدي بن حميدة، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رائد الفكر الإسلامي بتصرف، مُحَمَّد الْعَزِيز ابْن عاشور، جَامع الزيتونة المَعْلم وَرِجَاله، ص، ١١٥، مقدمة كتاب التفسير " التحرير والتنوير " لمحمد الطاهر بن عاشور ١٢٥.

أنظارهم وَقد مَضَت عَلَيْهِ الأيَّام بعد الأيَّام وتعاقبت الأقوام يعد نقصا علميا لا ينبغى الْبَقاء عَلَيْهِ. وَلا أعرفني بعد هَذَا الْيَوْم ملتفتا إِلَيْهِ.

ثمَّ وَقع فِي إِشْكَال كَبِير فِي مُسَمّى الإِيمَان وَالإسْلام خرج بِهِ عَن عقيدة أهل السّنة وَالْجَمَاعَة! والعجيب أنه ظن أنه استوفى الْمَسْأَلَة وَفصل فِيهَا وَهُوَ لم يستوعب عشر معشار أدِلَّة أحد الْفَرِيقَيْنِ وَالْمقام لا يحْتَمل سوق الأدِلَّة والردود وَفِي نفس الْوَقْت خرج عَن حد التَّفْسِير فَلا هُوَ استوفى وَلا هُوَ رَاعى الْمَقْصد. كَذَلِك عدم اعْتِبَاره التَّفْسِير علما كَمَا ذكر فِي الْمُقدمَة، وعلى الرغم من كَونه يعلم تَمامًا أنه لم يسْبقهُ أحد لهَذَا الْفَهم وَأنه تَحْصِيل حَاصِل ذهب إِلَيْهِ، وَكَانَ الأولى بِهِ أن ينخرط فِي آلاف الْعلمَاء من جَمِيع عصور الإسلام الَّذين اعتبروا التَّفْسِير علما بل اعتبروه أجل الْعُلُوم.

وَكَذَا حَملته الشعواء على التَّفْسِير بالمأثور واستقلاله لَهُ واستخفافه بأهْله، عَظِيمَة من العظائم، فبدون التَّفْسِير بالمأثور ضلت الأمة وَبِغير نوره زاغ الْمُفَسِّرُونَ، وَهُوَ نَفسه من الدَّلائِل على ذَلِك فَهُوَ على الرغم من استفادته مِنْهُ فِي كل تَفْسِيره إلا أنه حاد عَنهُ فِي بعض الْمَوَاضِع فَوَقع فِيمَا وَقع فِيهِ.

وَانْظُر أيْضا من مَوَاضِع مُخَالفَته بالمأثور وثقته الزَّائِدَة بِنَفسِهِ واستخدامه " لَعَلَّه " لغير حجَّة.

ثَانِيًا: صَاحب استطراد وتكلف خرج عَن حد التَّفْسِير جملَة وتفصيلا على الرغم من إهماله التَّفْسِير فِي مَوَاضِع لا يسْتَغْنى عَن تَفْسِيرهَا:

فَمَعَ اهتمامه بِإِثْبَات الْيَاء فِي دعان أو عدم إِثْبَاتهَا أهمل تَفْسِير قَوْله تَعَالَى:{فَإِنِّي قَرِيبٌ} [البقرة: ١٨٦].

وَمن التكلفات الَّتِي دفع إِلَيْهَا الاستطراد قَوْله:

وَعِنْدِي أن الْبَسْمَلَة كَانَ مَا يرادفها قد جرى على ألْسِنَة الأنْبِيَاء

مـن عهـد إبْـرَاهِيم عَلَيْـهِ السَّـلام فقـد حكـى الله عَـن إبْـرَاهِيم أنـه قـــالَ لأبيـــهِ:{يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ} [مــريم: ٤٥]، وَقَـالَ:{سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا } [مريم: ٤٧]، وَمعنـى الحفـى قريـب مـن الـرَّحِيم وَحكـي عَنـهُ قوْلـه:{وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ } [البقرة: ١٢٨].

وَقولـه: وَقَـالَ الأسْتَاذ مُحَمَّد عَبده: إن النَّصَـارَى كَانُوا يبتـدئون أدعيتهم وَنَحْوهَـا باسـم الأب وَالابْـن وَالـروح الْقُدس إشَـارَة إلَـى الأقـانيم الثَّلاثـة عِنْدهم، فَجَاءَت فَاتِحَة كتاب الإسلام بِـالرَّدِّ عَلَيْهم موقظـة لَهُم بِـأن الإِلـه الْوَاحِـد وَإِن تعـدّدت أ سـماؤه فَإِنَّمَـا هُـوَ تعـدد الأوْصَـاف دون تعـدد المسـميات، يَعْنِـي فَهُـوَ رد عَلَـيْهم بتغلـيظ وتبليـد. وَإِذا صَـحَّ أن فـواتح النَّصَارَى وأدعيتهم كَانَت تَشْمَل على ذَلِك إِذْ النَّاقِل أمِين فَهيَ نُكْتَة لَطِيفَة.

ثَالِثا: ذُو ولـع شَدِيد بِالنَّقْدِ وَإِن كَانَ هُنَاكَ مندوحة لترك الانتقاد

انتقـاده لوجـه فِـي التَّفْسِـير مَقبُـول عِنْـد قوْلـه تَعَـالَى{فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗا} [البقرة: ١٠]، قَالَ: قَالَ بعض الْمُفَسّرين: هِيَ دُعَـاء عَلَيْهم كَقوْل جُبَيـر بن الأضبط:

تبَاعد عَنى فقَالَ: إِذْ دَعوته أمِين فَزَاد الله مَا بَيْننَا بعدا

قَـالَ: وَهُوَ تَفْسِير غير حسن لأنَّـهُ خلاف الأصْل فِي الْعَطـف بِالْفَـاءِ وَلأن تصدى الْقُرْآن لشتمهم بذلك لَيْسَ من دأبـه، وَلأن الـدُّعَاء عَلَيْهم بِالزِّيَادَةِ تنَافِي مَـا عهد من الدُّعَاء للضـالين بالهدايـة فِـي نَحْـو " اللَّهُـمَّ اهد قومى فَـإِنَّهُم لا يعلمُـونَ ". وَهَذَا لَـيْسَ بِـلازم فقد قَـالَ تَعَـالَى:{قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ۝١٧} [عـبس: ١٧]، وَقَــالَ:{ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ } [الأحـزاب: ٦١]، وَقَالَ:{قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ } [التوبة: ٣٠]، غير ذَلِك.

وَقد كنت من المعجبين بِهَذَا الْكتاب وحرصت على اقتنائه بطبعته التونسية على الرغم من غلاء سعره جدا وَعدم اكتماله وَقتهَا وَذَلِكَ قبل أكثر من سبع عشرَة سنة، إلا أنني لمحت فِيهِ تِلْكَ السلبيات مِمَّا حدا بي إِلَى الإطالة فِي بَيَانهَا.

وَالْكتاب فِي الْجُمْلَة كتاب جيد من حَيْثُ الإضافات العلمية الَّتِي أضافها وَقد كَانَ تحرر صَاحبه سِلَاحا ذَا حَدَّيْن فكَمَا أفادنا فِي مَوَاضِع كَثِيرَة، زلت قدمه فِي مَوَاضِع أكثر والمعصوم من عصمه الله (١).

* * *

(١) المهدي بن حميدة، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رائد الفكر الإسلامي بتصرف، مُحَمَّد الْعَزِيز ابْن عاشور، جَامع الزيتونة المَعْلم وَرِجَاله، ص، ١١٥، مقدمة كتاب التفسير " التحرير والتنوير " لمحمد الطاهر بن عاشور.

البغـوي

أعــلام التفسيــر

الإمام البغوي

صاحب تفسير: " معالم التنزيل "

هو الإمام الحافظ، الفقيه المجتهد: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفرَّاء [(١)] البغوي [(٢)] الشافعي ويلقب بركن الدين.

أحد العلماء الذين خدموا الكتاب العزيز، والسنة النبوية، بالعكوف على دراستهما، وتدريسهما، وكشف كنوزهما، وأسرارهما، والتأليف فيهما [(٣)].

مولده:

إن معظم المصادر التي ترجمت له لم تشر إلى السنة التي ولد فيها، غير أن ياقوت الحموي قال في معجم البلدان: إنه ولد سنة (٤٣٣ هـ) أما الزركلي فأشار في الأعلام إلى أنه ولد سنة (٤٣٦ هـ).

شيوخه:

سمع الإمام البغوي من عدد كثير من العلماء في التفسير، والحديث، والفقه نذكر بعضًا منهم:

أ - فقيه الشافعية وشيخهم القاضي حسين بن محمد المرَوْزي، فقيه

---

(١) والفراء: نسبة إلى عمل الفراء وبيعها.

(٢) والبغوي: بفتح الباء الموحدة، والغين المعجمة وبعدها واو، هذه النسبة إلى بلدة بخراسان بين مرو وهراة يقال لها " بغ " و " بَغْشُوْر " بفتح الباء الموحدة، وسكون الغين المعجمة، وضم الشين، وبعدها واو ساكنة، ثم راء. وهذه النسبة شاذة على خلاف الأصل، هكذا قال السمعاني في كتاب " الأنساب ".

(٣) مصادر الترجمة: مرآة الجنان: ٢١٣/٣، وفيات الأعيان، ١٣٦/٢، سير أعلام النبلاء، ٤٣٩/١٩، العبر للذهبي، ٤٠٦/٢، تذكرة الحفاظ، ١٢٥٧/٤ - ١٢٥٩، طبقات الشافعية للسبكي، ٧٥/٧ - ٨٠، البداية والنهاية، ١٩٣/١٢، طبقات الحفاظ، ص ٤٥٧، طبقات المفسرين، ص ٣٨ - ٣٩،، كشف الظنون ١٩٥ - ٥١٧ - ١٦٩٨، شذرات الذهب، ٤٨/٤ - ٤٩، الأعلام للزركلي، ٢٥٩/٢، معجم المؤلفين، ٦١/٤، التفسير والمفسرون للذهبي، ٢٣٤/١.

خراسان، وصاحب " التعليقة " المتوفى سنة (٤٦٢) هـ.

٢ - عبد الواحد بن أحمد بن أبي القاسم المليحي، الهروي، راوي الصحيح عن النعيمي، وكان صالحًا، أكثر عنه الرواية، توفى سنة (٤٦٣) هـ.

٣ - الفقيه أبو الحسن علي بن يوسف الجويني، المعروف: بشيخ الحجاز صنف كتاب " السلوة في علوم الصوفية " وكان فقيهًا فاضلاً، توفى سنة (٤٦٣) هـ.

٤ - أبو علي حسان بن سعيد المنيعي - نسبة إلى منيع جد - وكان حسان هذا رئيس مرو الروذ، الذي عمَّ فضله خراسان، ببره، وأفضاله، وأنشأ الجامع المنيعي، وكان يكسو في العام نحو ألف نفس، توفي سنة (٤٦٣) هـ.

٥ - أبو بكر محمد بن عبد الصمد الترابي المروزي، الشيخ الجليل، المعمر، مُسنِد خراسان، تفرد عن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب الرازي، مات في رمضان سنة (٤٦٣ هـ) وله ست وتسعون سنة.

٦ - أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن، بن عبد المالك بن طلحة النيسابوري القشيري الخراساني، الإمام الزاهد، القدوة، الشافعي المذهب، صاحب الرسالة المسماة " الرسالة القشيرية، صنف كتاب " نحو القلوب " وكتاب لطائف الإشارات " وكتاب " الجواهر " وكتاب " أحكام السماع " وكتاب " عيون الأجوبة في فنون الأسئلة " وكتاب " المناجاة " وكتاب " المنتهى في نكت أولي النهى " وصنف التفسير الكبير وهو من أجود التفاسير توفي سنة (٤٦٥) هـ.

٧ - أبو بكر يعقوب بن أحمد الصيرفي النيسابوري الشيخ الرئيس، الثقة المُسنِد توفي سنة (٤٦٦) هـ.

٨ - أبو صالح أحمد بن عبد الملك بن علي بن أحمد بن عبد الصمد

ابـن بكـر النيسـابوري الصـوفي المـؤذن، الإمـام، الحـافظ، الزاهـد، المُسند، محدث خراسان، صنف " تـاريخ مرو " وخرَّج ألف حديث عن ألف شيخ له، مات سنة (٤٧٠) هـ.

٩ - أبـو تـراب عبـد البـاقي بـن يوسـف بـن علـي بـن صـالح بـن عبد الملك بـن هارون المراغـي التَّريزي، الشـافعي، مفتـي نيسـابور، الإمام الفقيه العلامة توفي سنة (٤٩٢) هـ.

١٠ - أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر بن محمد بن داود ابن أحمد بن معاذ الداودي البوشنجي، الإمام، العلامة، الورع، القدوة جمال الإسلام، شيخ خراسان علمًا، وفضـلاً، وجلالـة، وسندًا، راوي الصحيح، توفي سنة (٤٦٧) هـ.

١١ - ومنهم: عمر بن عبد العزيز الفاشـاني الإمـام الفاضـل الفقيـه. وأبـو الحسـن محمـد بـن محمـد الشـيرّزي، نسـبة إلـى شـيرز قريـة بسرخس، وأبو جعفر محمد بن عبد الله بن محمد المعلم الطوسـي، وأبو محمد عبد الله بن عبد الصمد بن أحمد بن موسى الجوزجاني.

وأبو عبد الله محمد بن الفضل بن جعفر الخَرَقي نسبة إلـى " خرق " من قرى مرو، وعدة.

تلاميذه:

لقد أقبل عليه طلاب العلم لكثرة علمه، وفضله، وسعة معرفته بعلوم كثيرة، ومنهم:

١ - الشيخ أبو منصور محمد بن أسعد بن محمد حفده العطَّاري - تصحفت في شذرات الذهب إلـى العطـاردي والصحيح مـا أثبتنـاه - وهو الذي روى كتـابي " شرح السنة " ومعالم التنزيل " توفي سنة (٥٧١) هـ.

٢ - الواعظ المحدث أبو الفتوح محمد بن أبـي جعفر محمد بن علـي

ابن محمد الطائي الهمداني، صاحب " الأربعين في إرشاد السائرين إلى منازل اليقين " توفي سنة (٥٥٥) هـ.

٣ - أبو المكارم فضل الله بن المحدث العالم أبي سعيد محمد بن أحمد النوقاني الشافعي، وهو آخر من روى عنه بالإجازة، توفي سنة (٦٠٠) هـ.

٤ - الحسن بن مسعود البغوي أبو علي أخو الإمام الحسين البغوي تفقه على أخيه.

٥ - عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن الحسين بن محمد الليثي وهو إمام ورع، حافظ لمذهب الشافعي.

٦ - مثاور بن فزكوه أبو مقاتل الديلمي اليزدي، يلقب بعماد الدين، وهو من كبار تلامذته، توفي سنة (٥٤٦) هـ.

٧ - ومنهم محمد بن الحسين الزاغولي توفي سنة (٥٥٩ هـ).

٨ - وعبد الرحمن بن علي بن أبي العباس النعيمي توفي سنة ٥٤٢ هـ وغيرهم [١].

عقيدته:

والإمام البغوي من أئمة السلف الصالح، الذين تقيدوا بالكتاب والسنة، في مفهوم الاعتقاد وبخاصة فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته، ولنا على ذلك بعض الأدلة منها: تعليقه على الحديث الذي رواه مسلم في القدر: باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء (٢٦٥٤/٤) وذلك في الجزء الأول من كتابه العظيم شرح السنة ص (١٦٨) " قال الشيخ الإمام: والإصبع المذكورة في الحديث صفة من صفات الله عز وجل، وكذلك كل ما جاء به الكتاب أو السنة من هذا القبيل في صفات الله تعالى، كالنفس، والوجه، والعين، واليد، والرجل،

(١) انظر مقدمة تفسير البغوي.

والإتيـان، والمجـي، والنـزول إلـى السـماء الـدنيا، والاسـتواء علـى العرش، والضحك والفرح - إلى أن يقول في صفحة (١٧٠) فهذه ونظائرها صفات الله تعالى، ورد بها السمع يجب الإيمان بها، وإمرارها على ظاهرها معرضًا فيها عن التأويل، مجتنبًا عن التشبيه، معتقدًا أن الباري سبحانه وتعالى لا يشبه شيءٌ من صفاته صفاتِ الخلق، كما لا تشبه ذاتُه ذوات الخلق، قال الله سبحانه وتعالى:{لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ } [الشورى: ١١].

وعلى هذا مضى سلف الأمة، وعلماء السنة، تلقوها جميعًا بالإيمان والقبول، وتجنبوا فيها عن التمثيل والتأويل، ووكلوا العلم فيها إلى الله عز وجل، " اهـ ثم يذكر مدلّلا على ذلك أقوال السلف وقد جاءت شهادات العلماء الذين ترجموا له تؤكد ذلك:

قال ابن شهبة في طبقات الشافعية (٣١٠/١): (وكان دينًا، عالمًا، عاملاً على طريقة السلف).

وقال طاش كبرى زاده في مفتاح السعادة (١٠٢/٢): (كان ثبتًا حجة، صحيح العقيدة في الدين) [١].

صفاته وثناء العلماء عليه:

لقد تحلّى الإمام البغوي، رحمه الله، بصفات ومزايا كان لها أكبر الأثر في تسميته بلقب " محيي السنة، والإمام " وغير ذلك من الصفات التي أثبتها له كل من ترجم له. فهو إمام في كتاب الله تعالى، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إمام في مذهبه الذي نشأ عليه، المذهب الشافعي، وذلك بحكم البيئة التي نشأ فيها، والعلماء الذين أخذ عنهم، إلا أنه لم يتعصب لإمامه، بل كان يتتبع الدليل، وينظر في أقوال العلماء وأدلتهم، وأخذ يدعو إلى الاعتصام بكتاب الله تعالى،

---

(١) انظر مقدمة تفسير البغوي.

وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم اللذين هما أصل الدين وملاكه، ومنهما يصدر كل أمر شرعي. وهذا هو حال العلماء، الذين نهضوا بهذا الدين على بصيرة من أمرهم.

قال الحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء: (كان البغوي يلقب بمحيي السنة، وبركن الدين، وكان سيدًا، إمامًا، عالمًا علامة، زاهدًا، قانعًا باليسير).

وقال السيوطي في طبقات الحفاظ: (وبورك له في تصانيفه، لقصده الصالح، فإنه كان من العلماء الربانيين، ذا تعبد ونسك، وقناعة باليسير).

وقال أيضًا في طبقات المفسرين: (كان إمامًا في التفسير، إمامًا في الحديث، إمامًا في الفقه).

وقال ابن كثير في البداية والنهاية: (وكان علامة زمانه، وكان دينًا ورعًا، زاهدًا، عابدًا، صالحًا).

وقال ابن خلكان في وفيات الأعيان: (الفقيه، الشافعي، المحدث، المفسر، كان بحرًا في العلوم) [١].

آثاره:

لقد ترك الإمام البغوي علومًا مفيدة وكثيرة في التفسير والحديث، والفقه، كان لها الأثر النافع، والعظيم فيمن جاء بعده، وكانت مؤلفاته تتصف بموضوعاتها القيمة، وبكلماتها السهلة، وبطريقتها المفيدة يتحرى فيها الحق، والانقياد وراء الأدلة الصحيحة، فقد وقف وقفات مع كتاب الله مبتعدًا فيها عن حشو الكلام، وآراء المتكلمين، مع تقيده بالمأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في فهم النص القرآني، وبمنهج الصحابة الكرام في ذلك، كما أنه روى الحديث واعتنى

(١) انظر مقدمة تفسير البغوي.

بدراسته، وشرحه ومعرفة صحيحه من سقيمه، وقد صنف كتبًا كثيرة نذكر منها:

١ - التهذيب: في فقه الإمام الشافعي، وهو كتاب مشهور متداول عند الشافعية، كما أنه تأليف مهذب مجرد من الأدلة غالبًا، لخصه من تعليقة شيخه القاضي حسين وعدَّل فيه زيادة وحذفًا، وكثيرًا ما ينقل عنه الإمام النووي رحمه الله في كتابه " روضة الطالبين ". وكتاب التهذيب يقع في أربعة مجلدات ضخمام يوجد منه المجلد الرابع في المكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم (٢٩٢) فقه شافعي يرجع تاريخ نسخه إلى سنة ٥٩٩ هـ هذا ما أشار إليه محقق سير أعلام النبلاء ٤٤٠.\١٩

٢ - معالم التنزيل: والمعروف بتفسير البغوي وهذا التفسير قد طبع عدة طبعات كانت الأولى عام (١٢٨٥) هـ طبعة حجرية أثبت على حاشيتها بعض التعليقات والتراجم وهي في أربعة أجزاء مجموعة في مجلد واحد.

والثانية: المطبوعة على هامش تفسير ابن كثير في تسعة مجلدات طبعت بمطبعة المنار بمصر سنة (١٣٤٣) هـ.

والثالثة: النسخة المطبوعة على هامش (تفسير الخازن) في أربعة مجلدات.

والرابعة: التي صدرت قريبًا في أربعة مجلدات بتحقيق خالد عبد الرحمن العك ومروان سوار. وجميع هذه الطبعات قد حوت من الأخطاء والتصحيفات، التي ظهرت خلال المقابلة مع النصوص المخطوطة، الشيءَ الكثير.

٣ - شرح السنة: قال فيه مؤلفه في الجزء الأول ص ٢ - ٤: " فهذا كتاب في شرح السنة، يتضمن إن شاء الله سبحانه وتعالى كثيرًا من علوم الأحاديث، وفوائد الأخبار المروية عن رسول الله صلى الله

عليه وسلم من حلِّ مشكلها، وتفسير غريبها، وبيان أحكامها، يترتب عليها من الفقه واختلاف العلماء جُمَلٌ لا يستغني عن معرفتها المرجوع إليه في الأحكام، المعوَّل عليه في دين الإسلام.

ولم أودع هذا الكتاب من الأحاديث إلا ما اعتمده أئمة السلف الذين هم أهل الصنعة، المسْلَّم لهم الأمر من أهل عصرهم، وما أودعوه كتُبَهم. فأما ما أعرضوا عنه من المقلوب، والموضوع، والمجهول واتفقوا على تركه فقد صنت الكتاب عنه، وما لم أذكر أسانيدها من الأحاديث فأكثرها مسموعة، وعامتها في كتب الأئمة، غير أني تركت أسانيدها حذرًا من الإطالة واعتمادًا على نقل الأئمة " اهـ.

لقد جمع محيي السنة في كتابه هذا بين الرواية والدراية، مما جعله من الكتب القيمة، بالإضافة إلى معرفته بأقوال الصحابة والتابعين والأئمة، والمجتهدين وقد قام بخدمة هذا الكتاب كلٌ من الأستاذين شعيب الأرناؤوط وزهير الشاويش وقد صدر عن المكتب الإسلامي ببيروت في ١٦ مجلدًا مع الفهارس.

٤ - مصابيح السنة: جمع فيه مؤلفه طائفة من الأحاديث، محذوفة الأسانيد، اعتمد على نقل الأئمة لها، وقسم أحاديث كل باب إلى صحاح وحسان وعنى بالصحاح ما أخرجه الشيخان، وبالحسان ما أخرجه أصحاب السنن وما كان فيها من ضعيف أو غريب أشار إليه، وأعرض عن ذكر ما كان منكرًا أو موضوعًا، وهو كتاب مشهور طبع أكثر من طبعة، واعتنى بشأنه العلماء بالقراءة والتعليق وعملوا عليه الكثير من الشروحات، من أهمها ما قام به الشيخ ولي الله أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب، حيث كمل المصابيح، وذيل أبوابه فذكر الصحابي الذي روى الحديث عنه، وذكر الكتاب الذي أخرجه منه، وزاد على كل باب من صحاحه وحسانه - إلا نادرًا - فصلاً ثالثًا وسماه " مشكاة المصابيح " فصار كتابًا كاملاً.

وقد طبع هذا الأخير عدة طبعات، وكان آخرها التي قام بنشرها المكتب الإسلامي بتحقيق الأستاذ ناصر الدين الألباني في ثلاثة مجلدات وطبع أيضًا مصابيح السنة في أربعة مجلدات.

٥ - الأنوار في شمائل النبي المختار: أشار إلى ذلك صاحب كشف الظنون والشيخ محمد بن جعفر الكتاني في كتاب الرسالة المستطرفة. رتبه على واحد ومائة باب على طريقة المحدثين بالأسانيد.

٦ - الجمع بين الصحيحين: ذكره صاحب معجم المؤلفين وبعض من ترجم له.

٧ - الأربعين حديثًا: ذكره ابن قاضي شهبة عن الذهبي.

٨ - مجموعة من الفتاوى: حوت فتاوى شيخه من المسائل الفقهية التي سئل عنها الإمام أبو علي الحسين بن محمد المروزي " صاحب التعليقة " فتتبعها البغوي وجمعها. توجد نسخة منها في دار الكتب الظاهرية بدمشق [1].

وفاته:

توفي رحمه الله بَمرْو الرُّوذ. مدينة من حدائق خراسان في شوال سنة ستَّ عشرة وخمس مائة للهجرة. ودفن بجانب شيخه القاضي حسين، وعاش بضعًا وسبعين رحمه الله.

منهج البغوي في التفسير:

إن معالم التنزيل كتاب متوسط، نقل فيه مصنفه عن مفسري الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وهو من أجلِّ الكتب وأنبلها وأسناها، حاوٍ للصحيح من الأقوال، عارٍ عن الغموض والتكلف في توضيح النص القرآني، محلى بالأحاديث النبوية والآثار الغالب عليها الصحة.

(١) انظر مقدمة تفسير البغوي.

قال العلامة ابن تيمية: (والبغوي تفسيره مختصر من الثعالبي، لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة، والأراء المبتدعة) وقد سئل عن أي التفاسير أقرب إلى الكتاب والسنة؟ الزمخشري أم القرطبي، أم البغوي؟ أو غير هؤلاء؟ فأجاب: " وأما التفاسير الثلاثة المسئول عنها فأسلمها من البدعة والأحاديث الضعيفة - البغوي ").

وقد بين البغوي شيئًا من ذلك في مقدمته إذ يقول:

" فسألنى جماعة من أصحابي المخلصين، وعلى اقتباس العلم مقبلين: كتابًا في معالم التنزيل وتفسيره فأجبتهم إليه، معتمدًا على فضل الله وتيسيره، متمثلاً وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم فيما يرويه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: " إن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفققهون في الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرًا " واقتداءً بالماضين من السلف في تدوين العلم، إبقاء على الخَلَف ".

استجاب أجزل الله مثوبته لرغبة طلابه وأصحابه آخذًا بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، مقتديًا بالسلف الصالح في كتابه العلم حيث يقول: " فجمعت - بعون الله تعالى وحسن توفيقه - فيما سألوه كتابًا متوسطًا، بين الطويل المملّ، والقصير المخل، أرجو أن يكون مفيدًا لمن أقبل على تحصيله مريدًا " (١).

ومن خلال ما سبق يمكننا أن نقف على منهج الإمام البغوي فنوجزه بما يلي:

١ - يتعرض لتفسير الآية الكريمة بلفظ سهل موجز، لا تكلُّف في لغته ولا تطويل، فهو يكتفي بالوقوف على الكلمة الغريبة ليكشف عن معناها بالرجوع إلى أصلها ومصدرها، مستدلاً بالآيات والأحاديث

(١) انظر مقدمة تفسير البغوي.

وما أثر عن الصحابة والتابعين وبأقوال أهل اللغة.

٢ - يسلك السبيل القويم في بيان المعاني فيفسر القرآن بالقرآن أو بالحديث أو بأقوال الصحابة، ويستأنس بأقوال التابعين والمجتهدين، وذلك أن القرآن يفسر بعضه بعضًا فما أُجمل في موضع فُصِّل في موضع آخر، وقد تخصص آية عموم آية أخرى.

ونجده يعتمد الجمع بين الآيات ذات المعنى الواحد، ليوضح معنى كلمة في الآية، كما فعل - على سبيل المثال - عند تفسير قوله تعالى:{وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [البقرة: ١٥].

إذ بّين معنى المَدِّ ثم أورد قوله تعالى:{وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا} [مريم: ٧٩]، ثم بين معنى الإمداد فأورد قول الله تعالى:{وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ} [الإسراء: ٦].

وعند قوله تعالى:{فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا} [البقرة: ١٠]، يقول: لأن الآيات كانت تنزل تترى آية بعد آية، كلما كفروا بآية ازدادوا كفرًا ونفاقًا، وذلك معنى قوله تعالى:{وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ} [التوبة: ١٢٥].

وأما اعتماد الإمام البغوي على السنة في تفسير القرآن الكريم فهو سمة واضحة في تفسيره. كيف لا وهو محيي السنة! ولذا فقد جاء تفسيره حافلاً بالأحاديث التي انتخبها فذكرها بأسانيدها، وقلَّ أن يذكر حديثًا بغير إسناد، أو يورد حديثًا ضعيفًا، وقد نجده يسوق عدة أحاديث عند الآية الواحدة كما فعل عند تفسيره لقوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ١٨٣]، أو عند قوله تعالى:{وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ} [الشعراء: ٢٢٤].

٣ - يتعرض للقراءات من غير إسراف وذلك حين يجد أن القراءة يترتب عليها تَغَيُّرُ المعنى، كما في قوله تعالى:{وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ}

[الأحزاب: ٣٣]، إذ يقول رحمه الله: " قرأ أهل المدينة وعاصم وقرن بفتح القاف، وقرأ الآخرون بكسرها، فمتى فتح القاف فمعناه: أقررن أي الزمن بيوتكن من قولهم قررت بالمكان أقر قرارًا... ومن كسر القاف فقد قيل: هو من قررت أقر معناه أقررن بكسر الراء، فحذفت الأولى ونقلت حركتها إلى القاف كما ذكرنا، وقيل - وهو الأصح - إنه أمرٌ من الوقار، كقولهم من الوعد: عدن، ومن الوصل: صلن، أي كُنَّ أهل وقار وسكون، من قولهم: وقر فلان يقر وقورًا إذا سكن واطمأن.

٤ - يعرض لرأي أهل السنة ولآراء مخالفيهم مع الانتصار لرأي أهل السنة مدللا عليه بالمنقول والمعقول كما ذكر عند قوله تعالى:{لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ} [الأنعام: ١٠٣]، مثبتًا الرؤية عيانًا، مستدلاً بقوله تعالى:{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)} [القيامة: ٢٢ - ٢٣]، وقوله تعالى: {كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥)} [المطففين: ١٥]، وقوله تعالى:{لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ} [يونس: ٢٦]، ثم بين أن النبي صلى الله عليه وسلم فسر الزيادة بالنظر إلى وجه الله تعالى، ثم أورد حديثًا في إثبات الرؤية، وفرق بين الإدراك والرؤية.

٥ - ويظهر بوضوح اهتمامه بالآراء الفقهية فكثيرًا ما نجده يبسط آراء الفقهاء ويرجِّح رأي الشافعية وهو من أبرز فقهائهم، وأحيانًا يورد الآراء بدون ترجيح والقارئ الكريم سيجد هذا المنهج من خلال قراءته لهذا التفسير.

٦ - يذكر أحيانًا بعض الإسرائيليات، ونراه يمر على بعضها - وهي قليلة مقارنة بالتفاسير الموجودة بين أيدينا - دون التعقيب عليها، كما فعل عند ذكره لقصة هاروت وماروت في مسخ المرأة الجميلة إلى كوكب الزهرة؟ (الآية: ١١٢ من سورة البقرة) أو ما رواه عن الضحاك عند تفسير قوله تعالى:{وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ} [البقرة: ٢٥١]،

وفي مواضع أخرى.

ويجدر بنا أن نشير إلى أن الإسرائيليات تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

أ - ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح.

ب - قسم يخالف شرعنا ويناقضه، وهو مردود ولا تصح روايته.

ج - قسم نتوقف فيه، فلا هو من القسم الأول، ولا من الثاني وهذا لا حرج من روايته إن كان موضوعه بعيدًا عن العقيدة والأحكام.

فقد روى البخاري في تفسير سورة البقرة: باب قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا، وفي الاعتصام: باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :**{لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا:**{ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ } [البقرة: ١٣٦]**} الآية.**

والخير للمفسر أن يقلع عن هذه الإسرائيليات - أي القسمين الأخيرين - وأن يعرض عما لا طائل منه ويعد صارفًا وشاغلاً عن الأصول المعتمدة في شرعنا وهذا أحكم وأسلم (١).

٧ - ويلاحظ أنه رحمه الله أكثر الرواية عن الكلبي: وهو أبو النضر محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن عبد الحارث الكلبي، الكوفي، مات بالكوفة سنة ست وأربعين ومائة. قال معتمر بن سليمان عن أبيه: كان بالكوفة كذابان، أحدهما الكلبي (٢).

---

(١) انظر مقدمة تفسير البغوي.

(٢) قال البخاري: تركه ابن معين وابن مهدي.وعن سفيان، قال: قال الكلبي: قال لي أبو صالح: كل شيء حدثتك فهو كذب، وقال ابن عدي: وقد حدث عن الكلبي سفيان وشعبة وجماعة، ورضوه في التفسير، وأما في الحديث فعنده مناكير، وخاصة إذا روى عن أبي صالح عن ابن عباس وقال ابن حبان: كان الكلبي سبئيًا، من أولئك الذين يقولون: إن عليًا لم يمت، وأنه راجع إلى الدنيا، ويملؤها عدلاً كما ملئت جَوْرًا، وإن

والحق أن البغوي، وهو من أهل الحديث وتحرير الروايات، لم يجعل ما ينقله عن الكلبي مناط الجزم في معنى الآية ولكنَّ التوسع في النقل أحيانًا ليعلم الناس ما قيل في مفهوم الآية جعله يستشهد بأقوال الكلبي، علمًا أنه قد يقول كلامًا جيدًا في التفسير موافقًا لما ورد في المأثور. والكلبي معروفة رواياته، وموقف العلماء منها [١].

* * *

رأوا سحابة قالوا: أمير المؤمنين فيها، وقال أحمد بن زهير: قلت لأحمد بن حنبل: يحلُ النظر في التفسير الكلبي؟ قال: لا.

قال ابن حبان: يروي عن أبي صالح عن ابن عباس - التفسير، وأبو صالح لم يرَ ابن عباس، ولا سمع الكلبي من أبي صالح إلا الحرف بعد الحرف، فلما احتيج إليه أخرجت له الأرض أفلاذ كبدها. لا يحل ذكره في الكتب، فكيف الاحتجاج به!.

انظر: الضعفاء الصغير للإمام البخاري، ومعه كتاب الضعفاء والمتروكين للنسائي، ص (١٥٨، ٢٠٣)، طبقات ابن سعد:٦ / ٣٥٨ - ٣٥٩، تهذيب التهذيب: ٩ / ١٥٧ - ١٥٩ - تقريب التهذيب ٢ / ١٦٣، ميزان الاعتدال: ٣ / ٥٥٦ - ٥٥٩، المغني في الضعفاء للذهبي ٢ / ٢٠٠.

(١) انظر مقدمة تفسير البغوي.

الإمام الشوكاني

الإمام الشوكاني

أعــلام التفسير

الإمام الشوكاني
صاحب التفسير المسمى بـ " فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير "

الإمام، العلامة الرباني، والسهيل الطالع، من القطر اليماني، إمام الأئمة، ومفتي الأمة، بحر العلوم، وشمس الفهوم، سند المجتهدين الحفاظ، فارس المعاني والألفاظ، فريد العصر، نادر الدهر، شيخ الإسلام، قدوة الأنام، علامة الزمان، ترجمان الحديث والقرآن، علم الزهاد، أوحد العباد، قامع المبتدعين، آخر المجتهدين، رأس الموحدين، تاج المتبعين، صاحب التصانيف التي لم يسبق إلى مثلها، قاضي الجماعة، شيخ الرواية والسماعة، عالي الإسناد، السابق في ميدان الاجتهاد، على الأكابر الأمجاد، المطلع على حقائق الشريعة ومواردها، العارف بغوامضها ومقاصدها.

هو: أبو علي بدر الدين محمد بن علي بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن صلاح بن إبراهيم بن محمد العفيف بن محمد بن رزق، الشوكاني.

وقد أوصل الشوكاني نسبة إلى سيدنا آدم - عليه السلام - عند ترجمته لوالده - رحمه الله تعالى - في البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع.

ولد - رحمه الله تعالى - يوم الإثنين الثامن والعشرين من ذي الحجة سنة ١١٧٣ هجريه في بلدة " هجرة شوكان ".

قال الإمام الشوكاني - عند الكلام على ترجمة والده:

" ونسبة صاحب الترجمة إلى شوكان ليست حقيقية؛ لأن وطنه ووطن سلفه وقرابته هو مكان عدني - أي جنوبي - " شوكان " بينه وبينها جبل كبير مستطيل يقال له: " هجرة شوكان " فمن هذه الحيثية

كان انتساب أهله إلى " شوكان ".

نشأته وطلبه للعلم:

نشأ - رحمه الله تعالى - بصنعاء اليمن، وتربى في بيت العلم والفضل فنشأ نشأة دينية طاهرة، تلقى فيها معارفه الأولى على والده وأهل العلم والفضل في بلدته، فحفظ القرآن الكريم وجوّده، ثم حفظ كتاب " الأزهار " للإمام " المهدي " في فقه الزيدية، ومختصر الفرائض للعُصيفيري و الملحة للحريري، والكافية والشافية لابن الحاجب، وغير ذلك من المتون التي اعتاد حفظها طلاب العلم في القرون المتأخرة.

وكان - رحمه الله تعالى - كثير الاشتغال بمطالعة كتب التاريخ، والأدب، وهو لايزال مشتغلاً بحفظ القرآن الكريم.

ومما ساعد الإمام الشوكاني على طلب العلم والنبوغ المبكر: وجوده وتربيته في بيت العلم والفضل، فإن والده - رحمه الله تعالى - كان من العلماء المبرزين في ذلك العصر، كما أن أكثر أهل هذه القريه كانوا - كذلك - من أهل العلم والفضل.

قال الشيخ " الشوكاني " عن والده وأهل قريته: "... وهذه الهجرة معمورة بأهل الفضل والصلاح والدين من قديم الزمان، لايخلو وجود عالم منهم في كل زمن، ولكنه يكون تارة في بعض البطون، وتارة في بطن أخرى، ولهم عند سلف الأئمة جلالة عظيمة، وفيهم رؤساء كبار، ناصروا الأئمة، ولاسيما في حروب الأتراك، فإن لهم في ذلك اليد البيضاء، وكان فيهم إذ ذاك علماء و فضلاء، يعرفون في سائر البلاد الخولانية بالقضاة ".

وهكذا استطاع " الشوكاني " أن يستفيد من علماء عصره، وما أكثرهم، فأخذ يطلب العلم بجميع فنونه: فقرأ " شرح الأزهار " على

والده، و " شرح الناظري " على " مختصر العصيفيري ".

كما قرأ " التهذيب " للعلامة التفتازاني، و " التلخيص " في علوم البلاغة للقزويني، والغاية لابن الإمام، و " مختصر المنتهى " لابن الحاجب في أصول الفقه، و " منظومة الجزري " في القراءات و " منظومة " الجزار في العروض، و " آداب البحث والمناظرة " للإمام العضد، وما إلى ذلك من سائر العلوم النقلية والعقلية.

وظل هكذا ينتقل بين العلماء، يتلقَّى عليهم، ويستفيد منهم، حتى صار إماماً يشار إليه بالبنان، رأسًا يرحل إليه، فقصده طلاب العلم والمعرفة للأخذ عنه، من اليمن والهند، وغيرهما حتى طار صيته في جميع البلاد، وانتفع بعلمه كثير من الناس.

وقد تأثر الإمام الشوكاني بشخصيَّات كثيرة من العمالقة الذين كانوا قبله:

منهم من بلده اليمن، وأشهرهم: العلامة محمد بن إبراهيم الوزير، والعلامة محمد بن إسماعيل الأمير (ت ١١٨٢هـ)، والعلامة الحسن بن مهدي المقبلي (ت ١١٠٨هـ)، والحسين أحمد الجلال (ت ٨٠٤ هـ).

ومنهم من غير بلده ولم يكونوا في عصره، وعلى رأسهم: إمام الدنيا ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ)، وشيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) (١).

صفاته الخلقية والخُلقية:

لم تذكر كتب التاريخ والتراجم عن صفاته " الخلقية " سوى أنه كان متوسط الطول، كبير الرأس، عريض الجبهة، بادي الصحة، موفور

---

(١) البدر الطالع، " ٢/ ٢١٤ "، مقدمة كتاب الأدلة الرضية لمتن الدرر البهية في المسائل الفقهية، ص ١٣.

العافية.

أما صفاته " الخُلقية " فكثيرة ومشهورة، حتى ألف في مناقبه وفضائله الكثيرون من تلاميذه، منهم:

١ - السيد العلامة إبراهيم بن عبدالله الحوثي.

٢ - العلامة محمد بن محمد الديلمي.

٣ - القاضي العلامة محمد بن حسن الشجني الذماري، ألف في ذلك كتاباً حافلاً سماه: " التقصار في جيد زمن علامة الأقليم والأمصار ".

والواضح في حياة " الشوكاني " أنه بدأ حياته منقبضاً عن الناس، لايتصل بأحد منهم، إلا في طلب العلم ونشره، ولا سيما هؤلاء الذين يحكمون أو يتصلون بالحاكمين، وكان يرسل فتاويه، ويصدر أحكامه دون ان يتقاضى عليها أجراً.

وكانت حياته بسيطة متقشفة، يعيش على الكفاف الذي وفره له والده فلما تولى القضاء، وأجزل له الأجر، تنعم في مأكله ومشربه وملبسه ومركبه، وأضفى على تلاميذه وشيوخه مما وسع الله عليه به.

ويذكر بعض المؤرخين أن " الشوكاني " اختص بالكثير من الإقطاعات والصدقات، وهم يؤكدون أنه لم يترك من ذلك شيئاً، بعد عمل في القضاء دام أكثر من أربعين عاماً، بل كان ينفق ذلك كله في طرق الخير والبر. ومن المؤكد - كذلك - أن الدنيا لم تكن أكبر همه، وأن عرضها الزائل لم يكن يشغله عن الهدف الأسمى الذي وضعه لنفسه، وهو نشر دين الله تعالى وإحقاق الحق. ولذلك كان يقدر أهل العلم والفضل، الذين لايتكالبون على جمع حطام الدنيا، والتقرب إلى الحكام.

فيذكر بالتقدير والإجلال ذلك العالم الفاضل: " إسماعيل بن علي ابن حسن " الذي كان يحضر مجلس الإمام ويقول: " لم أسمع منه على

طول مدة اجتماعي به هناك مؤذنة بالخضوع لمطلب من مطالب الدنيا، لا تصريحاً و لا تلويحاً ".

وكان " الشوكاني " باراً بشيوخه وتلاميذه، فتح أمامهم أبواب العمل في الدولة، ودافع عنهم، وتشفع لهم عند الأئمة في كل أمر وقعوا فيه. وبالرغم من حدة ذكائه، وجودة ذهنه، وتشدده لآرائه واجتهاداته، لم يكن يحط من قدر علمه ليدخل في مهاترات المتعالمين، وكانت قسوته على الأفكار والآراء، لاعلى الأشخاص، لأنه كان يدرك أنه سبق هذا الجيل بأجيال، فترك ثروته العلمية والفكرية لتتفاعل مع الزمن، يكشف عن وجهها ما تبديه قرائح العلماء ".

وبالجمله: فمحل القول في هذا الأمام ذو سعة، فإن وجدت لساناً قائلاً فقل:

زد في العلا مهما تشا رفعة ::: وليصنع الحاسد ما يصنع
فالدهر نحوي كما ينبغي ::: يدري الذي يخفض أو يرفع

عقيدته:

يرى " الشوكاني " أن طرق المتكلمين لاتوصل إلى يقين، ولا يمكن أن تصيب الحق فيما هدفت إليه، لأن معضمها - كما يقول - قام على أصول ظنية، لا مستند لها إلا مجرد الدعوى على العقل، والفرية على الفطرة.فكل فريق منهم قد جعل له أصولاً تخالف ما عليه الآخر، وقد أقام هذه الأصول على ما رآه عنده هو صحيحاً، من حكم عقله الخاص المبني على نظره القاصر، فبطل عنده ما صح عند غيره، وقاسوا بهذه الأصول المتعارضة كلام الله ورسوله في الإلهيات وما يتصل بها من العقائد، فأصبح كل منهم يعتقد نقيض ما يعتقده الآخر.

ثم جعلوا هذه الأصول معياراً لصفات الرب تبارك وتعالى، فأثبتوا لله تعالى الشيء ونقيضه، ولم ينظروا إلى ما وصف الله به نفسه، وما وصفه به رسوله، بل إن وجدو ذلك موافقاً لما تعقلوه، جعلوه مؤيداً له ومقوياً، وقالوا: قد ورد دليل السمع مطابقاً لدليل العقل، وإن وجدوه مخالفاً لما تعقلوه، جعلوه وارداً على خلاف الأصل ومتشابهاً وغير معقول المعنى، ولا ظاهر الدلالة، ثم قابلهم المخالف لهم بنقيض قولهم، فافترى على عقله بأنه قد تعقل خلاف ما تعقله خصمه، وجعل ذلك أصلاً يرد إليه أدلة الكتاب والسنة، وجعل المتشابه عند أولئك محكماً عنده، والمخالف لدليل العقل عندهم موافقاً له عنده.

ومن مظاهر هذا التناقض: ما وقع فيه المعتزلة من مبدأ نفي الصفات، بناء على مبدئهم في التنزيه، وما غلا الأشعرية من الوقوع في التجسيم، بناء على ما ذهبوا إليه من التأويل، والمبالغة في الإثبات(١).

يقول الشوكاني عن هذه المسائل:

" و إن كنت تشك في هذا، فراجع كتب الكلام، وانظر المسائل التي قد صارت عند أهله من المراكز، كمسألة التحسين والتقبيح، وخلق الأفعل، وتكليف مالا يطاق، ومسألة خلق القرآن، فإنك تجد ما حكيته لك بعينه ".

لذلك: كان المسلك القويم في الإلهيات، والإيمان بما جاء فيها، هو مسلك السلف الصالح، من الصحابة والتابعين، من حمل صفات الباري على ظاهرها، وفهم الآيات والأحاديث على ما يوحيه المعنى

---

(١) البدر الطالع: " ٢/ ٢١٤ - ٢١٥ "، مقدمة كتاب قطر الولي، للدكتور إبراهيم إبراهيم هلال " ص١٥ "، مقدمة كتاب الأدلة الرضية لمتن الدرر البهية في المسائل الفقهية، ص ١٤.

اللغوي العام، وعدم الخوض في تأويلها، والإيمان بها على ذلك، دون تكلف ولا تعسف، ولا تشبيه ولا تعطيل، وإثبات ما أثبته الله - تعالى - لنفسه من صفاته، على وجه لا يعلمه إلا هو، فإنه القائل جل شأنه:{لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ} [الشورى: ١١]، فأثبت لنفسه صفة السمع والبصر، مع نفي المماثلة للحوادث في الوقت نفسه.

والإمام الشوكاني قد اعتنق هذا المبدأ، وجعل عمدته في الدعوة إلى مذهب السلف هاتين الآيتين الكريمتين:

أولهما قوله تعالى:{لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ} [الشورى: ١١].

وثانيهما قوله تعالى:{ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾} [طه: ١١٠].

ففيهما الإثبات والنفي، إثبات صفات الباري - جلَّ شأنه - ونفي مماثلة هذه الصفات للحوادث، ثم تقييد هذا الإثبات بظاهر ما صرحت به الآيات وأجملته، والزجر عن الخوض في كيفية هذه الصفات.

وقد سجل الشوكاني آراءه ومذهبه في ثنايا كتبه المختلفة ولاسيما كتابية:

١ - " التحف في مذاهب السلف ".

٢ - " كشف الشبهات عن المشتبهات ".

هذا، وقد اعتنق الشوكاني هذا المذهب بعد طول بحثه ومطالعة في كتب " علم الكلام " حتى صرح بأنه لم يعتنق مذهب السلف تقليداً، وإنما عن اجتهاد و اقتناع.

ولذلك يقول: " ولتعلم أني لم أقل هذا تقليداً لبعض من أرشدك إلى

ترك الاشتغال بهذا الفن، كما وقع لجماعة من محققي العلماء، بل قلت هذا بعد تضييع برهة من العمر في الاشتغال به، وإحفاء السؤال لمن يعرفه، والأخذ عن المشهورين به، والإكباب على مطالعة كثير من مختصراته و مطولاته، حتى قلت عند الوقوف على حقيقته أبياتاً منها:

وغاية ما حصلته من مباحثي ::: ومن نظري من بعد طول التدبر
هو الوقف ما بين الطريقين حيرة ::: فما علم من لم يلق غير التحير
على أنني قد خضت منه غماره ::: وما قنعت نفسي بدون التبحر

مذهبه الفقهي:

تفقه الشوكاني في أول حياته على مذهب الإمام " زيد بن علي بن الحسين " وبرع فيه، وفاق أهل زمانه، حتى خلع ربقة التقليد، وتحلى بمنصب الاجتهاد، فألف كتابه: " السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار " فلم يقيد نفسه بمذهب الزيدية، بل صحح ما أداه إليه اجتهاده بالأدلة، وزيف مالم يقم عليه الدليل، فثار عليه أهل مذهبه، من الزيدية، المتعصبون لمذهبهم في الأصول والفروع، فكان يقارعهم بالدليل من الكتاب والسنة، وكلما زادوا ثورة عليه زاد تمسكه بمسلكه، حتى ألف رسالة سماها: " القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد " ذهب فيه إلى ذم التقليد وتحريمه، فزاد هذا في تعصبهم عليه، حتى رموه بأنه يريد هدم مذهب آل البيت، فقامت - بسبب هذا - فتنة في " صنعاء " بين خصومه وأنصاره، فرد عليهم بأنه يقف موقفاً واحداً من جميع المذاهب، ولا يخص مذهب الزيدية بتحريم التقليد فيه.

وهكذا اختار " الشوكاني " لنفسه مذهباً لا يتقيد فيه برأي معين من آراء العلماء السابقين، بل على حسب ما يؤديه إليه اجتهاده، وهذا ما يلحظه القارئ لكتابه " نيل الأوطار " حيث ينقل آراء ومذاهب علماء

الأمصار، وآراء الصحابة والتابعين، وحجة كل واحد منهم، ثم يختم ذلك ببيان رأيه الخاص، مختاراً ما هو راجح فيما يقول [(١)].

ويرى أن الاجتهاد قد يسره الله تعالى للمتأخرين، وأنه أصبح ميسوراً أكثر مما كان في الصدر الأول فيقول: "... فإنه لا يخفى على من له أدنى فهم، أن الاجتهاد قد يسره الله للمتأخرين، تيسيراً لم يكن للسابقين؛ لأن التفاسير للكتاب العزيز قد دونت، وصارت من الكثرة إلى حد لا يمكن حصره، وكذلك السنة المطهرة، وتكلم الأئمة في التفسير، والتجريح والتصحيح، والترجيح، بما هو زيادة على ما يحتاج إليه المجتهد، وقد كان السلف الصالح، ومن قبل هؤلاء المنكرين يرحل للحديث الواحد، ومن قطر إلى قطر، فالاجتهاد على المتأخرين أيسر وأسهل من الاجتهاد على المتقدمين، ولا يخالف في هذا من له فهم صحيح، وعقل سوي ".

مكانته العلمية:

إن واحداً كالإمام الشوكاني، صاحب التصانيف المختلفة، والآثار النافعة ليتحدث عن نفسه بهذه الآثار، وقديماً قيل:

تلك آثارنا تدل علينا ::: فاسألوا بعدنا عن الآثار

فهو - بحق إمام - الأئمة، ومفتي الأئمة، بحر العلوم، وشمس الفهوم، سند المجتهدين الحفاظ، فارس المعاني والألفاظ، فريد العصر، نادرة الدهر، شيخ الإسلام، علامة الزمان، ترجمان الحديث والقرآن، علم الزهاد، أوحد العباد، قامع المبتدعين، رأس الموحدين، تاج المتبعين، صاحب التصانيف التي لم يسبق إلى مثلها، قاضي قضاة أهل السنة والجماعة، شيخ الرواية والسماع، علي الإسناد، السابق في ميدان الاجتهاد، على الأكابر الأمجاد، المطلع على حقائق الشريعة

---

(١) محمد حسن بن أحمد الغماري، الإمام الشوكاني مفسرًا، " ص٦٢ - ٦٣ " بتصرف، مقدمة كتاب الأدلة الرضية لمتن الدرر البهية في المسائل الفقهية، ص ١٥.

وموارِدها، العارف بغوامضها ومقاصدها.

هكذا وصفه أحد تلاميذه العلامة: حسين بن محسن السبعي الأنصاري اليماني.

وقال عنه العلامة حسن بن أحمد البهكلي في كتابه " الخسرواني في أخبار أعيان المخلاف السليماني " : " السنة الخمسون بعد المائتين والألف، وفيها في شهر جمادى الآخرة كانت وفاة شيخنا " محمد بن علي الشوكاني " وهو قاضي الجماعة، شيخ الإسلام، المحقق العلامة الإمام، سلطان العلماء، إمام الدنيا، خاتمة الحفاظ بلا مراء، الحجة النقاد، علي الإسناد، السابق في ميدان الاجتهاد ".

ثم قال: " وعلى الجملة: فما رأى مثل نفسه، ولا رأى من رآه مثله علماً وورعاً، وقياماً بالحق، بقوة جنان، وسلاطة لسان ".

وقال عنه العلامة: صديق حسن خان: "... أحرز جميع المعارف، واتفق على تحقيقه المخالف والمؤالف وصار المشار إليه في علوم الاجتهاد بالبنان، والمجلي في معرفة غوامض الشريعة عند الرهان.

له المؤلفات الجليلة الممتعة المفيدة النافعة في أغلب العلوم، منها: " نيل الأوطار " شرح منتقى الاخبار لا بن تيمية، لم تكتحل عين الزمان بمثله في التحقيق، ولم يسمح الدهر بنحوه في التدقيق، أعطى المسائل حقها في كل بحث على طريق الإنصاف، وعدم التقيد بالتقليد ومذهب الأخلاف والأسلاف، وتناقله عنه مشايخه الكرام فمن دونهم من الأعلام، وطار في الآفاق في زمن حياته، وقرئ عليه مراراً، وانتفع به العلماء ".

وقال عنه العلامة عبدالحي الكتاني: " هو الإمام خاتمة محدثي المشرق وأثريه، العلامة النظار الجهبذ القاضي محمد بن علي الشوكاني ثم الصنعاني... وقد كان الشوكاني المذكور شامة في وجه القرن المنصرم، وغرة في جبين الدهر، انتهج من مناهج العلم ما

عميَ على كثير ممن قبله، وأوتي فيه من طلاقة القلم والزعامة مالم ينطق به قلم غيره، فهو من مفاخر اليمن بل العرب، وناهيك في ترجمته يقول الوجيه عبدالرحمن الأهدل من " النفس اليماني " لما ترجم شيخهما عبدالقادر الكركباني: " وممن تخرج بسيدي الإمام عبدالقادر بن أحمد. ونشر علومه الزاهرة، وانتسب إليه وعوّل في الاقتداء في سلوك منهاج الحق عليه. إمام عصرنا في سائر العلوم. وخطيب دهرنا في إيضاح دقائق المنطوق والمفهوم، الحافظ المسند الحجة، الهادي في إيضاح السنن النبوي إلى المحجة، عز الإسلام محمد بن علي الشوكاني:

إن هزَّ أقلامَهُ يوماً ليعملها ::: أنساك كلّ كميّ هزَّ عاملَهُ
وإن أقرَّ على رَقٍّ أناملَهُ ::: أقرَّ بالرِقّ كُتّاب الأنام لهُ [1]

فإن هذا المذكور من أخص الآخذين عن شيخنا الإمام عبدالقادر. وقد منح الله هذا الإمام ثلاثة أمور لا أعلم أنها في هذا الزمن الأخير جمعت لغيره: الأول: سعة التبحر في العلوم على اختلاف أجناسها وأنواعها. الثاني: كثرة التلاميذ المحققين أولي الأفهام الخارقة الحقيق أن ينشد عند جمعهم الغفير:

إني إذا حضرتني ألفُ محبرةٍ ::: نقولُ أخبرني هذا وحدثني
صاحتْ بعقوتها الأقلامُ قائلةً ::: " هذي المكارمُ لا قعبانِ من لبنِ "

الثالث: سعة التآليف المحررة، ثم عدد معظمها كالتفسير ونيل الأوطار وإرشاد الفحول والسيل الجرار، ثم نقل أن مؤلفاته الآن بلغت مائة وأربعة عشر تأليفاً مما قد شاع ووقع في الأمصار الشاسعة الانتفاع بها فضلاً عن القريبة، ثم أنشد:

---

(١) البدر الطالع، ١/ ٤٦٤ - ٤٦٦، ٢/ ٣٣٤، محمد حسن بن أحمد الغماري، الإمام الشوكاني مفسرًا، " ص٦٢ - ٦٣ " بتصرف، مقدمة كتاب الأدلة الرضية لمتن الدرر البهية في المسائل الفقهية، ص ١٦.

كلّنــا عـــالمٌ بأنـــك فينـــا ::: نعمـــةٌ ســاعدتْ بهــا الأقــدارُ
فوَقَتْ نفسَكَ النفوسُ من الشــرّ ::: وزيــدتْ في عمــرك الأعمــار "

ثم أشار إلى من أفرد ترجمته بالتأليف... ".

وقال عنه إبراهيم بن عبدالله الحوثي: " زعيم أرباب التأويل سمع وصنف وأطرب الأسماع بالفتوى وشنف، وحجث وأفاد، وطارت أوراق فتاويه في البلاد، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهت إليه رياسة العلم في الحديث والتفسير والأصول والفروع والتاريخ ومعرفة الرجال وحال الأسانيد في تحصيل العوالي وتمييز العالي من النازل وغير ذلك ".

وقال فيه لطف بن أحمد جحاف: " أحفظ من أدركناه لمتون الحديث وأعرفهم بجرحها ورجالها وصحيحها وسقيمها وكان شيوخه وأقرانه يعترفون له بذلك ".

وقال عنه كحالة: " مفسر محدث، فقيه أصولي مؤرخ أديب نحوي منطقي متكلم حكيم صارت تصانيفه في البلاد في حياته وانتفع الناس بها بعد وفاته، وتفسيره " فتح القدير " و " نيل الأوطار " في الحديث من خير ما أخرج للناس كما يلاحظ أن الشوكاني يدخل في المناقشات الفقهية ويذكر أقوال العلماء وأدلتهم في تفسير كل آية تتعلق بالأحكام "

وقال عنه الأستاذ الفاضل محمد سعيد البَدْري: " واعلم - هدانا الله وإياك - أن لهذا الرجل خصائص قلَّ أن تجدها في غيره من العلماء وهي: سعة العلم والتحرر من التقليد بالاجتهاد والتمسك الفعلي بالكتاب والسنة وتقديمهما على ما سواهما كائناً من كان (وهذه سمة المجتهدين دون المقلدين) والإنصاف من الخصوم.

والحق أن هذه الخصائص لمسناها في كثير من كتبه وبالأخص هذا الكتاب - يقصد إرشاد الفحول - ولذا فأنا أعده من أئمة المجتهدين

حتى وإن خالفته في بعض المسائل، رحمه الله تعالى ".

وقال عنه الدكتور محمد حسن بن أحمد الغماري: " كان محمد بن علي الشوكاني على مبلغ عظيم من العلم شهد له بذلك علماء عصره ومن أتى بعده بسعة علمه وغزارة مادته في مختلف الفنون، وامتدحه الناس شعراً ونثراً وكاتبه الملوك والعلماء من مختلف الأقاليم وألف في شتى العلوم في التفسير والحديث وعلومهما والفقه والنحو والمنطق والتاريخ والأصول والأدب وله الشعر الرائق والنثر البليغ، صارت مؤلفاته منتجع العلماء وسار بها الركبان في حياته، وانتفع بها الناس بعد وفاته.

ألف " نيل الأوطار " فابدع وأودع فيه الفرائد، وصنف تفسيره العظيم فكان جامعاً لما تفرق في غيره وترجم لأعيان من بعد القرن السابع فأتى بالعجب العجاب وأنه ليعجب الناظر كيف تهيئ له أن يلم بتراجم أعيان ستة قرون كأنه عاش معهم مع أن الكثير منهم لم يكونوا من أبناء اليمن الذي عاش الشوكاني فيه ترجم لكل واحد منهم بانصاف ونزاهة.

وألف في الفقه " الدراري المضيئة " فأبدع فيه وأحسن وألف " السيل الجرار " الذي لم تخط بنات الأفكار بمثله أقام الدليل وزيف الرأي المحض وألف " الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة " واستدرك على ابن الجوزي والسيوطي وابن عراق كثيراً مما فاتهم ونبه على أوهامهم في الحكم على بعض الأحاديث بالوضع.

وأما أصول الدين فهو فارس ميدانها وحامل مشعلها فقد حارب الشرك والبدع وأبلى في سبيل العقيدة الإسلامية بلاء حسناً اقتداء بالأنبياء والمرسلين والدعاة المخلصين فلقي من الناس العنت والأود وناصبوه العداء ورموه عن قوس واحدة... ".

وقال عنه خير الدين الزركلي: " فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن،

من أهل صنعاء... وكان يرى تحريم التقليد " [(١)].

توليه القضاء:

في عام ١٢٠٩ من هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم توفي كبير قضاة اليمن، القاضي يحيى بن صالح الشجري السحولي، وكان مرجعَ العامة والخاصة، وعليه المعوَّل في الرأي والأحكام، ومستشار الإمام والوزارة.

قال الشوكاني: " وكنتُ إذ ذاك مشتغلاً بالتدريس في علوم الاجتهاد والإفتاء والتصنيف منجمعاً عن الناس لا سيما أهل الأمر وأرباب الدولة، فإني لا أتَّصِل بأحدٍ منهم كائنًا من كان، ولم يكن لي رغبة في غير العلوم... فلم أشعر إلا بِطلابٍ لي من الخليفة بعد موت القاضي المذكور بنحو أسبوع، فعزمتُ إلى مقامه العالي، فذكر لي أنه قد رجح قيامي مقام القاضي المذكور، فاعتذرتُ له بما كنت فيه من الاشتغال بالعلم، فقال: القيام بالأمرين ممكنٌ، وليس المراد إلا القيام بفَصْل ما يصل من الخصومات إلى ديوانه العالي في يَوْمَي اجتماع الحكام فيه. فقلت: سيقع مني الاستخارة لله والاستشارة لأهل الفضل، وما اختاره الله ففيه الخير. فلمَّا فارقته ما زلتُ مُتردِّدًا نحو أسبوع، ولكنَّه وفد إليَّ غالبُ مَنْ ينتسب إلى العلم في مدينة صنعاء، وأجمعوا على أن الإجابة واجبة، وأنهم يخشوْن أن يدخل في هذا المنصب - الذي إليه مرجعُ الأحكام الشرعية في جميع الأقطار اليمنية - مَنْ لا يُوثَقُ بدينه وعلمه. فقبلتُ مستعيناً بالله ومتّكلاً عليه. وأسأل الله بحَوْلِه وطوْله أن يرشدني إلى مراضيه، ويحول بيني وبين معاصيه، وييسِّر لي الخير حيث كان، ويدفع عني الشر، ويُقيمني في مقام العَدْل،

---

(١) البدر الطالع، ١/ ٤٦٤ - ٤٦٦، ٢/ ٣٣٤، محمد حسن بن أحمد الغماري، الإمام الشوكاني مفسرًا، ص٧١ بتصرف، مقدمة كتاب الأدلة الرضية لمتن الدرر البهية في المسائل الفقهية، ص ١٧.

ويختار لي ما فيه الخير في الدين والدنيا ".

وربَّما أن الشوكاني رأى في منصب القضاء فرصةً لنَشْر السُّنَّة وإماتة البدعة، والدعوة إلى طريق السلف الصالح.

كما أن منصب القضاء سيصدُّ عنه كثيراً من التيارات المعادية له، ويسمح لأتباعه بنَشْر آرائه السديدة، وطريقته المستقيمة.

" والأئمة الثلاثة الذين تولى الشوكاني القضاء الأكبر لهم، ولم يُعزل حتى واتته المنية هم:

١ - المنصور علي بن المهدي عباس، ولد سنة ١١٥١هـ، وتوفي سنة ١٢٢٤هـ. ومدة خلافته ٢٥ سنة.

٢ - ابنه المتوكل علي بن أحمد بن المنصور علي، ولد سنة ١١٧٠هـ، وتوفي سنة ١٢٣١هـ. ومدة خلافته نحو ٧ سنوات.

٣ - المهدي عبدالله، ولد سنة ١٢٠٨ هـ، وتوفي ١٢٥١ هـ، ومدة خلافته ٢٠ سنة ".

قلتُ: كان تولِّي الشوكاني القضاء كسباً كبيراً للحقّ، فقد أقام سوق العدالة بيّنًا، وأنصف المظلوم من الظالم، وأبعد الرشوة، وخفَّف من غُلَوَاء التَّعصب، ودعا الناس إلى اتِّباع القرآن والسنة.

إلا أن هذا المنصب قد منعه من التحقيق العلمي، يظهر ذلك إذا ما تتبَّع المرءُ مؤلفاته قبل تولِّيه القضاء وبعده، يجد الفَرْق واضحًا.

شيوخه:

كان الشوكاني طلعة يبحث عن العلم والمعرفة في المظان المختلفة، ويتنقل بين المشايخ بحثاً عن المعرفة، الأمر الذي يجعل البحث عن كل شيوخه عسيراً، وسوف نكتفي هنا بذكر بعض مشايخه المشهورين، فمنهم:

١ - والده: علي بن محمد بن عبدالله بن الحسن الشوكاني المتوفى

سنة ١٢١١هـ (٣٥).

فقد تولى ولده بالعناية والرعاية منذ الطفولة، فحفظه القرآن وجوده له، كما حفظه عدداً من المتون ومبادىء العلوم المختلفة، قبل أن يبدأ طلب العلم على غير والده من علماء عصره.

وكان لهذه العناية المبكرة أثرها البارز في بناء شخصية الشوكاني.

٢ - أحمد بن محمد بن أحمد بن مطهر القابلي (١١٥٨ - ١٢٢٧هـ).

قال الشوكاني في ترجمته: " وقد لازمتُه في الفروع نحو ثلاث عشر سنة، وانتفعتُ به، وتخرَّجت عليه، وقرأت عليه في: " الأزهار " و " شرحه " و " حواشيه " ثلاث دفعات: الدفعتين الأوليين اقتصرنا على ما تدعو إليه الحاجة، والدفعة الثالثة استكملنا الدَّقيق والجَّليل من ذلك مع بحثٍ وتحقيق، ثم قرأت عليه " الفرائض " للعصيفري، و " شرجها " للنَّاظري، وما عليه من الحواشي، وقرأتُ عليه " بيان ابن مظفر " و " حواشيه "، وكانت هذه القراءة بحثٍ وإتقانٍ وتحرير وتقرير ".

٣ - أحمد بن عامر الحدائي (١١٢٧ - ١١٩٧هـ = ١٧١٥ - ١٧٨٣م).

قرأ عليه: " الأزهار " و " شرحه " مرتين، و " الفرائض " مرتين.

٤ - أحمد بن محمد الحرازي المولود سنة ١١٥٨هـ والمتوفي سنة ١٢٢٧هـ.

تلقى عليه الشوكاني الفقه والفرائض، وظل ملازماً له ثلاث عشر سنة.

٥ - إسماعيل بن الحسن المهدي بن أحمد ابن الإمام القاسم بن محمد (١١٢٠ - ١٢٠٦هـ).

قرأ عليه: " ملحة الإعراب " للحريري، وشرحها المعروف ب "

شرح بحرق "، وفي علم الصرف، والمعاني، والبيان، والأموال.

٦ - الحسن بن إسماعيل المغربي (١١٤٠ - ١٢٠٨هـ).

قرأ عليه: بعض " الرسالة الشمسيَّة " للقطب، و " حاشيته " للشريف، وفي " المطول " و " حواشيه "، وأكمل لديه دراسة " شرح الغاية "، و " حاشيته " لسيلان، و " العضد "، و " شرحه على المختصر "، و " حاشية السعد "، وما تدعو إليه الحاجة من سائر الحواشي، وسمع عليه " شرح بلوغ المرام " لجده، وفاته بعض أوله، وبعض " صحيح مسلم "، و " شرحه " للنووي، وبعض " تنقيح الأنظار " في علوم الحديث، وسمع عليه جميع " سنن أبي داود "، و " تخريجها " للمنذري، وبعض شرح " المعالم " للخطابي، وبعض " شرح ابن رسلان ".

٧ - صديق علي المزجاجي الحنفي المولود سنة ١١٥٠هـ والمتوفي سنة ١٢٠٩هـ.

شيخ الشوكاني بالإجازة في الحديث وغيره.

٨ - عبدالرحمن بن حسن الأكوع (١١٣٥ - ١٢٠٧هـ = ١٧٢٤ - ١٧٧٢م).

قرأ عليه أوائل " الشفاء " للأمير الحسين، كتاب في الحديث.

٩ - عبدالرحمن بن قاسم المداني (١١٢١ - ١٢١١هـ = ١٧٠٩ - ١٧٩٦م).

قرأ عليه " شرح الأزهار " في أوائل طلبه للعلم، وباحثه بمباحث علميَّة فقهييَّة دقيقة.

١٠ - عبدالقادر بن أحمد شرف الدين الكوكباني المولود سنة ١١٣٥هـ والمتوفي سنة ١٢٠٧هـ.

قرأ عليه الشوكاني العديد من العلوم مثل: علم التفسير، والحديث،

والمصطلح، وغير ذلك من الفنون المختلفة.

وكان حجة في سائر العلوم، ومجتهداً مطلقاً، كما يقول الشوكاني عنه.

١١ - عبدالله بن إسماعيل النهمي المولود سنة ١١٥٠هـ والمتوفي سنة ١٢٢٨هـ.

قرأ عليه الشوكاني النحو، والصرف، والمنطق، والحديث، والأصول، وغير ذلك.

١٢ - عبدالله بن الحسن بن علي بن الحسن بن علي ابن الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم (١١٦٥ - ١٢١٠هـ).

أخذ عنه في أوائل طلبه للعلم " شرح الجامي " من أوله إلى آخره.

١٣ - علي بن أبراهيم بن علي بن عامر الشهيد، المولود سنة ١١٤٠هـ والمتوفي سنة ١٢٠٧هـ.

سمع عليه " صحيح البخاري " من أوَّله إلى آخره. قال عنه الشوكاني: كان إماماً في جميع العلوم محققاً لكل فن ذا سكينة ووقار قل أن يوجد له نظير.

١٤ - علي بن هادي عرهب (١١٦٤ - ١٢٣٦هـ).

١٥ - القاسم بن يحيى الخولاني (١١٦٢ - ١٢٠٩هـ = ١٧١٤ - ١٧٩٤م).

قرأ عليه: " الكافية "، و " شرحها " للسيد المفتي، و " شرح الخبيصي على الكافية "، و " حواشيه "، و " شرح الرضى على الكافية "، وبقي منه بقية يسيرة، و " الشافية "، و " شرحها " للطف الله الغياث، و " السعد " و " شرحه "، و " شرح الجامي " من أوله إلى آخره.

١٦ - هادي بن حسن القارني ولد سنة ١١٦٤هـ وتوفي سنة

١٢٤٧هـ.

أخذ عنه القراءات والعربية ثم أخذ عنه في " شرح المنتقى " وغيره.

١٧ - يحيى بن محمد الحوثي (١١٦٠ - ١٢٤٧هـ = ١٧٤٧ - ١٨٣١م).

أخذ عنه الفرائض، والحساب، والضرب، والمساحة.

١٨ - يوسف بن محمد بن علاء المزجاجي (١١٤٠ - ١٢١٣هـ).

سمع منه، وأجازه لفظاً بجميع ما يجوز له روايته، وكتب إليه إجازة بعد وصوله إلى وطنه، ومن جملة ما يرويه عنه: أسانيد الشيخ الحافظ إبراهيم الكردي، وهو يرويها عن أبيه عن جده بطريقة السَّماع.

تلاميذه:

إن واحداً كالإمام " الشوكاني " جمع من العلوم ما جمع، وأحاط بالمعقول منها والمنقول، وبرز في شتى المعارف، وأضاف إليها الكثير، بالنظر الثاقب، والفكر المستنير، وألف العديد من الكتب، لا بد وأن يكون قد تخرج على يديه الكثيرون واستفاد منه العامة والخاصة.

ومن أشهر تلاميذه:

١ - ابنه أحمد بن محمد بن علي الشوكاني ولد سنة ١٢٢٩هـ، وانتفع بعلم والده وبمؤلفاته، حتى حاز من العلوم السهم الوافر، وانتفع به عدة من الأكابر، تولى القضاء بمدينة " صنعاء " وله مؤلفات وكان من أكابر علماء اليمن بعد والده توفي - رحمه الله تعالى - سنة ١٢٨١هـ.

٢ - محمد بن أحمد السودي، ولد سنة ١١٧٨هـ، لازم الإمام " الشوكاني " من بداية طلبه للعلم، حتى مدحه الشوكاني بقوله:

أعز المعالي أنت للدهر زينة ::: وأنت على رغم الحواسد ماجده.

توفي سنة ١٢٣٦هـ.

٣ - محمد بن أحمد مشحم الصعدي الصنعاني، ولد سنة ١١٨٦هـ وتولى القضاء في " صنعاء " وغيرها، وأثنى عليه " الشوكاني " كثيراً، وتوفي سنة ١٢٢٣هـ.

٤ - أحمد بن علي بن محسن، ابن الإمام المتوكل على الله إسماعيل ابن القاسم. ولد سنة ١١٥٠هـ واشتغل بطلب العلم، بعد أن قارب الخمسين، ولازم الإمام " الشوكاني " نحو عشر سنين توفي سنة ١٢٢٣هـ.

٥ - محمد بن محمد بن هاشم بن يحيى الشامي، ثم الصنعاني، ولد سنة ١١٧٨هـ وتوفي سنة ١٢٥١هـ.

٦ - عبدالرحمن بن أحمد البهلكي الضمدي الصبيائي، ولد سنة ١١٨٠هـ.

وتلقى على الشوكاني وغيره، ولكنه كان من أوفى تلاميذ " الشوكاني " ومن الملازمين له، توفي سنة ١٢٢٧هـ.

٧ - أحمد بن عبدالله الضمدي.

أخذ عن الإمام " الشوكاني " وغيره، ولكن صلته بالشوكاني كانت أكثر، حتى صار المرجع إليه في التدريس والإفتاء في " ضمد " وما حولها، وله أسئلة عديدة إلى شيخه " الشوكاني " أجاب له عنها في رسالة سماها " العقد المنضد في جيد مسائل علامة ضمد "، توفي سنة ١٢٢٢هـ.

٨ - علي بن أحمد بن هاجر الصنعاني، ولد في حدود سنة ١١٨٠هـ وتبحر في العلوم النقلية والعقلية، درس على " الشوكاني " علم المنطق وغيره. قال عنه الشوكاني بالنسبة لعلم المنطق: " هو يفهمه

فهماً بديعاً، ويتقنه إتقاناً عجيباً، قل أن يوجد نظيره مع صلابة الدين " توفي سنة ١٢٣٥هـ.

مؤلَّفاته:

خلف الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى ثروة عظيمة من المؤلفات بلغت ٢٧٨ مؤلفاً، ولا يزال معظمها مخطوطاً رهين الأدراج والأرفف، ولم يكتب له أن يرى نور النشر والطباعة حتى اليوم، ولو رحتُ أسردُ هذه المؤلفات؛ لطال بي الكلام، ولذلك سأقتصر على أهمّ كتبه المطبوعة، والتي تظهر للقارئ تفنُّن هذا الإمام وإلمامَه بمختلف أنواع العلوم الشرعية:

١ - " فتح القدير الجامع بين فنَّي الرواية والدراية من التفسير " الذي حوى على درر عظيمة تدلُّ على تبحُّر هذا الإمام في علم التفسير.

٢ - " الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ".

٣ - " الدُّرر البهيَّة " : متنٌ في الفقه.

٤ - وشرحه: " الدَّراري المضيَّه في شرح الدُّرر البهيَّة ".

٥ - " السَّيل الجرَّار المتدفِّق على حدائق الأزهار " : وهو كتابٌ قلَّ نظيره فيما يعرف بالفقه المقارن.

٦ - " نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار " : الذي طار ذكره وعلا صيته وأصبح مرجعاً لا يستغنى عنه طالب العلم.

٧ - " إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول " : وهو من فرائد ما أُلِف في علوم أصول الفقه.

٨ - " تحفة الذاكرين ".

٩ - " الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني ".

١٠ - " البدر الطالع بمحاسن مَن بعد القرن السابع " : وهو مرجع مفيد ومهم جداً في رجال وأعلام مَن بعد القرن السابع.

١١ - " وبل الغمام على شِفَاءِ الأوَام ".

وغيرها كثير كثير، مما نسأل الله أن يُعين رواد العلم وطلاب المعرفة على نشر كنوزه وإظهار فرائده إلى عالم المنشورات.

وفاته:

توفي الإمام الشوكاني رحمه الله ليلة الأربعاء، لثلاث بقين من شهر جمادى الآخرة، سنة (١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م)، عن ستٍّ وسبعين سنة وسبعة أشهر، وصلِّي عليه في الجامع الكبير بصنعاء، ودُفن بمقبرة خزيمة المشهورة بصنعاء، رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وجزاه عنا كل خير[١].

التعريف بتفسير " فتح القدير " :

يعتبر هذا التفسير أصلاً من أُصول التفسير، ومرجعاً مهماً من مراجعه، لأنه جمع بين التفسير بالدراية، والتفسير بالرواية، فأجاد في باب الدراية، وتوسَّع في باب الرواية، وقد ذكر مؤلفه في مقدمته أنه شرع فيه في شهر ربيع الآخر من شهور سنة ثلاث وعشرين بعد المائتين والألف من الهجرة النبوية، وفرغ منه في شهر رجب سنة تسع وعشرين بعد المائتين والألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل السلام وأزكى التحية. كما ذكر أنه اعتمد في تفسيره هذا على أبي جعفر النحاس، وابن عطية الدمشقى، وابن عطية

---

(١) البدر الطالع، ١/ ٤٦٤ - ٤٦٦، ٢/ ٣٣٤، محمد حسن بن أحمد الغماري، الإمام الشوكاني مفسرًا، ص٧١ بتصرف، مقدمة كتاب الأدلة الرضية لمتن الدرر البهية في المسائل الفقهية، ص ١٧، وللمزيد عن سيرة الإمام الشوكاني انظر: مقدمة نيل الأوطار طبعة مصطفى البابي الحلبي، معالم تجديد المنهج الفقهي (أنموذج الشوكاني) لحليمة بو كروشة، الشوكاني حياته وفكره للدكتور عبدالغني قاسم غالب الشرجبي، منهج الإمام الشوكاني في العقيدة، للباحث عبد الله نومسوك، بإشراف دكتور: علي بن محمد ناصر فقيهي، الإمام الشوكاني وإيراده للقراءات في تفسيره.، للباحث: أحمد بن عبد الله أحمد المقرئ بإشراف عبد القادر شيبة الحمد المدرس بالمسجد النبوي.

الأندلسى، والقرطبى، والزمخشرى، وغيرهم.

طريقة الشوكانى في تفسيره :

وطريقة الشوكانى التي سلكها في تفسيره يكفينا في بيانها عبارته التي ذكرها في مقدمة هذا التفسير مبيناً بها منهجه فيه.

قال رحمه الله: " ووطنت النفس على سلوك طريقة هى بالقبول عند الفحول حقيقة، وها أنا أوضح لك منارها، وأبين لك إيرادها وإصدارها، فأقول: إن غالب المفسِّرين تفرَّقوا فريقين، وسلكوا طريقين، الفريق الأول: اقتصروا في تفاسيرهم على مجرد الرواية، وقنعوا برفع هذه الراية، والفريق الآخر: جردوا أنظارهم إلى ما تقتضيه اللُّغة العربية، وما تفيده العلوم الآلية، ولم يرفعوا إلى الرواية رأساً، وإن جاءوا به لم يصحوا لها أساساً، وكلا الفريقين قد أصاب، وأطال وأطاب، وإن رفع عماد بيت تصنيفه على بعض الأطناب، وترك منها ما لا يتم بدونه كمال الانتصاب ".

ثم قال بعد أن دلل على قوله هذا: " وبهذا يُعرف أنه لا بد من الجمع بين الأمرين، وعدم الاقتصار على مسلك أحد الفريقين، وهذا هو المقصد الذي وطنت نفسى عليه، والمسلك الذي عزمت على سلوكه إن شاء الله، مع تعرضى للترجيح بين التفاسير المتعارضة مهما أمكن واتضح لى وجهه، وأخذى من بيان المعنى العربى والإعرابى والبيانى بأوفر نصيب، والحرص على إيراد ما ثبت من التفسير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو الصحابة، أو التابعين، أو تابعيهم، أو الأئمة المعتمدين، وقد أذكر ما في إسناده ضعف، إما لأن في المقام ما يقويه، أو لموافقته للمعنى العربى. وقد أذكر الحديث معزواً إلى راويه من غير بيان حال الإسناد، لأنى أجده في الأصول التي نقلت عنها كذلك، كما يقع في تفسير ابن جرير والقرطبى وابن كثير والسيوطى، وغيرهم، ويبعد كل البُعد أن يعلموا في الحديث

ضعفاً ولا يبينوه، ولا ينبغي أن يُقال فيما أطلقوه: إنهم قد علموا ثبوته، فإن من الجائز أن ينقلوه من دون كشف عن حال الإسناد، بل هذا هو الذي يغلب به الظن، لأنهم لو كشفوا عنه فثبت عندهم صحته لم يتركوا بيان ذلك، كما يقع منهم كثيراً التصريح بالصحة أو الحُسن، فمَن وجد الأصول التي يروون عنها، ويعزون ما في تفاسيرهم إليها. فلينظر إلى أسانيدها موفقاً إن شاء الله.

" واعلم أن تفسير السيوطى المسمى بالدر المنثور، قد اشتمل على غالب ما في تفاسير السَلَف من التفاسير المرفوعة إلى النبى صلى الله عليه وسلم، وتفاسير الصحابة ومَن بعدهم، وما فاته إلا القليل النادر. وقد اشتمل هذا التفسير على جميع ما تدعو إليه الحاجة منه مما يتعلق بالتفسير، مع اختصار لما تكرر لفظاً واتحد معنى بقولى: ومثله ونحوه، وضممت إلى ذلك فوائد لم يشتمل عليها، وجدتها في غيره من تفاسير علماء الرواية، أو من الفوائد التي لاحت لى، من تصحيح، أو تحسين، أو تضعيف، أو تعقيب، أو جمع، أو ترجيح... فهذا التفسير وإن كبر حجمه فقد كثر علمه، وتوفر من التحقيق قسمه، وأصاب غرض الحق سهمه، واشتمل على ما في كتب التفاسير من بدائع الفوائد، مع زوائد فرائد، وقواعد شرائد، ثم أرجع إلى تفاسير المعتمدين على الدراية، ثم انظر في هذا التفسير بعد النظرين، فعند ذلك يسفر الصبح لذى عينين، ويتبين لك أن هذا الكتاب هو اللُباب، وعجب العُجاب، وذخيرة الطُلاب، ونهاية مآرب أُولى الألباب... وقد سميته " فتح القدير، الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير ".

مما تقدم يتضح لك جلياً طريقة المؤلف التي سلكها في تفسيره هذا، وقد رجعت إلى هذا التفسير وقرأت فيه كثيراً، فوجدته يذكر الآيات، ثم يفسِّرها تفسيراً معقولاً ومقبولاً، ثم يذكر بعد الفراغ من ذلك:

الروايات التفسيرية الواردة عن السَلَف، وهو ينقل كثيراً عمن ذكر من أصحاب كتُب التفسير. ووجدته يذكر المناسبات بين الآيات، ويحتكم إلى اللُغة كثيراً. وينقل عن أئمتها كالمبرد وأبى عبيدة والقرَّاء، كما أنه يتعرض أحياناً للقراءات السبع، ولا يفوته أن يعرض لمذاهب العلماء الفقهية في كل مناسبة، ويذكر اختلافاتهم وأدلتهم، ويُدلى بدلوه بين الدلاء، فيرجح، ويستظهر، ويستنبط، ويعطى نفسه حرية واسعة في الاستنباط، لأنه يرى نفسه مجتهداً لا يقل عن غيره من المجتهدين.

نقله للروايات الموضوعة والضعيفة :

غير أنى آخذ عليه - كرجل من أهل الحديث - أنه يذكر كثيراً من الروايات الموضوعة، أو الضعيفة، ويمر عليها بدون أن ينبه عليها.

فمثلاً نجده عند تفسيره لقوله تعالى:{إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ} [المائدة: ٥٥]... الآية، وقوله:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ} [المائدة: ٦٧]... الآية، يذكر من الروايات ما هو موضوع على ألسن الشيعة، ولا ينبه على أنها موضوعة، مع أنه يقرر عدم صلاحية مثل هذه الروايات للاستدلال على إمامة علىّ، ففى الآية الأولى يقول:{وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾} [المائدة: ٥٥]، جملة حالية من فاعل للفعلين اللَّذين قبله، والمراد بالركوع: الخشوع والخضوع، أى يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، وهم خاشعون لا يتكبرون. وقيل: هو حال من فاعل الزكاة، والمراد بالركوع هو المعنى المذكور، أى يضعون الزكاة في مواضعها غير متكبرين على الفقراء، ولا مترفعين عليهم، وقيل: المراد بالركوع على المعنى الثاني: ركوع الصلاة، ويدفعه عدم جواز إخراج الزكاة في تلك الحال ".

ثم نراه يذكر في ضمن ما يذكر من الروايات عن ابن عباس أنه قال: تصدَّق علىّ بخاتم وهو راكع، فقال النبي صلى الله عليه وسلم

للسائل:{مَن أعطاك هذا الخاتم؟} قال: ذلك الراكع، فأنزل الله فيه:{إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ} [المائدة: ٥٥]،... الآية، ثم يمر على هذه الرواية الموضوعة باتفاق أهل العلم ولا ينبه على ما فيها.

وفي الآية الثانية نجده يروى عن أبى سعيد الخدرى أنه قال: " نزلت هذه الآية:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ} [المائدة: ٦٧]، على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم " غدير خُم "، في عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه "، ويروى عن ابن مسعود أنه قال: " كنا نقرأ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم : {يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ} [المائدة: ٦٧]، ثم يمر على هاتين الروايتين أيضاً بدون أن يتعقبهما بشيءٍ أصلاً.

ذمه للتقليد والمقلِّدين:

كذلك نلاحظ على الشوكانى أنه لا يكاد يمر بآية من القرآن تنعى على المشركين تقليدهم آباءهم إلا ويطبقها على مقلّدى أئمة المذاهب الفقهية، ويرميهم بأنهم تاركون لكتاب الله، مُعْرِضون عن سُنَّة رسوله صلى الله عليه وسلم. ونحن وإن كنا لا نمنع من الاجتهاد مَن له قدرة عليه بتحصيله لأسبابه وإلمامه بشروطه إلا أنَّا لا ننكر أن في الناس مَن ليس أهلاً للاجتهاد، وهؤلاء لا بد لهم من التقليد. ولستُ في شك من أن الشوكانى مخطىء في حملاته على المقلّدة، كما أنه قاس إلى حد كبير حيث يطبق ما ورد من الآيات في حق الكفرة على مقلّدى الأئمة وأتباعهم، وإليك بعض ما قاله في تفسيره.

فمثلاً عندما تعرَّض لقوله تعالى:{ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾} [الأعراف: ٢٨].. قال ما نصه: ".. وإن في هذه الآية الشريفة لأعظم زاجر، وأبلغ واعظ للمقلّدة، الذين يتبعون آباءهم في المذاهب المخالفة للحق، فإن ذلك من الاقتداء بأهل الكفر لا

بأهل الحق، فإنهم القائلون:{إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ} [الزخرف: ٢٣]... والقائلون:{وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا} [الأعراف: ٢٨]... والمقلّد لولا اغتراره بكونه وجد أباه على ذلك المذهب، مع اعتقاده بأنه الذي أمر الله به، وأنه الحق لم يبق عليه، وهذه الخصلة هى التي بقى بها اليهودى على اليهودية، والنصرانى على النصرانية، والمبتدع على بدعته، فما أبقاهم على هذه الضلالات إلا كونهم وجدوا آباءهم في اليهودية أو النصرانية أو البدعة. وأحسنوا الظن بهم، بأن ما هم عليه هو الحق الذي أمر الله به، ولم ينظروا لأنفسهم، ولا طلبوا الحق كما يجب، ولا بحثوا عن دين الله كما ينبغى، وهذا هو التقليد البحت والقصور الخالص. فيا مَن نشأ على مذهب من هذه المذاهب الإسلامية، أنا لك النذير المبالغ في التحذير من أن تقول هذه المقالة، وتستمر على الضلالة، فقد اختلط الشر بالخير، والصحيح بالسقيم، وفاسد الرأى بصحيح الرواية، ولم يبعث الله إلى هذه الأمة إلا رسولاً واحداً أمرهم باتباعه، ونهى عن مخالفته فقال: {وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟} [الحشر: ٧]. ولو كان محض رأى أئمة المذاهب وأتباعهم حُجَّة على العباد، لكان لهذه الأمة رسل كثيرون متعددون بعدد أهل الرأى، المكلّفين للناس بما لم يُكلّفهم الله به. وإن من أعجب الغفلة، وأعظم الذهول عن الحق، اختيار المقلّدة لآراء الرجال، مع وجود كتاب الله ووجود سُنَّة رسوله. ووجود مَن يأخذونهما عنه، ووجود آلة الفهم لديهم، ومَلَكة العقل عندهم ".

وفي سورة التوبة عند تفسيره لقوله تعالى:{ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ } [التوبة: ٣١]، يقول ما نَصه: "... وفي هذه الآية ما يزجر مَن كان له

قلب أو ألقى السمع وهو شهيد عن التقليد في دين الله، وإيثار ما يقوله الأسلاف على ما في الكتاب العزيز، والسُّنَّة المطهَّرة، فإن طاعة المتمذهب لمن يقتدى بقوله، ويستَّن بسُنَّته من علماء هذه الأمة، مع مخالفته لما جاءت به النصوص، وقامت به حجج الله وبراهينه، ونطقت به كتبه وأنبياؤه، هو كاتخاذ اليهود والنصارى الأخبار والرهبان أرباباً من دون الله. للقطع بأنهم لم يعبدوهم، بل أطاعوهم، وحرَّموا ما حرَّموا. وحلَّلوا وهذا هو صنيع المقلّدين من هذه الأمة، وهو أبه به مِنْ شبَّه البيضة بالبيضة، والتمرة بالتمرة، والماء بالماء.
فيا عباد الله، ويا أتباع محمد بن عبد الله؛ ما بالكم تركتم الكتاب والسُّنَّة جانباً، وعمدتم إلى رجال هم مثلكم في تعبد الله لهم بهما، وطلبه منهم للعمل بما دلا عليه وأفاداه فعلتم بما جاءوا به من الآراء التي لم تعمد بعماد الحق، ولم تعضد بعضد الدين، ونصوص الكتاب والسُّنَّة تنادى بأبلغ نداء، وتُصوِّت بأعلى صوت بما يخالف ذلك ويباينه، فأعرتموهما آذاناً صُما، وقلوباً غُلُفاً، وأفهاماً مريضة، وعقولاً مهيضة، وأذهاناً كليلة، وخواطر عليلة، وأنشدتم بلسان الحال:

وما أنا إلا من غزية إن غوت ::: غويتُ وإن ترشد غزية أرشد

فدعوا - أرشدكم الله وإياى - كتباً كتبها لكم الموات من أسلافكم، واستبدلوا بها كتاب الله خالقهم وخالقكم، ومتعبدهم ومتعبدكم، ومعبودهم ومعبودكم، واستبدلوا بأقوال من تدعونهم بأئمتكم وما جاءوكم به من الرأى، بأقوال إمامكم وإمامهم، وقدوتكم وقدوتهم، وهو الإمام الأول محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

دعوا كل قول عند قول محمد ::: فما آمِنٌ في دينه كمخاطر

اللّهم هادى الضال، مرشد التائه، موضح السبيل... اهدنا إلى الحق، وأرشدنا إلى الصواب، وأوضح لنا منهج الهداية ".

وعند تفسيره لقوله تعالى:{إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾} [الأنبياء: ٥٢ - ٥٤]، نجده يذم المقلّدة، وأئمة المذاهب بما لا يليق أن يصدر من عالِم في حق عالِم آخر ربما كان أفضل منه عند الله، وذلك حيث يقول: "... وهكذا يجيب هؤلاء المقلّدة من أهل هذه المِلَّة الرأى المدفوع بالدليل... قالوا: هذا قد قال به إمامنا الذي وجدنا آباءنا له مقلّدين، وبرأيه آخذين. وجوابهم هو ما أجاب به الخليل ههنا:{قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾} [الأنبياء: ٥٤]. أى في خسران واضح لا يخفى على أحد، ولا يلتبس على ذى عقل، فإن قوم إبراهيم عبدوا الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، ولا تسمع ولا تبصر، وليس بعد هذا الضلال ضلال، ولا يساوى هذا الخسران خسران. وهؤلاء المقلّدة من أهل الإسلام استبدلوا بكتاب الله وبسُنَّة رسوله كتاباً قد دُوِّنت فيه اجتهادات عالِم من علماء الإسلام، زعم أنه لم يقف على دليل يخالفها، إما لقصور منه، أو لتقصير في البحث، فوجد ذلك الدليل مَن وجده، وأبرزه واضح المنار، كأنه عَلَم في رأسه نار، وقال: هذا كتاب الله، أو هذه سُنَّة رسول الله، وأنشدهم:

دعوا كل قول عند قول محمد ::: فما آمِنٌ في دينه كمخاطر

فقالوا كما قال الأول:

وما أنا إلا من غزية إن غوت ::: غويتُ وإن ترشد غزية أرشد

وقد أحسن مَن قال:

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ::: ومنهج الحق له واضح

(حياة الشهداء):

هذا... وإن الشوكانى ليقرر في تفسيره هذا: أن الشهداء أحياء

عند ربهم يُرزقون، حياة حقيقية لا مجازية، وذلك حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى:{ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾} [آل عمران: ١٦٩]... وقد اختلف أهل العلم في الشهداء المذكورين في هذه الآية مَن هم؟. فقيل: شهداء أُحُد. وقيل: في شهداء بدر. وقيل: في شهداء بئر معونة... على فرض أنها نزلت في سبب خاص فالاعتبار بعموم اللَّفظ لا بخصوص السبب.. ومعنى الآية عند الجمهور: أنهم أحياء حياة محققة. ثم اختلفوا: فمنهم مَن قال: إنها تُرد إليهم أرواحهم في قبورهم فيتنعمون. وقال مجاهد: يُرزقون من ثمر الجنة، أي يجدون ريحها وليسوا فيها. وذهب مَن عدا الجمهور إلى أنها حياة مجازية، والمعنى: أنهم في حكم الله مستحقون للنعم في الجنة، والصحيح الأول، ولا موجب للمصير إلى المجاز، وقد وردت السُّنَّة المطهَّرة بأن أرواحهم في أجواف طيور خضر، وأنهم في الجنة يُرزقون ويأكلون ويتمتعوْن ".

(التوسل):

ولكنه مع هذه الموافقة للجمهور، نراه يقف من مسألة التوسل بالأنبياء والأولياء موقف المعارضة، ويفيض في الإنكار على مَن يفعل ذلك في سورة يونس عند تفسيره لقوله تعالى:{ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ} [يونس: ٤٩]... يقول ما نصه: "... وفي هذا أعظم واعظ، وأبلغ زاجر لمن صار دينه وهجيراه المناداة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والاستغاثة به عند نزول النوازل التي لا يقدر على دفعها إلا الله سبحانه، وكذلك مَن صار يطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم ما لا يقدر على تحصيله إلا الله سبحانه، فإن هذا مقام رب العالمين، الذي خلق الأنبياء والصالحين وجميع المخلوقين، ورزقهم وأحياهم ويميتهم، فكيف يُطلب من نبي من الأنبياء، أو مَلَك من الملائكة، أو صالح من الصالحين، ما هو عاجز عنه غير قادر عليه

ويترك الطلب لرب الأرباب، القادر على كل شيء، الخالق الرازق، المعطى المانع، وحسبك بما في هذه الآية موعظة، فإن هذا سيد ولد آدم، وخاتم الرسل يأمره الله بأن يقول لعباده:{لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا} [يونس: ٤٩]، فكيف يملكه لغيره؟ وكيف يملكه غيره ممن رتبته دون رتبته، ومنزلته لا تبلغ إلى منزلته لنفسه فضلاً عن أن يملكه لغيره؟ فيا عجبا لقوم يعكفون على قبور الأموات الذين صاروا تحت أطباق الثرى، ويطلبون منهم من الحوائج ما لا يقدر عليه إلا الله عَزَّ وجَلَّ. كيف لا يتيقظون لما وقعوا فيه من الشرك، ولا يتنبهون لما حلَّ بهم من المخالفة لمعنى " لا إله إلا الله " ومدلول:{قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١} [الإخلاص: ١].

" وأعجب من هذا، اطلاع أهل العم على ما يقع من هؤلاء ولا ينكرون عليهم ولا يحولون بينهم وبين الرجوع إلى الجاهلية الأولى، بل إلى ما هو أشد منها، فإن أولئك يعترفون بأن الله سبحانه هو الخالق الرازق، المحيي المميت، الضار النافع، وإنما يجعلون أصنامهم شفعاء لهم عند الله، ومقرِّبين لهم إليه، وهؤلاء يجعلون لهم قدرة على الضر والنفع، وينادونهم تارة على الاستقلال، وتارة مع ذي الجلال، وكفاك من شر سماعه، والله ناصر دينه، ومُطهِّر شريعته من أوضار الشرك، وأدناس الكفر. ولقد توسل الشيطان - أخزاه الله - بهذه الذريعة إلى ما تقر به عينه، وينثلج به صدره، من كفر كثير من هذه الأمة المباركة، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً!! إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ".

(موقفه من المتشابه):

ثم إن المؤلف - كما قلنا في ترجمته - سَلَفي العقيدة، فكل ما ورد في القرآن من ألفاظ توهم التشبيه حملها على ظاهرها، وفوَّض الكيف إلى الله، ولهذا نراه مثلاً عند تفسيره لقوله تعالى:{وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ} [البقرة: ٢٥]. يقول: " الكرسى: الظاهر أنه الجسم الذي وردت الآثار بصفته كما سيأتى بيان ذلك. وقد نفى وجوده جماعة من المعتزلة، وأخطؤوا في ذلك خطئاً بيِّناً، وغلطوا غلطاً فاحشاً، وقال بعض السَلَف: إن الكرسى هنا عبارة عن العلم، ومنه قول الشاعر:

تحف بهم بيض الوجوه وعصبة ::: كراسى بالأخبار حين تنوب

ورجَّح هذا القول ابن جرير. وقيل: كرسيه: قدرته التي يمسك بها السموات والأرض، كما يقال: اجعل لهذا الحائط كرسياً... أى ما يعمده. وقيل: إن الكرسى هو العرش، وقيل: هو تصوير لعظمته ولا حقيقة له. وقيل: هو عبارة عن الملك. والحق القول الأول. ولا وجه للعدول عن المعنى الحقيقى إلى مجرد خيالات وضلالات ".

وعند تفسيره لقوله تعالى:{إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ } [الأعراف: ٥٤]... الآية، يقول ما نصه: " قد اختلف العلماء في معنى هذا على أربعة عشر قولاً، وأحقها وأولاها بالصواب مذهب السَلَف الصالح: أنه استوى سبحانه عليه بلا كيف، بل على الوجه الذي يليق به مع تنزهه عما لا يجوز عليه ".

(موقفه من آراء المعتزلة):

وبالرغم من أن الزيدية تأثروا كثيراً بتعاليم المعتزلة، وأخذوا عنهم آراءهم وعقائدهم في غالب مسائل الكلام، فإنَّا نجد صاحبنا لا يميل إلى القول بمبادئهم بل ونجده يرد عليهم، ويعارضهم معارضة شديدة في كثير من المواقف.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى:{وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً} [البقرة: ٥٥]... الآية، يقول ما نصه: "... وإنما عوقبوا بأخذ الصاعقة لهم، لأنهم طلبوا ما لم يأذن الله به من رؤية الدنيا، وقد ذهبت المعتزلة ومَن تابعهم إلى إنكار الرؤية في الدنيا والآخرة.

وذهب مَن عداهم إلى جوازها في الدنيا، ووقوعها في الآخرة. وقد تواترت الأحاديث الصحيحة بأن العباد يرون ربهم في الآخرة، وهى قطعية الدلالة، لا ينبغى لمنصف أن يتمسك في مقابلها بتلك القواعد الكلامية التي جاء بها قدماء المعتزلة، وزعموا أن العقل قد حكم بها، دعوى مبنية على شفا جرف هار، وقواعد لا يغتر بها إلا مَن لم يحظ من العلم بنصيب نافع ".
كذلك نراه يرد على الزمخشري في دعواه: أن دخول الجنة مستحَق بسبب العمل الصالح، فيقول عند تفسيره لقوله تعالى:{وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ} [الأعراف: ٤٣]... قال الكشاف: " بسبب أعمالكم لا بالتفضل كما تقول المبطلة ". أقول: يا مسكين... هذا قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه:{سددوا وقاربوا واعملوا، إنه لن يدخل أحد الجنة بعمله}، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال:{ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته} والتصريح بسبب لا يستلزم نفى سبب آخر، ولولا التفضل من الله سبحانه وتعالى على العامل بإقداره على العمل لم يكن عمل أصلاً، فلو لم يكن التفضل إلا بهذا الإقدار لكان القائلون به محقة لا مبطلة. وفي التنزيل:{ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِ} [النساء: ٧٠]، وفيه:{فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ} [النساء: ١٧٥].
كذلك نراه ينكر على المعتزلة القائلين: بأن العين لا تأثير لها في المعين، وذلك حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى:{ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ} [يوسف: ٦٧]... الآية: " وقد أنكر بعض المعتزلة كأبى هاشم والبلخى، أن للعين تأثيراً، وليس هذا بمستنكر من هذين وأتباعهما، فقد صار دفع أدلة الكتاب والسُّنَّة بمجرد الاستبعادات العقلية دأبهم وديدنهم، وأى مانع من إصابة العين بتقدير الله سبحانه لذلك، وقد وردت الأحاديث الصحيحة بأن العين حق، وأُصيب بها جماعة في عصر النبوة. ومنهم رسول الله صلى

الله عليه وسلم. وأعجب من إنكار هؤلاء لما وردت به نصوص هذه الشريعة ما يقع من بعضهم من الازدراء على مَن يعمل بالدليل المخالف، فإنه في كثير من المواطن لا يقف عند دفع دليل الشرع بالاستبعاد، حتى يضم إلى ذلك الوقاحة في العبارة، على وجه يوقع المقصرين في الأقوال الباطلة، والمذاهب الزائفة. وبالجملة، فقول هؤلاء مدفوع بالأدلة المتكاثرة. وإجماع مَن يُعتد به من هذه الأمة سَلَفاً وخَلَفاً، وبما هو مُشاهَد في الوجود، فكم من شخص من هذا النوع الإنسانى، وغيره من أنواع الحيوان هنالك بهذا السبب ".

ويقف الشوكانى من المعتزلة موقف المعارضة في مسألة غفران الذنوب. فعندما تعرَّض لتفسير قوله تعالى:{قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا} [الزمر: ٥٣]... الآية، نجده يقول: "... وأما ما يزعمه جماعة من المفسِّرين من تفسير هذه الآية بالتوبة، وأنها لا تغفر إلا ذنوب التائبين. وزعموا أنهم قالوا ذلك للجمع بين الآيات، فهو جمع بين الضب والنون، وبين الملاح والحادى، وعلى نفسها براقش تجنى، ولو كانت هذه البشارة العظيمة مقيدة بالتوبة لم يكن لها كثير موقع، فإن التوبة من المشرك يغفر الله له بها ما فعله من الشرك بإجماع المسلمين، وقد قال:{إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ} [النساء: ٤٨]... فلو كانت التوبة قيداً في المغفرة لم يكن للتنصيص على الشرك فائدة، وقد قال سبحانه: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ} [الرعد: ٦]... قال الواحدى: المفسِّرون كلهم قالوا: إنّ هذه الآية في قوم خافوا إن أسلموا أن لا يُغفر لهم ما جنوا من الذنوب العظام، كالشرك، وقتل النفس، ومعاداة النبي صلى الله عليه وسلم. قلت: هب أنها في هؤلاء فكان ماذا؟ فإن الاعتبار بما اشتملت عليه من العموم لا بخصوص السبب، كما هو متفق عليه بين أهل العلم. ولو كانت الآيات القرآنية، والأحاديث

النبوية مقيدة بأسبابها غير متجاوزة لها، لارتفعت أكثر التكاليف عن الأمة إن لم ترتفع كلها، واللازم باطل بالإجماع، فالملزوم مثله ".

موقف الشوكاني من مسألة خلق القرآن :

هذا.. ولم يرض الشوكانى موقف أهل السُّنَّة، ولا موقف المعتزلة من مسألة خلق القرآن، وإنما رضى أن يكون من العلماء الوقوف في هذه المسألة، فلم يجزم فيها برأى، وراح ينحى باللائمة على مَن يقطع بأن القرآن قديم أو مخلوق، فعندما تعرَّض لتفسير قوله تعالى:{مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢)} [الأنبياء: ٢]، يقول ما نصه: "... وقد استدل بوصف الذكر بكونه مُحْدثاً على أن القرآن محدَث، لأن الذكر هنا هو القرآن، وأجيب بأنه لا نزاع في حدوث المركب من الأصوات والحروف، لأنه متجدد في النزول، فالمعنى: محدث تنزيله " وإنما النزاع في الكلام النفسى. وهذه المسألة - أعنى قدم القرآن وحدوثه - قد ابتلى بها كثير من أهل العلم... ولقد أصاب أئمة السُّنَّة بامتناعهم من الإجابة إلى القول بخلق القرآن وحدوثه، وحفظ الله بهم أُمة نبيه عن الابتداع، ولكنهم - رحمهم الله - جاوزوا ذلك إلى القول بِقِدَمه، ولم يقتصروا على ذلك حتى كفَّروا من قال بالحدوث، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من قال: لفظى بالقرآن مخلوق، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير مَن وقف، وليتهم لم يجاوزوا حد الوقف، وإرجاع العلم إلى علام الغيوب، فإنه لم يُسمع من السَلَف الصالح من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم إلى وقت قيام المحنة وظهور القول في هذه المسألة شيء من الكلام، ولا تُنقل عنهم كلمة في ذلك، فكان الامتناع من الإجابة إلى ما دعوا إليه، والتمسك بأذيال الوقف، وإرجاع علم ذلك إلى عالمه. هو الطريقة المثلى، وفيه السلامة والخلوص من تكفير طوائف من عباد الله، والأمر لله سبحانه ".

هذا هو أهم ما في تفسير الشوكانى من البحوث التي أعطى فيها لنفسه حرية واسعة. خوَّلت له أن يسخر من عقول العامة، وأن يهزأ من تعاليم المعتزلة، وأن يُندِّد ببعض مواقف أهل السُّنَّة. وأحسب أن الرجل قد دخله شيء من الغرور العلمى، فراح يوجه لومه لهؤلاء وهؤلاء، وليته وقف منهم جميعاً موقف الحاكم النزيه، والناقد العف... وعلى الجملة، فالكتاب له قيمته ومكانته، وإن كان لا يعطينا الصورة الواضحة للتفسير عند الإمامية الزيدية، ونرجو أن نوفق إلى العثور على بعض ما لهم في التفسير، وأحسب أنه كثير. والكتاب مطبوع في خمس مجلدات، ومتداوَل بين أهل العلم [١].

* * *

(١) الدكتور محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، ٤ / ٢٧٠ - ٢٧٤.

الإمام النيسابوري

أعــلام التفسيــر

الإمام النيسابوري
صاحب تفسير: إيجاز البيان عن معاني القرآن

من المرجح أن يكون النيسابوري من علماء القرن السادس الهجري، وأن وفاته كانت بعد سنة ٥٥٣ هـ.

فرغ النيسابوري من تأليف كتابه: " إيجاز البيان عن معاني القرآن " سنة ٥٥٣ هـ.

وفي القرن السادس الهجري كانت الدولة العباسية تمر بمرحلة من أضعف مراحلها وتنتظر أفولها وانهيارها، حتى إنه لم يبق من الخلافة إلا اسمها.

وتشتت الدولة العباسية الكبيرة إلى دويلات متناثرة هنا وهنالك، فالفاطمية (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ)، والأيوبية (٥٦٧ - ٦٤٨ هـ) في مصر، ودولة خوارزم (٤٧٠ - ٦٢٨ هـ)، والمرابطية في المغرب العربي (٤٤٨ - ٥٤١ هـ).

ومن أهم الأحداث التي وقعت في هذا العصر سقوط نيسابور في يد غير المسلمين، وكذلك " مرو " و" سرخس ". وقتل في نيسابور عدد كبير من الأهالي بينهم طائفة من العلماء الذين عرفوا بزهدهم وورعهم.

كما شهد أواخر القرن الخامس الهجري ومطلع القرن السادس صراعات بين أفراد الأسرة السلجوقية التي كانت تحكم البلاد فعليا في ظل الخلافة العباسية الشكلية، وقد كانت تلك الصراعات دموية ومؤسفة في كثير من الأحيان، وأدت في نهاية الأمر إلى ضعف الدولة السلجوقية السنية، وكان هذا الضعف سببا مباشرا للهجمات الصليبية على البلاد الإسلامية، وانقسمت الدولة السلجوقية العظيمة إلى دويلات الأتابكة التي حكمت البلاد بعد ذلك.

والأتابك - في الأصل - كانوا قوادا وأمراء للسلاطين السلاجقة، تولوا بعض الأقاليم التابعة للدولة السلجوقية، ثم انفردوا بحكم تلك الأقاليم عقب الضعف الذي دب في بلاط السلطنة.

وقد شهد هذا القرن أعظم انتصار حققه المسلمون على الصليبيين، وذلك بدخول صلاح الدين الأيوبي - رحمه الله تعالى - بيت المقدس عام ٥٨٣ هـ بعد احتلال دام أكثر من ثمانين عاما.

وتعاقب على الخلافة العباسية - الصورية - في القرن السادس الهجري والسابع الهجري سبعة خلفاءهم:

١ - المستظهر بالله بن المقتدي (٤٨٧ - ٥١٢ هـ).

٢ - المسترشد بالله بن المستظهر (٥١٢ - ٥٢٩ هـ).

٣ - المنصور الراشد بالله بن المسترشد (٥٢٩ - ٥٣٠ هـ).

٤ - المقتفي لأمر الله بن المستظهر (٥٣٠ - ٥٥٥ هـ).

٥ - المستنجد بالله بن المقتفي (٥٥٥ - ٥٦٦ هـ).

٦ - المستضيء بأمر الله بن المستنجد (٥٦٦ - ٥٧٥ هـ).

٧ - الناصر الدين الله بن المستضيء (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ).

أما المجتمع الإسلامي في ذلك العصر فقد كان يتكون من عدة أجناس ففي المشرق كان أبرز تلك الأجناس الجنس العربي، والتركي، والفارسي.

وفي المغرب الإسلامي والأندلس كان العرب والبربر والمولدون وكانت الدولة تضم - بجانب المسلمين - أقليات دينية كاليهود والنصارى، حيث كانت الحرية مكفولة لهم في ممارسة شعائرهم الدينية، وتقلد بعضهم مناصب عليا في الدولة.

كما ظهرت بعض الفرق الباطنية كانوا محسوبين على المسلمين، فكانت الفاطمية في مصر لها حكم ونفوذ واستمرت دولتهم أكثر من

مائتي عام.

كما كان هناك الدروز والإسماعيلية في بلاد الشام وفارس.

ولا شك أن الوضع السياسي المضطرب في ذلك العصر قد أثر سلبا على حياة الناس من حيث الاستقرار والأمان، والمحافظة على قواعد الشريعة والأخلاق.

وتأثر المجتمع العباسي خصوصا، والمجتمعات الإسلامية على وجه العموم بالخلافات السياسية، وبضعف السلطة الحاكمة، حيث إن الحكام مشغولون بالصراع على الحكم، وبتسيير الجيوش لقتال بعضهم بعضا، منصرفين عن الاهتمام برعاية مصالح العباد وتدبير شؤونهم الدينية والدنيوية.

ونتيجة لذلك انتشر الفقر، وظهر الفساد الخلقي في معظم طبقات المجتمع بما في ذلك الطبقة الحاكمة التي كانت تدير البلاد، فأدمن بعضهم الخمر، واقترف الظلم وظهر الغش في المعاملات والبيوع وانتشر الربا، وضعفت القيم الروحية والأخلاق الفاضلة في نفوس الناس، وتهاون كثير منهم في أداء العبادات، وعظم الجهل في معرفة أحكامها وشروطها.

وانعدم الأمن، وكثرت الجرائم والسرقات.

كما أدى ظهور الاتجاهات الفكرية والفرق الكلامية المختلفة إلى وقوع كثير من الفتن والمحن، وذلك بسبب اشتداد الخلاف بين تلك الاتجاهات المتباينة [١].

أما النشاط العلمي والثقافي فقد تأثر بالوضع المتدهور الذي كان سائدا في ذلك العصر، لكنه ظل يقاوم المؤثرات التي كانت تحد من

---

(١) انظر مقدمة كتاب تفسير إيجازالبيان عن معاني القرآن للثعالبي من تحقيق الدكتور / حنيف ابن حسن القاسمي، ١ /١٣.

استمراره وقد ظهر خلال القرن السادس الهجري عدد كبير من الأئمة الأعلام، ونخبة متميزة من العلماء في مختلف فنون المعرفة.

منهم - على سبيل المثال - الحافظ أبي طاهر السلفي المتوفى سنة ٥٧٦ هـ، والحافظ ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هـ، والزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ ه، وابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ.

وقد خلف هؤلاء ثروة عظيمة ضخمة، نهل من مواردها من جاء بعدهم وأفادت الأجيال اللاحقة فائدة عظيمة.

وقد شهد ذلك العصر - أيضا - ظاهرة حميدة وهي اهتمام الخلفاء والسلاطين والوزراء ببناء المدارس والأربطة، وتخصيص الأوقاف لعلماء وطلاب تلك المدارس.

ومن أشهر المدارس التي كانت قائمة في ذلك الوقت وكانت مصدر نور وإشعاع - المدارس النظامية، التي أسسها الوزير السلجوقي نظام الملك الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي المتوفى سنة ٤٨٥ هـ، وقد اكتمل بناء كبرى هذه المدارس ببغداد وبدأ التدريس بها عام ٤٥٩ هـ.

كما كانت حلقات العلم والمجالس العلمية تعقد في المساجد المختلفة، ويتصدر للتدريس في تلك الحلقات أبرز العلماء في ذلك العصر.

وشهدت الدولة في تلك الفترة ظاهرة طيبة، وهي التنافس بين الأمراء والحكام والوزراء على بناء المدارس، والاهتمام بها، والحرص على جلب خيار العلماء إليها، وتشجيع طلاب العلم بها على التحصيل (١).

حياته:

(١) انظر مقدمة كتاب تفسير إيجازالبيان عن معاني القرآن للثعالبي من تحقيق الدكتور / حنيف ابن حسن القاسمي، ١ /١٤ - ١٥.

هو محمود بن أبي الحسن بن الحسين النيسابوري أبو القاسم، وبيان الحق. ويلقب - أيضا - ب " نجم الدين " [(١)].

عاش مدة من حياته في نيسابور، ولعله خرج منها بعد سقوطها عام ٥٣٦ هـ، ورحل إلى الخجند، ثم إلى دمشق حيث استقر به المقام هناك حتى وفاته.

أما أسرته فقد ذكر النيسابوري اثنين من أبنائه في مقدمة كتابه جمل الغرائب، وهما قاسم ومحمد.

وقد خلف محمد أباه في التدريس بالمدرسة المعينية بدمشق.

أما مكانته العلمية فقد وصفه ياقوت بقوله: " كان عالما بارعا مفسرا لغويا فقيها متفنًا... ".

وأورد ياقوت بيتين من شعره هما:

فلا تحقرنّ خلقا من النّاس علّه وليّ إله العالمين ولا تدري

فذو القدر عند الله يخفى على الورى كما خفيت من علمهم ليلة القدر.

أما المناصب التي تولاها النيسابوري فيبدو أنه كان قد تولى القضاء.

آثاره العلمية:

كان الإمام بيان الحق النيسابوري من المكثرين في التصنيف في مختلف العلوم الإسلامية، فله في التفسير - مثلا - أكثر من مصنّف، أفاد ذلك المؤلف - رحمه الله - في مقدمة كتابه جمل الغرائب حيث قال:

---

(١) انظر مصادر ترجمته: - معجم الأدباء: (١٩/ ١٢٤، ١٢٥)، بغية الوعاة، ٢/ ٢٧٧، طبقات المفسرين للداودي، ٢/ ٣١١، كشف الظنون، (٢٠٥، ٦٠١)، هدية العارفين، ٢/ ٤٠٣، الأعلام، ٧/ ١٦٧، معجم المؤلفين، ١٢/ ١٨٢، ومعجم المفسرين لعادل نويهض، ٢/ ٦٦٦، مقدمة كتاب تفسير إيجازالبيان عن معاني القرآن للثعالبي من تحقيق الدكتور / حنيف بن حسن القاسمى، ١ /١٤ - ١٥.

" و مؤلف هذا الكتاب محمود بن أبي الحسن... قد وفقه الله تبارك وتعالى - منه - في تفسير كتابه لغير واحد حتى استوى من مطولاته التي صنفها على كتاب إيجاز البيان في معاني القرآن... " ا هـ.

أما مصنفاته التي صرح بها المؤلف، أو نسبت إليه فهي:

١ - إيجاز البيان عن معاني القرآن.

٢ - وضح البرهان في مشكلات القرآن.

وهذا الكتاب حافل بالشواهد الشعرية، والأمثال، كما يعنى فيه المؤلف بذكر الأحاديث والآثار... وغير ذلك من الفوائد التي أوردها المؤلف - رحمه الله - في حل الآيات المشكلة، وأورد فيه - أيضا - ردودا على الآراء الفاسدة لبعض الفرق، كما صنع مع المعتزلة.

٣ - جمل الغرائب، وهو كتاب في غريب الحديث ومشكله.

٤ - كتاب خلق الإنسان، أي في أسمائه وأعضائه وصفاته.

٦ - الأسئلة الرائعة والأجوبة الصادعة: ذكره المؤلف في مقدمة إيجاز البيان، وهو كتاب في التفسير.

٧ - غرر الأقاويل في معاني التنزيل، أشار إليه المؤلف - رحمه الله - في مقدمة إيجاز البيان، فقال: ومن أراد التبحر والتكثر فعليه بكتابنا غرر الأقاويل في معاني التنزيل.

٨ - شوارد الشواهد وقلائد القصائد. ذكره المؤلف في مقدمة إيجاز البيان، وقال: " و من أراد ريحانة العلوم، وباكورة التفاسير وأمهات الآداب، ومقلدات الأشعار، فلينشر من كتابنا " شوارد الشواهد وقلائد القصائد " حلل الوشي وأنماطه، وليبسط منه زرابي الربيع ورياطه...". وهذا الكتاب يشتمل على أشعار مختارة.

٩ - باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن، ذكره المؤلف في مقدمة إيجاز البيان بهذا العنوان.

١٠ - قطع الرياض في بدع الاعتراض، صرح به المؤلف في كتابه وضح البرهان، عند تفسير قوله تعالى:{فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ} [البقرة: ٢٤].

١١ - شرح الأبيات الواردة في كتاب وضح البرهان، أشار إليه المؤلف في وضح البرهان عند تفسير قوله تعالى:{وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ} [البقرة: ١٣٠].

١٢ - ملتقى الطرق إلى مجامع نكاتها ومنابع كلماتها، وهو كتاب في مختلف الفقه، ذكره المؤلف - رحمه الله - في مقدمة جمل الغرائب.

١٣ - له - أيضا - كتاب في أصول الفقه، ذكره في جمل الغرائب وأحال إليه، فقال: وقد أوردت في أصول الفقه - تصنيفي - جملة أنواع المجاز إلى الاتساع، والتوكيد، والتمثيل... فمن أراد تحقق هذه التأويلات فعليه بذلك الكتاب.

١٤ - كتاب الغلالة في مسألة اليمين على شرب ماء الكوز ولا ماء في الكوز. ذكره المؤلف - رحمه الله - في وضح البرهان عند تفسير قوله تعالى:{فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا} [البقرة: ٦٠].

وفاته:

من المؤكد أن وفاته كانت بعد عام ٥٥٣ هـ بفترة ليست بالقصيرة، لأنه كان في تلك السنة بالخجند - وهي بلدة بما وراء النهر - ثم رحل إلى دمشق وأقام بها حتى وفاته رحمه الله [(١)].

التعريف بكتاب إيجاز البيان :

ذكر المؤلف - رحمه الله - في مقدمة الكتاب الأمور التي دفعته إلى تأليف الكتاب فقال: إن تفاسير الأولين مقصورة على قول واحد أو

---

(١) انظر مقدمة كتاب تفسير إيجازالبيان عن معاني القرآن للثعالبي من تحقيق الدكتور / حنيف ابن حسن القاسمي، ١ /١٧ - ٢٢.

مقصودة بالتكثير والتكرير عند المتأخرين، والأولى لعجمة الطباع واللسان لا تشفي القلب، والثانية لا تطاوع الحفظ لإطالة القول.

كما ذكر أن كتابه على رغم صغر حجمه قد اشتمل على أكثر من عشرة آلاف فائدة، من تفسير، وتأويل ودليل، ونظائر، وإعراب، وأسباب النزول، وأحكام فقه، ونوادر لغات، وغرائب أحاديث. ثم قال: فمن أراد الحفظ والتحصيل، وكان راجعا إلى أدب وتمييز فلا مزيد له على هذا الكتاب.

كما أن تأليفه لإيجاز البيان جاء بعد أن صنّف أكثر من كتاب مطول في معاني القرآن وتفسيره.

منهج النيسابوري في تفسيره:

استهل المؤلف - رحمه الله تعالى - الكتاب بمقدمة موجزة، بين فيها الباعث على تأليفه هذا الكتاب، وذكر جملة من مصنفاته في معاني القرآن ومشكلاته، وذكر - أيضا - أهم ما ضمنه كتابه هذا، وأشار إلى أنه توخى الاختصار والإيجاز ليسهل على طالب العلم حفظ ما فيه من فوائد.

بعد ذلك شرع في تفسير سورة الفاتحة، ثم سورة البقرة حتى نهاية القرآن.

وأهم ملامح منهجه يتلخص فيما يأتي:

أولا: اعتماده على القرآن في التفسير، وهو يفعل ذلك إما لبيان لفظة مبهمة ورد تفسيرها في موضوع آخر، مثال ذلك:

ما ذكره عند تفسير قوله تعالى:{هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ} [يونس: ٣٠]. قال: ينكشف لها ما أسلفت فتختبر جزاءها، كقوله تعالى: {يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾} [الطارق: ٩].

وأحيانا يستشهد في إعراب الآية بذكر آية مماثلة تعينه على التفسير

بالوجه الذي يريده، كما صنع في قوله تعالى:{ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ } [النساء: ٢٦]، فقال: اللام في تقدير المصدر، أي: إرادة الله التبيين لكم كقوله تعالى:{لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ } [الأعراف: ١٥٤]، أي: الذين هم رهبهم لربهم.

وقد يستعين في بيان وتفسير الألفاظ القرآنية الغريبة بالمقارنة بنظائرها التي وردت في مواضع أخرى كما صنع في قوله تعالى:{ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ } [البقرة: ٥٥] حيث قال: والصاعقة هنا الموت، كما في قوله:{فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ} [الزمر: ٦٨]. ثم إنه قد يستعين بالآيات المماثلة والنظيرة لدفع وهم ظاهر التعارض فيجمع بين تلك الآيات رادا شبهة التعارض.

يقول النيسابوري في سورة الحجر: والتوفيق بين قوله:{لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } [الحجر: ٩٢]، وقوله:{لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ } [الرحمن: ٣٩]، أنه لا يسأل: هل أذنبتم؟ للعلم به، ولكن: لم أذنبتم؟ أو المواقف مختلفة يسأل في بعضها أو في بعض اليوم.

وقوله:{هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾} [المرسلات: ٣٥]، مع قوله:{عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} [الزمر: ٣١]، فالمراد هو النطق المسموع المقبول.

ثانيا: اعتماده على الحديث والأثر في تفسير القرآن، ويلاحظ كثرة ورود الأحاديث المرفوعة والموقوفة والمقطوعة، وأغلب الأحاديث التي يوردها من غريب الحديث، حيث يربط بين اللفظة القرآنية الغريبة ويفسرها بما ورد في الحديث لبيان وتفسير تلك اللفظة.

من ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى:{ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ} [البقرة: ٢]، قال: الكتاب والفرض والحكم والقدر بمعنى واحد، واستشهد بحديث: " لأقضين بكتاب الله " أي بحكمه. وفي قوله تعالى: {وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ} [البقرة: ٣]، قال: الصلاة: الدعاء، وفي

الحديث:{إذا دعي أحدكم إلى طعام فليجب، وإن كان صائما فليصل} أي فليدع لصاحبه.

كما أنه يستعين بما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تفسير بعض الآيات، مثال ذلك: ما أورده عند تفسير قوله تعالى:{وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} [البقرة: ٤٨]، حيث قال: والعدل: الفدية، عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد تكرر استشهاده بالحديث المرفوع - في المواضع التي صرح بذلك - خلال هذا الكتاب في سبعة وثمانين موضعا.

كما يعتمد النيسابوري - رحمه الله - على أقوال الصحابة والتابعين بذكر أقوالهم في التفسير، وأسباب النزول، ومعرفة الناسخ والمنسوخ، وأوجه القراءات المأثورة عنهم.

وأبرز الصحابة الذين نقل عنهم في تفسيره: ابن عباس، وابن مسعود، وعلي بن أبي طالب، وابن عمر رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وقد بلغت الآثار الموقوفة ثلاثة وتسعين.

ومن التابعين: الحسن البصري، ومجاهد، وقتادة، وسعيد بن جبير... وغيرهم.

وبلغت هذه الآثار عن التابعين تسعة وخمسين أثرا.

ثالثا: عنايته بذكر أوجه القراءات القرآنية، فاهتمام المؤلف بهذا الجانب ظاهر في كتابه، فهو يعنى بذكر القراءات المختلفة وتوجيهها وتبيين الاختلاف في المعاني باختلاف القراءة.

وغالب القراءات التي يوردها سبعية، وأحيانا يورد القراءات العشرية.

أما القراءات الشاذة فلم ترد في هذا الكتاب إلا نادرا، وفي الغالب لا

يعزو المؤلف القراءة إلى أصحابها، وأحيانا يفعل ذلك.

كما أنه ينقل عن أئمة القراءات واللغة في توثيق النصوص التي يوردها في توجيه القراءة مثل أبي عمرو بن العلاء، وسيبويه، والزجاج، وأبي علي الفارسي... وغيرهم.

رابعا: اهتمامه بذكر أسباب النزول، وهو في ذلك - غالبا - يعتمد على الصحيح الوارد في هذا الشأن.

مثال ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى:{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗا } [النساء: ١٩]، حيث قال: يحبسها وهو كارهها ليرثها، أو على عادة الجاهلية في وارثة الميت امرأته، يمسكها بالمهر الأول أو يزوجها ويأخذ مهرها. نزلت في كبشة بنت معن الأنصارية ومحصن بن قيس الأنصاري.

خامسا: عنايته بذكر المسائل الفقهية، فقد تعرض المؤلف - رحمه الله - في كتابه لآيات الأحكام ذاكرا أقوال الفقهاء في ذلك.

وغالبا ما يورد قولي الحنفية والشافعية في تلك المسائل، مرجحا مذهب الحنفية بالدليل، مع ذكر حجج المخالف والرد عليها.

فعند ذكر قوله تعالى:{ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ } [البقرة: ١٧٣]، ضعّف قول من قال: غير باغ على الإمام ولا عاد في سفر، لأن سفر الطاعة لا يبيح ولا ضرورة، والحبس في الحضر يبيح ولا سفر، ولأن الميتة للمضطر كالتذكية للواجد، ولأن على الباغي حفظ النفس عن الهلاك.

وعند تفسير قوله تعالى:{ وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ } [البقرة: ١٩٦]، أورد معنى الإحصار ومذاهب العلماء فيه.

وعند تفسير قوله تعالى:{ لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ } [البقرة: ٢٢٦]، ذكر حكم

الإيلاء ومدته وكفارته.

وقد أفاد النيسابوري كثيرا من كتاب أحكام القرآن لأبي بكر الجصاص لكنه لم يصرح بالنقل عنه في هذا الكتاب، وصرح بذلك عند تعرضه لآيات الأحكام في كتابه وضح البرهان.

سادسا: اهتمامه بالجانب اللغوي والنحوي في تفسير القرآن، فقد عني عناية كبيرة بشرح الألفاظ الغريبة، وبيان اشتقاقها، مستعينا في ذلك بنظائرها في القرآن الكريم، وبالحديث والأثر، وبلغة العرب.

ففي قوله تعالى: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ذكر معنى " الاسم "، وأصل وضعه، واشتقاقه، وأورد الأقوال في ذلك.

وفي قوله تعالى:{فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ} [البقرة: ٣٤]، ذكر معنى " إبليس "، وأصلها واشتقاقها.

كما أنه يهتم بذكر اللغات الواردة في الألفاظ القرآنية، وبيان معانيها، فعند تفسير قوله تعالى:{وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ} [البقرة: ١٣٠]. نقل عن ابن الأعرابي: سفه يسفه سفاهة وسفاها: طاش وخرق، وسفه نفسه سفهها: جهلها، وعند قوله تعالى:{إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ} [الأنفال: ٤٢]، قال: والعدوة بضم العين وفتحها وكسرها شفير الوادي، فتميم لا تعرف العدوة وتقول: خذ أعداء الوادي.

أما إعراب القرآن فهو ظاهر في كتابه، وقد عول في ذلك كثيرا على أبي إسحاق الزجاج، وأفاد منه إفادة كبيرة، لكنه قليل التصريح بالنقل عنه.

كما ينقل عن أئمة النحو المتقدمين مثل الكسائي، وسيبويه، والفراء، وأبي عبيدة، والأخفش، وأبي علي الفارسي... وغيرهم.

وهو في إعرابه للآية يذكر أوجه الاختلاف فيها، كما فعل في إعراب

غَيْرِ في قوله تعالى:{غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ} [الفاتحة: ٧]، حيث ذكر ثلاثة أوجه فيها، وكذلك في هُدىً من قوله تعالى:{هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ} [البقرة: ٢]، ذكر وجهين فيها.

وأحيانا يرجح بين تلك الوجوه في إعراب الآية، ويورد الدليل على ذلك، كما صنع عند تفسير قوله تعالى:{وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ} [البقرة: ١٠].

قال: " ما " بمعنى المصدر، وليس بمعنى " الذي " لأن " الذي " يحتاج إلى عائد من الضمير، وإنما جاءهم المفسدون مع فساد غيرهم لشدة فسادهم، فكأنه لم يعتد بغيره.

وينتصر المؤلف - رحمه الله - في النحو للمذهب البصري، وذلك بترجيح أقوالهم، كما صنع في قوله تعالى:{فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ} [يوسف: ١٥]، حيث قال: محذوف الجواب، والكوفيون يجعلون " أجمعوا " جوابا، والواو مقحمة، وإقحامها لم يثبت، ولا له وجه في القياس.

وقد يذكر - أحيانا - بعض المصطلحات الكوفية، مثل: النصب على القطع، أي: على الحال. ولعله تأثر في ذلك بالفراء الذي جرى على هذه الاصطلاحات في كتابه معاني القرآن.

أما استشهاد المؤلف في هذا الكتاب بأشعار العرب وأمثالهم وأقوالهم فقليل جدا، لكنه توسع في ذلك في وضح البرهان حيث أكثر من ذكر الشواهد الشعرية حتى إنه أفرد تلك الشواهد بمصنف خاص شرح فيه تلك الأبيات.

سابعا: ذكر لطائف تتعلق بالنظم القرآني، وذلك من حيث أسلوبه وبلاغته، فأورد من ذلك على سبيل المثال، سبب تقديم العبادة على الاستعانة في قوله تعالى:{إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥} [الفاتحة: ٥]، فقال:{وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ}، على نظم آي السورة، وإن كان " نعبدك " أوجز، ولهذا قدم " الرحمن " والأبلغ لا يقدم. وقدمت العبادة على

الاستعانة لهذا، مع ما في تقديم ضمير المعبود من حسن الأدب.

وعند تفسير قوله تعالى:{وَمَاهُم بِمُؤۡمِنِينَ} [البقرة: ٨]، قال: دخلت الباء في خبر " ما " مؤكدة للنفي، لأنه يستدل بها السامع على الجحد إذا غفل عن أول الكلام.

وعند قوله تعالى:{وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ} [البقرة: ١٤]، قال: أبلغ من " خلوا بهم "، لأن فيه دلالة الابتداء والانتهاء، لأن أول لقائهم للمؤمنين، أي: إذا خلوا من المؤمنين إلى الشياطين.

وذكر فائدة " عشرة كاملة " في قوله تعالى:{ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ} [البقرة: ١٩٦] فقال: المراد رفع الإبهام، فقد يتوهم في الواو أنها بمعنى " أو " (١).

* * *

(١) انظر مقدمة كتاب تفسير إيجازالبيان عن معاني القرآن للثعالبي من تحقيق الدكتور / حنيف ابن حسن القاسمي، ١ /٢٣ - ٣٠ باختصار.

ابن المنذر

أعــلام التفسيــر

ابن المنذر المفسر
صاحب كتاب: " تفسير القرآن "

هو الإمامُ الحافظُ العلاّمةُ، شيخُ الإسلام، أبوبكر محمّد بن إبراهيم ابن المنذر بن الجارود النّيسابوريُّ الفقيه نزيل مكة [١].

لم يتفق المؤرخون على تحديد تاريخ ولادة ابن المنذر بالتّحديد إلاّ ما قاله الحافظُ الذّهبيُّ من أنّه: وُلد في حدود موت أحمد بن حنبل والإمام أحمد - كما هو معروف - توفي سنة ٢٤١هـ فمولد الإمام ابن المنذر قريب من هذا التاريخ، ولذلك أشار الزركْلِيُّ أنه ولد سنة ٢٤٢هـ على سبيل الاحتياط [٢].

شيوخُه:

روى عن الإمام: البخاريِّ، والترمذيِّ، وإسحاق الدَّبَريِّ، وأبي حاتم الرّازيِّ، والرّبيع بن سليمان، ومحمّد بن عبد الله بن عبد الحكم، ومحمّد بن إسماعيل الصّائغ، وعليّ بن عبد العزيز البغويِّ.

وممن يكثر من الرواية عنهم في تفسيره للقرآن الكريم: زكريا بن داود، وموسى بن هارون، وعلي بن المبارك، وعلي بن عبد العزيز، وعلاَّن علي بن عبد الرحمن بن المغيرة، ومحمد بن علي النجّار، وعلي ابن الحسن، ويحيى بن محمد بن يحيى، وعلي بن عبد الله.

---

(١) مصادر ترجمته:طبقات العبادي ٦٧، طبقات الشيرازي ١٠٨، تهذيب الأسماء واللّغات ١٩٦/٢ ١٩٧، وفيات الأعيان ٢٠٧/٤، تذكرة الحفاظ ٧٨٢/٣ ٧٨٣، ميزان الاعتدال ٤٥٠/٣، سير أعلام النبلاء ٤٩٠/١٤، الوافي بالوفيات ٣٣٦/١، مرآة الجنان ٢٦١/٢، طبقات الشافعية للسبكي ١٠٢/٣، العقد الثمين ٤٠٧/١، لسان الميزان ٢٧/٥، طبقات المفسرين للسيوطي ٢٨، طبقات الحفاظ ٣٢٨، طبقات المفسرين للداودي ٥٠/٢، شذرات الذهب ٢٨٠/٢، طبقات الأصوليين ١٦٨/١، الأعلام ٢٩٢/٥، معجم المؤلفين ٢٢٠/٨.

(٢) سير أعلام النبلاء٤٩٠/١٤، الأعلام ٢٩٤/٥، مقدمة تحقيق تفسير ابن المنذر من تحقيق سعد بن محمد السعد، ١ /١٧.

تلاميذُه:

من أشهرهم: ابن حبّان البستي، ومحمّد بن أحمد البلخيُّ، وأبو بكر الخلاّل الحنبليُّ، ومحمّد بن عبد الله بن يحيى اللَّيْثِيُّ، وأبو بكر ابن المقرئ وسعيد بن عثمان الأندلسيُّ، ومحمّد بن يحيى بن عَمّار الدِّمياطيُّ، وعبد البرِّ بن عبد العزيز بن مُخارق، والحسين والحسن ابنا عليّ بن شعبان.

رحلاته:

ولد الإمامُ ابن المنذر وعاش في نيسابور، ودُكِرَ في ترجمته أنّه نزل بمكّة واستقرّ بها، وذكر في كتابه " الأوسط " أنّه سَمِعَ بمصرَ من بكّار بن قتيبة، وهذا يدلُّ على أنّه رحل إليها.

وقال الحافظُ الذّهبيّ: و لم يذكره الحاكم في " تاريخه " نَسِيَهُ، ولا هو في " تاريخ بغداد "، ولا " تاريخ دمشق "، فإنّه ما دخلها.

ومن الغريب عدمُ ذكر من ترجم له دخوله بغداد أو غيرها من مدن العراق، وهي على طريق السّالك إلى مكّة المكرّمة. وربّما أنّ عدم إقامته في بغداد هي السّبب في عدم الإشارة إليه.

مكانتُه العلميّة وثناءُ العلماءِ عليه:

كان الإمام ابن المنذر إماماً في التّفسير، ومحدّثاً ثقةً، إلى جانب كونه فقيهاً مجتهداً بلغ درجة الاجتهاد الطلق، وهو وإن كان معدوداً من فقهاء الشّافعيّة إلاّ أنّه كان لا يتعصّب لقول أحدٍ، بل يدور مع الدّليل حيث كان.

وللعلماء كلام كثير في الثناء على هذا الإمام الجليل:

فقد قال تلميذه الإمام أبو بكر الخلاّل الحنبليّ: حدّثنا الأكابرُ بخراسان

منهم: محمّد بن المنذر [١].

وقال الإمام محيي الدِّين النّوويُّ: الإمام المشهور أحد أئمّة الإسلام... المجمع على إمامته وجلالته ووفور علمه، وجمعه بين التّمكّن في علمي الحديث والفقه، وله المصنّفات المهمّة النّافعة في الإجماع والخلاف وبيان مذاهب العلماء...، واعتماد علماء الطّوائف كلّها في نقل المذاهب ومعرفتها على كتبه، وله من التّحقيق في كتبه ما لا يقاربُه فيه أحدٌ، وهو في نهاية من التّمكُّن من معرفة الحديث، وله اختيارٌ فلا يتقيّد في الاختيار بمذهبٍ بعينه، بل يدورُ مع ظهور الدّليل[٢].

وقال ابن القطّان: كان ابنُ المنذر فقيهاً، محدّثاً، ثقةً [٣].

وقال السُّبكيُّ: أحدُ أعلام هذه الأمة وأحبارها، كان إماماً مجتهداً، حافظاً ورعاً [٤].

وقال الإمام قطب الدّين البهنسيّ: الإمام أبو بكر النّيسابوريّ أحد أئمّة الإسلام، المجمع على إمامته وجلالته ووفور علمه، وزهادته وعظيم ورعه وأدبه، وحفظه لكتاب ربّه، ومعرفته لواجبه وندبه [٥].

وقال ابن ناصر الدّين: هو شيخ الحرم وفقيهه، حافظٌ فقيهٌ مجتهدٌ علامةٌ، ثقةٌ فيما يرويه، له مصنّفات عظم بها الانتفاع.

وقال الإمام الذّهبيّ - كما سيأتي في الكلام عن تفسير ابن المنذر -: ولابن المنذر تفسير كبير في بضعة عشر مجلّداً يقضي له بالإمامة

(١) طبقات الحنابلة ٣٨/١.
(٢) تهذيب الأسماء واللغات ١٩٧/٢.
(٣) ينظر بيان الوهم والإيهام ٦٤٠/٥.
(٤) طبقات الشافعية ١٢٦/٢.
(٥) انظر لصاحب الترجمة مقدّمة الأوسط ١٨/١.

في علم التّأويل أيضاً [١].

وقال تقيّ الدّين الفاسيّ: ثقةٌ حجّةٌ [٢].

وقال الدّاوديّ: أحد الأعلام، وممّن يُقتدى بنقله في الحلال والحرام، كان إماما مجتهداً حافظاً ورعاً [٣].

مؤلفاتُه:

ألّف الإمام ابن المنذر - رحمه الله - عدّة كتب معتبرة عند أهل الإسلام في التّفسير والفقه وأصوله وغيرها من علوم الشّريعة، ومن مصنّفاته:

١ - إثبات القياس.

٢ - اختلاف العلماء: يوجد بعضه مخطوطاً.

٣ - الإجماع: وهو مطبوع.

٤ - الإشراف على مذاهب أهل العلم: وقد طبع بعضه، وبعضه مفقود. وهو مختصر من " الأوسط ". وكتاب " الإشراف " ذكَره الصّفديّ والذّهبيّ والسّبكيّ وغيرهم، كما ذكره ابن خلّكان وقال: " هو كتاب كبير يدلّ على كثرة وقوفه على مذاهب الأئمّة، وهو من أحسن الكتب وأنفعها وأمتعها ".

٥ - الاقتصاد في الإجماع والخلاف.

٦ - الإقناع: وهو مطبوع.

٧ - الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف: وقد طبع بعضه، وما زال غالبُه مخطوطاً. وهو مختصر من مختصر آخر هو " المبسوط " فيما

(١) سير أعلام النّبلاء ١٤/٤٩٢.

(٢) العقد الثمين ١/٤٠٧.

(٣) طبقات المفسّرين ٢/٥٥، نقلا عن مقدمة تحقيق تفسير ابن المنذر من تحقيق سعد بن محمد السعد، ١ /١٨ - ٢٠.

يظهر.

٨- المبسوط و يظهر أنّه مختصر من كتاب "السّنن والإجماع والاختلاف".

٩- تشريف الغنيّ على الفقير.

١٠ - جزء في حديث جابر في صفة حجّة النّبىّ صلى الله عليه وسلم : ذكَره النّوويُّ في " شرح مسلم ".

١١ - رحلة الإمام الشافعي إلى المدينة المنورة:وهو مطبوع.

١٢ - كتاب أحكام تارك الصلاة.

١٣ - كتاب مختصر الصلاة.

١٤ - كتاب المناسك.

١٥ - كتاب الأذكار.

١٦ - كتاب الأشربة.

١٧ - كتاب تفسير القرآن الكريم.

١٨ - كتاب السّياسة: ويوجد له مخطوط في مكتبة المخطوطات الشرقية في مدينة جوتا بألمانيا.

١٩ - كتاب العُمْرَى والرُّقْبَى.

٢٠ - كتاب المسائل في الفقه.

٢١ - مختصر كتاب الجهاد.

٢٢ - كتاب السّنن والإجماع والاختلاف.

٢٣ - مختصر كتاب السّنن والإجماع والاختلاف ".

وفاته:

اختلف المؤرِّخُون في تاريخ وفاته، إلا أن أكثرَهم، ذهبوا إلى أنه توفي

سنة ٣١٨ هـ رحمه الله رحمةً واسعةً، وأسكنه فسيحَ جنّاته، آمين[١].

التعريف بكتاب التّفسير:

صرّح ابنُ المنذر أنّ اسم الكتاب هو " تفسيراً للقرآن ".

وسلك الإمامُ ابن المنذر النّيسابوريُّ في تأليف كتابه هذا منهج السّلف الصّالحين في تفسير القرآن، فسّر القرآن بالقرآن، وبالأحاديث النّبوية، وبالآثار الثابتة المسندة، من أقوال الصحابة رضي الله عنهم والتابعين، وأتباعهم رحمهم الله تعالى، وهذه هي طريقةُ السّلف الصّالحين في تفسير القرآن، وعلى هذا الطراز تفسيرُ الإمام الطّبري وتفسيرُ ابن أبي حاتم وغيرهما.

ولقد أثنى على كتاب ابن المنذر هذا عددٌ من أهل العلم:

فقال الحافظُ الذّهبيُّ: و " لابن المنذر تفسير كبير في بضعة عشر مجلداً، يقضي له بالإمامة في علم التأويل أيضاً " [٢].

ونقل الحافظ ابن حجر منه في كتابه " العُجَاب في أسباب النّزول "، وعدّه ابن حجر في مقدّمة " العُجَاب " أحد الكتب الأربعة التي يدور عليها التّفسيرُ بالمأثور. كما نَقل منهُ السّيوطيُّ في كتابيه " الدّرّ المنثور "، و " اللّباب "، ويتبيّنُ من خلال نقولهم أنّ " تفسير ابن المنذر " كان كاملاً لديهما من أوّل سورة الفاتحة إلى سورة النّاس.

وذكَره السّبكيُّ في " طبقاته " [٣]، والسّيوطيُّ والدّاوديُّ [٤] في " طبقاتهما ". وقال الدّاوديّ: " لم يصنّف مثله " [٥].

---

(١) مقدمة تحقيق تفسير ابن المنذر من تحقيق سعد بن محمد السعد، ١ /٢١ - ٢٢.

(٢) السير ٤٩٢/١٤.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ١٠٢/٣.

(٤) طبقات المفسرين للسيوطي ٩١، والدّاودي ١٥١/٢.

(٥) طبقات المفسّرين ٥٦/٢، نقلا عن مقدمة تحقيق تفسير ابن المنذر من تحقيق سعد بن محمد السعد، ١ /٢٧.

التستــري

أعــلام التفسيــر

التستري
وكتابه: " تفسير القرآن "

هو أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رفيع التّستري [١].

ولد بمدينة تستر في سنة مائتين، وقيل: إحدى ومائتين. وإلى هذه المدينة ترجع نسبته (التستري) [٢].

أما أسرته فلم تفدنا المصادر بشيء عنها، سوى ما ذكره ابن بطوطة الذي قال إنه رأى حفدة للتستري في تستر أما وفاته فكانت بالبصرة سنة (٢٨٣ هـ) وقيل سنة (٢٧٣ هـ)، وقيل (٢٩٣ هـ).

(١) انظر ترجمته وأخباره في المصادر الآتية:الأعلام ٣/ ١٤٣، والأنساب للسمعاني ١/ ٤٦٥، والبداية والنهاية ١/ ١٨٢ (حوادث سنة ٢٨٣ هـ)، وتاريخ الأدب لبروكلمان ٤/ ١٣، وتاريخ التراث العربي ١: ٤/ ٢٩ - ٣٠، والتصوف في الإسلام ٦٦ - ٦٧، وحركة التصوف الإسلامي ١٠٩ - ١٢٠، وحلية الأولياء ١٠/ ١٩٠ - ٢١٢، وحياة الحيوان ١/ ٥٤٥ - ٥٤٧ (مادة السبع)، والرسالة القشيرية ١٥، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٣٠ - ٣٣٣، وشذرات الذهب ١/ ١٨٢ - ١٨٣، وصفوة الصفوة ٤/ ٦٤ - ٦٦، وطبقات الصوفية ١/ ١٦٦ - ١٧١، وطبقات الشعراني ١/ ١٣، والعبر ٢/ ٧٦ (حوادث سنة ٢٨٣ هـ)، والعصر العباسي الثاني ١٦٣، والكامل في التاريخ ٦/ ٣٨٩ (حوادث سنة ٢٨٣ هـ)، واللباب في معرفة الأنساب ١/ ٢١٦، واللمع للسراج ٣٩٤، ومرآة الجنان ٢/ ٢٤٩، والمعارضة والرد ١ - ٧٥، ومعجم المفسرين ١/ ٢١٨، ومعجم المؤلفين ٤/ ٢٨٤، ومن التراث الصوفي ١ - ١٢٥، والمنتظم ٥/ ٢٦٣، والنجوم الزاهرة ٣/ ٩٥، ونفحات الأنس لجامي ٧٣، والوافي بالوفيات ١٦/ ١٧، ووفيات الأعيان ٢/ ٤٢٩ - ٤٣٠، انظر مقدمة تحقيق تفسير التستري، ص ٣.

(٢) وهذه المدينة من أعظم مدن خوزستان، (و تفرد بعض الناس بجعل تستر مع الأهواز، وبعضهم يجعلها مع البصرة، وجعلها عمر بن الخطاب من أرض البصرة لقربها منها)، انظر مقدمة تحقيق تفسير التستري، ص ٣.

نشأته وتصوفه:

نشأ سهل التستري في تستر، وكانت بدايات اتجاهه إلى التصوف في سن مبكرة جدا، واحتفظ لنا اليافعي بنص مروي عن سهل التستري تحدث فيه عن نشأته واتخاذه التصوف منهجا وسبيلا لحياته، فقال: (كنت ابن ثلاث سنين، وكنت أقوم بالليل أنظر إلى صلاة خالي محمد ابن سوّار، وكان يقوم بالليل، وكان يقول: يا سهل، اذهب ونم، فقد شغلت قلبي. وقال لي يوما خالي: ألا تذكر الله الذي خلقك؟ فقلت: كيف أذكره؟ فقال: قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك: الله معي، الله ناظر إليَّ، الله شاهدي. فقلت ذلك ليالي ثم أعلمته، فقال: قلها في كل ليلة سبع مرات، فقلت ذلك، فوقع في قلبي حلاوة. فلما كان بعد سنة قال لي خالي: احفظ ما علمتك ودم عليه إلى أن تدخل القبر، فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة، فلم أزل على ذلك سنين، فوجدت لها حلاوة في سري. ثم قال لي خالي يوما: يا سهل، من كان الله معه وهو ناظر إليه وشاهده لا يعصيه، إياك والمعصية.

حفظت القرآن وأنا ابن ست أو سبع، وكنت أصوم الدهر، وقوتي خبز الشعير اثنتي عشرة سنة، فوقعت لي مسألة وأنا ابن ثلاث عشرة سنة، فسألت أن يبعثوا بي إلى البصرة أسأل عنها، فجئت البصرة، وسألت علماءها، فلم يشفني ما سمعت. فخرجت إلى عبادان إلى رجل يعرف بأبي حبيب حمزة بن عبد الله العبادي، فسألته عنها فأجابني. وأقمت عنده مدة أنتفع بكلامه وأتأدب بأدبه. ثم رجعت إلى تستر، فجعلت قوتي اقتصارا على أن يشترى لي بدرهم فرقان الشعير، فيطحن ويختبز، فأفطر عند السحر كل ليلة على أوقية واحدة بغير ملح ولا إدام، وكان يكفيني ذلك الدرهم سنة. ثم عزمت على أن أطوي ثلاث ليال، ثم جعلتها خمسا، ثم سبعا، حتى بلغت خمسا وعشرين ليلة، وكنت على ذلك عشرين سنة. ثم خرجت أسيح

في الأرض سنين، ثم عدت إلى تستر، وكنت أقوم الليل كله).

يتضح من هذا النص أن بدايات التستري الصوفية كانت على يد خاله الذي لا تفيدنا المصادر بشيء عنه، سوى أنه لقن التستري مبادئ التصوف، ثم تلقى التصوف على يد شيخه حمزة العبادي في عبادان.

وتفيد مصادر أخرى أنه صحب ذا النون المصري الذي كان له دور - لا نعلم مداه - في رعاية بذرة التصوف لديه، فقد ذكرت بعض المصادر أن التستري لقيه في الحج وصحبه.

وثمت متصوف آخر هو إدريس بن أبي خولة الأنطاكي، أفادت المصادر أن التستري حكى عنه، ولم تضف إلى ذلك شيئا آخر.

ولا ندري كم من الزمن أقام في تستر، فإنه هجرها ورحل إلى البصرة وأقام فيها حتى وفاته.

وعن سبب انتقاله إلى البصرة قال ابن الجوزي: (حكى رجل عن سهل أنه يقول: إن الملائكة والجن والشياطين يحضرونه، وأنه يتكلم إليهم، فأنكر ذلك عليه العوام، حتى نسبوه إلى القبائح، فخرج إلى البصرة، فمات بها).

ويبدو أن ابن الجوزي كان يتحامل على التستري، فقد أنكر عليه تفسير قوله تعالى:{وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ} [النساء: ٣٦]، فقد فسرها التستري على أنها القلب والنفس والجوارح، (و ابن الجوزي اكتفى بإنكار هذا التفسير، دون أن يذكر مبررا لإنكاره) (١).

تلاميذه وأصحابه:

(رواة أخباره)

---

(١) انظر مقدمة تحقيق تفسير التستري، ص ٤ - ٥.

١ - ابن درستويه.

٢ - أبو جعفر المصيصي المغازلي.

٣ - أبو الحسن البشري.

٤ - أبو الحسن البغدادي المزين.

٥ - أبو الحسن النخاس.

٦ - أبو علي البصري.

٧ - أبو محمد الجريري. كان من كبار أصحاب الجنيد، وصحب أيضا سهل بن عبد الله التستري، وهو من علماء مشايخ القوم.

أقعد بعد الجنيد في مجلسه لتمام حاله وصحة علمه. توفي سنة ثلاثمائة وإحدى عشرة).

٨ - أبو يعقوب السوسي (و من أصدقاء سهل أيضا أبو يعقوب السوسي الصوفي والأستاذ العظيم الذي أشرف على أبي يعقوب إسحاق بن محمد النهرجوري المتوفى سنة ٣٣٣/ ٩٤٤. ومن هنا نشأت علاقة الود بين النهرجوري والتستري الذي كان يقدره حق التقدير). وثمت خبر ورد في تفسير التستري يفيد أنهما كانا معا بأرجان.

٩ - أحمد بن سالم، وكان له أحوال ومجاهدات، وعنه أخذ الأستاذ أبو طالب صاحب القوت، وهو آخر أصحاب سهل التستري وفاة).

١٠ - أيوب الحمال (من ذوي الكرامات، صحب سهل بن عبد الله التستري).

١١ - البربهاري (شيخ الحنابلة، القدوة، الإمام، أبو محمد الحسن ابن علي بن خلف البربهاري الفقيه. كان قوالا بالحق، لا يخاف في الله لومة لائم. صحب سهل بن عبد الله التستري، وصنف التصانيف. توفي سنة ثلاثمائة وثمان وعشرين وعمره سبع وسبعون سنة).

١٢ - بكر بن محمد بن العلاء أبو الفضل القشيري (حكى عن سهل، وصنف التصانيف، وسكن مصر. توفي بمصر سنة ثلاثمائة وأربع وأربعين، وجاوز الثمانين سنة).

١٣ - الحلاج: الحسين بن منصور الحلاج أبو مغيث، توفي سنة ٣٠٩ هـ. (نشأ بتستر، وصحب سهل التستري، وصحب ببغداد الجنيد).

١٤ - عبد الجبار بن شيراز بن يزيد العبدي النهربطي (روى عن سهل التستري) وروى عن التستري عدة أقوال وردت في الحلية أثناء ترجمة.

١٥ - علي بن عبد العزيز الضرير الصوفي البغدادي أبو الحسن (من قدماء مشايخهم، صحب سهل بن عبد الله التستري).

١٦ - عمر بن واصل العنبري، ورد اسمه في تفسير التستري حوالي عشر مرات.

١٧ - محمد بن الحسن بن أحمد الجوري (سمع سهل التستري قراءة).

١٨ - محمد بن الحسن: (صاحب سهل بن عبد الله).

١٩ - محمد بن أحمد بن سالم أبو عبد الله (صاحب التستري وراوي كلامه. لا ينتمي إلى غيره من المشايخ، وهو من أهل الاجتهاد، وطريقته طريقة أستاذه سهل التستري، وله بالبصرة أصحاب ينتمون إليه، وإلى ابنه أبي الحسن).

٢٠ - المزين: أبو الحسن البغدادي علي بن محمد المزين، توفي سنة ٣٢٨ هـ، (الأستاذ، العارف، من أورع القوم وأكملهم حالا. صحب التستري والجنيد، وجاور بمكة) [1].

(١) انظر مقدمة تحقيق تفسير التستري، ص ٦ - ٧.

مؤلفاته:

يرى بعض الدارسين أن التستري لم يقم بكتابة مؤلفاته بنفسه، ولعل مرد ذلك (حرصه على أن لا يضع بين أيدي خصومه وثائق خطية تحمل فكره، وتكون سببا في عواقب قد تسوء). وقال كمال جعفر: (إن المؤرخين قد نسبوا إليه عددا من المؤلفات التي تختلف كما وكيفا. وأغلب الظن أن هذه الكتب والرسائل إنما هي خلاصة انتقاها ونقلها تلامذته من بعده، وبخاصة ابن سالم).

وقام العلامة فؤاد سزكين بإحصاء مؤلفات التستري المخطوطة، مع بيان مكان وجودها، وانتهى إلى ذكر ثمانية كتب كما قام كمال جعفر بإحصاء مماثل، انتهى فيه إلى ذكر اثني عشر كتابا، منها ستة كتب ذكرها سزكين، وثلاثة ذكرها النديم في الفهرست وكتاب ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون. وانفرد سزكين بذكر كتابين للتستري، لم يذكرهما جعفر، وبذلك يكون مجموع عدد مؤلفات التستري هو أربع عشرة كتابا، وهي حسب ترتيبها الهجائي:

١ - تفسير القرآن العظيم.

٢ - جوابات أهل اليقين.

٣ - دقائق المحبين.

٤ - رسالة في الحروف.

٥ - رسالة في الحكم والتصوف.

٦ - سلسبيل سهلية.

٧ - الغاية لأهل النهاية.

٨ - لطائف القصص في قصص الأنبياء.

٩ - كتاب المعارضة والرد على أهل الفرق وأهل الدعاوى في الأحوال.

وإذا كان عنوانه يوحي بأنه كتاب كلامي مخصص للجدل حول المسائل الكلامية الخالصة، فإن الواقع غير ذلك، فهو كتاب يضم كثيرا من أوجه النقد الموجهة ضد بعض آراء الفرق الكلامية وبخاصة القدرية والمرجئة، ونقض بعض الاتجاهات أو العادات أو الفرق الصوفية.

١٠ - كتاب الميثاق: ومن المهم أن نلاحظ أن هذا الناسخ يتخذ العنوان الذي وجده لسهل نموذجا ومثالا لعنوان رسالة مماثلة للجنيد في نفس الموضوع. ويضاف إلى ذلك أن الناسخ يؤكد أنه وجد وقرأ رسالة في " الميثاق " لسهل بن عبد الله التستري وهذا المؤلف - وإن كان قد فقد - يمكن التقاط بعض نقاطه الهامة المتصلة بموضوعه فيما عثر عليه من أقوال سهل، وبخاصة في التفسير وفي كلامه المجموع، فيما يتصل بتعليقه على الآية الكريمة الخاصة بالميثاق في سورة الأعراف رقم ١٧١).

١١ - كلام سهل.

١٢ - مقالة في المنهيات.

١٣ - مناقب أهل الحق ومناقب أهل الله عزّ وجلّ.

١٤ - مواعظ العارفين.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

هذا التفسير مطبوع في مجلد صغير الحجم، ولم يتعرَّض فيه مؤلفه لتفسير القرآن آية آية، بل تكلم عن آيات محدودة ومتفرقة من كل سورة. ويظهر لنا أن سهلاً - رضى الله عنه - لم يؤلف هذا الكتاب، وإنما هى أقوال قالها سهل في آيات متفرقة من القرآن الكريم، ثم جمعها أبو بكر محمد بن أمج البلدى، المذكور في أول الكتاب، والذي يقول كثيراً: قال أبو بكر: سئل سهل عن معنى كذا. فقال كذا،

ثم ضمنها هذا الكتاب ونسبها إليه.

نقرأ في هذا الكتاب، فنجد مؤلفه يقدم له بمقدمة يوضح فيها معنى ظاهر القرآن وباطنه، ومعنى الحد والمطلع، فيقول: " ما من آية في القرآن إلا ولها أربعة معان: ظاهر، وباطن، وحد، ومطلع. فالظاهر: التلاوة، والباطن: الفهم، والحد: حلالها وحرامها. والمطلع: إشراق القلب على المراد بها. فقهاً من الله عَزَّ وجَلَّ. فالعلم الظاهر علم عام، والفهم لباطنه والمراد به خاص.. قال تعالى:{فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} [النساء: ٧٨]: أي لا يفقهون خطاباً ".

ويقول في موضع آخر: قال سهل: إن الله تعالى ما استولى ولياً من أُمة محمد صلى الله عليه وسلم إلا علَّمه القرآن، إما ظاهراً وإما باطناً. قيل له: إن الظاهر نعرفه فالباطن ما هو؟ قال: فهمه، وإن فهمه هو المراد ".

فمن هاتين العبارتين، نأخذ أن سهلاً التسترى يرى: أن الظاهر هو المعنى اللُّغوى المجرَّد، وأن الباطن هو المعنى الذي يُفهم من اللَّفظ ويريده الله تعالى من كلامه.. كما نأخذ منه: أنه يرى أن المعاني الظاهرة أمر عام يقف عليها كل مَن يعرف اللّسان العربى، أما المعاني الباطنة، فأمر خاص يعرفه أهل الله بتعليم الله إياهم وإرشادهم إليه.

كذلك نجد سهلاً - رضى الله عنه - لم يقتصر في تفسيره على المعاني الإشارية وحدها، بل نجده يذكر أحياناً المعاني الظاهرة، ثم يعقبها بالمعانى الإشارية، وقد يقتصر أحياناً على المعنى الإشارى وحده، كما يقتصر أحياناً على المعنى الظاهرى، بدون أن يعرج على باطن الآية.

وحين يعرض سهل للمعانى الإشارية لا يكون واضحاً في كل ما يقوله، بل تارة بالمعانى الغريبة التي نستبعد أن تكون مرادة لله

تعالى، وذلك كالمعانى التي نقلناها عنه سابقاً في معنى البسملة، و " آلم " فاتحة البقرة، وتارة يأتى بالمعانى الغريبة التي يمكن أن تكون من مدلول اللَّفظ أو مما يشير إليه اللَّفظ، وذلك هو الغالب في تفسيره.

كذلك نجد المؤلف ينحو في كتابه هذا منحى تزكية النفوس، وتطهير القلوب، والتحلى بالأخلاق والفضائل التي يدل عليها القرآن ولو بطريق الإشارة.. وكثيراً ما يسوق من حكايات الصالحين وأخبارهم ما يكون شاهداً لما يذكره، كما أنه يتعرض في بعض الأحيان لدفع إشكالات قد ترد على ظاهر اللَّفظ الكريم، وإليك نماذج من تفسيره.

في سورة الأعراف عند تفسيره لقوله تعالى:{ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌ } [الأعراف: ١٤٨]، يقول ما نصه: " عجل كل إنسان مَا أقبل عَلَيه فأعرض به عن الله من أهل وولد، ولا يتخلص من ذلك إلا بعد إفناء جميع حظوظه من أسبابه، كما لم يتخلص عَبَدة العجل من عبادته إلا بعد قتل النفوس ".

وفي سورة الشعراء عند تفسيره لقوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام:{ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾} [الشعراء: ٧٨ - ٨٢].. يقول ما نصه:{ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾} [الشعراء: ٧٨]، أى الذي خلقنى لعبوديته يهدينى إلى قُرْبه،{ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾} [الشعراء: ٧٩]، قال: يطعمنى لذة الإيمان ويسقينى شراب التوكل والكفاية،{وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ } [الشعراء: ٨٠]، قال: يعنى إذا تحركت بغيره لغيره عصمنى، وإذا ملت إلى شهوة من الدنيا منَعها علىّ،{ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ } [الشعراء: ٨١]، قال: الذي يميتنى ثم يحيينى بالذكر،{ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾} [الشعراء: ٨٢]، قال: أخرج كلامه على شروط الأدب بين الخوف والرجاء، ولم يحكم عليه بالمغفرة ".

وفـي سـورة الصـافات عنـد قولـه تعـالى:{ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾} [الصافات: ١٠٧]، قال ما نصه: " إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما أحب ولده بطبع البشرية، تداركه من الله فضله وعصمته حتى أمره بذبحه، إذ لم يكن المراد منه تحصيل الذبح، وإنما كان المقصود تخليص السر من حب غيره بأبلغ الأسباب، فلما خلص السر له، ورجع عن عادة الطبع، فداه بذبح عظيم ".

فهذه المعاني كلها مقبوله ويمكن إرجاعها بدون تكلف إلى اللَّفظ القرآنى بدون معارضة شرعية أو عقلية.. والكتاب - في الغالب - يسير على هذه الطريقة، وهى لا شوب فيها [١].

* * *

(١) انظر مقدمة تحقيق تفسير التستري، ص ٨، الدكتور محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، ٤ / ٣٢٩.

القشيــري

أعــلام التفسيــر

الإمام زين الإسلام القشيري
صاحب كتاب: لطائف الإشارات

هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد القشيري، ولقبه زين الإسلام، وشهرته القشيري.

ولد في ربيع الأول عام ٣٧٦ هـ الموافق يوليو ٩٨٦ م.

وتوفى في يوم الأحد السادس عشر من ربيع الآخر عام ٤٦٥ هـ وهو عربى النسب من جهة أبيه فهو من قبيلة قشير العدنانية المتصلة بهوازن، ويذكر ابن حزم أن سلالات من قشير اتجهت إلى المغرب نحو الأندلس إبّان الفتح الإسلامى زمن الأمويين، واتجه بعضها إلى المشرق وكان منها ولاة وقواد على خراسان ونيسابور [١].

كذلك فإن القشيري عربى النسب من جهة أمه فهى سلمية وأخوها أبو عقيل السلمى من وجوه دهاقين أستوا، وأستوا هى الناحية التي ولد فيها القشيري وتلقى بها تعليمه الأولىّ.

وحدث أن اجتاحت المنطقة ضائقة اقتصادية، ففكر الأهالى في إرسال لفيف من أبنائهم إلى نيسابور لكى يتلقوا من دروس الحساب ما يمكّنهم - بعد عودتهم - من المشاركة في تنظيم الأمور الاقتصادية، وكان القشيري أحد هؤلاء الأبناء.

وبدأ القشيري في نيسابور يتهيأ لهذا اللون من الدراسة، ولكنه ما لبث أن انصرف عنها عندما اجتذبته مجالس الفقه والكلام والحديث والتفسير والأدب، ولم تبخل نيسابور عليه بزاد، فلقد كانت في ذلك الوقت تعج بالنشاط الفكرى، وتحفل بكبار الشيوخ أمثال ابن فورك، ومحمد بن أبى بكر الطوسي، وأبى إسحاق الإسفرايينى، وقد ظفر

(١) جمهرة الأنساب ٢٧٣ و٤٥٩، وانظر مقدمة تحقيق كتاب لطائف الإشارات، للمؤلف: عبد الكريم بن هوازن القشيرى، من تحقيق إبراهيم بسيونى.

القشيري في كنف هؤلاء الأئمة برعاية خاصة حينما أتيح له الاتصال بهم، وأتيح لهم معرفته عن قرب، ووضح لهم فيه حسن الاستعداد، والدأب، واستقامة الخلق.

ولم يكن القشيري يضيع فترة ما بعد الدرس هباء، بل كان ينكب على القراءة والاستذكار وكان شديد الولع بالعلوم العقلية، وبخاصة تلك التي تتناول المسائل التي طالما اشتجر الخلاف حولها بين الأشاعرة وأهل الاعتزال، واستوعب في هذه الفترة معظم ما صنّف الباقلاني.

وجاء يوم سأل فيه الإمام الإسفراييني تلميذه القشيري - حين وجده لا يكتب كما يكتب سائر الطلاب: أما علمت يا بنى أن هذا العلم لا يحصل بالسماع؟

(و لكن القشيري أعاد عليه كل ما سمعه، وقرره أحسن تقرير، من غير إخلال بشيء فتعجّب منه وأكرمه، وقال له ما كنت أدرى يا بنى أنك بلغت هذا المحل، فلست تحتاج إلى درس يكفيك أن تطالع مصنفاتى، وتنظر في طريقتى، وإن أشكل عليك شيء طالعتنى به ففعل ذلك، وجمع بين طريقة الاسفراييني وطريقة ابن فورك [(١)].

وبينما كان القشيري منصرفا بكل همته إلى هذا اللون من الدراسة، دائب الاتصال بهذا الطراز من الشيوخ ساقه القدر ذات يوم إلى مجلس من لون آخر يتصدره شيخ من طراز آخر. استمع القشيري إلى أبى على الدقاق وهو يعظ على طريقة الصوفية ويتحدث في الرياضات والمجاهدات، والأحوال والمكشوفات، والأذواق والمواجيد، والمعارف العليا التي تنثال من الحق على عباده الذين اصطفاهم، وإذا بالرجل والحديث يستوليان عليه، ويملكان فيه كل ذرة، وإذا القشيري يحادث نفسه صامتا: إنى لهذا خلقت! وعند ما

(١) طبقات الشافعية للسبكى ج ٣ ص ٢٤٣ وما بعدها، مقدمة تحقيق كتاب لطائف الإشارات، للمؤلف: عبد الكريم بن هوازن القشيرى، من تحقيق إبراهيم بسيونى، ١ /٩.

كان يتهيأ ليغشى ما اعتاد من مجالس كانت أقدامه تسوقه نحو الدقاق ومجلسه فكان أول من يجلس وآخر من ينهض.

ولمحه الشيخ، ورأى فيه إصغاء ملفتا للنظر، فقربه منه، وحباه بعطفه.

وذات يوم تقدم الطالب - في استحياء - من شيخه، فشكا إليه أمرا حزبه إنه لا يستطيع أن يجمع بين المواظبة على ما اعتاد من مجالس وبين مجلس الدقاق، وهو يؤثر أن ينصرف بكل همته وعزيمته إلى علم القلوب، وابتسم الشيخ للشاب، وتطلع إلى وجهه، وربت على كتفه قائلا:

- إنما ينبغي لك أولا أن تتقن دراستك بقدر طاقتك! ومضى الشاب الطموح يجمع بين الدراستين، وساعده ذلك على أن يتكون تكوينا عقليا ووجدانيا في مرحلة من أدق مراحل العمر، كما ساعده على أن يتجنّب كثيرا من المشاكل النفسية التي تلم بأمثاله نتيجة الاغتراب عن بلده، ونتيجة الملل.

وأعجب الدقاق بمثابرته وطموحه واستقامته وتواضعه (فاختاره لكريمته فاطمة مؤثرا إياه على سائر أقربائها الذين تقدموا لخطبتها)[١].

وهكذا توثقت الصلة بين الشيخ والشاب، وصار الدقاق رائده وملهمه الذي أعانه على مواجهة مشكلات الحياة، وبصّره بآفات النفس وأدوائها، وكشف له عن الكثير من الخفايا والدقائق.

فكان هذا الاتصال عاملا جديدا من عوامل الاستقرار النفسي، وبداية لمرحلة جديدة من النضج الفكرى، لأنه أتاح له أن يجد في صهره شيخا ورائدا وصديقا، وسهّل عليه أن يهرع إليه يستنصحه إزاء كل

(١) وفيات الأعيان، ٢ / ٣٧٥.

مسألة تعرض له أو أمر ينبهم عليه، فلم يقع تحت تأثير بلبلة، ولم يخضع لأزمة، ولم تتجاذبه ضغوط أو صراعات.

كل ذلك ترك أثره في شخصيته، فلسنا نجد في مؤلفاته اضطرابا أو جموحا أو غموضا، ولسنا نشعر فيما وراء السطور بعقدة من العقد، ولسنا نحس بميل إلى ابتداع، إنما نجد أنفسنا أمام شخصية سويّة، يتميز الخط الفكرى لها بالاستقامة والاعتدال، والوضوح والصدق، والإخلاص والبذل.

ولعلّ أبسط دليل على وفاء القشيري لشيخه أنك لو تصفحت " رسالته " لما غاب اسم الدقاق عن عينك، وهو يذكر اسمه دائما مقرونا بالتكريم والترحم، ويكفيك أن تقرأ هذه الفقرة لتوضح لك أولا شيئا عن مسلك القشيري خلال حياته العلمية وتوضح لك ثانيا مدى ما ينبغى أن تكون عليه علاقة المريد بشيخه، فهذه وتلك تصوّر ما نرمى إليه من بعيد عن كشف جوانب في سيرة الرجل الذي تقدّم لك كتابه.

يقول القشيري: " لم أدخل على الأستاذ أبى على - رحمه الله - في وقت بدايتى إلا صائما، وكنت أغتسل قبله، وكنت أحضر باب مدرسته غير مرة فأرجع من الباب احتشاما من أن أدخل عليه، فإذا تجاسرت مرة ودخلت، كنت إذا بلغت وسط المدرسة يصحبنى شبه خدر حتى لو غرز في إبرة مثلا لعلّى كنت لا أحس بها. ثم إذا قعدت لواقعة وقعت لى لم أحتج أن أسأله بلساني عن المسألة فكلما كنت أجلس كان يبتدىء بشرح واقعتى، وغير مرة رأيت منه هذا عيانا، وكنت أفكر في نفسى كثيرا إنه لو بعث الله عزّ وجلّ في وقتى رسولا إلى الخلق هل يمكننى أن أزيد في حشمته على قلبى فوق ما كان منه رحمه الله تعالى؟ فكان لا يتصور لى أن ذلك ممكن، ولا أذكر أنّى في طول اختلافي إلى مجلسه ثم كونى معه بعد حصول

الوصلة أن جرى في قلبى أو خطر ببالي عليه قط اعتراض إلى أن خرج - رحمه الله تعالى - من الدنيا) [(١)].

وليس استطرادا أن نذكر لك كلمة موجزة عن رأى عبد الرؤوف المناوى في الدقاق، لأن هذه الكلمة على إيجازها لا تكشف لك عن سمات الدقاق وحسب إنما هى سمات، القشيري ذاته في أدق التفاصيل.

يقول المناوى " هو أبو على الحسن الدقاق النيسابورى الشافعي، كان لسان وقته وإمام عصره، فارها في العلم، محمود السيرة، مجهود السريرة، جنيدى الطريقة، سرّىّ الحقيقة، أخذ مذهب الشافعي عن القفال والحصرى وغيرهما، وبرع في الأصول وفي الفقه وفي العربية حتى شدّت إليه الرّحال في ذلك، ثم أخذ في العمل، وسلك طريق التصوف، وأخذ عن النصرآباذي، قال ابن شهبه: وزاد عليه حالا ومقاما... وقد أخذ عنه القشيري صاحب " الرسالة " وله كرامات ظاهرة ومكاشفات باهرة " [(٢)] أ.هـ كلام المناوى بعد أن أخذ يضرب أمثلته لأقواله المنثورة والمنظومة.

أمّا في مجال الصداقة فلعلّ أوثق من نعرف اتصالا به صديقه أبو عبد الرحمن السلمى وصديقه أبو المعالي الجويني إمام الحرمين.

وترجع أهمية السّلمى في حياة القشيري إلى أنه غزير الإنتاج في العلوم الصوفية، وأن القشيري استفاد من علمه، وآية ذلك أنك تجد السلمى في " الرسالة " حلقة اتصال بارزة في العديد من الأسانيد والأخبار التي عليها يعتمد القشيري موصولة بالدارقطنى والسّراج والنصرآباذي وغيرهم، ولكن الأهم من ذلك - في تقديرنا - أن القشيري استفاد من السّلمى فائدة أبعد أثرا، ذلك أنه تجنّب التورط في

(١) الرسالة، ص ١٤٧.
(٢) الكواكب الدرية في تراجم الصوفية ترجمة الدقاق.

المزالق التي أدّت بصديقه إلى أن يتّهم وأن يكون موضع نقد معاصريه ومن جاء بعده، وقد نوّهنا بشيء من ذلك عند كلامنا عن " حقائقه ".

أمّا الجويني فقد كان - كالقشيرى - شافعيا من حيث المذهب الفقهي، أشعريا من حيث العقيدة الكلامية، وقد تعرّض - كالقشيرى - لآلام المحنة التي اكتوى بنارها الأشاعرة، والتي سنتحدث عنها بعد قليل، وهاجر البلاد وجاور الحرمين، ولم يعد إلى وطنه إلا بعد انجلاء الغمّة.

وإذا كان السّلمى صديقا أقرب إلى الأستاذ فإن الجويني كان صديقا أقرب إلى التلميذ، فقد استفاد من علم القشيري، فإذا تذكرنا أن الجويني أستاذ الغزالي أمكن أن نقول إن القشيري موصول بالغزالي لا بطريق المصنفات التي خلفها وحسب بل بطريق السّند الذي يمثله الجويني.

وفي مجال الحياة العملية نجد القشيري يضطلع بأعمال تتفق واستعداده وثقافته، فقد اشتغل بالتدريس في مسجد المطرز وهو في الثلاثين من عمره ويتضح ذلك من هذا النص: " كنت في ابتداء وصلتي بالأستاذ أبى علىّ - رضى الله عنه - عقد لى المجلس في مسجد المطرز، فاستأذنته وقتا للخروج إلى " نسا "، فكنت أمشى معه يوما في طريق مجلسه، فخطر ببالي: ليته ينوب عنّى في مجالسى أيام غيبتى... إلخ " [1].

وإلى جوار ذلك كان القشيري يعكف على التأليف دون انقطاع فانتهى من التفسير الكبير المعروف (بالتيسير في التفسير) قبل عام ٤١٠ هـ، ومن اللطائف عام ٤٣٤ هـ، ومن الرسالة عام ٤٣٧ هـ واستمر

(١) الرسالة ص ١١٦.

يمارس هذا النشاط في دأب لا يعرف الكلال حتى وصلت كتبه إلى خمسة وعشرين كتابا أو نحوها، ومن أهمها إلى جوار ما سبق: ترتيب السلوك، والتحبير في التذكير، والأربعون حديثا، وشكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة، واستفادات المرادات، والقصيدة الصوفية، والتوحيد النبوي، واللّمع، والفصول، والفتوّة، ونحو القلوب الصغير، والكبير، والمقامات الثلاثة، وفتوى، والمعراج.

ولم يطبع من هذه الكتب إلا النذر اليسير.

ولم يسلم القشيري خلال حياته من المحن والآلام، وربّما كانت أشدها جميعا ما حدث له إبّان حكم السلطان طغرل ووزيره اللعين الكندري.

كان السلطان طغرل سنيا حنفيا، ووزيره أبو نصر الكندري معتزليا رافضيا، خبيث العقيدة، ذا آراء مسرفة في التشبيه وخلق الأفعال، والقدر، وكان متعصبا في ذلك أشد التعصب.

وفي هذا الوقت كان بنيسابور شخصية فذّة لها في أوساط العامة والخاصة نفوذ كبير، ومحبة فائقة، ذلكم هو الأستاذ أبو سهل بن الموفق أحد رجال الطبقة الرابعة الشافعية، وكان كثير المال جوادا، وكان مرموقا بالوزارة، وداره مجتمع العلماء، وملتقى الأئمة، ونظرا لما عرف عنه من تعلّق بالمذهب الأشعري، وذود عنه، وسعى حثيث لنشره فقد ألهب ذلك حقد الكندري، خاصة وقد كان يخشى أن يقع اختيار السلطان عليه للوزارة من دونه، فمضى يلفق - لدى السلطان - عنه التهم.

ولم يكتف بذلك بل لجأ إلى حيلة دنيئة حين حصل من السلطان على تفويض بسبّ المبتدعة على المنابر، فلم يجد السلطان في ذلك بأسا، فوافق عليه، ولكن الكندري استغل هذه الموافقة فأقحم اسم أبي الحسن الأشعري ضمن المبتدعة الواجب سبّهم، وكل من كان يرفض الانصياع لذلك من الوعاظ والخطباء يفصل من عمله، ويطرد من

البلاد، فنجم عن ذلك شر خطير، وفتنة كبرى امتد شررهما إلى سائر المشرق، وبات الأشاعرة في حزن مقيم.

وفي وسط هذه المحنة، وذات يوم كئيب أسود جاء الأمر من قبل السلطان بالقبض على القشيري وإمام الحرمين والرئيس الفراتي وأبى سهل الموفق، ونفيهم، ومنعهم من المحافل، وحين قرئ الكتاب هجم جماعة من الأوباش على الأستاذ الفراتي وعلى القشيري وأخذوا يجرونهما في الطرقات، ويكيلون لهما أقذع أنواع التهكم والاستخفاف حتى وصل الشرطة بهما إلى محبس القهندر.

أمّا إمام الحرمين فقد هرب من البلاد على طريق كرمان، واتجه إلى الحجاز، وهناك جاور مكة، وأمّا أبو سهل. فقد كان لحسن الحظ غائبا في بعض النواحي.

وبقي السجينان الجليلان في المحبس، وقامت جماعات كبيرة من الناس لإنقاذهما، وحدثت حرب دامية بينهم وبين رجال السلطان انتهت بهزيمة رجال السلطان، وأخرج السجينان الجليلان من سجنهما، ولكن كبار الأشاعرة اجتمعوا وقرروا أن جهاز الحكم لن يهدأ له قرار، وأن الخير في رحيل أئمة المذهب إلى أماكن نائية عن المشرق.

فترك القشيري وطنه وبيته وأهله وعشيرته، ومضى يضرب في الأرض الواسعة عشر سنوات كاملة، كان خلالها موضع التكريم والتبجيل، وأقبل الناس عليه وعلى دروسه إقبالا عظيما، حتى لقد خصص الخليفة العباسي - القائم بأمر الله - له مجلسا خاصا في مسجد قصره، وكان يواظب على شهود وعظه ومجلس حديثه، ويكرمه، ويحظى ببركته.

وقد وصف الخطيب البغدادي (صاحب تاريخ بغداد) مقدار إعجاب الناس بالقشيري، وكان هو نفسه أحد تلاميذه حيث يقول (حدّثنا

وكتبنا عنه وكان ثقة) [١].

وذهب القشيري الحج، وهناك التقى بصديقه الجويني وبعدد كبير من الأئمة الذين شردتهم المحنة طوال سنوات عديدة، فاجتمعوا وتدارسوا أحوالهم ومستقبلهم، واستقر رأيهم على أن يطيعوا كلمة واحد منهم مهما كانت هذه الكلمة حتى يتم الاتفاق على مبدأ ثابت يسرى عليهم جميعا، ولم يكن ذلك الذي وقع عليه اختيار الجمع غير عبد الكريم القشيري.

فصعد المنبر، وظل يتكلم، وهم يجدون لكلامه وقعا مؤثرا على قلوبهم وعقولهم، ثم مرّت لحظات صمت، بعدها شخص القشيري ببصره إلى السماء ضارعا ثم أطرق، والناس من حوله يتابعون أمره، ويتفرّسون ملامحه... ثم قبض على لحيته وصاح بصوت عال:

يا أهل خراسان.. بلادكم بلادكم، إن الكندري غريمكم يقطّع الآن إربا إربا، وإنى أشاهده الساعة وقد تمزّقت أعضاؤه ثم أنشد:

عميد الملك ساعدك الليالى ::: على ما شئت من درك المعالي

فلم يك منك شىء غير أمر ::: بلعن المسلمين على التوالي

فقابلك البلاء بما تلاقى ::: فذق ما تستحق من الوبال [٢]

ويقول السبكى في طبقاته: (و ضبط التاريخ فكان ذلك اليوم بعينه وتلك الساعة بعينها قد أمر السلطان بأن يقطع الكندري إربا إربا. وأن يرسل عضو منه إلى كل مكان) [٣].

وهكذا عاد القشيري بعد هذه السنوات العشر الثقال (من ٤٤٥ هـ إلى ٤٥٥ هـ) إلى بلاده، وهى وإن كانت أقسى فترات عمره، وأشدها

(١) تاريخ بغداد، ١٠ / ٨٣.
(٢) تبيين كذب المفترى لابن عساكر، ص ٩٣.
(٣) السبكى، طبقات الشافعية، ٢ / ٢٧٢.

آلاما إلا أنها كانت حافلة بالتجارب، وأعانته على زيادة خبرته بالحياة والأحياء، وساعدت على توثيق الصلة بينه وبين الأوساط العلمية والأدبية خارج المشرق، ودفعته إلى أن يصنّف العديد من المصنفات المتصلة بالمذهب الأشعري وبخاصة كتابه الجليل القدر " شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة "، وهى قبل كل شىء وبعد كل شىء آية ثباته على مبدئه، وأنه خليق أن يتصدّر المفكرين الأحرار في جيله.

وجاء السلطان ألب أرسلان خلفا لعمه طغرل، وبمجىء أرسلان ووزيره الهمام الفذ نظام الملك استقبل العالم الإسلامى كله والأشاعرة بوجه خاص والقشيري بوجه أخص عهدا زاهرا آمنا، وعاد القشيري إلى مدينته الحبيبة نيسابور حيث قضى بها بقية عمره، وقضى بها عشر سنوات (كان فيها مرفها محترما، ومطاعا معظما، وأكثر صفوه في آخر أيامه التي شاهدناه فيها آخرا، وازداد من يقرأ عليه كتبه وتصانيفه والأحاديث المسموعة له، وما يؤول إليه من نصرة المذهب حتى بلغ المنتمون إليه آلافا، فأملوا تذكيره وتصانيفه أطراف.

وكان نظام الملك أحد تلاميذه والمقربين إليه، وأعاد الوزير - بفضل توجيه القشيري - للأشاعرة وللزهاد وللعلماء كل ما فقدوه إبّان المحنة الأليمة من كرامة وحظوة.

أمّا أبناء القشيري فلا نعرف له إلا بنتا واحدة هى أمة الرحيم أم عبد الغافر الفارسي [١].

ونعرف له ستة أبناء كلهم عبادلة وكلهم أئمة، سلكوا مسلك أبيهم وقد ترجم لهم السبكى في طبقاته كما تحدّث عنهم ابن عساكر وابن

(١) قاموس الأعلام باللغة الأوزبكية، ط اسطانبول، سنة ١٣١٤، ص ٣٠٨٠، نقلا عن مقدمة كتاب لطائف الإشارات، ١ /١٥.

خلكان.

ولهذا ينبغى أن نتحفظ في نسبة الأقوال المنسوبة إلى القشيري في بعض المراجع فقد تكون هذه الأقوال صادرة عن أحد أبنائه فهم جميعا أشاعرة وهم جميعا شافعية وهم جميعا سلكوا طريق الإرادة.

لبث القشيري في نيسابور في أخريات حياته لم يكد يبرحها إلا لزيارة أقاربه في البلاد المجاورة مثل نسا وأبيورد، ولكنه كان يعود مسرعا إلى نيسابور بعد كل زيارة.

وقبل أن تبزغ شمس السادس عشر من ربيع الآخر من عام ٤٦٥ هـ، كانت روحه الطاهرة قد عادت إلى بارئها. فوورى جثمانه إلى جوار صهره وشيخه وملهمه وصديقه أبى على الدقاق في مقبرة خاصة بالأسرة ما زالت قائمة حتى وقتنا الحاضر يزورها الناس للتبرك.

من خلال هذه السيرة التي حاولنا إيجازها نستطيع أن ندرك أهمية تفسيره.

فصاحب الكتاب رجل أوتى حظّا وفيرا من العلوم العقلية والنقلية قبل أن يلج باب الصوفية، وهذه في حدّ ذاتها ظاهرة لها أهميتها، وقد رأينا كيف نصح الشيخ الدقاق له بالتعمق في هذه الدراسات قيل البدء بالسير في دروب الإرادة، وفي ذلك أبلغ رد على من يتخرّصون الاتهامات عن الصوفية فيقولون إنهم قوم يجانبون العقل، ويحتقرون العلم ويأمرون تلامذتهم بكسر محابرهم - كما يدعى ابن الجوزي غفر الله له.

والقشيري بعد ذلك كله أديب ينظم الشعر ويتذوق الأسلوب العربي تذوقا يعتمد على أسس قوية، وقد أوضحنا ذلك بتفصيل كبير في الأطروحة التي أعددناها عنه ونلنا بها درجة الدكتوراه.

فإذا جاء بعد ذلك ليدرس الأسلوب القرآنى، وليستخرج منه إشارات

لطيفة فهو معدّ لذلك أحسن إعداد، وهو قمين بالوصول إلى نتائج باهرة، بقدر ما لديه من تهيؤ صالح مكتمل.

ثم هو شافعى أشعرى، وهو سنى متحفظ، وهو بهذه الأوصاف باحث متعمق منصف، لا يأخذ - وهو يستخرج إشارة من العبارة - إلا جانب الحذر والحيطة والاعتدال، وهو من أجل ذلك لم يخرج قيد أنملة عن هذا الخط، فلم ينصر الحقيقة على حساب الشريعة، ولم ينصر الشريعة على حساب الحقيقة، ولذلك لا نعجب إذا لم نجد عنده جموحا أو ميلا إلى جموح، ولا نعجب إذا ألفيناه لا يسخط أوساط أهل السّنّة حتى من تعصّب منهم ضدّ التّصوف وأهله فقد كان رائده دائما نصرة الحق، فليس غريبا أن يجىء " لطائف الإشارات " تعبيرا صادقا عن التصوف في أفضل درجات الاعتدال، وأنقى صور التناول. فليس عند القشيري ما عند غيره من مساس بالألوهية، بل هو طالما يعلنها حربا لا هوادة فيها على المبتدعين والمضللين الذين أساءوا إلى التصوف وأهله تارة تحت ستار الثوب، وتارة بدعوى الفناء المغرق، ونحو ذلك من الأباطيل.

والتصوف عند القشيري ليس ثوبا مرقعا، أو خرقة بالية تفرد صاحبها عمن سواه، وتكون علما على تقواه، إنما هو صفاء النفس من كروراتها. وإنّ من كان صادقا في طويته ونيّته سيكون محفوظا في حالة انمحائه، سوف يردّ في حالة الجمع إلى حالة الفرق الثاني ليؤدى الفرائض الواجبة عليه ثم يعود إلى حالة الجمع مرة أخرى، ويكون في كل أحواله مصرّفا بإرادة مولاه. كذلك فإن من كان صادقا في بدايته ووسيلته وغايته كان محفوظا - من قبل الحق - في كل كلمة ينطق بها أو كل حركة تصدر عنه، فإذا نطق نطق باللّه، وإذا تحرّك تحرّك باللّه. ومثل هذا العبد لا ينتظر منه - وهو في يد الله على هذا النحو - أن يكون غريب الأقوال أو غريب الأفعال.

فالصدق هو عمدة الأمر في هذا السبيل - كما يرى هذا الإمام الجليل [(١)].

منهج القشيري في تأليف الكتاب وأهميته:

صدّر القشيري كتابه بمقدمة مفيدة أوضحت خطته في تناول الأسلوب القرآنى، وهذه المقدمة لا تلقى ضوءا على الكتاب وحده إنما تقف بنا على المقصود بالتفسير الإشارى للقرآن، وسائله وغاياته.

أطلق القشيري على كتابه اسم " لطائف الإشارات ".

ومن المقدمة نفهم أن هذا اللون من التفسير يعتمد على استبطان خفايا الألفاظ - مفردة أو مركبة - دون التوقف عند حدود ظواهرها المألوفة ومعانيها القاموسية، وإنما ينظر إلى اللفظة القرآنية على أنها ذات جوهر يدق على الفهم العادي، وأهل التجريد وحدهم هم الذين يتاح لهم - بفضل من الله - العلم الذي يكشفون به عن هذا الجوهر.

وهناك رباط وثيق بين هذا العلم وبين العمل إذ لا يحظى به إلا من جرّد قلبه من كل سانحة، وصفّى نفسه من كل كدورة، وتهيأ بكل الهمة لهذه المهمة الجليلة: دراسة كلام الحق جلّ ذكره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وفي ذلك يقول القشيري في مقدمته: " أكرم الأصفياء من عباده بفهم ما أودعه من لطائف أسراره وأنواره لاستبصار ما ضمنه من دقيق إشاراته وخفّى رموزه، بما لوّح لأسرارهم من مكنونات، فوقفوا بما خصوا به من أنوار الغيب على ما استتر عن أغيارهم، ثم نطقوا على مراتبهم وأقدارهم، والحق - سبحانه وتعالى - يلهمهم بما به يكرمهم، فهم به عنه ناطقون، وعن لطائفه مخبرون، وإليه يشيرون، وعنه يفصحون، والحكم إليه في جميع ما يأتون به ويذرون ".

---

(١) مقدمة كتاب لطائف الإشارات، ١ /١٨.

ويتضح - بادئ ذى بدء - أنّ هذا اللون من الدراسة يفترق عن سائر ألوان الفكر الإسلامى في أمور كثيرة، لعلّ أهمها عنصر الاصطفاء من قبل الله، فليس يمكن لغير من اختصهم الله بفضله أن يخوضوا فيه. فأنت تستطيع أن تكون متكلما أو فيلسوفا أو نحويا أو أديبا إذا توفّرت لذلك، وكان لديك استعداد ملائم، وخصصته بعنايتك، أمّا أن تكون مستنبطا للإشارة من العبارة فهذه خصوصية فريدة لا بدّ أن يسبقها اجتباء إلهى. كذلك يمكنك أن تكون عالما في أي فرع من فروع المعرفة دون أن يصحب ذلك عمل، أمّا أن تقبل على القرآن الكريم لتستشف الجواهر من وراء الظواهر فهذه مسألة ينبغى أن تقترن بجهود مضنية في تصفية النفس والقلب من كل العلائق، وتخليتهما عن كل الشواغل الدنية، وتحليتهما بكل الأوصاف السنيّة.

وربما كانت هذه الشروط المتصلة بالاجتباء المسبوق، والعمل المقترن بالعلم من أسباب ندرة ما وصلنا من هذا اللون من التفسير، كما أنها قد تكون أسباب خروج بعض ما يحشر في نطاقه - زورا أو خطأ - عن التفسير الإشارى السديد.

فرق آخر يفرق هذا اللون من التفسير عن غيره أنه لا يعتمد اعتمادا كليا أو مسرفا على العقل، إنما هو يعنى بالأمور العقلية بالقدر الذي يعني به الصوفية بالعقل، ونعني به أن الذهن آلة لتصحيح الإيمان في مراحل البداية، أمّا فيما فوق ذلك وفيما هو حثيث الخطو نحو المعارف العليا فهناك ملكات أخرى يناط بها حمل هذا العبء، وهى في مذهب القشيري تتدرج صعودا من القلب إلى الروح إلى السر ثم إلى سر السر أو عين السر. معنى هذا أن استنباط الإشارات اللطيفة من النص القرآنى ليس عملية عقلية صرفة إلا في الحدود التي تضمن عدم افتيات الإشارة على العبارة، فلا تخرج بها عن مألوف ما ينسجم مع الأسلوب العربي سواء من حيث اللغة أو النحو أو

الاشتقاق أو الفنون الأدبية، ولا تخرج بها عن الدلالات التي توافق أسباب النزول والأخبار الموثوقة وعلوم الحديث والأصول والفقه، فكأن الإشارة ليست انبعاثا تلقائيا محضا ولكنها مقيدة - منذ البداية - بالكثير من العلوم العقلية والنقلية فما أشبه موقف اللفظة القرآنية في هذا المجال بموقف من يتهيأ لارتياد الطريق الصوفي فكلاهما يتعرّى عن ظاهره، وكلاهما يخضع لما تتطلبه المعارف العقلية والنقلية من شرائط البداية، وكلاهما يصبح صافيا رائقا يشف درجة بعد درجة كلما زاد الصعود وارتقى القصود..

فاللفظة القرآنية فيها حياة وفيها نمو، وفيها عوالم مضيئة متألقة تشبه تلك العوالم التي يتدرج فيها العابد الزاهد المريد العارف المحب.

قد يقال وأي فرق إذا بين التفسير الإشارى وغيره من التفاسير مادام يعنى بالأمور العقلية والنقلية؟ والجواب على ذلك أنه لا يعنى بهذه الأمور لذاتها، ولا يوقف نفسه داخل أسوارها، ولا يقطع العمر في حزازاتها وخلافاتها، إنما هى وسيلة في الابتداء يلجأ إليها المفسر بمقدار ما يسعفه حظه منها لكى يفض الأغلفة الظاهرية. وهذه العناية إن التزمت بذلك صارت وسيلة من وسائل إقناعنا بأن التفسير الإشارى ليس عشوائيا يخب فيه كل من هبّ ودبّ ولكنه خاضع لنواميس وقواعد.

ونستطيع بعد ذلك أن نميّز بين تفسير القشيري في " لطائفه " وبين أولئك الذين ننسب تفاسيرهم إلى التصوف وأهله، أولئك الذين أسرفوا حين حمّلوا النص القرآنى فوق ما يحتمل، وبدلا من أن يخضعوا للنص القرآنى أخضعوا النصّ القرآنيّ لنصرة مذاهبهم، وساروا في الدروب العقلية حتى جمحوا، وابتعدوا عن الخط الأصيل حتى صارت تفاسيرهم جديرة بالدرس في مجالس الفلسفة والكلام لا في مجالس الرياضات والمجاهدات والأحوال. أمّا عند القشيري

فليس هناك مذهب عقلى خبىء، ولا عقيدة باطنية مستورة، كلّ ما عنده من قصد أن يتمّ لقاء كامل بين الشريعة والحقيقة في ظلال كلمات الله - جل ذكره، لأنه إذا لم يتم هذا اللقاء في كنف كلام الله فأين يمكن أن يتم؟! وهنا تلتقى هذه المحاولة التي بذلها في " اللطائف " مع المحاولة التي بذلها في " الرسالة " فهو منذ الصفحة الأولى في " رسالته " يحاول أن يعرّف بأن عقيدة الشيوخ " الذين بهم اقتداء " عقيدة سليمة لا تخرج في قليل أو كثير عن عقيدة التوحيد الرائقة الصافية، ثم يسير في تراجم الشيوخ ليختار لك من أقوالهم وأخبارهم وأفعالهم ما يؤيد ذلك، ثم يبوّب رسالته إلى التوبة والزهد والتوكل والرضا والمحبة... إلخ. ولا ينثنى عند استفتاح كل باب عن ذكر آيات من كتاب الله الكريم بعدها أحاديث وأخبار عن الرسول صلوات الله عليه..

لما ذا كل ذلك؟ لكى يثبت أن هناك لقاءً بين الشريعة والحقيقة، وأنهما وجهان لشىء واحد..

تلك هى الغاية القصوى التي يطمح إليها هذا الإمام الجليل، والتي من أجلها نذر عمره، وخصص جهده، ولم يضن عليها بشىء في استطاعته، ولم يفارقه الطموح إليها في مصنّف من مصنفاته... وما أعظمها وما أشرفها من غاية! فإذا كنّا أخرجنا من نطاق التفسير الإشارى هذه التفاسير المنسوبة لبعض المنتسبين للتصوف فأولى أن نخرج من هذه التأويلات الاعتزالية والشيعية والبدعية والإلحادية وغيرها مما تعتمد في مباحثها على أن للقرآن ظاهرا وباطنا، ذلك لأن قضية الظاهر والباطن استغلت استغلالا سيئا لخدمة الكثير من العقائد الهدّامة، وارتكبت في حق الظاهر القرآنى جرائم خطيرة حين أريد له أن يؤول لنصرة الأغراض المريضة والدعوات الجامحة، وفي ذلك يقول التفتازانيّ في شرح العقائد النسفية: " سميت الملاحدة

باطنية لا دعائهم أن النصوص ليست على ظواهرها بل لها معان باطنة لا يعرفها إلا المعلم، وقصدهم بذلك نفى الشريعة بالكلية "، ويستدرك التفتازانيّ قائلا: " و أمّا ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها ومع ذلك فيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة فهو من كمال العرفان ومحض الإيمان ".

والذي نحمده للقشيرى وينبغى أن نشيد به في هذا التقديم أنه حرص أشد الحرص على النص القرآنى، وأنه التزم بالنظر إليه نظرة اعتبار وتقديس، وكان عمله أشبه بمن يقبس قطفات من الضوء من مشكاة كبيرة ينير بها الطريق أمام الزهاد والعارفين، دون أن يتورط في تعسّف أو ينزلق في درب من دروب الشطط، والسبب الهام الذي يعود إليه هذا المنهج أنه سني حريص على سنيته بقدر ما هو صوفى حريص على صوفيته، فكان عليه أن يرضى أوساط أهل السنة في الوقت الذي كان عليه أن ينفع الصوفية، وأن يوضح لكلا الطرفين أن الأصول والفروع في الحالين مستمدة من كتاب الله الكريم.

ولقد أعان القشيري في عمله أنه صنّف قبل " اللطائف " كتابا كاملا في تفسير القرآن على نحو تقليدى هو " التيسير في التفسير " ونجده في " التيسير " يعنى أشد العناية باللغة والاشتقاق والنحو وأسباب النزول والأخبار والقصص. وقد صنّفه قبل أن يلتقى بشيخه الدقاق أي قبل أن يسلك المسلك الصوفي، فأعانه ذلك على أن يفقه العبارة من معظم زواياها المتصلة بالظاهر، حتى إذا بدأ يكتب " اللطائف " كان طريقه إلى الإشارة وإلى فقه الباطن ممهدا، ومناله ميسورا، وآفاقه مفتّحة.

سار القشيري في " اللطائف " على خطة واضحة محددة التزم بها من أول الكتاب إلى آخره، فهو يبدأ بتفسير البسملة كلمة كلمة،

وأحيانا حرفا حرفا، والبسملة تتكرر بلفظها في مفتتح كل سورة، ومع ذلك فإننا نجده يلجأ إلى تفسير كل بسملة على نحو ملفت للنظر إذ هى تختلف وتتنوع ولا تكاد تتشابه، ويزداد إعجابنا بالقشيري كلّما وجدنا تفسير البسملة يتمشى مع السياق العام للسورة كلّها، فاللّه والرحمن والرحيم لها دلالات خاصة في سورة القارعة، ولها دلالات أخرى في سورة النساء ولها دلالات خاصة في الأنفال وهكذا...

وتوقف القشيري طويلا عند المواقف النفسية وعند الاستدلالات الوجدانية في الأسلوب القرآنى فكشف الكثير من أسرار الإعجاز القرآنى كما أبان عن عبقريته في التذوق الفنى، وليس ذلك غريبا بالنسبة لصوفىّ ذى بصيرة كاشفة، وشاعر له حس دقيق مرهف، وباحث متعمق في أغوار النفس البشرية، وأديب يحسن التعبير عما يذوق ويجد. نفعنا الله بعلمه وبركته [1].

* * *

(١) مقدمة كتاب لطائف الإشارات، ١/ ٢٤ باختصار.

ابو عبيدة معمر ابن المثنى

أعــلام التفسيـر

أبو عبيدة معمر بن المثنى
صاحب كتاب: مجاز القرآن

هو معمر بن المثنى التيمي تيم قريش، أو تيم بنى مرّة على خلاف بينهم، وهو على القولين معا مولى لتيم وقد اختلفوا في مولده، ولعل الأقرب إلى الصحة أنه ولد في سنة ١١٠ هـ، وتتحدث المراجع عن آباء أبى عبيدة، فتقول - استنادا إلى قول يرويه أبو العيناء عن أبى عبيدة - إنه يهودىّ الأصل، على أننا نظن أن أبا عبيدة في حديثه عن آبائه لم يكن يقصد إلى الجدّ، وجوّ هذا الحديث يشعر بهذا الذي نظنه، غير أن شعوبية أبى عبيدة، وحدته في نقد معاصريه كل ذلك جعل خصومه يحملون هذا القول منه محمل الجدّ لينالوا منه، أما أنه كان يفتخر بيهوديته وهو ما يراه بعض الباحثين الغربيين فبناء على غير أساس، ثم هو بعد غير مفهوم من نص أبى عبيدة الذي يرويه أبو العيناء.

ولم تذكر المراجع أين ولد أبو عبيدة، ومع ذلك فهى تضعه في عداد علماء البصرة فلعله ولديها، بعد حياة ليست قصيرة اكتمل فيها نضجه العلمي ارتحل إلى بغداد في سنة ثمانية وثمانين ومائة حيث جالس الفضل بن الربيع وجعفر بن يحيى وسمعا منه.

ثم إنه خرج إلى بلاد فارس قاصدا موسى بن عبد الرحمن الهلالىّ.

وفيما بين سنتى ٢٠٩، و٢١٣ هـ توفى وقد عمّر، وكان وقد بلغ من الكبر المدى - يتمثل بقول الطمحان القينى:

حنتنى حانيات الدهر حتّى ::: كأنى خاتل يدنو لصيد
قريب الخطو يحسب من رآنى ::: ولست مقيّدا – أنى بقيد

ولم يحضر جنازته - فيما يقول مؤرخوه - أحد لأنه كان شديد النقد

لمعاصريه [١].

مذهبه:

تكاد تتفق كلمتهم على أن أبا عبيدة كان من الخوارج، وأنه كان يكتم ذلك ولا يعلنه، ثم اختلفت رواياتهم في الفرقة التي كان ينتمي إليها فبعضهم يقول إنه كان صفريا، على حين أن البعض الآخر منهم يرى أنه كان من الأباضية واستدلوا على انتسابه إلى مذهب الخوارج بأنه كان كثيرا ما ينشد أشعارهم ويفيض في الحديث عنهم وعن أخبارهم ومفاخرهم - يفعل ذلك في تقدير لهم وإعجاب بهم ثم نسبوه بعد إلى القول بالقدر، وربما كان سبب ذلك أنه كان يمدح النّظام ويعظم شأنه، ولكن أبا حاتم كان يبرئه من القدر وينفيه عنه [٢].

ونسبة أبى عبيدة إلى مذهب الخوارج تارة، وإلى القول بالقدر تارة أخرى تكشف عن صلته بمعاصريه وتدل على أنه لم يكن محبوبا بينهم، ولعل في نسبة آبائه إلى اليهودية على أنه ليس في كتاب المجاز ما يدل على هذه الميول.

شيوخه:

أخذ عن أبى عمرو بن العلاء النحو والشعر والغريب، وفي " مجاز القرآن " أثر أبى عمرو الواضح على أبى عبيدة.. وعن أبى الخطاب الأخفش، وعيسى بن عمر الثقفي، ولازم يونس بن حبيب زمنا طويلا وكتب عنه، وروى عن هشام بن عروة، ووكيع بن الجراح، كما أخذ عن جماعة من فصحاء الأعراب وثقاتهم مثل أبى سوار الغنوي، وأبى محمد عبد الله بن سعيد الأموى، وأبى عمرو الهذلي،

(١) انظر مقدمة تحقيق كتاب مجاز القرآن، من نشر مكتبة الخانجى وتحقيق محمد فواد سزكين، ص ٩.

(٢) مقالات الإسلاميين ١/ ١٢٠، مقدمة تحقيق كتاب مجاز القرآن، من نشر مكتبة الخانجى وتحقيق محمد فواد سزكين، ص ١١.

ومنتجع بن نبهان العدوى، وأبى منيع الكليبى، وكان يسأل رؤبة بن العجاج أحيانا، كما نجد ذلك في مواضع متعددة من " المجاز " [١].

منزلته العلمية:

يقول الجاحظ: " لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعى أعلم بجميع العلوم من أبى عبيدة، وكان له إلى هذه السعة في العلم نفاذ وعمق يتمثلان في قولهم عنه: " إنه كان ما يفتّش عن علم من العلوم إلا كان من يفتشه عنه يظن أنه لا يحسن غيره، ولا يقوم بشىء أجود من قيامه به.

وقد عاصر من علماء اللغة الأصمعيّ، وأبا زيد، وكان بينهم من الخلاف ما يكون بين المتعاصرين، ولكنّ خلافهم هذا لم يصل إلى الريبة في الثقة بما يرويه كل واحد منهم، أو إلى الأنفة من الاعتراف بالحق لصاحبه حين يبدو وجه هذا الحق. ذلك لأنهم لم يكونوا يختلقون ولا يتزيدون.

ومن هنا نرى شذوذ قول بعض الباحثين الغربيين: إن أبا عبيدة كان حين يضيق علمه يختلق ما يفيده في نزعته وكان الرواة والآخذون عنهم يرجّحون أبا عبيدة إذا قاسوه بصاحبيه أو بأحدهما، على ما ساءت عبارته وحسنت عبارة الأصمعى التي هيأت له أن يفوز على أبى عبيدة في مواقف يذكرها الرواة، ولعل ملحظهم في هذا التفضيل أن أبا عبيدة كان له - إلى غزارة العلم - مرونة وحرية في فهم اللغة لم تكن عند الأصمعى وأبى زيد، على أن أبا عبيدة وأبا زيد كانا يتفقان في كثير من مسائل اللغة [٢].

(١) مقدمة تحقيق كتاب مجاز القرآن، من نشر مكتبة الخانجى وتحقيق محمد فواد سزكين، ص ١١.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢.

ثقافة أبى عبيدة:

كان أبو عبيدة من المعمّرين، وفي عهده وضعت أسس العلوم الإسلامية على ما اختلفت نواحيها من تفسير وحديث وفقه وأخبار، وكان أبو عبيدة يشارك في أنواع هذه الثقافة مشاركة جيدة، ومن هذا تعددت كتبه وموضوعاته فيها، ونستطيع أن نتبين في كتبه جوانب من هذه الثقافة فهى لغوية بما فيها من تفسير وحديث وغريب، وهى تاريخية تتناول مواضيع في تاريخ العرب وعاداتهم في جاهليتهم أحيانا وفي إسلامهم أحيانا أخرى، وقد تتجاوز ثقافته هذه الأمة العربية إلى عادات وأخبار لغير العرب.

أبو عبيدة في رأى معاصريه:

على أن سعة معارف أبى عبيدة ونفاذه فيها لم تسم به إلى حيث تحول دون أن يصله النقد من معاصريه في حياته، ومن تابعيهم بعد وفاته، وقد كانت شعوبيته - وهى الموقف الذي يتخذ فيه أبو عبيدة صفة المعادى أو المناوئ للعرب - مدخلا تسرب منه إليه الكثير من النقد الذي لم يؤاخذ به غيره فإذا ما أردنا أن نعرف بعض الأمثلة لهذا كان من ذلك أنه لا يقيم البيت من الشعر إذا أنشده حتى يكسره، وأنه كان يخطيء إذا قرأ القرآن نظرا، وأنه يلحن في قراءة الشعر - إلى أشباه لهذا.

وليس هناك شك في أن أبا عبيدة كان يلحن حين يتحدث، فالحديث اليومي العادىّ أيام أبى عبيدة لم يكن من سلامة البنية بحيث يلتزم فيه الإعراب، وشأن أبى عبيدة في هذا شأن غيره من المتحدثين الذين كانوا يكرهون التزام الإعراب وسلوك سبيل " التقعير " في حديثهم العادىّ. وأما أنه كان لا يقيم البيت من الشعر، وأنه كان يلحن فمردّه فيما نرى ضعف الملكة التطبيقية عند أبى عبيدة، وهو أمر مألوف غير غريب حين تتسع الفروق وتعظم بين لغة الحياة اليومية ولغة

العلم والأدب، أما ما رآه أبو عبيدة من آراء نحوية وخالفه فيها النّحاة وخطؤوه فهو الأمر الذي يجب أن يكون لـه محمل يليق بمكانـة أبـى عبيدة العلامية.

والذي نرجو أن يكون صوابا في مسلك أبـى عبيدة أنـه كـان يعتمد على حسه اللغوي الخاص في إعراب آيات أو أشعار بدون أن يقدر ما كانت تؤسسه المدرسة النحوية في عهده من قواعد تلتزم السير عليها ولا تتعداها، ومن هنا جاء نكيرهم عليه.

على أن اتجاه أبى عبيدة الذي انصرف فيه - قاصدا أو غير قاصد - عن مسلك النحويين من معاصريه لم يعدم تقديرا من الدّارسين المعاصرين الذين يعنون بتاريخ النحو العربىّ فأبو عبيدة التفت إلـى أبواب من سر العربيـة حال دون الاستفادة منها مسلك النحاة بما أحكموا من قواعد وأسسوا من أسس [١].

الحس الفنى عند أبى عبيدة:

ويتصل بهذا أن أبا عبيدة لم يكن راوية وأخباريا جافا وحسب، وإنما كان - إلى وفرة محصوله العلمي - يدرك ما في اللغة والشعر من جمال فنى، ويقف عنده، ويقارن الصور الشعرية بعضها ببعض، ثم ينبه على المعاني الجديدة الخاصة بكل شاعر، وفي التراث الأدبى العظيم الذي خلّفه لنا أدلة واضحة على هذا.

تصانيفه:

نقل الرواة أن تصانيف أبـى عبيدة كانت تقارب المائتين، ولكن أغلبها لم يصل إلينا إلا عن طريق ذكره في المصادر التي تحدثت عن أبى عبيدة فقد ذكر ابن النديم لـه مائة وخمسة، وورد في كتب

(١) تحقيق كتاب مجاز القرآن، من نشر مكتبة الخانجى وتحقيق محمد فواد سزكين، ص ١٢.

أخرى ما لم يذكره ابن النديم منها.

مجاز القرآن:

يذكر المؤرخون أن ابراهيم بن إسماعيل الكاتب أحد كتّاب الفضل ابن الربيع سأل أبا عبيدة عن معنى آية من القرآن فأجاب عن السؤال واعتزم أن يؤلف مجاز القرآن. ومهما كان الداعي إلى تأليف هذا الكتاب فقد كان أبو عبيدة يرى أن القرآن نص عربى، وأن الذين سمعوه من الرسول ومن الصحابة لم يحتاجوا في فهمه إلى السؤال عن معانيه لأنهم كانوا في غنى عن السؤال ما دام القرآن جاريا على سنن العرب في أحاديثهم ومحاوراتهم، ومادام يحمل كل خصائص الكلام العربي من زيادة وحذف وإضمار واختصار وتقديم وتأخير.

ومن هنا فسر القرآن وعمدته الأولى الفقه بالعربية وأساليبها واستعمالاتها والنفاذ إلى خصائص التعبير فيها، ولما كان هذا الاتجاه لا يبعد كثيرا عن " تفسير القرآن بالرأى " وهو الأمر الذي كان يتحاشاه كثير من المعاصرين له من اللغويين المحافظين فقد تعرض مسلك أبى عبيدة هذا لكثير من النقد فأثار الفراء الذي تمنى أن يضرب أبا عبيدة لمسلكه في تفسير القرآن، وأغضب الأصمعىّ، ورأى أبو حاتم أنه لا تحل كتابة " المجاز " ولا قراءته إلا لمن يصحح خطأه ويبينه ويغيّره، وكذلك كان موقف الزجاج، والنحاس، والأزهريّ منه.

وقد عنى بنقد أبى عبيدة على بن حمزة البصري المتوفى سنة ٣٧٥ هـ في كتابه: " التنبيهات على أغاليط الرواة ".

على أن " مجاز القرآن " على الرغم من الذي سدد إليه من نقد ظل بين الدارسين مرجعا أصيلا طوال العصور فقد اعتمد عليه ابن قتيبة (٢٧٦هـ) في كتابيه " المشكل " و " الغريب "، والبخاري (٢٥٥ هـ) في " الصحيح "، وكذلك اعتمد عليه الطبري (٣١٠ هـ) في

تفسيره وأكثر من مناقشته ومقارنة رأيه بآراء أهل التأويل والعلم، واستفاد منه أبو عبد الله اليزيدي (٣١١ هـ)، والزجاج (٣١١ هـ) في معانيه، وابن دريد (٣٢١ هـ) في " الجمهرة " وأبو بكر السجستاني (٣٣٠ هـ) في " غريبه " وابن النحاس (- ٣٣٣ هـ) في معانى القرآن، والأزهرى (٣٧٠ هـ) في التهذيب وأبو على الفارسي في الحجة (٣٧٧ هـ)، والجوهري (٣٩١ هـ) في الصحاح وأبو عبيد الهروي (٤٠٢ هـ) في الغريبين، وابن برى (٥٨٢ هـ) في حواشى الصحاح وغيرهم من المتقدمين، ومن أهم من استفاد من كتاب المجاز من المتأخرين ابن حجر العسقلاني في " فتح الباري " [١].

حول اسم مجاز القرآن:

ذكر ابن النديم كتبا لأبى عبيدة تتصل بالقرآن: " مجاز القرآن "، و" غريب القرآن "، و" معانى القرآن " ثم " إعراب القرآن "، وكذلك صنع من جاء بعد ابن النديم. وهذا الصنيع يفهم منه أن هناك كتبا متعددة لأبى عبيدة في هذا الموضوع، وهنا يأتى السؤال الآتي: هل ألف أبو عبيدة كتبا بهذه الأسماء؟

أو هى أسماء متعددة والمسمّى واحد هو هذا الذي بين أيدينا الآن وهو " مجاز القرآن " ؟

والذي نظنه أن ليس هناك لأبى عبيدة غير كتاب " المجاز "، وأن هذه الأسماء، أخذت من الموضوعات التي تناولها " المجاز " فهو يتكلم في معانى القرآن، ويفسّر غريبه وفي أثناء هذا يعرض لإعرابه. ويشرح أوجه تعبيره وذلك ما عبّر عنه أبو عبيدة بمجاز القرآن فكلّ سمّى الكتاب بحسب أوضح الجوانب التي تولّى الكتاب تناولها، ولفتت نظره أكثر من

(١) مقدمة تحقيق كتاب مجاز القرآن، من نشر مكتبة الخانجى وتحقيق محمد فواد سزكين، ص ١٤.

غيرها. ولعل ابن النديم لم ير الكتاب، وسمع هذه الأسماء من أشخاص متعددين فذكر لأبى عبيدة في موضوع القرآن هذه الكتب المختلفة الأسماء.

منهج التفسير عند أبى عبيدة:

مرت الإشارة في مواطن متعددة من هذه الكلمة إلى جوانب من شخصية أبى عبيدة كانت تميزه عن معاصريه، وتتجه به في فهم النصوص اتجاها خاصا، وبتلك الإشارات نستغنى عن إعادة الحديث في حريته في فهم النصوص، وسعة ثقافته ونظرته إلى نص القرآن إلخ. ولكننا نضيف هنا أن مما يمتاز به أبو عبيدة في تفسيره أنه لم يتقيد بالقيود التي كانت المدرستان البصرية والكوفية تضعانها لفهم النصوص العربية، لأن هاتين المدرستين كانت في دور التكوين، وبهذا نجا أبو عبيدة من أن يخضع لقواعدهما. وقد عنى - في ضوء هذا التحرر - بالناحية اللغوية في القرآن، وأكثر من الاستشهاد على الآيات بالشعر العربي، وعنايته بالجانب اللغوي صرفته عن الاشتغال بالقصص القرآنى وتفصيل القول فيه، كما صرفته عن تتبع أسباب النزول إلا عند ما كان يقتضى فهم النص التعرض لذلك.

رواية كتاب المجاز:

وكان حظ المجاز من رواية الناس غير قليل فقد رواه جماعة من الناس، وليس من اليسير تحديد عدد الروايات، ولكن المراجع احتفظت بطائفة منها نجملها فيما يلى:١ - رواية أبى الحسن على بن المغيرة الأثرم

٢ - رواية أبى حاتم السجستاني

٣ - رواية رفيع بن سلمة.

٤ - رواية عبد الله بن محمد التوزى

٥ - رواية أبى جعفر المصادرى.

ولم يصل إلينا من هذه الروايات إلا رواية الأثرم، وقد تفرعت إلى فروع ثلاثة حسب الرواة عن الأثرم [1].

* * *

(١) مقدمة تحقيق كتاب مجاز القرآن، من نشر مكتبة الخانجى وتحقيق محمد فواد سزكين، ص ٢٠.

الإمام الزركشي

الإمام الزركشي

أعــلام التفسيــر

الإمام الزركشي
وتفسيره: البرهان في علوم القرآن

أحد العلماء الأثبات الذين نجموا بمصر في القرن الثامن، وجهبذ من جهابذة أهل النظر وأرباب الاجتهاد، وهو أيضا علم من أعلام الفقه والحديث والتفسير وأصول الدين.

ولد بالقاهرة سنة خمس وأربعين وسبعمائة حينما كانت معمورة بالمدارس، غاصة بالفضلاء وحملة العلم، زاخرة بدور الكتب الخاصة والعامة، والمساجد الحافلة بطلاب المعرفة، والوافدين من شتى الجهات، ولم يكد يجاوز سن الحداثة حتى انتظم في حلقات الدروس، وتفقه بمذهب الشافعي، وحفظ كتاب المنهاج في الفروع للإمام النووي، وصار يعرف بالمنهاجى نسبة إلى هذا الكتاب.

وكان الشيخ جمال الدين الإسنوي رئيس الشافعية بالديار المصرية بدر العلماء الزاهر، وكوكبهم المتألق، وإمام أهل الحديث بالمدرسة الكاملية غير مدافع، فلزمه وتلمذ له، ونهل من علمه ما شاء الله له أن ينهل، فكان من أنجب تلاميذه وأوعاهم، وأفضلهم وأذكاهم، كما تخرج على الشيخ سراج الدين البلقيني، والحافظ مغلطاي، وغيرهم من شيوخ مصر وعلمائها.

ثم ترامت إليه شهرة الشيخ شهاب الدين الأذرعي بحلب، والحافظ ابن كثير بدمشق فشد إليهما الرحال، قصد إلى حلب أولا حيث أخذ عن الأذرعي الفقه والأصول، ثم عمد إلى دمشق حيث تلقى على ابن كثير الحديث، ثم عاد إلى القاهرة وقد جمع أشتات العلوم، وأحاط بالأصول والفروع، وعرف الغامض والواضح، ووعى الغريب والنادر، واستقصى الشاذ والمقيس، إلى ذكاء وفطنة، وثقافة والمعية، فأهله كل ذلك للفتيا والتدريس، والتوفر على الجمع والتصنيف، واجتمع له من المؤلفات في عمره القصير ما لم يجتمع لغيره من

أفذاذ الرجال، وإن كان هذا الفضل لم يعرفه الناس إلا بعد وفاته، وحين توارت شمس حياته.

وكان رضى الخلق، محمود الخصال، عذب الشمائل، متواضعا رقيقا، يلبس الخلق من الثياب، ويرضى بالقليل من الزاد، لا يشغله عن العلم شيء من مطالب الدنيا، أو شئون الحياة.

قال ابن حجر: (وكان مقطعا في منزله لا يتردد إلى احد الا إلى سوق الكتب، وإذا حضر إليها لا يشترى شيئا، وإنما يطالع في حانوت الكتبي طول نهاره ومعه ظهور أوراق يعلق فيها ما يعجبه، ثم يرجع فينقله إلى تصانيفه) وحكى تلميذه شمس الدين البرماوي أنه كان منقطعا إلى الاشتغال بالعلم لا يشتغل عنه بشيء، وله أقارب يكفونه أمر دنياه.

وكان يكتب مصنفاته بنفسه، وخطه رديء جدا قل من يحسن استخراجه، كما أخبر بذلك ابن العماد، ولهذا شاع في الكتب المنقولة عن خطه الغموض والإبهام والتحريف والتصحيف، ولقي منها القراء والدارسون العناء الكثير.

وتولى من المناصب خانقاه كريم الدين بالقرافة الصغرى.

وتوفى بمصر في رجب سنة أربع وتسعين وسبعمائة، ودفن بالقرافة بالقرب من تربة بكتمر الساقي يرحمه الله.

مؤلفاته:

١ - الإجابة على إيراد ما استدركته عائشة على الصحابة.

٢ - إعلام الساجد بأحكام المساجد.

٣ - البحر المحيط في أصول الفقه.

٤ - البرهان في علوم القران.

٥ - تخريج أحاديث الشرح الكبير للرافعي، المسمى بكتاب فتح

العزيز على كتاب الوجيز.
٦ - تشنيف المسامع بجمع الجوامع.
٧ - تفسير القرآن.
٨ - تكملة شرح المنهاج للإمام النووي.
٩ - التنقيح لألفاظ الجامع الصحيح.
١٠ - خادم الرافعي والروضة في الفروع.
١١ - خبايا الزوايا في الفروع.
١٢ - خلاصة الفنون الأربعة.
١٣ - الذهب الإبريز في تخريج أحاديث العزيز = تخريج أحاديث الرافعي.
١٤ - ربيع الغزلان.
١٥ - رسالة في كلمات التوحيد.
١٦ - زهر العريش في أحكام الحشيش.
١٧ - سلاسل الذهب في الأصول.
١٨ - شرح الأربعين النووية.
١٩ - شرح البخاري.
٢٠ - شرح التنبيه للشيرازي.
٢٢ - عقود الجمان وتذييل وفيات الأعيان لابن خلكان.
٢٣ - الغرر السوافر فيما يحتاج إليه المسافر.
٢٤ - فتاوى الزركشي.
٢٥ - في أحكام التمني.
٢٦ - القواعد في الفروع.
٢٧ - اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة.

٢٨ - لقطة العجلان وبلة الظمآن في أصول الفقه والحكمة والمنطق.
٢٩ - مالا يسع المكلف جهله.
٣٠ - مجموعة الزركشي - في فقه الشافعي.
٣١ - المعتبر في تخريج أحاديث المنهاج والمختصر.
٣٢ - النكت على عمدة الأحكام.
٣٣ - النكت على ابن الصلاح.

حول كتاب البرهان:

وكتاب البرهان في علوم القرآن من الكتب العتيدة التي جمعت عصارة أقوال المتقدمين، وصفوة آراء العلماء المحققين، حول القرآن الكريم، وكتاب الله الخالد، كسره على سبعة وأربعين نوعا، كل نوع يدور حول موضوع خاصًا من علوم القرآن ومباحثه، يستأهل كل نوع أن يكون موضوعا خاص، حاول في كل موضوع أن يؤرخ له، ويحصى الكتب التي ألفت فيه، ويشير إلى العلماء والمحدثين، إلى مباحث الفقهاء والأصوليين، إلى قضايا المتكلمين وأصحاب الجدل، إلى مسائل العربية وآراء أرباب الفصاحة والبيان، فجاء كما شاء الله كتابا فريدا في فنه، شريفا في أغراضه، مع سداد المنهج، وعذوبة المورد، وغزارة المادة، بعيدا عن التعمية واللبس، ناوئا عن الحشو والفضول.

ولكن هذا الكتاب لم يكن معروفا عند الباحثين، ولا متداولا بين الطلاب والدارسين، عدا قلة من المشغوفين بمعرفة النوادر ورواد المكتبات، شأنه شأن الكثير من كتب الزركشي على عظيم خطرها، وجلالة موضوعاتها، ومقدار غنائها ونفعها، حتى جاء جلال الدين السيوطي ووضع كتابه الإتقان، فدل الناس في مقدمته عليه، وأشاد به، وعده أصلا من الأصول التي بنى عليها كتابه، وتأسي طريقته،

وتقيل مذهبه، وسار في الدرب الذي رسمه، ونقل كثيرا من فصوله، مرة معزوة إليه، ومرة بدون عزو، وإن كان فيما نقل عنه اقتضب الكلام اقتضابا، واختصره اختصارا، وبهذا ظفر كتاب الإتقان بمنزلة مرموقة عند العلماء، وغدا مرجعا للباحثين حقبة من الزمان، وظل كتاب البرهان متواريا عن العيان، مطمورا في زوايا النسيان [١].

* * *

(١) مقدمة تحقيق كتاب البرهان في علوم القرآن للزركشي للمحقق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م.
نشر دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.

الفيروزبادي

أعـــلام التفسيـــر

الفيروزبادي

بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز

في مدينة (كارزين) إحدي مدن إقليم فارس من أقاليم إيران وُلد مجد الدين الفيروز آبادى محمد بن يعقوب.

وكانت ولادة المجد في ربيع الآخر - وقيل: في جمادى الآخرة - سنة ٧٢٩هـ (سنة ١٣٢٩م). ولا يعرف من أخبار أُسرته إلا أن أباه كان من علماء اللغة والأدب في شيراز. وقد توجّه إلى حفظ القرآن فحفظه وهو ابن سبع سنين. وكان سريع الحفظ، واستمرَّ له ذلك في حياته. وكان يقول: لا أنام حتى أحفظ مائتى سطر.

وقد بدا ميله إلى اللغة في زمن مبكِّر. فيذكر السخاويُّ أنه نقل إذ ذاك كتابين من كتب اللغة، والظاهر أن هذا بتوجيه أبيه.

وقد انتقل في السنة الثامنة من حياته إلى شيراز في طلب العلم. فأخذ عن أبيه اللغة والأدب. ويدخل في ذلك النحو والصرف وعلوم البلاغة، وأخذ عن القوام عبد الله بن محمود بن النجم. وتلقَّى الحديث عن محمد بن يوسف الزَّرَنْدىّ الحنفىّ المدنىّ وكانت وفاته سنة بضع وخمسين وسبعمائة.

ونجد أن اتجاهه لعلوم المنقول، ولا نراه يتَّجه لعلوم المعقول كالمنطق والكلام، كما نرى ذلك في علاَّمتى المعقول في عصره وبيئته: سعد الدين التفتازانى المتوفى سنة ٧٩٢هـ، والسيد الشريف الجرجانى المتوفى سنة ٨١٦هـ.

ويفارق شيراز في سنة ٧٤٥هـ إلى العراق، فيدخل واسطا، ويقرأ بها القراءات العشر على الشهاب أحمد بن علىّ الديوانىّ. ويدخل بغداد فيأخذ عن التاج محمد بن السبّاك، والسراج عمر بن علىّ القزوينىّ، وعليه سمع الصحيح (الظاهر أنه صحيح البخارى) ومشارق الأنوار للصاغانىّ في الحديث، ويذكر ابن حجر في الدرر الكامنة هذا الرجل،

فيصفه بأنه محدّث العراق، ويقول: " ومات سنة ٧٥٠هـ. وروى عنه جماعة من آخرهم شيخنا مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازى صاحب القاموس " ويختصّ فيها بقاضى بغداد الشرف عبد الله بن بكتاش. وكان مدرّس النظاميّة، فيعمل مُعيدا عنده. ويمكثُ هكذا في بغداد سنين.

وبعد هذا يدخل دمشق سنة ٧٥٥هـ، فيأخذ عن علمائها ومحدّثيها، كقاضى القضاة التقىّ السبكّى المتوفى سنة ٧٥٦هـ، وابنه التاج عبد الوهاب المتوفى سنة ٧٧١هـ، ومحمد بن إسماعيل المعروف بابن الخبَّاز مسِند دمشق المتوفى سنة ٧٥٦هـ، وابن قيِّم الضيائيَّة عبد الله بن محمد ابن إبراهيم المتوفى سنة ٧٦١هـ.

وطاف في بلاد الشام يأخذ عن علمائها. واستقرَّ به المقام حينا من الدهر في بيت المقدس. فأخذ عن صلاح الدين خليل بن كَيْكَلدِى العلائى، وكان مدرس المدرسة الصلاحية بالقدس من سنة ٧٣١هـ، وكانت وفاته سنة ٧٦١هـ بالقدس.

نسب المجد ولقبه، وما اشتهر به :

أملى المجد نسبه، ورفعه إلى أبى إسحاق الشيرازى إبراهيم بن علىّ الذي كان علما في فقه الشافعية، وهو صاحب التنبيه والمهذَّب. وكانت وفاته سنة ٤٧٦هـ.

وسياقه نسبه - كما في الضوءِ اللامع : محمد بن يعقوب بن إبراهيم ابن عُمَر بن أبى بكر بن أحمد بن محمود بن إدريس بن فضل الله ابن الشيخ أبى إسحاق إبراهيم بن على بن يوسف بن عبد الله.

ويذكر ابن حَجَر في إنباءِ الغُمر أن شيوخه كانوا يطعنون في رفع نسبه إلى أبى إسحاق مستندين إلى أن أبا إسحاق لم يُعقب. وفي الضوءِ أن هذا القول مرجعه إلى الظن لا إلى اليقين.

ويذكر ابن حَجَر أيضاً أن المجد بعد أن ولى القضاءَ باليمن ارتقى درجة فصار يدّعى انتسابه إلى أبى بكر الصدِّيق رضى الله عنه، ويقول:

" وزاد إلى أن قرأت بخطّه لبعض نوّابه في بعض كتبه: كتبه محمد الصدِّيقى. ولم يكن مدفوعاً عن معرفة، إلاَّ أن النفس تأبى قبول ذلك " وقد حاولت أن أقف على تمام نَسب أبى إسحاق، وأن أتعرَّف حال نسبته إلى أبى بكر رضى الله عنه، فلم أهتد إلى مرجع في ذلك.

واشتهرت نسبته " الفيروز آبادى " وهى نسبه إلى فيروز آباد - بفتح الفاءِ وكسرها - وهى مدينة (جُور) في جنوبىِّ شيروز، وفي شمالىِّ كارزين. وفي خاتمة تاج العروس أظن فيروز آباد كان منها أبوه وجَدّه. وهذا القول في النفس منه شىء. فقد كان مولد المجد في كارزين، وبقى فيها سنيه السبع الأولى ثم ينتقل إلى شيراز، ولا نرى له علاقة بفيروز آباد، وكذلك نرى أباه من علماءِ شيراز، ولا نرى له ذكراً في فيروز آباد. وقد يقال: إن كارزين بلدة أُمّه، وإن أخبار أبيه لم يبلغنا منها إلا النزر اليسير. وفي ظنِّى أن هذه النسبة أتته من قبل انتسابه إلى أبى إسحاق، فقد كان من فيروز آباد، وطلب العلم في شيراز، واستقرّ به المقام في بغداد.

ويقال في نسبه أيضاً: الشيرازىّ، إذ تلقى العلم في مبدإ أمره في شيراز. ونراه ينسب إلى كارزين.

ومما يدخل في هذا الفصل أنه كان يحبُّ الانتساب إلى الحرم المكّىِّ: لإقامته فيه مراراً، كما سبق. فكان يكتب: " الملتجئ إلى حرم الله تعالى ". وفي تاج العروس في آخره أنه وجد في بعض النسخ: " قال مؤلفه الملتجئ إلى حَرَم الله محمد بن يعقوب الفيروز آبادى... " ويقول السخاوى وغيره: إنه كان يقتدى في هذا بالصاغانى الحسن بن محمد المتوفى في بغداد سنة ٦٥٠هـ، أى قبل سقوط بغداد

واستيلاءِ التتار عليها بست سنوات. وقد كان المجد يقتدى بالصاغانى، ويعتمد عليه في اللغة وغيرها. ونرى أن الصاغانىّ الذي قدِّرت وفاته في بغداد كان أوصى أن يدفن في مكة، فنقل إليها تنفيذاً لوَصِيَّته.

أستاذية المجد :

ولى المجد في بيت المقدس عدّة تداريس. ومعنى ذلك أنه كان مدرّسا في عدّة مدارس، يتقاضى من كل مدرسة نصيبه المخصَّص لدرسه في الوقف. وهنا تبدأ أُستاذيَّته، فيأخذ عنه الناس، وممن أخذ عنه الصلاح الصفَدى المتوفى بدمشق سنة ٧٦٤هـ، وأخذ هو أيضاً عن الصلاح. وفي الضوءِ اللامع أظنه بقى في القُدس عشر سنوات أى إلى سنة ٧٦٥هـ. ولكنَّا نراه في خلال هذه المدّة مرَّة في القاهرة، كما يأتى، فلا بدَّ أنه في أثناءِ هذه المدّة كان يرحل إلى جهات أخرى، ويعود إلى القدس.

ولا يقنع المجد بمكانه في القدس وتداريسه، فيرحل إلى القاهرة، ويلقى علماءَها، كبهاءِ الدين عبد الله بن عبد الرحمن المشهور بابن عقيل شارح الألفيَّة المتوفى سنة ٧٦٩هـ، وجمال الدين عبد الرحيم الإسنوىّ المتوفَّى سنة ٧٧٢هـ، وابن هشام عبد الله بن يوسف النحوىّ المشهور، المتوفَّى سنة ٧٦١، ونرى من هذا أنه جاءَ مصر قبل سنة ٧٦٥هـ، فإذا صحّ أنه استقرّ في القدس عشر سنوات منذ سنة ٧٥٥ هـ فإنه كان يحضر مصر في رحلات ثم يعود إلى القدس [١].

ونرى في العقد الثمين أنه قدم مكَّة قبل سنة ٧٦٠هـ. وعلى حسب كلام السخاوىّ يكون قدومه إلى مكة من بيت المقدس. ثم يقول: إنه

(١) انظر مقدمة تحقيق بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ص ٤.

قدمها بعد ذلك سنة ٧٧٠هـ، وإنه في هذه المرة أقام بها خمس سنين متوالية، أو ست سنين - يشكُّ الفاسىُّ صاحب الكتاب - ثم رحل عنها أى في سنة ٧٧٥ هـ، أو سنة ٧٧٦ هـ، ولا يذكر الفاسىُّ إلى أين رحل. ثم يذكر أنه عاد إلى مكة غير مرَّة بعد التسعين، وكان بها مجاوراً سنة ٧٩٢ هـ، ومجاورة الحرم أن يظل في مكة بعد الحجّ، ولا يعود إلى بلده مع العائدين. ولا أدرى لمَ لمْ يجعله مجاورا في السنين الخمس المتوالية أو السنين الست التي أقامها بمكة. وقد رحل في هذه المرة من مكة إلى الطائف، واشترى فيها بستاناً كان لجدِّ الفاسىّ من جهة أُمِّه. ولا بدّ أنه في مكة كان يدرّس في مدارس، ويتقاضى منها مرتبات يعيش بها. وقد أخذ عنه الفاسىّ، ويلقبه بشيخنا.

رحلات المجد ووفادته على الملوك :

تبيَّن القارئُ مما سبق كثرةُ رحلاته في طلب العلم. وقد كان أيضاً كثير الوفادة على الملوك والأمراءِ لعهده. ويُذكر أنه كان له حُظوة عندهم، فلم يدخل بلدا إلا وأكرمه متوليها.

فنراه اتصل بالأشرف سلطان مصر. والظاهر أنه الأشرف شعبان ابن حسين من ملوك المماليك الترك، وقد ولى ملك مصر سنة ٧٦٤ هـ، وقتل سنة ٧٧٨ هـ وقد أجازه الأشرف ووصله، وفي النجوم الزاهرة: " كانت أيام الملك الأشرف شعبان المذكور بَهجة، وأحوال الناس في أيامه هادئة مطمئنَّة، والخيرات كثيرات... ومَشَى سوق أرباب الكمالات في زمانه من كل علم وفنّ، ونفقت في أيامه البضائع الكاسدة من الفنون والمُلَح، وقصدته أربابها من الأقطار، وهو لا يكلّ من الإحسان إليهم في شيء يريده، وشئ لا يريده، حتى كلَّمه بعض خواصّه، فقال - رحمه الله - : أفعلُ هذا لئلا تموت الفنون في دولتى وأيَّامى ".

وفي سنة ٧٩٢ هـ كان المجد بمكة، فاستدعاه ملك بغداد أحمد بن أُويس إليها بكتاب " كتبه إليه، وفيه ثناء عظيم عليه، من جملته:

القائل القولَ لو فاه الزمان به ::: كانت لياليه أَياما بلا ظُلَم

والفاعل الفعلَة الغرَّاء لو مُزِجت ::: بالنار لم يك ما بالنار من حُمَم

وفيه بعد ذكر هديَّة من مستدعيه:

ولو نطيق لَنهدى الفرقدين لكم ::: والشمسَ والبدر والعيُّوق والفلكا

وصدور هذا من سلطان لعالم منقبة كبيرة له، وقد ذهب إلى بغداد مع الركب العراقىّ بعد الحجّ، ونال برَّه وخيره.

وقد رحل إلى الهند، ووصل إلى دِهْلى. وفي العقد الثمين أن دخوله لليمن من بلاد الهند، وقد دخل اليمن سنة ٧٩٦ هـ، فيكون رحلته إلى الهند، متَّصلة بهذا التاريخ، وكان هذا في عهد السلطان اسكندر شاه الأول الذي ولى السلطان في سنة ٧٩٥ هـ، فإن كان في الهند قبل هذا التاريخ فإنه يكون اتصل أيضاً بالسلطان محمد شاه سلف هذا السلطان، وهما من بنى تغلق شاه.

وذهب إلى بلاد الروم (الأناضول) ولقى فيها حُظوة عند السلطان بايزيد بن مراد الذي ولى السلطنة سنة ٧٩١ هـ؛ ومات سنة ٨٠٤ هـ، وكانت حاضرة ملكة بُرُسَّا، إذ لم تكن القسطنطينيَّة قد فتحت بعد.

ووفد على تيمور لنك في شيراز. ووصله تيمور بنحو مائة ألف درهم. وقد تغلَّب تيمور على فارس والعراق وممكلة التتار، وقصد الشام وغلب عليها حيناً. وكان ظالماً غشوماً. ومع هذا كان يقرِّب العلماءَ والأشراف وينزلهم منازلهم. وكان يجمع العلماء في مجلسه ويأمرهم بالمناظرة ويسألهم ويعنِّتهم بالمسائل. وكانت وفاته سنة ٨٠٧ هـ.

ووفد على شاه شجاع بن محمد بن مظفَّر اليزدى صاحب عراق

العجم الذي يعرف بالجبال. وفي الدرر الكامنة في ترجمته: " وقد اشتغل بالعلم واشتهر بحسن الفهم ومحبَّة العلماءِ. وكان ينظم الشعر ويحبُّ الأدباءَ، ويجيز على المدائح، وقُصد من البلاد. ويقال: إنه كان يقرئ الكشاف وكتب منه نسخة بخطِّه الفائق، ورأيت خطه وهو في غاية الجودة... وله أشعار كثيرة بالفارسية " وكانت وفاته سنة ٧٨٧ هـ. وفي الضوءِ أن وفادته كانت على شاه منصور بن شاه شجاع هذا. وشاه منصور ليس ابن شاه شجاع بل هو ابن أخيه، كما يتبين من معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ص ٣٧٩ هـ، فالرواية الأولى أثبت وهى رواية ابن حجر العسقلانى [(١)].

مكانة المجد العلمية والثقافية :

كان المجد واسع المعرفة، كثير الاستحضار للمستحسَن من الشعر والحكايات، وقد أعانه على ذلك قوَّة حفظه، وكان ذلك من أسباب سعادته عند الملوك والأمراءِ. وكان يحسن اللسان الفارسىّ إذ نشأ في بلاد فارس، وكان ينظم الشعر في هذا اللسان، كما كان ينظم الشعر العربىّ. ومن شعره الذي مال فيه إلى التجنيس قوله:

أَحبتنا الأَماجد إن رحلتم ::: ولم ترعَوا لنا عهدا وإلاّ
نودِّعْكم ونودعْكم قلوباً ::: لعلَّ الله يجمعنا، وإِلاَّ

فقوله: " إلا " في آخر البيت الأول يريد به الحرمة والذِّمام، وقوله: " إلاَّ " في آخر البيت الثاني مركَّبة من إن الشرطية ولا النافية، وفعل الشرط محذوف، أى: وإلا ترحلوا تمتعنا ببقائكم. ويحتمل أن يكون المراد: وإلاّ يجمعنا الله أضرّ بنا الوجدُ، أو نحو ذلك. ويقول الفاسىُّ في العقد الثمين: " وسمعت من ينتقد عليه قوله في آخر البيت الثاني: (وإلا) بما حاصله: أنه لم يتقدَّم له ما يوطِّئ له وأن مثل هذا لا يحسن

(١) انظر مقدمة تحقيق بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ص ٦.

إلا مع تقديم توطئة للمقصود ".

وقد ساعده على سعة ثقافته كثرة كتبه " حتى نقل الجمال الخيَّاط أنه سمع الناصر أحمد بن إسماعيل يقول: إنه سمعه يقول: اشتريت بخمسين ألف مثقال ذهباً كتباً. وكان لا يسافر إلاّ وصحبته منها عدَّة أحمال، ويخرج أكثرها في كل منزلة فينظر فيها ثم يعيدها إذا ارتحل ". ويذكِّرنا هذا بالصاحب إسماعيل بن عبَّاد، فقد ذكر عنه أنه كان يحتاج في نقل كتبه إلى أربعمائة جمل. على أنه قد يمدّ يده إلى كتبه فيبيع منها، فقد ذكروا عنه أنه كان مسرفاً، وكان مع كثرة ثروته يمحقها بالإسراف.

وقد علمت مما مرَّ بك ميل المجد إلى علوم الرواية، وتَطوافه في البلاد للأخذ عن علمائها، فكانت له مشيخة كثيرة، وقد كتب جمال الدين محمد بن موسى المراكشى المكىُّ كتابا ذكر فيه مشيخته، على عادة العلماءِ في ذلك العهد.

وقد قام برواية الحديث ونشره حين استوسق أمره. وقد علمت عنايته باللغة منذ نعومة أظفاره، وظل يجدُّ فيها، حتى كانت له اليد الطولى في مباحثتها. ويدلُّ ثبت كتبه الذي سيمر بك على تضلعه في كل ما يتَّصل بالرواية.

وكان على سعة معارفه تعوزه الدقَّة في بعض تآليفه. فقد أخذ عليه التقى الفاسىّ في العقد الثمين أنه ألّف كتابا في فضل الحَجُون - وهو جبل بأعلى مكَّة فيه مقبرة - فذكر من دُفن فيه من الصحابة. ويقول الفاسى: " ولم أر في تراجمهم في كتب الصحابة التصريح بأنهم دُفنوا جميعا بالحجون، بل ولا أن كلهم مات بمكَّة. فإن كان اعتمد في دفنهم أجمع بالحجون على من قال: إنهم نزلوا بمكَّة فلا يلزم من نزولهم بها أن يكون جميعهم دُفن بالحجون، فإن الناس كانوا يدفنون بمقبرة المهاجرين، بأسفل مكة، وبالمقبرة العليا بأعلاها، وربما دفنوا

في دورهم".

ومن ذلك أنه كان يتساهل في رواية الأحاديث الضعيفة والموضوعة، على علمه بوضعها وضعفها. وقد ألّف هو مجموعا في الأحاديث الضعيفة. وتراه في كتاب البصائر يذكر في فضائل السور حديث أُبَىّ بن كعب الطويل، فيذكر في كل سورة ما يخصّها من هذا الحديث، وهو حديث موضوع تحاشاه المفسّرون إلا الزمخشرى والبيضاوى فقد يأتيان ببعضه، وأُخذ عليهما هذا. وكذلك حديث على المتناول لكل سورة، وفيه: يا على إذا قرأت سورة كذا كان لك كذا، فهو يوردُه مع التنبيه عليه في بعض الأحيان بأنه واهٍ أو ساقط. والمتحرِّى للدقة ينأى عن هذا السبيل، وقد شدَّد العلماء في رواية الموضوعات ووجوب تجنُّبها.

ومن هذا أنه جمع ما يروى في التفسير عن ابن عباس، واعتمد على رواية محمد بن مروان عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس. ويقول السيوطى في الإتقان في النوع الثمانين الذي عقده لطبقات المفسرين، إن أوْهى الطرق عن ابن عباس طريق الكلبى عن أبى صالح عنه، فإن انضم إلى ذلك رواية محمد بن مَرْوان السُدِّى الصغير فهى سِلسلة الكذب.

وقد عابه النقَّاد بإيمانه برَتن الهندىّ. وهو رجل ظهر بعد الستمائة من الهجرة، أو ادَّعى ظهوره، وادَّعى صحبته للرسول عليه الصلاة والسلام، بل زعم أنه أسنّ منه، وروى عنه أحاديث وأحوالا. وقد ردّ هذه الدعوى الجهابذة. ويذكر الذهبىّ أن هذه فرية مختلقة، وأنه لا وجود له. ولكن المجد يصدّق بوجوده وصحبته وبقائه هذه المدة الطويلة، وينكر على الذهبىّ إنكاره له. ويقول ابن حجر في الإصابة: " ولمّا اجتمعت بشيخنا مجد الدين الشيرازىّ شيخ اللغة بزَبيد في اليمن - وهو إذ ذاك قاضى القضاة ببلاد اليمن - رأيته ينكر على

الذهبىّ إنكار وجود رَتَن. وذكر لى أنه دخل ضَيْعته لمَّا دخل بلاد الهند، ووجد فيها من لا يُحصى كثرة ينقلون عن آبائهم وأسلافهم قِصَّة رَتَن ويثبتون وجوده ".

على أنه في الرواية البَحْتة كان عَلَما مشهودا له. ويقول الخزرجىّ فيه حين كان يلقى دَرس البخارىّ في زبيد: " وكان من الحفَّاظ المشهورين، والعلماء المذكورين. وهو أحقّ الناس بقول أبى الطيِّب المتنبى حيث يقول:

أَدِيب رسَتْ للعمل في أَرض صدره ::: جبالٌ جبالُ الأَرض في جنْبها قُــفُّ

وأعود إلى الحديث عن تبريزه في اللغة. فيذكر صاحب الشقائق النعمانيّة أن المجد آخر من مات من الرؤساء الذين انفرد كل منهم بفنّ فاق فيه أقرانه على رأس القرن الثامن الهجرى. وهم سوى الفيروز آبادى:

١ - الشيخ سراج الدين البُلْقينى، في الفقه على مذهب الشافعى. وهو عمر بن رسلان مجتهد عصره. له تصنيف في الفقه والحديث والتفسير، منها حواشى الروضة، وشرح البخارىّ، وشرح الترمذى. وولى تدريس التفسير بالجامع الطولونى. وكانت وفاته سنة ٨٠٥هـ.

٢ - والشيخ زَين الدين العراقىّ في الحديث. وهو عبد الرحيم بن الحسين، حافظ العصر، وله الألفيَّة في مصطلح الحديث وشرحها، وتخريج أحاديث الإحياء، وغيرها. مات سنة ٨٠٦ هـ.

٣ - والشيخ سراد الدين بن الملقن في كثرة التصانيف في فنّ الفقه والحديث. وهو عمر بن علىّ. اشتغل بالتصنيف وهو شابّ، حتى كان أكثر أهل العصر تصنيفا. ومن تصانيفه شرح البخارىّ، وشرح العمدة، وشرحان على المنهاج في الفقه، وشرح الحاوى، وشرح التنبيه، وشرح منهاج البيضاوىّ في الأصول، والأشباه والنظائر. وكانت وفاته سنة ٨٠٤ هـ.

٤ ـ والشيخ شمس الدين الفنارىّ في الاطلاع على كلّ العلوم العقليَّة والنقليَّة والعربية. وهو محمد بن حمزة من علماء الروم في أيام السلطان بايزيد بن مراد. وكانت وفاته سنة ٨٣٤، وبهذا لا يكون المجد آخر من مات، كما يذكر صاحب الشقائق. وقد أبدى هذا النقد اللكنوى في كتابه " الفوائد البهيَّة في تراجم الحنفية ".

٥ ـ والشيخ ابن عرفة في فقه المالكية بالمغرب. وهو محمد بن محمد ابن عرفة. توفى سنة ٨٠٣ هـ.

ويستدرك المقرّى في أزهار الرياض على صاحب الشقائق، فيقول: " قيل: ولو زاد ولىّ الدين بن خلدون في التاريخ وطبائع العالَم لحسن ". وابن خلدون أشهر من أن يعرَّف به. وكانت وفاته سنة ٨٠٨ هـ (١).

مذهبه الفقهى وتصوفه :

كان المجد شافعىّ المذهب، كأكثر أهل شيراز. ويذكر الفاسىّ أن عنايته بالفقه غير قويَّة. وهو مع ذلك ولى قضاءَ الأقضية باليمن، وكان سلفه جمال الدين الرَّيمى من جِلَّة الفقهاء، وله شرح كبير على التنبيه لأبى إسحاق الشيرازى. وفي الحقّ أنا لا نكاد نرى له تأليف في الفقه خاصَّة. ونراه في سفر السعادة يعرض لأحكام العبادات، ويذكر أنه يعتمِد فيها على الأحاديث الصحيحة، فيذهب مذهب أهل الحديث لا مذهب الفقهاءِ.

وكانت له نزعة قويِّة إلى التصوف، واسع الاطلاع على كتب الصوفيَّة ومقاماتهم وأحوالهم. يبدو ذلك حين يعرض في البصائر لنحو التوكل والإخلاص والتوبة، فتراه ينحو نحو الصوفية، وينقل عنهم الشيء الكثير ونراه في صدر سفر السعادة يتحدَّث عن الخَلْوة

(١) انظر مقدمة تحقيق بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ص ٨.

عند الصوفيَّة لمناسبة ذكر خلوة الرسول عليه الصلاة والسلام في غار حراء.

وحين كان في اليمن انتشرت مقالة محيى الدين بن عربى في وحدة الوجود وما إليها في زبيد. وكان يدعو إليها الشيخ إسماعيل الجبرتى الذي استوطن زبيد، وأحرز مكانة عند السلطان؛ إذ ناصره عند حصار الإمام الزيدىّ للمدينة، فمال المجد إلى هذه العقيدة. ويذكر ابن حجر في إنباءِ الغُمر أنه كان يُدخل في شرح صحيح البخارى من كلام ابن عربى في الفتوحات المكية ما كان سببا لشَين الكتاب، ويقول: " ولم أكن أتَّهم الشيخ المذكور بمقالته (أى بمقالة ابن عربى)، إلا أنه كان يحبُّ المداراة. ولما اجتمعت بالشيخ مجد الدين أظهر لى إنكار مقالة ابن العربى وغضَّ منها " وكان اجتماع ابن حجر به في زبيد عام ٨٠٠هـ.

ولكنا نرى أنه يمجّد ابن عربى، ويثنى على كتبه بما ينبئ عن صدق اعتقاده فيه، وأنه أدنى إلى أن يدارى ابن حجر الذي كان شديد الإنكار على ابن عربى.

فقد ألَّف كتاباً بسبب سؤال رفع إليه في شأن ابن عربى، وفي هذا الكتاب: " الذي أعتقده في حال المسؤول عنه، وأدين الله تعالى به أنه كان شيخ الطريقة حالاً وعلما، وإمام الحقيقة حقيقة ورسماً، ومحيى رسوم المعارف فعلاً واسماً.

إذا تغلغل فكر المرءِ في طَرَف ::: من بحره عرِقت فيه خواطره

ثم يقول بعد الثناءِ الكثير:

ومع عليَّ إذا ما قلت معتقدى ::: دع الجهول يظنّ العدل عدوانا

والله والله واَلله العظيم ومَن ::: أَقامه حجَّة للدين برهانا

إِن الذي قلت بعض مـــن مناقبـــه ::: ما زدت إِلا لعلى زدت نقصـــانا[١]

استقراره في اليمن:

بعد أن طوَّف المجد في البلاد انتهى به المطاف في اليمن. فقد استدعاه صاحبها الأشرف إسماعيل بن العباس من آل رَسُول إلى حضرته زَبيد في سنة ٧٩٦هـ، وكان قادماً من الهند. وأمر عامله على عَدَن أن يجهّزه بأربعة آلاف درهم، ووصله حين وصل إليه بأربعة آلاف درهم أُخرى. وأكرمه السلطان ونصبه للتدريس وصار يحضر دَرسه.

وفي سنة ٧٩٧ هـ ولاّه منصب قضاء الأقضية، وكان شاغراً منذ وفاة جمال الدين محمد بن عبد الله الرَيْمىّ في سنة ٧٩٢ هـ، وكتب له منشور بذلك في أقطارِ المملكة. وظل يزاول التدريس، فقد سمع السلطان عليه في رمضان من سنة ٧٩٨ هـ صحيح البخارىِّ، وكان ذا سَند عالٍ من طرق شَتَّى.

ولقد لقى حظوة كبيرة عند السلطان الأشرف، وتزوّج الأشرف ابنته لفرط جمالها، فازداد المجد قربا منه وزُلفى لديه. ويُروى أنه ألَّف له كتابا وأرسله إليه محمولا على أطباق فردَّها إليه السلطان مملوءَة دراهم. وفي اليوم الخامش عشر من شهر شعبان من سنة ٨٠٠هـ فرغ من كتابه " الإصعاد " وكان ثلاثة مجلدات، فحمله ثلاثة رجال على رءوسهم إلى السلطان، وسار أمام حملة الكتاب الفقهاء والقضاة وسائر الطلبة فلمّا دخل المجد على السلطان وقدَّم إليه الكتاب أجازه بثلاثة آلاف دينار.

ولم تكن هذه الطريقة في رفع الكتاب إلى السلطان غريبة في بلاد اليمن، فيحكى صاحب العقود اللؤلؤية أن سلف المجد في قضاء

(١) انظر مقدمة تحقيق بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ص ٩.

الأقضية الجمال الريميّ في سنة ٧٨٨ هـ رفع كتاب " التفقيه في شرح التنبيه " في فروع الشافعية، إلى السلطان - وكان في أربعة وعشرين جزءا - فحمله المتفقهّة على رؤوسهم إلى باب السلطان. وقد حباه السلطان بثمانية وأربعين ألف درهم.

وقد بلغ من اعتزاز الأشرف به وحرصه ألاّ يفارقه أبدا أن طلب إليه المجد أن يأذن له بالسفر إلى الحجّ، فرأى أن في هذا حرمانا للبلاد من علمه وفضله، وعَزَم عليه أن يبقى إلى جانبه.

فلقد كتب إلى السلطان في سنة ٧٩٩ هـ كتابا فيه: " وممّا يُنهيه إلى العلوم الشريفة أنه غير خاف عليكم ضعف أقلّ العبيد، ورقَّة جسمه، ودقَّة بنيته، وعلوّ سنّه. وقد آل أمره إلى أن صار كالمسافر الذي تحزّم وانتعل، إذ وهَنَ العظم، بل والرأس اشتعل، وتضعضع السِّن، وتقعقع الشَنّ. فما هو إلاّ عظام في جواب، وبنيان مشرف على خراب. وقد ناهز العَشر التي تسميها العرب دقَّاقة الرقاب. وقد مرّ على المسامع الشريفة، غير مرّة في صحيح البخاريّ قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :{إذا بلغ المرء ستيّن سنة فقد أَعذر الله إليه} فكيف من نيّف على السبعين، وأشرف على الثمانين. ولا يَجمل بالمؤمن أن تمضى عليه أربع سنين ولا يتجدَّد له شوق وعزم إلى بيت ربّ العالمين، وزيارة سيد المرسلين، وقد ثبت في الحديث النبوىّ ذلك. وأقلّ العبيد له ستّ سنين عن تلك المسالك. وقد غلب عليه الشوق، حتى جلَّ عمْره عن الطوْق. ومن أقصى أُمنيَّته أن يجدّد العهد بتلك المعاهد، ويفوز مرة أُخرى بتقبيل تلك المشاهد. وسؤاله من المراحم الحسَنيَّة الصدقة عليه بتجهيزه في هذه الأيام، مجرّدا عن الأهالى والأقوام، قبل اشتداد الحَرّ وغلبة الأوام؛ فإن الفصل أطيب، والريح أزْيب. ومن الممكن أن يفوز الإنسان بإقامة شهر في كل حَرَم، ويحظى بالتملّى من مهابط الرحمة والكرم.

وأيضا كان من عادة الخلفاء سَلَفا وخَلَفا أنهم كانوا يُبردون البريد عَمْداً قصدا لتبليغ سلامهم إلى حضرة سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه، فاجعلني - جعلني الله فداك - ذلك البريد، فلا أتمنى شيئا سواه ولا أُريد.

شوقي إلى الكعبة الغرّاء قد زادا ::: فاستحمل القُلُص الوخّادة الزادا
واستأْذَن الملك المنعام دام عُلاً ::: واستودع الله أَصحابا وأَولادا

فلما وصل الكتاب إلى السلطان كتب إليه: إن هذا شيء لا ينطق به لساني، ولا يجرى أن نتقدم، وأنت تعلم أن الله قد أحيا بك ما كان ميّتا من العلم. فبالله عليك إلاّ ما وهبت لنا بقيَّة هذا العمر. والله يا مجد الدين يمينا بارَّة، إني أرى فراق الدنيا ولا فراقك، أنت اليمن وأهله.

وقد بقي في اليمن مغمورا ببرّ الأشرف إسماعيل. ويظهر أن المجد ألحَّ عليه أن يأذن له في الحج، فأذن له. ففي سنة ٨٠٢ هـ حجّ، وأقام بمكّة بعد الحجّ، وبَنى له دارا على الصَّفا. ونراه يقول في مادة (ص ف و) في القاموس: " والصَفا من مشاعر مكّة بلحف أبي قُبَيْس. وابتنيت على مَتْنه دارا فيحاءَ ". وفي هذه الدار أتم القاموس، فهو يقول في خاتمة هذا الكتاب: " وقد يسَّر الله - تعالى - إتمامه بمنزلي على الصفا بمكّة المشرَّفة، تجاه الكعبة المعظمة، زادها الله تعظيما وشرفا، وهيّأ لقُطّان باحتها من بحابح الفراديس غرفا ".

ويذكر الفاسيّ في العقد الثمين أنه جعل هذه الدار مدرسة باسم الملك الأشرف، ورتَّب فيها مدرسين للحديث، وفقه مالك وفقه الشافعي.

وفعل مثل ذلك في المدينة، ثم ذهب إلى اليمن قاصدا الأشرف، فمات الأشرف قبل وصوله. والأشرف هو إسماعيل بن العباس، ولي الملك سنة ٧٧٨، وكان كريما ممدَّحا مقبلا على العلم والعلماء، يكرم الغرباءَ ويبالغ في الإحسان إليهم، اشتغل بفنون من الفقه والنحو والأدب والتاريخ والأنساب والحساب وغيرها، كما في ترجمته في

الضوءِ اللامع، ومات بزبيد سنة ٨٠٣هـ.

وصحب المجد بعد الأشرف ابنه السلطان الناصر أحمد. ويظهر أن المجد لم يلق في عهده ما لقيه في عهد أبيه الأشرف. ومن ثم أبطل المدرستين في مكة والمدينة اللتين جعلهما باسم الأشرف. ويذكر السخاوى في ترجمته أنه في أيامه خرب غالب بلاد اليمن لكثرة ظلمه وعَسْفه وعدم سياسته. وكانت وفاته سنة ٨٢٧هـ [١].

وفاة المجد:

كانت وفاته في ليلة الثلاثاءِ العشرين من شوال سنة ٨١٧هـ (أول يناير سنة ١٤١٥م). ويقول الفاسى: " وما ذكرناه من تاريخ ليلة موته موافق لرؤية أهل زَبيد لهلال شوّال كان عند أهل زبيد يوم الخميس، وعند غيرهم يوم الجمعة، وهو الموافق لما في التوفيقات الإلهامية.

و قد مات ممتَّعا بسمعه وبصره، فقد قرأ خطًّا دقيقاً قبل موته بيسير، ودفن بمقبرة الشيخ إسماعيل الجبرتى في زبيد [٢].

مؤلفات المجد وآثاره :

إن ثَبَت مؤلفاته طويل، وكلها في التفسير والحديث والتاريخ، وما يتصل بهذه الأمور. وقد فقد معظمها. وهاك هذا الثبت، وهو ليس حاصراً، وكان يختار لكتبه أسماء حسنة، يلتزم فيها السجع.

١ - بصائر ذوى التمييز، في لطائف الكتاب العزيز.

٢ - تنوير المقباس، في تفسير ابن عباس، طبع في مصر والهند.

٣ - تيسير فاتحة الإهاب، في تفسير فاتحة الكتاب.

٤ - الدرّ النظيم، المرشد إلى مقاصد القرآن الكريم.

---

(١) انظر مقدمة تحقيق بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ص ١٣.

(٢) انظر مقدمة تحقيق بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ص ١٥.

٥ - حاصل كُورة الخلاص، في فضائل سورة الإخلاص.

٦ - قُطبة الخَشّاف، شرح خطبة الكشّاف (الخَشّاف: الماضى في السير).

٧ - شوارق الأسرار العليَّة، في شرح مشارق الأنوار النبويَّة. (مشارق الأنوار في الحديث للصاغانى).

٨ - مَنْح البارى بالسيْح الفسيح الجارى، في شرح صحيح البخارى. كمل منه عشرون مجلدة، وكان يقدَّر تمامه في أربعين مجلدة.

٩ - عدَّة الحُكَّام، في شرح عمدة الأحكام. وعمدة الأحكام كتاب في أحاديث الأحكام الشرعية للجماعيلى عبد الغنى بن عبد الواحد المتوفى سنة ٩٠٠هـ، كما في كشف الظنون.

١٠ - امتصاص الشّهاد، في افتراض الجهاد (وفي الضوءِ اللامع وكشف الظنون: امتضاض السهاد) وما هنا عن العقد الثمين.

١١ - الإسعاد، بالإصعاد، إلى مرتبة الاجتهاد.

١٢ - النفحة العنبرية، في مولد خير البريَّة.

١٣ - الصِّلات والبُشَر، في الصلاة على خير البَشَر.

١٤ - الوصل والمُنَى، في فضائل مِنى.

١٥ - المغانم المُطَابة، في فضائل طابة (وطابة هى المدينة المنورة).

١٦ - مهيّج الغرام، إلى البلد الحرام.

١٧ - إثارة الحَجُون، إلى زيارة الحَجون (الحجون الأول: الكسلان، والأخير: جبل بأعلى مكة).

١٨ - أحاسن اللطائف، في محاسن الطائف.

١٩ - فَصل الدُرَّة من الخَرزة، في فضل السَلامة على الخِبَزَة (والسلامة والخبزة: قريتان بالطائف).

٢٠ - روضة الناظر، في ترجمة الشيخ عبد القادر (والظاهر أن

المراد الشيخ عبد القادر الجيلانى).

٢١ - المِرقاة الوفية، في طبقات الحنفية.

٢٢ - المرقاة الأرفعيّة، في طبقات الشافعية.

٢٣ - البُلغة، في تراجم أئمة النحاة واللغة.

٢٤ - الفضل الوفى، في العدل الأشرفى (الأشرف إسماعيل الرسولى).

٢٥ - نزهة الأذهان، في تاريخ أصبهان.

٢٦ - تعيين الغُرفات، للمعين على عين عَرَفات.

٢٧ - مُنية السول، في دعوات الرسول.

٢٨ - التجاريح، في فوائد متعلقة بأحاديث المصابيح - والمصابيح للبغوى.

٢٩ - تسهيل طريق الوصول، إلى الأحاديث الزائدة على جامع الأصول. وجامع الأصول لابن الأثير.

٣٠ - الأحاديث الضعيفة.

٣١ - الدرّ الغالى، في الأحاديث العوالى.

٣٢ - سفر السعادة - وهو مطبوع.

٣٣ - المتفق وضعا، والمختلف صُقعًا.

٣٤ - اللامع المُعْلَم العُجاب، الجامع بين المحكم والعُباب - كمل منه خمس مجلدات. وكان يقدر تمامه في ستين سفرا.

٣٥ - القاموس المحيط.

٣٦ - مقصود ذوى الألباب، في علم الإعراب.

٣٧ - تحبير الموسين، فيما يقال بالسين والشين. طبع في الجزائر سنة ١٣٢٧هـ.

٣٨ - المثلث الكبير.

٣٩ - المثلث الصغير.

٤٠ - تحفة القماعيل، فيمن تسمَّى من الملائكة والناس إسماعيل (القماعيل جمع قِمْعال، وهو سيد القوم).

٤١ - الدُرَر المُبَثَّثة، في الغُرر المثلثة.

٤٢ - أسماء السراح في أسماء النكاح.

٤٣ - أسماء الغادة، في أسماء العادة.

٤٤ - الجليس الأنيس، في أسماء الخندريس.

٤٥ - أنواء الغيث، في أسماء الليث.

٤٦ - ترقيق الأسل، في أسماء العسل.

٤٧ - زاد المعاد، في وزن بانت سعاد.

٤٨ - النُخَب الطرائف، في النكت الشرائف [(١)].

بصائر ذوى التمييز، في لطائف الكتاب العزيز:

هذا كما يظهر من اسمه يبحث في أشياء تتعلق بالقرآن الكريم الذي لا تنفد عجائبه، ولا تنتهى لطائفه.

ويبحث في بعض علوم القرآن، يحتوي على مقدمة فيها فضل القرآن وشيء من المباحث العامة المتعلقة به كالنسخ ووجوه المخاطبات، ثم يأخذ في ذكر مباحث تتعلق بالقرآن: سورة سورة على ترتيبها المعروف في المصحف، فيذكر في كل سورة مباحث تسعة موضع النزول - عدد الآيات والحروف والكلمات - اختلاف القراء في عدد الآيات - مجموع فواصل السورة - اسم السورة أو أسماؤها - مقصود السورة وما هي متضمنة له - الناسخ والمنسوخ - المتشابه منها - فضل السورة.

والقارئ لخطبة الكتاب يرى أن المؤلّف يقدّم كتابا جامعا لمقاصد

---

(١) انظر مقدمة تحقيق بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ص ١٧.

العلوم والمعارف في عصره، حتى العلوم المدنية التي لم يكن للمؤلف بد فيها ولا بصربها، كالهندسة والموسيقى والمرايا المحرقة.

ويذكر في الخطبة أن الكتاب مرتَّب على مقدمة وستين مقصدا. والمقاصد الستون في علوم العصر، كل مقصد في علم منها.

ونراه في الخطبة يسرد عنوانات المقاصد؛ ليكون ذلك فهرسا إجمالياً للكتاب. فالمقصد الأول في لطائف تفسير القرآن. والثانى في علم الحديث النبوى، ويستمر هكذا في السَّرْد، حتى يصل إلى المقصد الخامس والخمسين في علم قوانين الكتابة. ثم نرى: " المقصد السادس والخمسون في علم... " ولا نرى ما يضاف إليه (علم) ولا بقيّة المقاصد الستين، فهل هذا النقص من النساخ لما بين أيدينا من النُسَخ؟

وهو يذكر أن الذي رسم بتأليف الكتاب على هذا النحو الجامع لسلطان الأشرف إسماعيل بن العباس الذي دعاه إلى حضرته بزبيد، وولاّه قضاء الأقضية، كما سبق الكلام عليه. ونراه يقول: " قصد بذلك - نصره الله - جمع أشتات العلوم وضمَّ أنواعها - على تباين أصنافها - في كتاب مفرد؛ تسهيلا لمن أراد الاستمتاع برائع أزهارها، ويانع أثمارها الغضّ المصون، فيستغنى الحائز له، الفائز به، عن حمل الأسفار، في الأسفار... ".

وقد كان السلطان الأشرف مضطلعا بالعلوم، كما وصفه من عاصره. وكان يبعث العلماءَ على التصنيف.

وقد يضع منهج الكِتاب وخِطّته، ويكل إتمامه إلى بعض العلماء. ويذكر السخاوىّ في الضوء اللامع في ترجمته " أنه كان يضع وضْعا، ويحدّ حدّا، ثم يأمر من يتمُّه على ذلك الوضع، ويعرض عليه. فما ارتضاه أثبته، وما شذَّ عن مقصوده حذفه، وما وجده ناقصا أتمَّه ".

وبعد هذا لا يعجب من وقف على حَيَاة المجد واقتصاره على علوم الرواية، من تعرضُّه للعلوم الفلسفيَّة والمدنيَّة، ووضع منهج الكتاب على أن يذكر مقاصدها. فإن الواضع للخطَّة الأشرف إسماعيل، وقد كان واسع المعرفة. ومما ذكر من العلوم التي كان يتقهنا الحساب، وقد يكون عارفا بما هو من باب الحساب، كالهندسة والمرايا المحرقة، وما إلى ذلك. وكان الملك والعُمْران يقتضى هذه العلوم، بالإضافة إلى العلوم الدينية والعربية.

ولكن كيف يكل الأشرف إعداد هذا المنهج الواسع إلى الفيروز آبادى قاضى الأقضية، وهو لا يحسن تلك العلوم التي كانوا يسمُّونها علوم الأوائل؟

الظاهر أنه كلَّفه هذا على أن يستعين فيما لا يعرفه من يعرفه من أهل الاختصاص؛ وله من خبرته ومنصبه ما يعينه على ذلك.

وبعد هذا لا نرى من آثار هذا المنهج العام إلا المقدّمة التي تتعلق بفضل العلم و تمييز العلوم، ثم المقصد الأول، وهو لطائف التفسير الذي سمى فيما بعد: بصائر ذوى التمييز. فهذا الوضع الجامع لم يقدِّر للمجد أن يتمَّه وحده، أو مستعينا غيره.

والظاهر أن الأشرف مات بعد تمام المقصد الأول، ففترت همَّة المجد في عهد ولده الناصر؛ إذ كان لا يلقى من البرِّ والكرم، ما كان يلقاه في عهد صهره السلطان الأشرف، ولم يجد من المال ما يجزى به من يشتغل في هذا العمل الوسَاع الجليل، وهذا مع أنه قد علته كَبْرة، وأدركه فتور الشيخوخة.

(عود إلى بصائر ذوى التمييز)

لا نرى هذا العنوان في الكتاب. إنما العنوان في الكتاب في الإجمال والتفصيل: " المقصد الأول في لطائف تفسير القرآن العظيم ". وقد أصبح هذا العنوان لا مكان له بعد عدول المجد عن بقية المقاصد،

فكان من المستسحن أن يكون له اسم يشعر باستقلاله، وأنه ليس جزءًا من كتاب جامع. وكان المؤلف جعل عنوان كل بحث في هذا المقصد: " بصيرة " فأصبح الكتاب جملة بصائر، ومن هذا استمدَّ الاسم الجديد: " بصائر ذوى التمييز، في لطائف الكتاب العزيز ". وتراه غيَر " العظيم " بالعزيز ليسجِّع مع العبارة التي اجتلبها.

وقد كان يحسن به أن يعدل عن خطبة الكتاب الجامع، ويستأنف خطبة خاصة بهذا الكتاب. وكأنه كان يرجو أن يقدَّر له يوما إنجاز ما اعتزمه من المقاصد الستين، فأبقى الخطبة على حالها الأول.

(مقدمة المحقق) ضمن العنوان (منهج بصائر ذوى التمييز)

يحتوى هذا الكتاب مقدمة فيها فضل القرآن، وشىء من المباحث العامة المتعلقة به، كالنسخ، ووجوه مخاطباته، ثم يأخذ في ذكر مباحث تتعلق بالقرآن سورة سورة، على ترتيبها المعروف في المصحف... فيذكر في كل سورة مباحث تسعة:

١ - موضع النزول.

٢ - عدد الآيات والحروف والكلمات.

٣ - اختلاف القراءِ في عدد الآيات.

٤ - مجموع فواصل السورة.

٥ - اسم السورة أو أسماؤها.

٦ - مقصود السورة، وما هى متضمِّنة له.

٧ - الناسخ والمنسوخ من السورة.

٨ - المتشابه منها.

٩ - فضل السورة.

وبعد هذا يعقد بحثاً إجمالياً في عدد آيات القرآن، وعدد كلماته وحروفه، وما يجرى هذا المجرى؛ كعدد كل حرف من الحروف

الهجائية فيه، فيذكر مثلاً أن عدد اللامات فيه كذا.

ثم يعرض لتفسير مفردات القرآن على نحو عمل الراغب في مفرداته. ويصنِّفها باعتبار الحرف الأول من الكلمة، فالمبدوءُ بحرف الألف في حرف الألف، وهكذا. ويصدّر مباحث كل حرف بالكلام على وصف الحرف ومعناه لغة، والنسبة إليه ونحو ذلك. ونراه قد يراعى الحرف الزائد في الكلمة، فنرى الإنزال في حرف الألف. ويأتى هذا القسم في تسعة وعشرين بابا على عدد حروف الهجاءِ.

ثم يأتى الباب الثلاثون، فيذكر فيه الأنبياءَ المذكورين في القرآن، وأعداءَهم وقصصهم، وما يدخل في هذا الباب، وبهذا ينتهى الكتاب[١].

* * *

(١) انظر مقدمة تحقيق بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز، من تحقيق محمد على النجار، ص ٢٢.

المرصفـــي

أعــلام التفسيــر

المرصفي

صاحب كتاب: هداية القاري إلى تجويد كلام الباري

هو المقرىء الشهير، والعلامة النحرير، المحقق الشيخ عبد الفتاح بن السيد عجمي بن السيد العسس لقباً، المرصفي ولادة ونشأة، المصري موطناً، الشافعي مذهباً، ولد بمرصفا من أعمال محافظة القليوبية بجمهورية مصر العربية في ٥ من شهر يونيو سنة ١٩٢٣م.

نشأ شيخنا الجليل في أسرة علمية صالحة من أهل القرآن ولا شك أنَّ الشجر الطيب ينبت ثماراً طيبة بإذن الله. أما والده فكان من أهل القرآن وكان حافظاً مقرئاً للقرآن الكريم في بلدة مرصفا وتخرج على يده العلماء المراصفة في عصره، وكان والد شيخنا يقرأ من القراءات قراءة أبي عمرو البصري. أما شيخنا الجليل نوَّر الله مرقده فهو محقق في علم القراءات بلا منازع وعالم متبحر في علم الرسم والضبط، وكأنَّ الله خلقه لهذا العلم.

كان أسمر اللون ذا لحية بيضاء طويلة، كان صاحب نكتة ودعابة، إذا جالسه أحد لا يمل من حديثه، كان يمازح ضيفه وتلميذه رغم مرضه الشديد، لين العريكة، حلو الحديث، بسَّاماً، كريماً في بيته لأهل القرآن، شديد الخوف من الله، لا تأخذه في الله لومة لائم.

إذا جلس للإقراء كانت له هيبة، يعلوه الوقار والصمت، وإذا شرع في الحديث عن الروايات وطرقها كان بحراً دفاقاً، غيوراً على أهل القرآن والقراءات، وكان يرد على المخالفين للقراءات، كثير الترحم والتأدب مع العلماء السابقين، وكان يعجبني فيه حبه لمشايخه، وأدبه الرفيع معهم فكان لا يُذكر عالمٌ إلا ترحم عليه، كثير القراءة للقرآن، فكان رحمه الله يصلي كل يوم الوتر في بيته إحدى عشرة ركعة يقرأ فيهن جزأين من القرآن، وأما في شهر رمضان فكان يترك الإقراء ويعتكف على صلاته وتهجده فكان يصلي التراويح في بيته ويقرأ

خمسة أجزاء في كل يوم، حقاً هذه نعمة سبحان من وهبها لأهل القرآن.

حفظ القرآن على الشيخ زكي محمد عفيفي نصر وأتم حفظ القرآن ولم يتجاوز العاشرة من عمره، ثم دخل المدرسة الأولية في ذلك الوقت سنة ١٩٣٤م التي تسمى بالإبتدائية، ثم تخرج من التعليم الأولي سنة ١٩٣٩م وكان ترتيبه الأول في المحافظة كما أفادني حسب شهادته التي عنده.

أخذ التجويد عن الأستاذ رفاعي محمد أحمد المجولي، ثم قرأ بعدها ختمة كاملة لابن كثير على الشيخ رفاعي، ثم ختمة لحمزة من طريق الشاطبية وأجازه بهما، ثم التقى شيخنا نور الله ضريحه بالأستاذ المقرئ الشيخ حامد علي السيد الغندور فأخذ عليه القراءات الثلاث من طريق الدرة وقراءة حمزة ويعقوب ورواية حفص ورواية الأصبهاني عن ورش من طريق الطيبة وأجازه بذلك.

ثم التقى شيخنا سنة ١٩٣٥م بالعلامة محمد حسن الأنور شريف فأخذ عليه القراءات الثلاث عن طريق الدرة، ثم قرأ عليه خَتمة للقراءات العشر من طريقي الشاطبية والدرة.

ثم ارتحل إلى المقرىء الشيخ محمد جمعة الباز وقرأ عليه القراءات الثلاث من طريق الدرة. ثم في عام ١٩٥٣م التحق بالأزهر الشريف في قسم القراءات فحصل على إجازة التجويد وكان ترتيبه الأول في مصر. وبعد ثلاث سنوات حصل على الشهادة العالية في القراءات وكان ترتيبه الثالث، وواصل دراسته في قسم تخصص القراءات بكلية اللغة العربية حتى حصل على شهادة التخصص في القراءات وكان ترتيبه الثاني.

درس في الأزهر علوماً عدة وفنوناً شتى درس الشاطبية والدرة والطيبة والعقيلة ومورد الظمآن في علم رسم القرآن ودرس ناظمة

الزهر في علم الفواصل وغيرها كالبلاغة والصرف والفقه والتفسير.

وفي أوائل سنة ١٩٦٢م سافر شيخنا إلى ليبيا مدرساً في جامعة الإمام محمد بن علي السنوسي الإسلامية وظل مدرساً فيها ستة عشر عاماً إلى سنة ١٩٧٧م. وفي هذه الآونة انتسب إلى الأزهر وحصل على الشهادة العالية الليسانس وتلقى عنه خلق كثيرون في ليبيا، أخذوا عنه التجويد والقراءات حتى إن شيخنا أفرد كتاباً خاصّاً لهم برواية قالون لأنهم يقرؤون بهذه الرواية.

والتقى شيخنا رحمه الله سنة ١٩٧٢م بأعلى القراء إسناداً في هذا العصر المقرىء الكبير بالقاهرة شيخنا الشيخ أحمد عبد العزيز الزيات فسح الله في عمره وقرأ عليه ختمة بالقراءات العشر من طريق الطيبة وأجازه، وبعدها قرأ ختمة كاملة بالقراءات العشر من طريقي الشاطبية والدرة وأجازه.

وفي عام ١٩٧٧م ودع ليبيا متوجهاً إلى المدينة المنورة على ساكنها أزكى الصلاة والسلام وعين معيداً في كلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة سنة ١٣٩٧هـ وانتفع منه خلق وطلاب كثيرون في الجامعة وغيرها.

وفي هذه الفترة أخرج شيخنا كتابه العجيب " هداية القاري إلى تجويد كلام الباري " فجاء الكتاب حلواً حاوياً لشتى المسائل في علم التجويد، وما إن بزغ نجم هذا الكتاب حتى تلقاه الناس بالاهتمام، وأقبلوا عليه ينهلون من رحيقه، وينتفعون بما فيه من أحكام التلاوة التي قل أن نجدها في غيره ويدرك ذلك من يطالع الكتاب.

وتكريماً لجهوده في هذا الكتاب قررت إدارة مجلس الجامعة أن تكرم الشيخ فرفع الكتاب إلى المجلس الأعلى للجامعات ثم صدرت الموافقة في الأمر الملكي بتاريخ ١٤٠٦/٢/٦هـ بترقية الشيخ عبد الفتاح المرصفي إلى درجة أستاذ في كلية القرآن الكريم والدراسات

الإسلامية، وعين عضواً في اللجنة العلمية لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف للإشراف على المصحف الشريف طباعة وتسجيلاً بأصوات أشهر القراء في المملكة العربية السعودية.

كان بيت الشيخ في المدينة المنورة حافلاً بالطلاب الذين يقرؤون عليه فكانوا يزدحمون على بيته رأيت ذلك بعيني، حتى كان بعضهم يقرأ عليه أثناء تناول الطعام. كان رحمه الله متضلعاً في العلم وكأنما ألين له العلم حتى استظهر متونه كلها حتى إن بعض المدرسين في الجامعة كانوا يأخذون عنه، ورغم مرضه الشديد كان يقرىء الطلاب ولا يمنع أحداً.

للشيخ مؤلفات كثيرة منها:

١ - الطريق المأمون إلى أصول رواية قالون (مطبوع).

٢ - هداية القاري إلى تجويد كلام الباري (مطبوع).

٣ - شرح الدرة (مخطوط).

وأما الذين أخذوا عن الشيخ فأعداد كثيرة منهم:

١ - الشيخ أحمد الزعبي الحسني أخذ عنه قراءة حفص من الشاطبية والدرة وأجازه بذلك كما قرأ عليه عقيلة أتراب القصائد في رسم المصاحف.

٢ - الشيخ عبد الرحيم البرعي أخذ عنه القراءات العشر من طريق الشاطبية والدرة.

٣ - الشيخ محمد تميم الزعبي أخذ عنه القراءات العشر عن طريق الطيبة وقرأ عليه عقيلة أتراب القصائد وناظمة الزهر.

٤ - أحمد ميهان التهانوي الباكستاني أخذ القراءات الثلاث من طريق الدرة.

٥ - الشيخ إدريس عاصم من لاهور باكستان أخذ عنه القراءات

العشر من طريق الشاطبية والدرة.

٦ - الشيخ محمد إبراهيم الباكستاني أخذ القراءات العشر من طريق الشاطبية والدرة.

٧ - الشيخ عبد الرحيم محمد الحافظ العلمي من المدينة المنورة أخذ عنه رواية حفظ من الشاطبية وقرأ عليه القراءات السبع من طريق الشاطبية.

٨ - الشيخ عبد الناصر يوسف سلطان من المدينة المنورة قرأ عليه رواية حفص عن عاصم من طريق المصباح وأجازه بذلك.

٩ - الشيخ زايد الأذان من موريتانيا قرأ عليه القراءات السبع ووصل إلى سورة الأحزاب ولم يكمل حيث وافى الشيخ الأجل.

١٠ - الشيخ يوسف شفيع قرأ عليه القراءات العشر الصغرى ووصل إلى سورة الأنبياء حيث توفي الشيخ.

١١ - الشيخ خالد محمد الحافظ العلمي قرأ عليه ختمة برواية حفص عن عاصم من الشاطبية وأجازه بذلك.

وهناك خلق كثيرون أخذوا عن الشيخ

وفي يوم الأربعاء ١٤٠٩/٦/١٧هـ وبعد صلاة العصر كان يقرأ على الشيخ طالب من الإمارات المتحدة يدعى بلال فوصل إلى سورة الملك عند قوله تعالى:{إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ } [الملك: ١٢]، وفجأة سكت قلب طالما خفق خاشعاً لربه، ووقف لسان طالما نطق ذاكراً ربه، وانتهت مسيرة شعلة كانت مضيئة، فانطفأت وتركت ظلالاً يافعة أسأل الله أن يبارك فيها.

وفي يوم الخميس ١٤٠٩/٦/١٨هـ صلي على الشيخ في الحرم النبوي الشريف بعد صلاة الفجر وسارت الجنازة حيث استقبل البقيع مقرىء العصر ووري جثمانه بين قبر سيدنا عثمان وشهداء الحرة رحمهم الله تعالى. رحم الله شيخنا وأسكنه فسيح جناته ونور مرقده وجعل مع

المقربين مقيله وسكناه. آمين [١].

وهبة الزحيلي

وهبة الزحيلي

أعـــلام التفسيـــر

(١) انظر مقدمة كتاب هداية القاري إلى تجويد كلام الباري، من تقديم أحمد الزعبي الحسني، ١ /١٠.

العالم الفقيه المفسِّر وهبة الزحيلي

ولد وهبة مصطفى الزُّحيلي في بلدة دير عطية من ريف دمشق عام ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م لأبوين كريمين موصوفين بالصَّلاح والتَّقوى.

فوالده الحاج مصطفى الزُّحيلي كان حافظاً لكتاب الله تعالى، شديد التَّمسك بالسُّنة النَّبوية، كثير العبادة والصِّيام، ذا همَّةٍ عالية، وكان له الأثر الأكبر في توجيه أولاده لمتابعة التَّحصيل العلمي، وفي إطار الدِّراسات الشَّرعية بخاصَّة.

أما والدتُه فسيدةٌ فاضلة، شديدة الورع، متمسِّكةٌ بالشَّريعة عاملةٌ بها.

اتَّجه في بداياته الأولى إلى تعلُّم القرآن الكريم، فأتقنه تجويداً في أحد كتاتيب البلدة عند امرأةٍ حافظةٍ صالحة، وأُدخل بعدها المدرسة الابتدائية الرَّسمية وأتَمَّها في بلدته أيضاً.

دراسته وشهاداته:

بعد أن أنهى دراستَه الابتدائية قدم مدينة دمشق سنة ١٩٤٦م وعمرُه ١٤ عاماً لمتابعة دراسته في معاهدها.

التحق في دمشق بالثانوية الشَّرعية التي كانت تُسمَّى كلِّية الشَّريعة، وأمضى فيها ستَّ سنوات، نال بعدها شهادة الثانوية الشَّرعية عام ١٩٥٢م وكان ترتيبه الأولَ على جميع المتقدِّمين.

توجَّه بعدها إلى مصر ليكمل مسيرته العلمية، وتحصيله العلمي العالي، فالتحق بعددٍ من الكلِّيات في آنٍ واحد، فقد درس في الجامعة الأزهرية في كلِّيتي الشَّريعة واللُّغة العربية، كما درس في كلِّية الحقوق بجامعة عين شمس، وكانت حصيلة تلك الدِّراسة أن نال الشَّهادات الآتية:

١ - الشَّهادة العالية في الشَّريعة الإسلامية من كلية الشَّريعة بالأزهر بتقدير ممتاز عام ١٩٥٦م.

٢ - إجازة التَّخصص بالتَّدريس من كلية اللُّغة العربية بالأزهر عام ١٩٥٧م.

٣ - إجازة في الحقوق من جامعة عين شمس بتقدير جيد عام ١٩٥٧م.

ولم يكن الأستاذ وهبة الزُّحيلي قد قضى نهمته في طلب العلم بعد، فتقدَّم إلى كلٍّ من جامعتي الأزهر والقاهرة للدِّراسات التَّخصصية العليا، وتابع دراسته في كلِّية الحقوق في جامعة القاهرة بقسم الشَّريعة، ونال سنة ١٩٥٩م درجة الماجستير في الشَّريعة الإسلامية، وبعد ذلك سجل أطروحته في الدكتوراه في الكلية نفسها بعنوان (آثار الحرب في الفقه الإسلامي - دراسة مقارنة)، ومنحته لجنة المناقشة الدرجة العلمية مع مرتبة الشَّرف الأولى سنة ١٩٦٣م.

أساتذته وشيوخه:

هيأ الله - عز وجل - للمترجَم مجموعةً من أساتذة العلم وشيوخه في الشَّام ومصر قلَّ نظيرُها، ويندر أن تجتمع لإنسانٍ واحد، فكان بعضُ أفراد هذه الطَّبقة من العلماء أساتذة جيل، كما أن بعضهم كان صاحب نهضةٍ علميةٍ مباركةٍ جدَّدت معالم الدِّين في بداية هذا القرن.

فمن أساتذته وشيوخه في الشَّام أذكر:

١ - الشيخ محمد هاشم الخطيب الرِّفاعي: خطيب الجامع الأموي، ومؤسِّس جمعية التَّهذيب والتَّعليم، وقد قرأ عليه المترجَم في الفقه، وتأثَّر به في التَّوجيه وتبيان المعايير الصحيحة للإسلام.

٢ - الشيخ عبد الرَّزاق الحمصي: كان فقيهاً وتولى الإفتاء في الجمهورية السُّورية بين عامي ١٩٦٣م - ١٩٦٩م، وقد قرأ عليه الشيخ الزحيلي في الفقه.

٣ - الشيخ محمود ياسين: أحد مؤسسي (جمعية النهضة الأدبية)

و(جمعية العلماء) و(رابطة العلماء) و(جمعية الهداية الإسلامية) التي تولّى رئاستها، وله عنايةٌ خاصَّةٌ بعلوم اللُّغة، واشتغالٌ بالحديث النَّبوي وعلومه، وقرأ عليه في الحديث.

٤ - الشيخ حسن الشَّطّي: فقيهٌ حنبليٌّ فَرَضيٌّ، كان أوَّلَ مديرٍ للكلّية الشَّرعية بدمشق، تلقَّى عليه المترجَم علومَ الفرائض والأحوال الشَّخصية.

٥ - الشيخ حسن حبنَّكة الميداني: أحد أفذاذ دمشق المعدودين، صاحب نهضةٍ علميةٍ متميِّزة، شارك بتأسيس (مدرسة الجمعية الغرَّاء)، و(المدرسة الرَّيحانية)، و(المعهد الشَّرعي)، و(جمعية التَّوجيه الإسلامي)، كما شارك في تأسيس (رابطة العالم الإسلامي) في مكة المكرمة. حضر الأستاذ الزحيلي دروسه في التَّفسير.

٦ - الشيخ صادق حبنكة: أخو الشيخ حسن حبنكة، وقد حضر الشيخ الزُّحيلي دروسه في التَّفسير.

٧ - الشيخ صالح الفرفور: مؤسس (جمعية الفتح الإسلامي) ومعهدها، وهو من رجال التَّربية والتَّعليم البارزين، وقد قرأ عليه المترجَم في علوم اللغة العربية (البلاغة والأدب).

٨ - الشيخ محمد لطفي الفيومي: فقيهٌ حنبليٌّ، ومدرِّسٌ بارعٌ، قرأ عليه الزُّحيلي في أصول الفقه ومصطلح الحديث.

٩ - الشيخ محمود الرنكوسي: العالم العامل الفاضل، مدير (دار الحديث الأشرفية)، ورئيس رابطة العلماء، قرأ عليه الزُّحيلي في علوم العقائد والكلام.

ومن أساتذته وشيوخه في مصر أذكر:

١ - الشيخ محمد أبو زهرة: الفقيه الإمام وعلم العصر، ولعلَّ الأستاذ الزَّحيلي قد تأثَّر بأسلوبه في الكتابة.

٢ - الشيخ محمود شلتوت: الفقيه المصلح، ومؤسس (مجمع البحوث الإسلامية).

٣ - الشيخ الدكتور عبد الرحمن التَّاج: شيخ الأزهر بين عامي ١٩٥٤م - ١٩٥٨م، وله بحوث متميِّزة.

٤ - الشيخ عيسى منّون: درَّس في الأزهر، ونال عضوية جماعة كبار العلماء، عُيِّن عميداً لكلية أصول الدِّين، ثم شيخاً لكلية الشَّريعة.

٥ - الشيخ محمد علي الخفيف: أحد أعلام القضاء والفقه في مصر، خلَّف أكثر من عشرة كتب فقهية وأصولية وعدداً كبيراً من البحوث.

وفي ذكر مشايخه وأساتذته يقول الدكتور الزحيلي: " أخذت عن شيوخ مصر العلم، وتعلَّمت من شيوخ الشَّام العمل بالعلم والورع ".

أعماله ومناصبه:

التَّدريس الجامعي كان أول أعمال المترجَم بعد حصوله على درجة الدكتوراه، إذ عُيِّن مدرِّساً في كلية الشَّريعة بجامعة دمشق عام ١٩٦٣م، ثم رقي إلى درجة أستاذ مساعد سنة ١٩٦٩م، وأستاذاً عام ١٩٧٥م.

وتنقَّل بعدها بين عددٍ من الجامعات العربية بصفة أستاذٍ زائر، فدرَّس في كلية الشَّريعة والقانون بجامعة بنغازي، وفي قسم الشَّريعة بجامعة الخرطوم بالسُّودان، والمركز العربي للدِّراسات الأمنية بالرِّياض، وأمضى خمس سنوات في جامعة الإمارات العربية في العين.

وخلال السَّنوات السَّابقة - وما يزال - شغل الدكتور الزَّحيلي عدداً من المناصب الإدارية في الجامعات التي درَّس بها؛ فقد عُيِّن وكيلاً لكلية الشريعة بجامعة دمشق عام ١٩٦٧م، ثم عميداً للكلِّية بالنِّيابة بين عامي ١٩٦٧م - ١٩٦٩م.

وعُيِّن رئيساً لقسم الشَّريعة في كلية الشَّريعة والقانون في جامعة الإمارات العربية المتحدة، ثمَّ عميداً للكلّية بالنيابة حتى نهاية مدة إعارته سنة ١٩٨٩م.

ويشغل حالياً منصب رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه بجامعة دمشق.

وللأستاذ الدكتور الزُّحيلي عضويةٌ في عددٍ من المجامع العلمية والبحثية الإسلامية، ويرأس بعض الهيئات الشَّرعية الإسلامية، ومنها:

- عضوٌ خبيرٌ في كلٍّ من مجمع الفقه الإسلامي بجدة، والمجمع الفقهي بمكة المكرمة، ومجمع الفقه الإسلامي بالهند والسودان وأمريكة.

- عضوٌ في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية - آل البيت - في الأردن.

- عضو الموسوعة العربية بدمشق.

- أحد أعضاء هيئة التَّحرير في مجلَّة نهج الإسلام التي تصدر عن وزارة الأوقاف السورية.

- رئيس هيئة الرَّقابة الشَّرعية لشركة المضاربة والمقاصَّة الإسلامية في البحرين.

- رئيس هيئة الرَّقابة الشَّرعية للبنك الإسلامي الدَّولي في المؤسسة العربية المصرفية في البحرين.

- رئيس قسم الدِّراسات الشَّرعية في المجلس الشَّرعي للمصارف الإسلامية في البحرين.

- عضو هيئة الإفتاء الأعلى بالجمهورية العربية السورية.

- عضو الهيئة الاستشارية لموسوعة دار الفكر للحضارة الإسلامية.

- عضو لجنة البحوث والشؤون الإسلامية بوزارة الأوقاف السورية.

وله أيضاً مشاركاتٍ فاعلةٍ في المؤتمرات والنَّدوات الدَّولية الإسلامية التي تعقد في مختلف العواصم والمدن العربية والإسلامية، ومنها:

- دورات مجمع الفقه الإسلامي التَّابع لمنظَّمة العمل الإسلامي.
- دورات المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية - آل البيت - في عمَّان.
- ندوات هيئة الزكاة المعاصرة في الكويت والمنامة.
- النَّدوات الإسلامية الطِّبية التي تقيمها منظمة العلوم الإسلامية والطِّبية بالكويت.
- أسبوع الفقه الإسلامي في الرِّياض.

أوصافه وأخلاقه:

لقد حبا الله الأستاذ الزُّحيلي بسطةً في العلم والجسم، فهو طويل القامة، حنطيٌّ اللَّون، خفيف العارضين، سريع المشي والحركة، ذو همَّة عالية.

يمتاز بحسن الخلق وطيب المعاملة، وهو لطيف المعشر، دائم البِشْر، يألف ويُؤلف.

وهو محبٌّ لطلابه وإخوانه، حريصٌ على أوقاتهم، نصوحٌ لهم، يؤثر خدمتهم، ويستجيب لدعواتهم، ويشاركهم في مناسباتهم بطيب خاطر.

وهو متواضعٌ في عزَّة، لا يرفعه علمه على الناس كبراً، ولا يضعه تواضعاً، بل هو مهيب محترم، يعرف للآخرين حقَّهم، كما يعرف حقَّ نفسه.

وهو وفيٌّ محبٌّ لأشياخه، لا يذكر أحداً منهم إلا بخير، ويكره التَّعصب المذهبي كرهاً شديداً.

ولعل من أبرز المواهب التي أفاضها الله عز وجل عليه حافظته القوية، وربما أتى إلى مناقشة بعض الرَّسائل الجامعية دون أن يصطحب معه المذكرة، ومع ذلك تراه يبرز محاسنها، ويشير إلى ملاحظاته عليها، ويملي ذلك على المناقش من ذاكرته محدداً له مواقع النَّقد من رسالته.

وقد أوتي من الصَّبر والجلد والمحافظة على الوقت وعدم إضاعته، ما يجعله في ذلك مثلاً يُحتذى.

وهو محبٌّ للسكينة والهدوء، سريع القراءة، ويعزو ذلك إلى صلته المستمرة بالكتاب، فهو لا يكاد يضيع دقيقةً واحدةً من غير قراءةً أو كتابة، وربما أمضى أكثر من ثلثي يومه بين الكتب دون أن يشعر بأدنى ملل.

أما حكمته التي تنتظم بها حياته فهي قول الله عز وجل:{وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ} [البقرة: ٢٨٢]، ويقول في ذلك: " إن سرَّ النَّجاح في الحياة إحسان الصِّلة بالله عز وجل ".

وأختم بذكر شهادة أحد أساتذته فيه، يقول الأستاذ الشيخ صادق حبنَّكة: " إن الشيخ وهبة الزُّحيلي - حفظه الله وزاده بالشُّكر من خير ما أعطاه - له في قلبي مكانة مكينة ملَّكه إياها - وهو أحقُّ بها - تواضعه بلا مذلة، واستقامته بغير انحراف، ودأبه على العلم الناصح والعمل الصَّالح، وما عملت يداه من الكتب المجيدة في المواضع المفيدة ".

تعريف بمؤلَّفاته:

يُعدُّ الأستاذ الدكتور وهبة الزُّحيلي من أغزر المعاصرين تأليفاً وأكثرهم إنتاجاً فكرياً، وهو يَعُد العمل بالتَّأليف بقصد نفع الآخرين وتبصيرهم بحقائق دينهم ودعوتهم إلى دين الله من آكد الواجبات،

وأهم العبادات بعد أداء ما افترضه المولى عز وجلَّ.

وقد بلغت كتبه وبحوثه ومقالاته نحواً من خمس مئة، وله موقع على الشابكة يجيب فيه عن مختلف الأسئلة من بلدان العالم.

وأهمُّ مؤلفاته وآثاره:

أ - في مجال التأليف العلمي المتخصص:

للمترجَم في هذا الميدان إلى الآن أكثر من ثلاثين ومئة كتابٍ ورسالةٍ ظهرت إلى عالم الطِّباعة، أهمها:

١ - آثار الحرب في الفقه الإسلامي.

٢ - الفقه الإسلامي وأدلته.

٣ - نظرية الضَّرورة الشَّرعية؛ دراسة مقارنة.

٤ - التَّفسير المنير في العقيدة والشَّريعة والمنهج.

٥ - التَّفسير الوجيز.

٦ - التَّفسير الوسيط.

٧ - الفقه الإسلامي في أسلوبه الجديد.

٨ - أصول الفقه الإسلامي.

٩ - الذَّرائع في السِّياسة الشَّرعية، والفقه الإسلامي.

١٠ - العلاقات الدولية في الإسلام مقارنة بالقانون الدولي الحديث.

١١ - نظرية الضَّمان أو (حكم المسؤولية المدنية والجنائية) في الفقه الإسلامي.

١٢ - العقود المسمَّاة في قانون المعاملات المدنية الإماراتي والقانون المدني الأردني.

١٣ - العقوبات الشَّرعية وأسبابها، بالاشتراك مع الدكتور رمضان الشرنباصي.

١٤ - الأصول العامة لوحدة الدَّين الحق (مترجم إلى الإنجليزية).

١٥ - القرآن الكريم، البنية التَّشريعية والخصائص الحضارية (مترجم إلى الإنجليزية والفرنسية).

١٦ - جهود تقنين الفقه الإسلامي.

١٧ - فقه السُّنة النَّبوية.

١٨ - نظام الإسلام - ثلاثة أقسام (نظام العقيدة، نظام الحكم والعلاقات الدولية، مشكلات العالم الإسلامي المعاصر).

١٩ - الوجيز في أصول الفقه.

٢٠ - شرعة حقوق الإنسان في الإسلام، بالمشاركة.

٢١ - الضَّوابط الشَّرعية للأخذ بأيسر المذاهب.

٢٢ - الرُّخص الشَّرعية؛ أحكامها وضوابطها.

٢٣ - الإسلام دين الجهاد لا العدوان.

٢٤ - الإسلام دين الشُّورى والدِّيمقراطية.

٢٥ - القصَّة القرآنية، هدايةٌ وبيانٌ.

٢٦ - الموازنة بين القرآن والسُّنة في الأحكام.

٢٧ - الفقه الحنبلي الميسر (بأدلته وتطبيقاته المعاصرة).

٢٨ - الخليفة الرَّاشد العادل عمر بن عبد العزيز.

٢٩ - سعيد بن المسيب (ضمن سلسلة أعلام المسلمين).

٣٠ - أسامة بن زيد (ضمن سلسلة أعلام المسلمين).

٣١ - عبادة بن الصامت (ضمن سلسلة أعلام المسلمين).

٣٢ - المذاهب الإسلامية الخمسة، بالمشاركة.

ب - في مجال العناية بالتراث الإسلامي:

١ - تخريج وتحقيق أحاديث (تحفة الفقهاء) لعلاء الدين السمرقندي.

٢ - النُّصوص الفقهية المختارة.

٣ - تخريج وتحقيق أحاديث وآثار (جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي) مع التَّعليق عليها.

٤ - تخريج وتحقيق واختصار (مختصر الأنوار في شمائل النبي المختار) للبغوي.

٥ - تحقيق وترتيب (طريق الهجرتين وباب السعادتين) لابن القيم.

جـ - بحوث مقدمة إلى الموسوعات العربية والإسلامية:

١ - التَّمثيل السِّياسي في الإسلام (٢٥صفحة) الكويت.

٢ - أموال الحربيين (٢٧صفحة) الكويت.

٣ - الأشربة (٢٥صفحة) الكويت.

٤ - المرابحة (١٥صفحة) الكويت.

٥ - الوصية (٤٠صفحة) الكويت.

٦ - الضرورة (٢٠صفحة) الكويت.

٧ - المزارعة (٢٠صفحة) جدة.

٨ - الاستصناع (١٧صفحة) جدة.

٩ - عائد الاستثمار (٢٩صفحة) جدة.

١٠ - الدَّعوة الإسلامية - الوسيلة - المنهج - الهدف (٣١صفحة) عمَّان.

١١ - العلم والإيمان وقضايا الشباب (١٤صفحة) عمَّان.

١٢ - تبصير المسلمين لغيرهم بالإسلام - أحكامه وضوابطه وآدابه (٣٢صفحة) عمَّان.

١٣ - الشُّورى في العصور العباسية فكراً وممارسة (٣٨ صفحة) عمَّان.

١٤ - متى يجنح إلى السِّلم (٤٠ صفحة) عمَّان.

١٥ - الاجتهاد (٥ صفحات) دمشق.

١٦ - الإسلام والإيمان والإحسان (٥٠ صفحة) دمشق.

١٧ - الأصولية (١٠صفحات) دمشق.

١٨ - الإفتاء (٣ صفحات) دمشق.

١٩ - أهل الذمة (١٥صفحة) دمشق.

٢٠ - أهل الكتاب (١٥صفحة) دمشق.

٢١ - ترجمة الأستاذ عبد الوهاب خلاف (٥ صفحات) دمشق.

د - البحوث التي تقدم بها إلى المؤتمرات الدولية والندوات العلمية والفكرية:

١ - أثر الباعث والنية في العقود والفسوخ والتروك.

٢ - إسقاط الدين عن الزكاة.

٣ - إقليمية الشريعة والقضاء في ديار الإسلام.

٤ - أهمية الحفاظ على الحكومة الإسلامية.

٥ - زكاة الأسهم في الشركات.

٦ - السُّوق المالية.

٧ - الضرورة والحاجة وأثرهما في الأحكام الشَّرعية.

٨ - فلسفة العقوبة في الإسلام.

٩ - المصلحة المرسلة.

١٠ - مصرف الزكاة.

١١ - نظام التوبة وأثرها في إسقاط العقوبات.

هـ - المقالات:

ناف عددُ المقالات التي نشرت للمترجم على المئة، معظمها توزَّع على ثلاث مجلاتٍ هي:

١ - مجلَّة حضارة الإسلام الدِّمشقية، ونشرت للأستاذ ما بين سنتي ١٩٦٣م - ١٩٦٨م.

٢ - مجلَّة الوعي الإسلامي الكويتية، ونشرت للأستاذ ما بين سنتي ١٩٦٦م - ١٩٨١م.

٣ - مجلَّة نهج الإسلام الدِّمشقية، وتنشر للأستاذ منذ سنة ١٩٨١م وحتى الآن [١].

* * *

(١) المراجع:وهبة الزحيلي، العالم الفقيه المفسِّر، تأليف: الدكتور بديع السَّيد اللَّحام، وهو الكتاب رقم (١٢) في سلسلة: (علماء ومفكرون معاصرون، لمحات من حياتهم وتعريف بمؤلفاتهم) التي تصدرها دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، ومقال: العالم الفقيه المفسِّر وهبة الزحيلي، لأحمد بن محمود الداهن، علي موقع الألوكة.

الثعالبـــي

أعــلام التفسيــر

الثعالبي

صاحب تفسير: " الجواهر الحسان "

هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبى، الجزائرى، المغربى، المالكى، الإمام الحُجَّة، العالِم العامل، الزاهد الورع، ولىُّ الله الصالح العارف بالله. كان من أولياء الله المعرضين عن الدنيا وأهلها، ومن خيار عباد الله الصالحين. قال ابن سلامة الكبرى: كان شيخنا الثعالبى رجلاً صالحاً، زاهداً عالماً، عارفاً، ولياً من أكابر الأولياء. وبالجملة فقد اتفق الناس على صلاحه وإمامته، وأثنى عليه جماعة من شيوخه بالعلم والدين والصلاح، كالإمام الأبىّ، والولىّ العراقى، وغيرهما. وقد عرَّف هو بنفسه في مواضع من كتبه، وبيَّن أنه رحل من الجزائر لطلب العلم في آخر القرن الثامن فدخل بجاية، ثم تونس، ثم رحل إلى مصر، ثم رجع إلى تونس، ويقول هو: لم يكن بتونس يومئذ مَن يفوتنى في علم الحديث، إذا تكلمت أنصتوا وقبلوا ما أرويه، تواضعاً منهم وإنصافاً، واعترافاً بالحق، وكان بعض المغاربة يقول لى لما قدمت من المشرق: أنت آية في علم الحديث. وذكر كل شيوخه الذين سمع منهم في تلك البلاد.

وكان الثعالبى إماماً علاَّمة مُصَنِّفاً، خلَّف للناس كُتباً كثيرة نافعة، منها: " الجواهر الحسان في تفسير القرآن " وهو التفسير الذي نحن بصدده، وكتاب الذهب الإبريز في غرائب القرآن العزيز، وتحفة الإخوان في إعراب بعض آيات القرآن، وكتاب جامع الأمهات في أحكام العبادات، وغير ذلك من الكتب النافعة في نواح علمية مختلفة. وكانت وفاته سنة ٨٧٦هـ (ست وسبعين وثمانمائة من الهجرة) أو في أواخر التي قبلها، عن نحو تسعين سنة، ودفن بمدينة الجزائر، فرحمه الله ورضى عنه.

مؤلفاته:

١ - الجواهر الحسان في تفسير القرآن طبع في أربعة مجلدات.

٢ - الأنوار في المعجزات النبوية.

٣ - روضة الأنوار ونزهة الاخيار.

٤ - جامع الأمهات في أحكام العبادات).

٥ - الذهب الإبريز في غريب القرآن العزيز.

٦ - الإرشاد في مصالح العباد.

٧ - رياض الصالحين [(١)].

التعريف بالتفسير:

هذا التفسير المسمى " الجواهر الحسان في تفسير القرآن " طبع أكثر من مرة فهو مطبوع في الجزائر سنة ١٣٢٧هـ طبعة قديمة في المطبعة الثعالبية دون عناية أو تحقيق، وله معجم مختصر في شرح غريب بعض ألفاظ القرآن طبع بآخر التفسير.

وله طبعة أخرى قديمة بعناية محمد بن المصطفى بن الخوجة بالجزائر سنة ١٩٠٥م.

وله طبعتان حديثتان الأولى بتحقيق عمار الطالبي - المؤسسة الوطنية للكتاب

والثانية بتحقيق محمد الفاضلي - المكتبة العصرية - بيروت سنة ١٤١٧هـ.

جاء تفسير الثعالبي سديدا في منهجه وعذوبة مورده بعيدا عن الحشو والتطويل وفضول الكلام.

ويعد مرجعا مهما في بابه لأنه يعتبر عصارة تفسير ابن عطية الذي

(١) الزركلي، الأعلام، نشر دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢ م، عبدالحق عبد الدائم سيف القاضي، عبد الرحمن الثعالبي ومنهجه في التفسير، رسالة ماجستير بإشراف د. عبد الفتاح سلامة، الجامعة الإسلامية سنة ١٤٠٥هـ.

يعتبره ابن خلدون عصارة التفاسير المتقدمة عليه.

فقام إلى تفسير ابن عطية ونحى منه وفرة وفيرة من الأقوال المتشعبة والاختلافات الكثيرة والروايات المتعددة واختار منها ماهو أقرب إلى الروح القرآنية السمحة... وهو بهذا يطمع أن ينتفع بذلك جمهرة كبيرة من العامة والخاصة كما نوه بذلك في مقدمة تفسيره وكان حريصا أثناء اختصاره لتفسير ابن عطية على تنقية الآراء وعلى إبقاء الطابع العام كما هو دون تغيير أو تبديل حتى تبقى شخصية ابن عطية ماثلة واضحة جلية إلا أنه أحيانا كانت تجذبه العاطفة الدينية كلما سنحت له الفرصة فيطلق لقلمه العنان في سرد الأحاديث والأقوال المتعلقة بالترغيب والترهيب والتذكير بأمور الآخرة والتزهيد في الدنيا والتقليل من شأنها... إلخ.

وتفسير الجواهر الحسان يعتير في الجملة تفسيرا أثريا ذا نزعة صوفية وعظية يهتم بالقضايا الاجتماعية.

كما يهتم بالمقارنة بين مختلف التفاسير، وترجيح بعضها على الآخر، وذلك في مواضع كثيرة من تفسيره كقوله مثلاً: " وأرجح الأقوال عندي قول هذه الطائفة وفي الحديث الصحيح... " وذلك باعتماده على حديث صحيح، وكقوله: " وهي مع ذلك عند التأمل يلوح منها تأويل قتادة المتقدم فتأمله "، وكقوله: " وهذا التأويل عندي أبين إذا لخص وإن كان قد استبعده ابن عطية "، ويرجح أحيانًا تفسير الطبري فيقول: " وما قال الطبري عندي أبين " ويقول: " وهذا هو الراجح الذي تدل عليه الأحاديث وظواهر الآيات "، " وأظهرها عندي قول أبي جعفر ".

ويرجح أحيانًا عند مقارنته تفسير أهل بلده مثل ترجيحه تفسير عبد الحق الخراطي أو البجائي فيقول: " وهذا هو الصواب إن شاء الله تعالى وهو تأويل صاحب العاقبة " ويميل أحيانا أخرى إلى تأويل

الحديث ليخلص إلى رأى اجتهادي له كرأيه في عدم القيام للقادم لتحيته يقول: " وفي الاحتجاج بقضية سعد نظر لأنها احتفت بها قرائن سوغت ذلك، والسلامة عندي... "، ويرجح أحيانا كثيرة تفسير البخاري كقوله مثلا: " والأول أبين وهو تفسير البخاري ".

ولم يخل منهجه من عنصر النقد، فكما نقد كثيرا من الآثار والروايات سندا ومتنا نقد أيضا في مواضع متعددة جماعة من المفسرين وعلى رأسهم ابن عطية الذي اختاره المصنف ليكون أساس تفسيره فيصرح أحيانا ببعد تفسير أو لفظة عن السياق فيقول مثلا: " وهذا تأويل بعيد من لفظ الآية كما ترى ".

ويكشف أحيانا عما يسميه قلقا في التوجيه أو في التعبير ويبين أحيانا أخرى أن ابن عطية خصص بدل أن يعمم بدون دليل مثل قوله في تفسير قوله تعالى:{إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾} [المزمل: ٥]، والصواب عندي أن يقال: أما ثقله باعتبار سائر الأمة فهو ماذكر من ثقل المعاني ".

كما ينبه في مواضع أخرى على تناقض ابن عطية فيقول مثلا: وماضعفه رحمه الله صححه في سورة البقرة ويقول: " وفي نظره رحمه الله نظر يمنعني من البحث معه مأأنا له قاصد من الإيجاز والاختصار دون البسط والانتشار ".

ونجده أحيانا أخرى ينبه إلى أخطاء وقع فيها ابن عطية فيقول: " وماذكره رحمه الله تعالى من البطلان لا يصح " ويشير في مواضع أخرى إلى أنه ترك عبارات من تفسير ابن عطية كلمات الواجب طرحها ولهذا أعرض عنها. أو أنه لم يتبع الأحسن في تفسير لفظة أو آية يقول: " فسر رحمه الله تعالى لفظ " خاوية " في سورة الحج والنمل بخالية والأحسن أن تفسر هنا وفي الحج بساقطة وأما التي في النمل فيتجه أن تفسر بخالية وبساقطة ". كما خطأ ابن عطية في

ادعائه الإجماع على معنى آية فقال: " وليس هذا الإجماع بصحيح ". ويصلح له بعض العبارات مثال ذلك قوله: " وصوابه أن يقول: عن بعض المقدورات لا عن كلها وهذا هو مراده ألا تراه قال في قوله تعالى:{وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ} [البقرة: ٢٥٥]، قال: يعني بشيء من معلوماته لأن علمه تعالى لا يتجزأ فافهم راشدا ".

ولكن الإنصاف جعل الثعالبي يدافع عن ابن عطية إذا انتقده من لم يكن محقا في نقده كالصفاقسي، وأكثر من ذلك فإنه انتصر له في عدم موافقته الطبري في بعض مايذهب إليه.

والتزم في طريقته تجنب التكرار والإعادة فيقول مثلا: " فأغنانا عن إعادته وهذه هي عادتنا في هذا المختصر. "

المنهج التفصيلي للمؤلف:

يهتم المصنف بذكر المكي والمدني وأسماء السورة وهو يتعرض لعد الآي ومن ذلك قوله: وعدد آي سورة البقرة مائتان وخمس وثمانون آية، وقيل: وست وثمانون، وقيل: وسبع وثمانون.

موقفه من العقيدة:

وأما من الناحية الكلامية فمنهجه منهج الأشعري يأول آيات العقائد تأويل الأشعرية ويوجهها توجيههم، ولنأخذ مثالا على ذلك قال في قوله تعالى:{ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ} [الأعراف: ٥٤]، والمعتقد في هذا أنه سبحانه مستو على العرش على الوجه الذي قاله، وبالمعنى الذي أراده، استواء منزها عن المماسة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال، لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ومقهورون في قبضته كان الله ولا شيء معه، كان سبحانه قبل أن يخلق المكان والزمان وهو الآن على ماعليه كان.

وقوله: " العلي " : يراد به علو القدر والمنزلة لا علو المكان لأن الله

سبحانه وتعالى منزه عن التحيز.

وله ردود على المعتزلة وغيرهم وقد هاجم الزمخشري الذي ذهب إلى أن " لن " لتأبيد النفي لينفي رؤية الله سبحانه في قوله:{لَن تَرَىٰنِى} [الأعراف: ١٤٣]، وهنا نرى أن الثعالبي ينقد تفسير الزمخشري كما أنه لا يحبذ مطالعته متأثرا في ذلك ببعض شيوخه الأشاعرة الذين يرغبون عنه لاعتزاله.

وفي قوله:{لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ} [البقرة: ٢٧٢]، قال: ثم أخبر سبحانه أنه يهدي من يشاء، وفي الآية رد على القدرية، وطوائف المعتزلة، ثم بين تعالى أن النفقة المقبولة ماكان ابتغاء وجه الله، وفي الآية تأويل وهو أنها شهادة من الله تعالى للصحابة أنهم إنما ينفقون ابتغاء وجه الله سبحانه فهو خبر عنهم لهم فيه تفضيل.

وقال في قوله تعالى:{وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ} [البقرة: ٢٨١].

ويومًا نصب على المفعول، لاعلى الظرف، وجمهور العلماء على أن هذا اليوم المحذر منه: هو يوم القيامة والحساب والتوفية، وقال قوم: هو يوم الموت، والأول أصح، وهو يوم تنفطر لذكره القلوب، وفي هذه الآية نص على أن الثواب والعقاب متعلق بكسب الإنسان، وهذا رد على الجبرية.

الجانب الصوفي في منهجه:

وإذا كان منهج الثعالبي منهجا تحقيقيا في أساسه وطابعه العام فإنه لم يخل من جانب صوفي واضح إذ كان هو نفسه صوفيا سنيا لا يذهب مذهب الحلول والغوص في مذهب وحدة الوجود، وهو ينقل في تفسيره نصوصا عن القشيري والمحاسبي من رعايته ومن مختصرها للعز ابن عبد السلام ومن كتاب سنن الصالحين لأبي

الوليد الباجي ومن التنوير لابن عطاء الله السكندري وعن صاحب التشوف المغربي وعن أبي القاسم عبد الرحمن بن يوسف اللجائي الصوفي وعن أبي مدين البجائي التلسماني وعن أبي الحسن الشاذلي وغيرهم.

ومفهوم الولي عنده مفهوم قرآني قال في تفسير قوله تعالى:{أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾} [يونس: ٦٢]، وأولياء الله هم المؤمنون الذين والوه بالطاعة والعبادة وهذه الآية يعطي ظاهرها أن من آمن واتقى الله فهو داخل في أولياء الله وهذا هو الذي تقتضي الشريعة في الولي.

وقد انتقد ظاهرة التصنع والرياء لدى بعض المتصوفة المرائين المتصنعين فقال عند تفسير قوله تعالى:{فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ} [الزمر: ٢٢]، وهذا كله تغليظ على المرائين والمتصنعين ولا خلاف أعلمه بين أرباب القلوب وأئمة التصوف أن المتصنع عندهم بهذه الأمور ممقوت وأما من غلبه الحال لضعفه وقوي الوارد عليه حتى أذهبه عن حسه فهو إن شاء الله من السادة الأخيار يطول تعدادهم كابن وهب، وأحمد بن معتب المالكيين ذكرهما عياض في مداركه وأنهما ماتا من ذلك، وكذلك مالك بن دينار مات من ذلك ذكره عبد الحق في العاقبة ومن كلام عز الدين بن عبد السلام رحمه الله في قواعده الصغرى قال: وقد يصيح بعضهم لغلبة الحال عليه، وإلجائها إياه إلى الصياح، وهو في هذا معذور، ومن صاح لغير ذلك فمتصنع ليس من القوم في شيء، وكذلك من أظهر شيئا من الأحوال رياء أو تسميعا فإنه ملحق بالفجار دون الأبرار.

ونعلق على ماذكره هنا بأن أولى الناس بالخشوع النبي صلى الله عليه وسلم ثم صحابته الكرام وعلماء الأمة الصدور من التابعين

ومن بعدهم كالأئمة الأربعة ومن في منزلتهم ولم يصدر ذلك عن أحد منهم مما يدلل على كون ذلك مدخلا من مداخل الشيطان وتلبيسا من تلبيساته كما أفاض في ذكر جمل من ذلك ابن الجوزي في كتابه تلبيس إبليس وأفرده الشيخ أبو عبد الرحمن بن عقيل في رسالة مستقلة.

ومن صوفياته قوله تحت قوله تعالى:{ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ} [آل عمـــــران: ١٩١]، وأخذ أبو سليمان الداراني قدح الماء ليتوضأ لصلاة الليل وعنده ضيف فرآه لما أدخل إصبعه في أذن القدح أقام كذلك مفكرًا حتى طلع الفجر، فقال له: ما هذا يا أبا سليمان؟ فقال: إني لما طرحت إصبعي في أذن القدح تذكرت قول الله سبحانه:{ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلۡحَمِيمِ} [غافر: ٧١، ٧٢]، فتفكرت في حالي، وكيف أتلقى الغل إن طرح في عنقي يوم القيامة، فما زلت في ذلك حتى أصبحت.

ونقل عن ابن عطية قوله: وحدثني أبي رضي الله عنه عن بعض علماء المشرق قال: كنت بائتًا في مسجد الأقدام بمصر فصليت العتمة فرأيت رجلا قد اضطجع في كساء له حتى أصبح، وصلينا نحن تلك الليلة وسهرنا، فلما أقيمت صلاة الصبح قام ذلك الرجل، فاستقبل القبلة فصلى مع الناس فاستعظمت جرأته في الصلاة بغير وضوء، فلما فرغت الصلاة خرج فتبعته لأعظه فلما دنوت منه سمعته وهو ينشد:

منسحق الجسم غائب حاضر ::: منتبه القلب صامت ذاكر

منقبض في الغيوب منبسط ::: كذاك من كان عارفًا ذاكرا

يبيت في ليله أخا فكر ::: فهو مدى الليل نائم ساهر

قال: فعلمت أنه ممن يعبد بالفكرة، فانصرفت عنه.

وهذا أيضا الذي ذكره لا محل له من أهل الصدر الأول وهم أخشى الناس وأتقاهم، وقد حرم المسكين من قيام الليل ومناجاة الخالق سبحانه وتعالى والاقتراب منه في السجود، والتفكر في آيات الله وهو بين يدي الله، ليس وهو نائم أو سارح! غفر الله لنا تقصيرنا.

موقفه من تفسير القرآن بالقرآن:

من الأمثلة على انتهاجه منهج تفسير القرآن بالقرآن في بعض المواضع ماذكره في قوله تعالى:{وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا} [آل عمران: ١٤٥]، قال: أي نؤت من شئنا منها ماقدر له يبين ذلك قوله تعالى:{مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ} [الإسراء: ١٨].

ومن تفسير القرآن بالقرآن قوله:{ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ} [الفاتحة: ٧]، اليهود والضالون النصارى... وذلك بين من كتاب الله لأن ذكر غضب الله على اليهود متكرر فيه كقوله:{وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ} [البقرة: ٦١]، و{قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ} [المائدة: ٦٠]،... والنصارى كان محققوهم على شرعة قبل ورود شرع محمد صلى الله عليه وسلم فلما ورد ضلوا، وأما غير متحققيهم فضلالتهم متقررة منذ تفرقت أقوالهم في عيسى عليه السلام وقد قال الله تعالى فيهم:{وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ} [المائدة: ٧٧].

موقفه من تفسير القرآن بالسنة:

ذكرنا فيما سبق منهجه في ذلك في كلامه الذي ختمه بقوله:

وبالجملة فكتابي هذا محشو بنفائس الحكم وجواهر السنن الصحيحة والحسان المأثورة عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وهو يقول أيضا: " وليس لأحد مع الحديث إذا صح نظر ".

ويمكن القول بأن منهج الثعالبي في تفسيره يقوم على تحقيق

النصوص ونقدها حيث يقول: " وقد تحرينا في هذا المختصر التحقيق فيما علقناه جهد الاستطاعة ".

كما اعتنى فيه اعتناء عظيما بالسنة النبوية باعتبارها بيانا للقرآن وأساسا هاما لمنهج التفسير بالمأثور الذي اختاره لنفسه فالتزم تخريج الأحاديث التي يوردها أو يوردها غيره من المفسرين فينقد سندها أحيانا ومتنها أحيانا أخرى مثال نقده للمتن نقده للحديث الذي ذكره تحت قوله تعالى:{وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾} [الحجر: ٢٤]، وأخرجه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنه في شأن المرأة التي كانت تصلي خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الثعالبي فيه: " والحديث المتقدم إن صح فلا بد من تأويل فإن الصحابة ينزهون عن فعل ما ذكر فيؤول بأن ذلك صدر من بعض المنافقين أو بعض الأعراب الذين قرب عهدهم بالإسلام ولم يرسخ الإيمان في قلوبهم، وأما ابن عباس فإنه كان يومئذ صغيرًا بلا شك، هذا إذا كانت الآية مدنية، فإن كانت مكية فهو يومئذ في سن الطفولة وبالجملة فالظاهر ضعف هذا الحديث من وجوه ".

وكذلك نقده لما أورده النقاش، قال الثعالبي: " وأما ما ذكره من الحبل (يعني حبل المرأة من الجن) فلا شك في ضعفه، وفساد قول قائله، ولم أر في ذلك حديثًا لا صحيحًا ولا سقيمًا ولو أمكن أن يكون الحبل من الجن - كما زعم ناقله - لكان ذلك شبهة يدرأ بها الحد عمن ظهر بها حبل من النساء اللواتي لا أزواج لهن، لاحتمال أن يكون حبلها من الجن كما زعم هذا القائل، وهو باطل ".

وكتعليقه على حديث آخر في تفسير قوله تعالى:{كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ} [الفتح: ٢٩]، قال: " وهذا لين الإسناد والمتن كما ترى ".

ومن مواضع استدلاله بالحديث الصحيح:

قوله تعالى:{ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ } [البقرة: ٢٨٠].

قال: وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:{كان رجل يداين الناس فكان يقول لفتاه إذا أتيت معسرًا فتجاوز عنه لعل الله يتجاوز عنا} قال: فلقي الله فتجاوز عنه " وفي صحيح مسلم:{من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر، أو يضع عنه} وفي رواية:{من أنظر معسرًا أو وضع عنه أنجاه الله من كرب يوم القيامة} وفي رواية:{من أنظر معسرًا أو وضع عنه أظله الله في ظله}.

وهو في الواقع كما أنه يكثر من الأحاديث الصحيحة ففي نفس الوقت يكثر من الأحاديث الضعيفة ومن ذلك قوله:

وقد روى ابن المبارك في (رقائقه) قال: أخبرنا ابن لهيعة قال: حدثني سعيد بن أبي سعيد أن رجلا قال: يارسول الله كيف لي أن أعلم كيف أنا؟ قال:{إذا رأيت كلما طلبت شيئا من أمر الآخرة وابتغيته يسر لك، وإذا أردت شيئا من الدنيا وابتغيته عسر عليك، فأنت على حال حسنة، وإذا رأيت كلما طلبت شيئا من أمر الآخرة وابتغيته عسر عليك، وإذا أردت شيئا من أمر الدنيا وابتغيته يسر لك، فأنت على حال قبيحة}. انتهى فتأمله راشدا.

ومن ذلك أيضا قوله:خرج الحاكم أبو عبد الله في المستدرك على الصحيحين عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :{اعملوا بالقرآن، أحلوا حلاله وحرموا حرامه، واقتدوا به ولا تكفروا بشيء منه وما تشابه عليكم منه فردوه إلى الله وإلى أولي العلم من بعدي كيما يخبروكم وآمنوا بالتوراة والإنجيل والزبور وما أوتي النبيون من ربهم وليسعكم القرآن وما فيه من البيان فإنه شافع مشفع وماحل مصدق}... الخ.

وهو يهتم بذكر أسباب النزول:

ومن ذلك قوله:{ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ } [البقرة: ٢٧٤].

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب رضي الله عنه كانت له أربعة دراهم فتصدق بدرهم ليلا وبدرهم نهارا وبدرهم سرا وبدرهم علانية.

وفي قوله تعالى:{قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ} [الإسراء: ١١٠].

قال: سبب نزول هذه الآية أن بعض المشركين سمع النبي صلى الله عليه وسلم يدعو:{يا الله يارحمن} فقالوا: كان محمد يأمرنا بدعاء إله واحد وهو يدعو إلهين. قاله ابن عباس؛ فنزلت الآية مبينة أنها أسماء لشيء واحد.

وقال: وفي صحيح البخاري - رحمه الله - بسنده عن ابن عباس في قوله سبحانه:{وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا} [الإسراء: ١١٠]، قال: نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم مختف بمكة كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فإذا سمع المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به فقال الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم :{وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ} [الإسراء: ١١٠]، أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ولا تخافت به عن أصحابك فلا تسمعهم وابتغ بين ذلك سبيلا.

وفي قوله:{ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ } [التوبة: ٧٤].

قال: نزلت في الجلاس بن سويد وقوله: لئن كان مايقول محمد حقا لنحن شر من الحمر فسمعها منه ربيبه أو رجل آخر فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم فجاء الجلاس فحلف بالله ماقال هذه الكلمة فنزلت الآية.

... وقال قتادة: نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول وقوله في غزوة المريسيع مامثلنا ومثلهم إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فوقفه فخلف أنه لم يقل ذلك فنزلت الآية مكذبة له.

وهو يتعرض لذكر فضائل السور والآيات:

فذكر أحاديث فضل الفاتحة فقال: مثل حديث أبي سعيد بن المعلى إذ قال له صلى الله عليه وسلم :{**ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن؟ الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته**} انتهى من سلاح المؤمن تأليف الشيخ المحدث أبي الفتح تقي الدين محمد بن علي بن همام رحمه الله. وقال أيضا: ويقال لسورة البقرة فسطاط القرآن وذلك لعظمها وبهائها وماتضمنت من الأحكام والمواعظ وفيها خمسمائة حكم، وخمسة عشر مثلا وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:{**أعطيت سورة البقرة من الذكر الأول، وأعطيت طه والطواسين من ألواح موسى وأعطيت فاتحة الكتاب وخواتم سورة البقرة من تحت العرش**}.

كما ذكر أحاديث في الفضائل صحيحة ومعزوة لمخرجيها في آية الكرسي وغيرها.

موقفه من تفسير القرآن بأقوال السلف:

وهو يقدم تفسير الصحابة فيقول في إحدى ترجيحاته مبررًا: "... ولأنه تفسير صحابي وهو مقدم على غيره ".

ومن مواضع اهتمامه بتفسير السلف قوله:

قال ابن عباس: " كرسيه " علمه...ومنه الكراسة.

قوله:{وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ } [البقرة: ٢٦٥]، قال قتادة وغيره: وتثبيتا معناه: وتيقنا، أي أن نفوسهم لها بصائر متأكدة فهي تثبتهم على الإنفاق في طاعة الله تثبيتًا، وقال مجاهد والحسن: معنى قوله:{وَتَثْبِيتًا} أي أنهم يتثبتون أين يضعون صدقاتهم، قال الحسن: الرجل إذا هم تثبت فإن كان ذلك لله أمضاه، وإن خالطه شيء أمسك.

قوله:{فَطَلٌّ }: المستدق من القطر، قاله ابن عباس وغيره.

وفي قوله:{إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ} [البقرة: ٢٧١]، قال ابن عباس: جعل الله صدقة السر في التطوع، تفضل علانيتها، يقال: بسبعين ضعفا، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها، يقال بخمسة وعشرين ضعفًا، قال: وكذلك جميع الفرائض والنوافل في الأشياء كلها.

وفي قوله:{تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ} [البقرة: ٢٧٣]، قال: السيما مقصورة العلامة واختلف المفسرون في تعيينها، فقال مجاهد: هي التخشع والتواضع، وقال الربيع والسدي: هي جهد الحاجة وقصف الفقر في وجوههم وقلة النعمة وقال ابن زيد: هي رثة الثياب، وقال قوم وحكاه مكي: هي أثر السجود.

موقفه من السيرة والتاريخ وذكر الغزوات:

قال تحت قوله:{رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا} [البقرة: ١٢٩]، وقد تواترت أخبار نبينا صلى الله عليه وسلم وبعثته في الكتب السالفة، وعلم بذلك الأحبار، وأخبروا به، وبتعيين الزمن الذي يبعث فيه، وقد روى البيهقي أحمد بن الحسين وغيره: عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، قال: حضرت سوق بصري، فإذا راهب في صومعة، يقول: سلوا أهل هذا الموسم، أفيهم من هو من هذا الحرم؟ قال: قلت أنا فما تشاء؟ قال: هل ظهر أحمد بعد؟ قلت: ومن أحمد؟ قال: أحمد بن عبدالله بن عبد المطلب، هذا شهره الذي يخرج فيه، وهو خاتم الأنبياء، مخرجه من الحرم، ومهاجره إلى نخل وسباخ، إذا كان فلا تسبقن إليه، فوقع في قلبي ماقال، وأسرعت اللحاق بمكة فسألت هل ظهر بعدي أمر؟ فقالوا: محمد الأمي قد تنبأ، واتبعه أبو بكر ابن أبي قحافة، فمشيت إلى أبي بكر، وأدخلني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت.

قال: وقد روى العذري وغيره عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال:

لقيت شيخًا باليمن، فقال لي: أنت حرمي؟ فقلت: نعم، فقال: وأحسبك قرشيًا؟ قلت: نعم. قال: بقيت لي فيك واحدة، اكشف لي عن بطنك! قلت: لاأفعل، أو تخبرني لم ذلك؟ قال: أجد في العلم الصحيح أن نبيًا يبعث في الحرمين يقارنه على أمره فتى، وكهلا، أما الفتى فخواض غمرات، ودفاع معضلات، وأما الكهل فأبيض نحيف، على بطنه شامة، وعلى فخده اليسرى علامة، وما عليك أن تريني ماسألتك عنه فقد تكاملت فيك الصفة إلا ماخفي علي. قال أبو بكر: فكشفت له عن بطني، فرأى شامة سوداء فوق سرتي، فقال: أنت هو ورب الكعبة... وخف الله فيما خولك وأعطاك، قال أبو بكر: فلما ودعته قال: أتحمل عني إلى ذلك النبي أبياتا؟ قلت: نعم، فأنشأ الشيخ يقول:

ألم تر أني قد سئمت معاشري ::: ونفسي قد أصبحت في الحي هاهنا
حييت وفي أيام المرء عبرة ::: ثلاث مئين بعد تسعين آمنا
وقد خمدت مني شرارة قوتي ::: وألفيت شيخا لا أطيق الشواحنا
وأنت ورب البيت تأتي محمدا ::: لعامك هذا قد أقام البراهنا
فحيي رسول الله عني فإنني ::: على دينه أحيا وإن كنت قاطنا

قال أبو بكر: فحفظت شعره، وقدمت مكة، وقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم فجاءني صناديد قريش وقالوا: ياأبا بكر يتيم أبي طالب يزعم أنه نبي، قال: فجئت إلى منزل النبي صلى الله عليه وسلم فقرأت عليه فخرج إليّ، فقلت: يامحمد فقدت من منازل قومك، وتركت دين آبائك، فقال: " ياأبا بكر إني رسول الله إليك، وإلى الناس كلهم، فآمن بالله " فقلت: وما دليلك؟ " قال الشيخ الراهب الذي لقيته باليمن "، قلت: وكم من شيخ لقيت؟ قال: " ليس ذلك أريد، إنما أريد الشيخ الذي أفادك الأبيات " قلت: ومن أخبرك بها؟ قال: " الروح الأمين الذي كان يأتي الأنبياء قبلي " قلت: مد يمينك أشهد أن لاإله إلا الله وأنك رسول الله، قال أبو بكر: فانصرفت وما بين لابتيها أشد

من رسول الله صلى الله عليه وسلم فرحا بإسلامي. انتهى من تأليف ابن القطان في الآيات والمعجزات.

وفي ذكر هذين الموضعبن دليل على إهمال المصنف منهج التحقيق تماما في جانب السيرة فكلا الخبرين موضوع وهل كان بمكة لابتان؟؟ فما أسخف الوضاعين! وهل أسلم أبو بكر بعد أن فشا خبره صلى الله عليه وسلم في مكة؟ وهو أول من أسلم من الرجال فيما ثبتت به الأخبار الصحيحة المستفيضة.

كما ذكر طرفا من قصة غزوة بدر تحت قوله تعالى:{ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ } [الأنفال: ٧].

فقال: في هذه الآية قصص حسن محل استيعابه كتاب سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن هشام واختصاره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغه...الخ.

وكذا ذكر بعضا من مشاهد السيرة تحت قوله:{وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ } [التوبة: ٢٥].

موقفه من الإسرائيليات:

وقد نقد المصنف الإسرائيليات في عدة مواضع من تفسيره منها تعليقه على التفسير قوله تعالى:{ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ } [ص: ٣٤]. قال: " قد أكثروا في قصص هذه الآية بما لا يوقف على صحته " وتبنى نقد أبي بكر ابن العربي في أحكامه ونقل نصه: " وقد قال ابن العربي في توهين هذا القول وتزييفه: وهذا القول ونحوه مذكور في ضعيف الحديث في الترمذي وغيره، وفي الإسرائيليات التي ليس لها أساس ثابت، ولا يعول عليها من له قلب ".

إلا أن ذلك لا يعني أنه أهمل الإسرائيليات تماما بل إنه ذكر جملة منها ومن ذلك: في قوله تعالى:{ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ }

[البقرة: ٢٥٨].

قال: " ألم تر " تنبيه وهي رؤية القلب، والذي حاج إبراهيم هو نمروذ ابن كنعان ملك زمانه وصاحب النار والبعوضة، قاله مجاهد وغيره. قال قتادة: هو أول من تجبر وهو صاحب الصرح ببابل قيل: إنه ملك الدنيا بأجمعها، وهو أحد الكافرين، والآخر بختنصر، وقيل: إن النمروذ الذي حاج إبراهيم هو نمروذ بن فالخ، وفي قصص هذه المحاجة روايتان إحداهما: ذكر زيد بن أسلم أن النمروذ قعد يأمر للناس بالميرة، فلما جاء قوم قال: من ربكم وإلهكم؟ فيقولون: أنت، فيقول: ميروهم، وجاء إبراهيم عليه السلام يمتار، فقال له: من ربك وإلهك؟ قال إبراهيم: " ربي الذي يحيي ويميت " فلما سمعها نمروذ قال: " أنا أحيي وأميت " فعارضه إبراهيم بأمر الشمس " فبهت الذي كفر " وقال: لاتميروه، فرجع إبراهيم إلى أهله دون شيء، فمر على كثيف رمل كالدقيق، فقال: لو ملأت غرارتي من هذا، فإذا دخلت به فرح الصبيان حتى أنظر لهما، فذهب بذلك فلما بلغ منزله فرح الصبيان، وجعلا يلعبان فوق الغرارتين، ونام هو من الإعياء، فقالت امرأته: لو صنعت له طعامًا يجده حاضرًا إذا انتبه، ففتحت إحدى الغرارتين، فوجدت أحسن مايكون من الحواري، فخبزته، فلما قام وضعته بين يديه، فقال: من أين هذا؟ قالت: من الدقيق الذي سقت، فعلم إبراهيم أن الله يسر لهم ذلك.

وقوله:{ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ } [البقرة: ٢٥٩]:عطفت (أو) في هذه الآية على المعنى الذي هو التعجب في قوله:{ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ } [البقرة: ٢٥٨]، قال ابن عباس وغيره: الذي مر على القرية هو عزير، وقال وهب بن منبه وغيره: هو أرميا. قال ابن إسحاق: أرميا هو الخضر، وحكاه النقاش عن وهب بن منبه، واختلف في القرية ماهي؟ فقيل: المؤتفكة، وقال زيد بن أسلم: قرية الذين خرجوا من ديارهم وهم

ألوف. وقال وهب بن منبه وغيره: المقدس لما خربها بختنصر البابلي.

موقفه من اللغة:

وهو يهتم ببيان المفردات وذلك مثل قوله:{لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ} [البقرة: ٢٥٦].

الدين في هذه الآية هو المعتقد والملة ومقتضى قول زيد بن أسلم:{وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا} [البقرة: ٢٥٩].

قال: والعريش: سقف البيت، قال السدي: يقول هي ساقطة على سقفها أي سقطت السقف، ثم سقطت الحيطان عليها، وقال غيره: معناه خاوية من الناس، وخاوية معناه خالية، يقال: خوت الدار تخوي خواء وخويا، ويقال: خويت، قال الطبري: والأول أفصح.

" الربا " : قال: هو الزيادة، مأخوذ من ربا يربوا إذا نما وزاد عل ماكان وغالبه ماكانت العرب تفعله من قولها للغريم: أتقضي أم تربي؟ فكان الغريم يزيد في عدد المال ويصبر الطالب عليه.

وهو يتعرض للإعراب والنحو:

ومن ذلك قوله:{مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡ} [البقرة: ٢٧١]، للتبعيض المحض لا أنها زائدة كما زعم قوم.

{كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا} [البقرة: ١٦٨]، الخطاب عام و " ما " بمعنى: الذي، و " حلالا " حال من الضمير العائد على " ما " و " طيبا " نعت، ويصح أن يكون حالاً من الضمير في " كلوا " تقديره مستطيبين.

ومن النكات التفسيرية قوله:

{عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ} [آل عمران: ١٣٣]: وخص العرض بالذكر لأنه يدل متى ما ذكر على الطول، والطول إذا ذكر لايدل على قدر

العرض، بل قد يكون الطويل يسير العرض، كالخيط ونحوه.

{لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ} [الفتح: ٢٩]: والغيظ أصل الغضب، وكثيرًا مايتلازمان، ولذلك فسر بعض الناس الغيظ بالغضب، وليس تحرير الأمر كذلك، بل الغيظ حال للنفس لا تظهر على الجوارح، والغضب حال لها تظهر في الجوارح وفعلٍ ما، ولابد، ولهذا جاز إسناد الغضب إلى الله سبحانه، إذ هو عبارة عن أفعاله في المغضوب عليهم، ولا يسند إليه تعالى الغيظ.

وهو يقدم الحقيقة على المجاز في التفسير فيقول: " حمل اللفظ على حقيقته أولى إن لم يمنع مانع ".

وهو لا يكثر من الشعر:

ومن مواضع استدلاله به قوله تحت قوله تعالى:{إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ} [آل عمران: ١٤٠].

ثم قال تعالى تسلية للمؤمنين:{إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ} [آل عمران: ١٤٠]، والأسوة مسلاة للبشر ومنه قول الخنساء:

ولولا كثرة الباكين حولي :: على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن ::: أعزي النفس عنه بالتأسي

موقفه من القراءات:

وهو يهتم بذكر القراءات المتواترة وتوجيهها وإعرابها ولا يذكر الشواذ وجل اعتماده في ذلك على ابن عطية والسفاقسي ومن ذلك قوله:

وقرأ ابن كثير وغيره: " ونكفر " بالنون ورفع الراء، وقرأ ابن عامر: " ويكفر " بالياء ورفع الراء، وقرأ نافع وغيره: " ونكفر " بالنون والجزم. فأما رفع الراء فهو على وجهين؛ أحدهما: أن يكون

الفعل خبر ابتداء، تقديره: ونحن نكفر، أو والله يكفر، والثاني: القطع والاستئناف، والواو لعطف جملة على جملة، والجزم في الراء أفصح هذه القراءات، لأنها تؤذن بدخول التكفير في الجزاء وكونه مشروطًا إن وقع الإخفاء، وإما رفع الراء فليس فيه هذا المعنى.

وقال أيضا: وقرأ ابن عامر " هو مولاها ".

وقوله: " والأرحام " أي واتقوا الأرحام. وقرأ حمزة " والأرحام " بالخفض عطفًا على الضمير كقولهم: أسألك بالله وبالرحم، قاله مجاهد وغيره.

قال (ع) وهذه القراءة عند نحاة البصرة لا تجوز، لأنه لا يجوز عندهم أن يعطف ظاهر على مضمر مخفوض إلا في ضرورة الشعر كقوله:

فاذهب فما بك والأيام من عجب.

لأن الضمير المخفوض لا ينفصل، فهو كحرف من الكلمة، ولا يعطف على حرف، واستسهل بعض النحاة هذه القراءة. انتهى كلام (ع).

قال (ص): والصحيح جواز العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار، كمذهب الكوفيين، ولاترد القراءة المتواترة بمثل مذهب البصريين، قال: وقد أمعنا الكلام عليه في قوله تعالى:{وَكُفْرُۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ} [البقرة: ٢١٧]، انتهى وهو حسن، ونحوه للإمام الفخر.

موقفه من الفقه والأصول:

ولم يرد الثعالبي أن ينهج منهجا فقهيا مبسوطا في تفسيره حيث يقول: " تركت ذلك خشية التطويل وإذ محل بسطها كتب الفقه ".

وعليه فهو يتعرض للفقهيات بدون الإطالة ويركز على قول مالك ومن ذلك قوله:{وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ} [البقرة: ١٨٧]، قالت فرقة: المعنى ولا تجامعوهن، وقال الجمهور: ذلك يقع على الجماع فما دونه مما يتلذذ

بـه مـن النسـاء و " عـاكفون " أي: ملازمـون، قـال مالـك رحمـه الله وجماعة معه: لااعتكاف إلا في مساجد الجماعات. وروي عن مالك أيضًا أن ذلك في كل مسجد، ويخرج إلى الجمعة كما يخرج إلى ضروري أشغاله. قال ابن العربي في (أحكامه): وحرم الله سبحانه المباشرة في المسجد، وكذلك تحرم خارج المسجد، لأن معنى الآية ولا تباشروهن وأنتم ملتزمون للاعتكاف في المساجد، معتقدون له.

وقال أيضا:

قال ابن العربي: قال علماؤنا: وفي الآية دليل على أن ملك اليمين لاحق لها في الوطء والقسم، لأن المعنى:{فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا} [النساء: ٣]، في القسم:{فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} [النساء: ٣]، فجعل سبحانه ملك اليمين كله بمنزلة الواحدة، فانتفى بذلك أن يكون للأمة حق في وطء أو قسم، انتهى من الأحكام.

وقد أطال الكلام في النسخ وإثباته تحت قوله:{مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ} [البقرة: ١٠٦]، ومن كلامه أيضا: فمن قال إن السنة المتواترة تنسخ القرآن جعل رجم الرسول دون جلد ناسخًا لجلد الثيب وهذا الذي عليه الأمة أن السنة المتواترة تنسخ القرآن، إذ هما جميعًا وحي من الله سبحانه، ويوجبان جميعًا العلم والعمل، ويتجه عندي في هذه النازلة بعينها أن يقال: إن الناسخ لحكم الجلد هو القرآن المتفق على رفع لفظه، وبقاء حكمه، في قوله تعالى: " والشيخ والشيخة فارجموهما البتة " وهذا نص في الرجم، وقد قرره عمر على المنبر بمحضر الصحابة. والحديث بكماله في مسلم، والسنة هي المبينة ولفظ البخاري:{أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا} [النساء: ١٥]، الرجم للثيب والجلد للبكر.

ويذهب إلى أن العقل لا مجال له في عالم الغيب وأن العبرة في ذلك بصحة النقل ففي صيرورة الحيوانات ترابًا يوم القيامة يقول: " واعلم أني لم أقف على حديث صحيح في عودها ترابًا... والمعول عليه في

هذا: النقل، فإن صح فيه شيء عن النبي صلى الله عليه وسلم وجب اعتقاده، وصير إليه، وإلا فلا مدخل للعقل هنا "

وهو مع ذلك يقول بالقياس وبالتأويل قال: " وفيه دليل على صحة القياس، لأنه علمهم سبحانه الاستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الأخرى ".

موقفه من المواعظ والآداب:

لقد أولى المصنف هذا الجانب عناية ملحوظة تميز بها تفسيره فنجده يعلق تعليقات وعظية كثيرة دون أن يطيل فيها ويدعونا أحيانا للتأمل والتدبر في آيات القرآن كقوله مثلا: " ينبغي للمؤمن العاقل أن يتدبر هذه الآية ونظائرها ويقدر في نفسه أنه المقصود بها ".

وقال تحت قوله تعالى:{لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا} [البقرة: ٢٧٣].

وينبغي للفقير أن يتعفف في فقره، ويكتفي بعلم ربه قال الشيخ ابن أبي جمرة: وقد قال أهل التوفيق: من لم يرض باليسير فهو أسير انتهى. وذكر عبد الملك بن محمد ابن أبي القاسم ابن الكردبوس في الاكتفاء في أخبار الخلفاء قال: وتكلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه بتسع كلمات: ثلاث في المناجاة وثلاث في الحكمة وثلاث في الآداب أما المناجاة فقال: كفاني فخرا أن تكون لي ربا، وكفاني عزا أن أكون لك عبدا، وأنت كما أحب فاجعلني كما تحب. وأما الحكمة فقال: قيمة كل امرئ ما كان يحسنه، وماهلك امرؤ عرف قدر نفسه، والمرء مخبوء تحت لسانه. وأما الآداب فقال: استغن عمن شئت فأنت نظيره، وتفضل على من شئت فأنت أميره، واضرع إلى من شئت فأنت أسيره انتهى.

ولما كانت السيما تدل على حال صاحبها ويعرف بها حاله أقامها الله سبحانه مقام الإخبار عن حال صاحبها فقال:{تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ}

[البقرة: ٢٧٣]، وقد قال الشيخ العارف بالله صاحب الكلم الفارقية والحكم الحقيقية: كل مادل على معنى فقد أخبر عنه ولو كان صامتا، وأشار إليه ولو كان ساكتا، لكن حصول الفهم والمعرفة بحسب اعتبار المعتبر ونظر المتأمل المتدبر. انتهى

ومنه قوله: حدثني من أثق به أنه جلس عند شيخ من الأفاضل يجود عليه القرآن، فقرئت عليه هذه الآية فبكى عندها ثم بكى إلى أن فاضت نفسه، ومال فحركوه فإذا هو ميت رحمه الله، ونفع به.

ياهذا من صحا عقله من سكر هواه وجهله، احترق بنار الندم والخجل من مهابة نظر ربه، وتنكرت صورة حاله في عينه نفوس الأغبياء الجهال، غافلة عن العظمة والجلال، ولاهية عن أهوال العباد والمآل، مشغولة برذائل الأموال، ولا يعلمون أنها فتنة ووبال، وطول حساب وبلاء وبلبال، اغتنموا ياذوي البصائر نعمة الإمهال، واطرحوا خوادع الأماني وكواذب الآمال، فكأن قد فجأتكم هواجم الآجال. انتهى من (الكلم الفارقية في الحكم الحقيقية)

وقال في سورة النساء:

تأمل رحمك الله صدر هذه السورة؛ معظمه إنما هو في شأن الأجوفين البطن والفرج مع اللسان، وهما المهلكان، وأعظم الجوارح آفة وجناية على الإنسان، وقد روينا عن مالك في الموطأ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:{من وقاه الله شر اثنتين ولج الجنة، مابين لحييه وما بين رجليه، مابين لحييه وما بين رجليه، مابين لحييه وما بين رجليه} قال أبو عمر ابن عبد البر في التمهيد: ومعلوم أنه أراد صلى الله عليه وسلم ما بين لحييه: اللسان، وما بين رجليه: الفرج ". والله أعلم.

وقال في قوله تعالى:{وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ} [النساء: ١٣١]، قال الأستاذ أبو بكر الطرطوشي في سراج الملوك: ولما ضرب ابن ملجم

عليا رضي الله عنه أدخل منزله فاعترته غشية، ثم أفاق فدعا أولاده الحسن والحسين ومحمدًا فقال: أوصيكم بتقوى الله في الغيب والشهادة، وكلمة الحق في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، والعدل على الصديق والعدو، والعمل في النشاط والكسل، والرضا عن الله في الشدة والرخاء، يابني! ما شر بعده الجنة بشر، ولاخير بعده النار بخير، وكل نعيم دون الجنة حقير، وكل بلاء دون النار عافية، من أبصر عيب نفسه شغل عن عيب غيره، ومن رضي بقسم الله لم يحزن على مافاته، ومن سل سيف بغي قتل به، ومن حفر لأخيه بئرًا وقع فيها، ومن هتك حجاب أخيه كشف عورات بنيه، ومن نسي خطيئته استعظم خطيئة غيره، ومن استغنى بعقله زل، ومن تكبر على الناس ذل، ومن أعجب برأيه ضل، ومن جالس العلماء وقر، ومن خالط الأنذال احتقر، ومن دخل مداخل السوء اتهم، ومن مزح استخف به، ومن أكثر من شيء عرف به، ومن كثر كلامه كثر خطؤه، ومن كثر خطؤه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار...الخ.

وقد اهتم الثعالبي بموضوعات معاصرة لها صلة بحياة المسلمين:

منها الجهاد وقد ذكر أسباب ضعف أحوال المسلمين وأنها تعود إلى حب الدنيا وكراهية بذل النفوس لله فيقول: ألا ترى إلى حال الصحابة رضي الله عنهم وقلتهم في صدر الإسلام وكيف فتح الله بهم البلاد ودان لدينهم العباد لما بذلوا لله أنفسهم في الجهاد؟ وحالنا اليوم كما ترى عدد أهل الإسلام كثير ونكايتهم في الكفار نزر يسير. وأورد الحديث الذي أخرجه أبو داود الذي أوله:{**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها...**} ثم علق على ذلك ووصف حال ملوك زمانه وتركهم الجهاد فقال: فانظر رحمك الله فهل هذا الزمان إلا زماننا بعينه وتأمل حال ملوكنا إنما همتهم جمع المال من حرام

وحلال وإعراضهم عن أمر الجهاد فإنا لله وإنا إليه راجعون على مصائب الإسلام وهذا موقف شجاع من مواقف الثعالبي، كما تكلم عن الرباط في سبيل الله والزكاة واهتم بشؤون المرأة وبين أهمية الشورى.

أما موقفه من العلوم الحديثة والرياضة والفلسفة والمعجزات الكونية ونحو ذلك فلا نرى له اهتماما بهذا الجانب، والله أعلم [١].

* * *

(١) انظر: مقدمة تفسير الثعالبي من تحقيق الدكتور عمار الطالبي، الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، ص٧ - ٨، عبدالحق عبد الدائم سيف القاضي، عبد الرحمن الثعالبي ومنهجه في التفسير، رسالة ماجستير بإشراف د. عبد الفتاح سلامة، الجامعة الإسلامية سنة ١٤٠٥هـ.

الفخر الرازي

أعلام التفسير

الفخر الرازي
وتفسيره: مفاتيح الغيب

الإمام المفسر. أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل. وهو قرشي النسب. أصله من طبرستان، ومولده في الري وإليها نسبته، ويقال له (ابن خطيب الري) رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان، وتوفي في هراة. أقبل الناس على كتبه في حياته يتدارسونها.

هو و أبو عبد الله، محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن ابن علىّ، التيمى، البكرى، الطبرستانى، الرازى، الملقَّب بفخر الدين، والمعروف بابن الخطيب الشافعى، المولود سنة ٥٤٤ هـ (أربع وأربعين وخمسمائة من الهجرة). كان رحمه الله فريد عصره، ومتكلم زمانه، جمع كثيراً من العلوم ونبغ فيها، فكان إماماً في التفسير والكلام، والعلوم العقلية، وعلوم اللغة، ولقد أكسبه نبوغه العلمى شهرة عظيمة، فكان العلماء يقصدونه من البلاد، ويشدون إليه الرحال من مختلف الأقطار، وقد أخذ العلم عن والده ضياء الدين يالمعروف بخطيب الرى، وعن الكمال السمعانى، والمجد الجيلى، وكثير من العلماء الذين عاصرهم ولقيهم، وله فوق شهرته العلمية شهرة كبيرة في الوعظ، حتى قيل إنه كان يعظ باللسان العربى واللسان العجمى، وكان يلحقه الوجد في حال الوعظ ويكثر البكاء، ولقد خلَّف - رحمه الله - للناس مجموعة كبيرة من تصانيفه في الفنون المختلفة، وقد انتشرت هذه التصانيف في البلاد، ورزق فيها الحظوة الواسعة، والسعادة العظيمة، إذ أن الناس اشتغلوا بها، وأعرضوا عن كتب المتقدمين. ومن أهم هذه المصنفات: تفسيره الكبير المسمى بمفاتيح الغيب، وهو ما نحن بصدده الآن، وله تفسير سورة الفاتحة في مجلد واحد، ولعله هو الموجود بأول تفسيره

" مفاتيح الغيب "، وله في علم الكلام: المطالب العالية، وكتاب البيان والبرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان. وله في أصول الفقه: المحصول، وفي الحكمة: المخلص، وشرح الإشارات لابن سينا، وشرح عيون الحكمة، وفي الطلمسات: السر المكنون، ويقال: إنه شرح المفصل في النحو للزمخشرى، وشرح الوجيز في الفقه للغزالى.. وغير هذا كثير من مصنفاته، التي تتجلى فيها علم الرجل الواسع الغزير.

هذا.. وقد كانت وفاة الرازى - رحمه الله - سنة ٦٠٦ هـ (ست وستمائة من الهجرة) بالرى، ويقال في سبب وفاته: أنه كان بينه وبين الكرَّامية خلاف كبير وجدل في أمور العقيدة، فكان ينال منهم وينالون منه سباً وتكفيراً، وأخيراً سمُّوه فمات على إثر ذلك واستراحوا منه.

من مؤلفاته:

وكان يحسن الفارسية. ومن تصانيفه.

١ - مفاتيح الغيب ثماني مجلدات في تفسير القرآن الكريم.

٢ - لوامع البينات في شرح أسماء الله تعالى والصفات.

٣ - معالم أصول الدين.

٤ - محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين.

٥ - المسائل الخمسون في أصول الكلام.

٦ - الآيات البينات.

٧ - عصمة الأنبياء.

٨ – الأعراب.

٩ - أسرار التنزيل.

١٠ - المباحث المشرقية.

١١ - أنموذج العلوم.

٢ - أساس التقديس.

١٣ - المطالب العالية.

١٤ - المحصول في علم الأصول.

١٥ - نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز.

١٦ - السر المكتوم في مخاطبة النجوم.

١٧ - الاربعون في أصول الدين.

١٨ - نهاية العقول في دراية الأصول.

١٩ - القضاء والقدر.

٢٠ - الخلق والبعث.

٢١ - الفراسة.

٢٢ - البيان والبرهان.

٢٣ - تهذيب الدلائل.

٢٤ ــ الملخص.

٢٥ ــ النفس.

٢٦ - النبوات.

٢٧ - كتاب الهندسة.

٢٨ - شرح قسم الإلهيات من الإشارات لابن سينا.

٢٩ - لباب الإشارات.

٣٠ - شرح سقط الزند للمعري.

٣١ - مناقب الإمام الشافعي.

٣٢ - شرح أسماء الله الحسنى

٣٣ - تعجيز الفلاسفة بالفارسية، وغير ذلك. وله شعر بالعربية والفارسية، وكان واعظا بارعا باللغتين [(١)].

التعريف بتفسير الفخر الرازي:

مطبوع ومتداول وطبع عدة طبعات، يقول ابن قاضي شهبة: " إنه - أي الفخر الرازي - لم يتمه ".

وتضاربت أقوال العلماء في معرفة الذي أكمل هذا التفسير، وإلى أي موضع من القرآن وصل الفخر الرازي في تفسيره:

١ - قال ابن حجر العسقلاني في الدرر الكامنة: " الذي أكمل تفسير فخر الدين الرازي، هو أحمد بن محمد بن أبي الحزم مكي نجم الدين المخزومي القمولي، مات سنة ٧٢٧هـ وهو مصري ".

٢ - وقال صاحب كشف الظنون: " وصنف الشيخ نجم الدين أحمد ابن محمد القمولي تكملة له، وتوفي سنة ٧٢٧هـ، وقاضي القضاة شهاب الدين بن خليل الخويي الدمشقي، كمل ما نقص منه أيضا، وتوفي سنة ٦٣٩هـ ".

فأنت ترى أن ابن حجر يذكر أن الذي أتمه نجم الدين القمولي، وصاحب كشف الظنون يجعل لشهاب الدين الخويي مشاركة على وجه ما في هذه التكملة، وإن كانا يتفقان على أن الرازي لم يتم تفسيره.

أما إلى أي موضع وصل الفخر في تفسيره؟ فهذا كالأول أيضا.

---

(١) طبقات الأطباء ٢: ٢٣، والوفيات ١: ٤٧٤، ومفتاح السعادة ١: ٤٤٥ - ٤٥١، وذيل الروضتين ٦٨، وابن الوردي ٢: ١٢٧، وآداب اللغة ٣: ٩٤، ولسان الميزان ٤: ٤٢٦، ومختصر تاريخ الدول ٤١٨، والبداية والنهاية ١٣: ٥٥، وطبقات الشافعية ٥: ٣٣، والأعلام للزركلي ٦ /٣١٣.

أهمية التفسير الكبير " مفاتيح الغيب " :

إن تفسير الفخر الرازي ليحظى بشهرة واسعة بين العلماء، وذلك لأنه يمتاز عن غيره من كتب التفسير، بالأبحاث الفياضة الواسعةفي نواح شتى من العلم، ولهذا يصفه ابن خلكان فيقول: " إنه - أي الفخر الرازي - جمع فيه كل غريب وغريبة ".

يهتم ببيان المناسبات بين آيات القرآن وسوره، وهو لا يكتفي بذكر مناسبة واحدة بل كثيرا ما يذكر أكثر من مناسبة.

يهتم بالعلوم الرياضية والفلسفية ويكثر الاستطراد فيها.

يهتم كثيرا بالأحكام الفقهية وذكر أقوال الفقهاء ومذاهبهم مع ترويجه لمذهب الشافعي، ويستطرد كثيرا في المسائل الأصولية، كما أنه يهتم بالمسائل النحوية.

وبالجملة فهو أشبه بموسوعة في علم الكلام والكون والطبيعة.

موقفه من المعتزلة:

كان الفخر الرازي لا يدع فرصة تمر دون أن يعرض لمذهب المعتزلة بذكر أقوالهم والرد عليها ردا لايراه البعض كافيا ولا شافيا.

يقول ابن حجر في لسان الميزان: " وكان يعاب بإيراد الشبة الشديدة، ويقصّر في حلها، حتى قال بعض المغاربة: يورد الشبه نقدا ويحلها نسيئا ".

ما يؤخذ على هذا التفسير:

جاء في لسان الميزان: " أن سراج الدين السرمياحي المغربي صنف كتاب المأخذ في مجلدين، بيّن فيهما ما في تفسير الفخر من الزيف والبهرج، وكان ينقم عليه كثيرا ويقول: يورد شبه المخالفين في المذهب والدين على غاية ما يكون من التحقيق، ثم يورد مذهب أهل السنة والحق على غاية من الوهاء. قال الطوفي: ولعمري، إن هذا

دأبه في كتبه الكلامية والحكمة. حتى اتهمه بعض الناس، ولكنه خلاف ظاهر حاله، لأنه لو كان اختار قولا أو مذهبا ما كان عنده من يخاف منه حتى يستتر عنه، ولعل سببه أنه كان يستفرغ أقولا في تقرير دليل الخصم، فإذا انتهى إلى تقرير دليل نفسه لايبقى عنده شيء من القوى، ولا شك أن القوى النفسانية تابعة للقوى البدنية، وقد صرح في مقدمة نهاية العقول: أنه مقرر مذهب خصمه تقريرا لو أراد خصمه تقريره لم يقدر على الزيادة على ذلك ".

كان الفخر الرازي لا يدع فرصة تمر دون أن يعرض لمذهب المعتزلة بذكر أقوالهم والرد عليها ردا لايراه البعض كافيا ولا شافيا مما ينبغي أن يُعْلم أن ردود الرازي على المعتزلة مما لا يُفرح به كثيرا، لأنه يرد عليهم على طريقة الأشاعرة، وليس على طريقة السلف الصالح، فلذلك لا بد أن يحذر طالب العلم المبتدئ من هذا التفسير، حتى لا تعلق الشبهات بذهنه، وحتى لايلتبس عليه الحق بالباطل، وأن تقتصر الاستفادة منه على طالب العلم المتمكن من العقيدة السلفية، بحيث ينتقي من هذا التفسير ما ينفع، ويجتنب ما فيه من الزلل.

موقفه من القراءات المتواترة:

إذا استعرضنا بعض القراءات القرآنية، التي طعن فيها الطاعنون، نلحظ دفاعا من الفخر الرازي، فقد انبرى لهم رادا عليهم الأقيسة اللغوية؛ مفندا حججهم داعيا إلى التحاكم إلى النقل والرواية والسماع.

ففي قوله تعالى:{وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ} [البقرة: ٢٢٢].

يقول: تواتر عن حمزة والكسائي (يطهرن) مشددة، وتواتر عن ابن كثير ونافع وأبي عمر وابن عامر (يطهرن) خفيفة؛ ففي هذه الآية نجد الإمام الرازي، في هاتين القراءتين المتواترتين، لا يفرق بينهما، ولا يرجح إحداهما على الأخرى؛ فهما عنده سواء، ويجب العمل

بهما، يقول في ذلك: " إن القراءة المتواترة حجة بالإجماع، فإذا حصلت قراءتان متواترتان، وأمكن الجمع بينهما - وجب الجمع بينهما.

إذا ثبت هذا - فنقول: قرئ (حتى يطهرن) بالتخفيف، و (يطهرن) بالتخفيف عبارة عن انقطاع الدم، وبالتثقيل عبارة عن التطهر بالماء، والجمع بين الأمرين ممكن، وجب دلالة هذه الآية على وجوب الأمرين، وإذا كان وجب أن لا تنتهي هذه الحرمة، إلا عند حصول الأمرين؛ فالرازي يجمع بينهما، وهو يتجاوز حالة الجمع إلى الدفاع عنها، وهناك قراءة متواترة يظهر فيها دفاعه عنها، ورده الأقيسة اللغوية، والتحاكم إلى النقل والسماع.

ففي قوله تعالى:{وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ} [النساء: ١].

قرأ حمزة وحده (والأرحام) بجر الميم، قال القفال رحمه الله: وقد رويت هذه القراءة عن غير القراء السبعة، عن مجاهد وغيره، وأما الباقون من القراء فكلهم قرءوا بنصب الميم، أما قراءة حمزة - فقد ذهب الأكثر من النحويين إلى أنها فاسدة، قالوا لأن هذا يقتضي عطف المظهر على المضمر المجرور، ثم ذكر الوجوه التي احتجوا بها لذلك، ثم قال: واعلم أن هذه الوجوه ليست وجوها قوية، في دفع الروايات الواردة في اللغات، وذلك لأن حمزة أحد القراء السبعة، والظاهر أنه لم يأت بهذه القراءة من عند نفسه، بل رواها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك يوجب القطع بصحة هذه اللغة، والقياس يتضاءل عند السماع، لا سيما بمثل هذه الأقيسة التي هي أوهن من بيت العنكبوت.

ولم يكتف الرازي بهذا، بل أخذ يوجه القراءة توجيها حسنا مقرونا بالحجة، يقول في ذلك: " وأيضا فلهذه القراءة وجهان؛ أحدهما: أنها على تقدير تكرير الجار، كأنه قيل: تساءلون به وبالأرحام، وثانيهما:

أنه ورد ذلك في الشعر، وأنشد سيبويه في ذلك:

فــــاليوم قــــد بــــت تهجونــــا ::: فاذهب فما بك والأيام من عجب

وأنشد أيضا:

نعلق في مثل الســـواري ســـيوفنا ::: وما بينها والكعب غوط نفـــانف

والعجب من هؤلاء النحاة أنهم يستحسنون هذه اللغة بهذين البيتين المجهولين، ولا يستحسنون إثباتها بقراءة حمزة ومجاهد، مع أنهما كانا من أكابر علماء السلف في علم القرآن.

وقد اعترض بعض العلماء على قراءة الجر في " الأرحام "، بأنها فاسدة من جهة المعنى؛ إذ تقضي جواز الحلف بها، فرد الإمام الرازي على ذلك بقوله:

واحتج الزجاج، على فساد هذه القراءة من جهة المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم : {لا تحلفوا بآبائكم}.

فإذا عطف الأرحام على المكنى عن اسم الله، اقتضى ذلك جواز الحلف بالأرحام، ويمكن الجواب عنه بأن هذا حكاية عن فعل كانوا يفعلونه في الجاهلية؛ لأنهم كانوا يقولون: أسألك بالله والرحم، وحكاية هذا الفعل عنهم في الماضي لا تنافي ورود النهي عنه في المستقبل، وأيضا فالحديث نهى عن الحلف بالآباء فقط، وههنا ليس كذلك، بل هو حلف بالله أولا، ثم يقرن به بعده ذكر الرحم، فهذا ينافي ذلك الحديث، ويرى الإمام الرازي أن القراءات لا بد من تواترها، وما نقل منها بطريق الآحاد فهو مردود لا يعتد به؛ ففي قوله تعالى:{إِنَّ هَٰذَانِ لَسَٰحِرَٰنِ} [طه: ٦٣]، ذكر ستا " من القراءات الشاذة فيها، ثم قال: فهذه هي القراءات الشاذة المذكورة في هذه الآية، واعلم أن المحققين قالوا هذه القراءات لا يجوز تصحيحها؛ لأنها منقولة بطريق الآحاد، ثم تعرض للقراءات المتواترة في الآية، وأقوال الطاعنين فيها، ووجهة نظرهم، والرد عليها بالحجة والبيان،

يقول في ذلك: " القراءة المشهورة " أن هذان الساحران، وأما الطعن فيها فهو أسوأ مما تقدم، من وجوه (أحدها) أنه لما كان نقل هذه القراءة في الشهرة كنقل جميع القرآن، فلو حكمنا ببطلانها جاء مثله في جميع القرآن، وذلك يفضي إلى القدح في التواتر، وإلى القدح في كل القرآن، وأنه باطل، وإذا ثبت ذلك امتنع صيرورته معارضا بخبر الواحد المنقول عن بعض. (وثانيها) أن المسلمين أجمعوا على أن ما بين الدفتين كلام الله تعالى، وكلام الله تعالى لا يجوز أن يكون لحنا وغلطا، فثبت فساد ما نقل عن عثمان وعائشة رضي الله عنهما أن في قراءة (أن هذان الساحران) لحنا وغلطا.

(وثالثها) قال: ابن الأنباري أن الصحابة هم الأئمة والقدوة، فلو وجدوا في المصحف لحنا لما فوضوا إصلاحه إلى غيرهم من بعدهم، مع تحذيرهم من الابتداع، وترغيبهم في الاتباع، فثبت أنه لا بد من تصحيح القراءة المشهورة.

والإمام الرازي رد عن القراءات كل شبهة، وعزاها إلى النقل والسماع، ووجهها التوجيه الذي يزيل عنها كل شبهة؛ ففي قوله تعالى: {وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ}

[النساء: ١٦٢].

يقول في هذه الآية: " روي عن عثمان وعائشة أنهما قالا: إن في المصحف لحنا، وستقيمه العرب بألسنتها. واعلم أن هذا بعيد؛ لأن هذا المصحف منقول بالنقل المتواتر، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكيف يمكن ثبوت اللحن فيه، وعند البصريين أنه نصب على المدح لبيان فضل الصلاة، قالوا: إذا قلت: " مررت بزيد الكريم "، فلك أن تجر الكريم لكونه صفة لزيد، ولك أن تنصبه على تقدير أعني، وإن شئت رفعت على تقدير هو الكريم، وعلى هذا يقال:

جاءني قومك المطعمين في المحن، والمغيثون في الشدائد، والتقدير: جاءني قومك، أعني المطعمين في المحن، وهم المغيثون في الشدائد، فكذا ههنا تقدير الآية: أعني المقيمين الصلاة، وهم المؤتون الزكاة، وقد طعن الكسائي قول البصريين بقوله: النصب على المدح، إنما يكون بعد تمام الكلام، وهاهنا لم يتم الكلام؛ لأن قوله:{ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ} [النساء: ١٦٢]، منتظر للخبر، والخبر هو قوله:{أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا} [النساء: ١٦٢].

فأجاب الإمام الرازي على ذلك: " لا نسلم أن الكلام لم يتم إلا عند قوله (أولئك) لأنا بينا أن الخبر هو قوله (يؤمنون)، وأيضا لم لا يجوز الاعتراض بالمدح بين الاسم والخبر، وما الدليل على امتناعه؟ فهذا القول هو المعتمد في هذه الآية "، والتوجيه الثالث لقراءة والمقيمين هو للكسائي: وهو أن المقيمين خفض بالعطف، على (ما) في قوله:{بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ} [النساء: ١٦٢]، والمعنى:{وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ} [النساء: ١٦٢]، ثم عطف على قوله المؤمنون قوله:{وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ} [النساء: ١٦٢].

من الأمثلة السالفة الذكر يظهر لنا موقف الإمام الرازي من القراءات المتواترة، وكيف دافع عنها ورد الطعون الواردة عليها بجميع ما أوتي من علم ومعرفة، وليته استمر على هذا النهج، فقد وجدناه يقف صامتا عند الطعن في قراءة متواترة.

ففي قوله تعالى:{وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ} [الأنعام: ١٣٧].

يقول: قرأ ابن عامر وحده (زين) بضم الزاي وكسر الياء، وضم اللام من (قتل)، و (أولادهم) بنصب الدال، (شركائهم) بالخفض، والباقون (زين) بفتح الزاي والياء، (قتل) بفتح اللام، (أولادهم) بالجر، (شركائهم) بالرفع، أما وجه قراءة ابن عامر فالتقدير: زين

لكثير من المشركين قتل شركائهم أولادهم، إلا أنه فصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول به، وهو الأولاد، وهو مكروه في الشعر، كما في قوله:

فزججتها بمزجة... زج القلوص أبي مراده وإذا كان مستكرها في الشعر، فكيف في القرآن، الذي هو معجز في الفصاحة، قالوا والذي حمل ابن عامر على هذه القراءة أنه رأى بعض المصاحف (شركائهم) مكتوبا بالياء، ولو قرأ بجر الأولاد والشركاء؛ لأجل أن الأولاد شركاؤهم في أموالهم، لوجد في ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب.

والكلمات بألفاظها قالها الإمام الزمخشري، ولم يعزها إليه، والعجيب، في ذلك كما أسلفنا، أنه في مواضع عديدة، من تفسيره، قرر أن المقاييس اللغوية لا يعتد بها منع ثبوت تواتر القراءة، وهو القائل: " وإن حمزة لم يأت بالقراءة من عند نفسه ".

وهو القائل: " إن القراءة المتواترة حجة بالإجماع "، فيم نفسر سكوته هذا، ولأي شيء نعزي فساد ما أصلح في بعض الأحيان؟ إن اضطراب كلامه في القراءات يدل على أنه ليس له باع طويل في القراءات، كما هو شأن أبي حيان في دفاعه [1].

* * *

(١) طبقات الأطباء ٢: ٢٣، والوفيات ١: ٤٧٤، ومفتاح السعادة ١: ٤٤٥ - ٤٥١، وذيل الروضتين ٦٨، وابن الوردي ٢: ١٢٧، وآداب اللغة ٣: ٩٤، ولسان الميزان ٤: ٤٢٦، ومختصر تاريخ الدول ٤١٨، والبداية والنهاية ١٣: ٥٥، وطبقات الشافعية ٥: ٣٣، والأعلام للزركلي ٦ /٣١٣.

محمود شكري الألوسي

أعــلام التفسيــر

محمود شكري الألوسي

- أبو الثناء، شهاب الدين، السيد محمود أفندى الألوسى البغدادى. ولد في سنة ١٢١٧ هـ (سبع عشرة ومائتين بعد الألف من الهجرة النبوية)، في جانب الكرخ من بغداد.

- كان رحمه الله شيخ العلماء في العراق، وآية من آيات الله العظام، ونادرة من نوادر الأيام. جمع كثيراً من العلوم حتى أصبح علاَّمة في المنقول والمعقول، فهَّامة في الفروع والأصول، مُحَدِّثاً لا يُجارى، ومُفَسِّراً لكتاب خالد النقشبندى، والشيخ على السويدى، وكان رحمه الله غاية في الحرص على تزايد علمه، وتوفير نصيبه منه، وكان كثيراً مما ينشد:

سهرى لتنقيح العلوم الذّلى ::: من وصل غانية وطيب عناق

اشتغل بالتدريس والتأليف وهو ابن ثلاث عشرة سنة، ودرس في عدة مدارس، وعندما قُلّد إفتاء الحنفية، شرع يُدَرِّس سائر العلوم في داره الملاصقة لجامع الشيخ عبد الله العاقولى في الرصافة. وقد تتلمذ له وأخذ عنه خلق كثير من قاصى البلاد ودانيها، وتخرَّج عليه جماعات من الفضلاء من بلاد مختلفة كثيرة، وكان - رحمه الله - يُواسى طلبته من ملبسه ومأكله، ويُسكنهم البيوت الرفيعة من منزله، حتى صار في العراق العَلَمُ المفرد، وانتهت إليه الرياسة لمزيد فضله الذي لا يُجحد، وكان نسيجٌ وحده في النثر وقوة التحرير، وغزارة الإملاء وجزالة التعبير، وقد أملى كثيراً من الخطيب والرسائل، والفتاوى والمسائل، ولكن أكثر ذلك - علتى قرب العهد - دَرَسَ وَعَفت آثاره، ولم تظفر الأيدى إلا بالقليل منه، وكان ذا حافظة عجيبة. وفكرة غريبة، وكثيراً ما كان يقول: " ما استودعتُ ذهنى شيئاً فخاننى، ولا دعوتُ فكرى لمعضله إلا وأجابنى ". قُلّد إفتاء الحنفية في السنة الثامنة والأربعين بعد المائتين والألف من الهجرة المحمدية، وقبل

ذلك بأشهر، ولى أوقاف المدرسة المرجانية، إذا كانت مشروطة لأعلم لأهل البلد، وتحقق لدى الوزير الخطير علىّ رضا باشا، أنه ليس فيها من يدانيه من أحد. وفي شوَّال سنة ١٢٦٣ هـ (ثلاث وستين ومائتين بعد الألف) انفصل من منصب الإفتاء، وبقى مشتغلاً بتفسير القرآن الكريم حتى أتمه، ثم سافر القسطنطينية في السنة السابعة والستين بعد المائتين والألف، فعرض تفسيره على السلطان على المجيد خان، فنال إعجابه ورضاه، ثم رجع منها سنة ١٢٦٩ هـ (تسع وستين ومائتين بعد الألف).

– وكان - رحمه الله - عالماً باختلاف المذاهب، مطلعاً على الملل والنحل، سَلَفى الاعتقاد، شافعى المذهب، إلا أنه في كثير من المسائل يُقلّد الإمام الأعظم أبا حنيفة النعمان رضى الله عنه، وكان في آخر أمره يميل إلى الاجتهاد. ولقد خَلَّف - رحمه الله - للناس ثروة علمية كبيرة ونافعة، فمن ذلك تفسيره لكتاب الله، وهو الذي نحن بصدده الآن، وحاشيته على القطر، كتب منها في الشباب إلى موضع الحال، وبعد وفاته أتمها ابنه السيد نعمان الألوسى، وشرح السلم في المنطق، وقد فُقِد، ومنها الأجوبة العراقية عن الأسئلة اللاهورية، والأجوبة العراقية على الأسئلة الإيرانية، ودُرَّة الغواص في أوهام الخواص، والنفحات القدسية في المباحات الإمامية، والفوائد السنية في علم آداب البحث.

– وقد توفى رحمه الله في يوم الجمعة الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة ١٢٧٠ هـ (سبعين ومائتين بعد الألف من الهجرة)، ودُفن مع أهله في مقبرة الشيخ معروف الكرخى في الكرخ، فرضى الله عنه وأرضاه.

موقفه من الصوفية:

- جاهد في نشر الحق والرد على الباطل، فشن غاراته على الخرافات المتأصلة في النفوس فكتب الرسائل وألف المؤلفات التي زعزعت أسس الباطل وأحدثت دوياً وإصلاحاً عظيماً.. وارتفع صوته كمصلح ديني يدوّي في المطالبة بتطهير الدين مما لحقه من أو ضار البدع.

- وكعادة المصلحين والمجاهدين يبتليهم الله بخصومة المشركين وأهل البدع والحاسدين، فذهبوا يُشنعون عليه، ويرمونه بتهم شتى منها: أنه يبث فكرة الخروج على السلطان؟!! ويؤسس مذهباً يناصب كل الأديان؟!! وأن تأثيره سار بين الناس؟! فأغروا والي بغداد (عبد الوهاب باشا)... فصدر الأمر بنفي السيد محمود وابن عمه السيد ثابت نعمان الآلوسي والحاج حمد العسافي النجدي رحمهم الله إلى الأناضول.

- فلما وصلوا للموصل قامت قائمة الموصليين لأن الذين أمر بنفيهم من أعلام العراق الكبار، وأن في الموصل عدد كبير من العلماء وطلبة العلم السلفيين، فطلبوا من السلطان الصفح.. فصدر العفو عنهم وعادوا بعد أن مكثوا شهرين في الموصل.. وعادوا منصورين، فقام الشيخ عبد اللطيف بن ثنيان في صحيفته الرقيب بالانتصار للشيخ والرد على تلك الوشايات والافتراءات وأصدر مقالاً (الحمد لله عاد الحق لأهله)

- وعاش رحمه الله تعالى، ثلاثة مراحل في حياته.

- المرحلة الأولى:

- كان فيه صوفياً خالصاً: وهذا الطور يبدأ من أول حياته إلى أن تجاوز الثلاثين من عمره.

- وفي هذا يقول العلامة الأثري - رحمه الله - [١]:

- (.. ولكن الشاب المتأثر بالعقيدة الخلفية، والمتشبع بالروح الصوفية الموروثة له من أبيه وأستاذه الأول لم يستطع ملازمة عمه المستقل بعلمه وآرائه الضارب بالخزعبلات الصوفية والمذاهب التقليدية عرض الحائط، فصرف التعصب بصره عن عمه).

– المرحلة الثانية:

- كان فيه ما زجاً بين الصوفية والعقيدة السلفية، ولم يستمر هذا الطور معه طويلاً.وفي هذا يقول العلامة الأثري:

- (لما بلغ الألوسي هذا الطور من حياته، واتسعت آفاقه الذهنية والعلمية؛ رأيناه يبدأ حالاً جديدة من أحوال التفكير والاجتهاد، ويعيد النظر فيما تعاوره في أثناء الشباب من اختلاط العقائد والنزعات المذهبية المختلفة...) [٢].

– المرحلة الثالثة:

- وهو آخر ما استقر عليه المصنف رحمه الله؛ وهو طور نبذ التصوف، والمجاهرة بدعوة التوحيد.

- وفي هذا يقول العلامة الأثري:

- (ثم ما لبث الألوسي أن أصحر عن انحيازه في جرأة وقوة إلى الحركة السنية السلفية، مع مقاومة الدولة العثمانية الصوفية لهذه الحركة الإصلاحية بكل قواها الرجعية، واستعلن وقوفه إلى جانبها بكتابه (فتح المنان تتمة منهاج التأسيس رد صلح الإخوان) الذي فرغ من تأليفه في غرة ذي الحجة سنة ١٣٠٦هـ وطبع بالهند سنة ١٣٠٩هـ).

---

(١) أعلام العراق، ص ٩١.

(٢) محمود شكري الألوسي وآراؤه اللغوية، ص٧٦.

- كما كشف العلامة محمود الألوسي أن الصوفية أصحاب كذب وتدجيل، عندهم تقية كتقية الروافض، فيقول كما في تفسيره ٧٢/١١ - ٧٣ في تفسير آية:{لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ} [لقمان: ٦]:

وأشنع من ذلك ما يفعله أبالسة المتصوفة ومردتهم، ثم إنهم - قبحهم الله تعالى - إذا اعترض عليهم بما اشتمل عليه نشيدهم من الباطل يقولون: نعني بالخمر: المحبة الإلهية، أو بالسكر: غلبتها، أو بميّة وليل وسعدى مثلاً: المحبوب الأعظم وهو الله عز وجل!

وفي ذلك من سوء الأدب ما فيه:{وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ} [الأعراف: ١٨٠].

وفي صفحة (٧٥) قال: (ومن السماع المحرم سماع متصوفة زماننا؛ وإن خلا عن رقص، فإنَّ مفاسده أكثر من أن تحصى، وكثير ما ينشدون من الأشعار من أشنع ما يتلى، ومع هذا يعتقدونه قُربة، ويزعمون أنَّ أكثرهم رغبة فيه أشدهم رغبة أو رهبة، قاتلهم الله أنى يؤفكون).

مؤلفاته:

أَلَّفَ أبو المعالي رحمه الله مؤلفات كثيرة نافعة إن شاء الله، ومن هذه المؤلفات:

* فتح المنان، وهو كتاب أتم به منهاج التأسيس في الرد على داود ابن جرجيس للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن.
* بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب.
* شرح مسائل الجاهلية، وهو كتابنا هذا.
* شرح منظومة عمود النسب.

ولما ترك الألوسي منصب الإفتاء بالعراق، تفرغ لتفسير القرآن الكريم، وتعلقت نفسه رغبة لإتمام هذا العمل، فكان في أحيان كثيرة

يقوم من نومه، ويترك فراشه حين يخطر بذهنه معنى جديد لم يذكره المفسرون السابقون عليه، ولا يهدأ له بال حتى يسجل خواطره في كراريسه، وعندئذ يعود إليه الهدوء، ويزول عنه القلق والتوتر، ويذهب إلى فراشه حيث يستسلم للنوم.

وكان يجمع كل ما كتبه غيره في التفسير، وينقيها من كل شائبة (الإسرائيليات) ويظهر الحقيقة جلية واضحة، كل ذلك في أسلوب رائع جذاب، حتى أصبح تفسيره الذي سمي (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) من أحسن التفاسير جامعًا لآراء السلف، مشتملا على أقوال الخلف بكل أمانة وعناية، فهو جامع لخلاصة كل ما سبقه من كتب التفاسير.. وكانت مؤلفات الإمام الألوسي في أنواع مختلفة من العلوم والمعارف، أهمها تفسيره الشهير بـ(تفسير الألوسي) و(دقائق التفسير) و(غرائب الاغتراب).. وغير ذلك من الكتب.

توفي الإمام الكبير في يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٤م بعد أن ملأ الأرض علمًا، ودفن مع أهله في مقبرة الشيخ (معروف الكرخي) في (الكرخ).

التعريف بتفسير روح المعاني ونهج مؤلفه فيه:

ذكر الإمام الآلوسي في مقدمته أنه منذ عهد الصغر، لم يزل متطلبا لاستكشاف سر كتاب الله المكتوم، مترقباً لارتشاف رحيقه المختوم، وأنه طالما فرق نومه لجمع شوارده، وفارق قومه لوصال فرائده، لا يَرْفَلَ في مطارف اللهو كما يرفل أقرانه، ولا يهب نفائس الأوقات لخسائس الشهوات كما يفعل لإخوانه، وبذلك وفقه الله للوقوف على كثير من حقائقه، وحل وفير من دقائقه، وذكر أنه قبل أن يكمل سنه العشرين، شرع يدفع كثير من الإشكالات التي ترد على ظاهر النظم الكريم، ويتجاهر بما لم يُظفر به في كتاب من دقائق التفسير...

ثم ذكر أنه كثيراً ما خطر له أن يُحرر كتاباً يجمع فيه ما عنده من ذلك، وأنه كان يتردد في ذلك، إلى أن رأى في بعض ليالي الجمعة من شهر رجب سنة ١٢٥٢ هجرياً أن الله جل شأنه أمره بطي السماوات والأرض، ورتق فتقها على الطول والعرض، فرفع يداً إلى السماء وخفض الأخرى إلى مستقر الماء ثم انتبه من نومه وهو مستعظم لرؤيته، فجعل يفتش لها عن تعبير، فرأى في بعض الكتب أنها إشارة إلى تأليف تفسير، فشرع فيه في الليلة السادسة عشرة من شهر شعبان من السنة المذكورة، وكان عمره إذ ذاك أربعة وثلاثين سنة، وذلك في عهد محمود خان ابن السلطان عبد الحميد خان. وذكر في خاتمته أنه انتهى منه ليلة الثلاثاء لأربع خلون من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٦٧ هجرياً.

ولما انتهى منه جعل يفكر ما اسمه؟ وبماذا يدعوه؟ فلم يظهر له اسم تهتش له الضمائر، وتبتش فسماه: " روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ".

مكانة روح المعاني من التفاسير التي تقدمته: الحق يقال إن تفسير روح المعاني قد أفرغ فيه الإمام الآلوسي وسعه، وبذل مجهوده حتى أخرجه للناس كتاباً جامعاً لآراء السلف رواية ودراية، مشتملاً على أقوال الخلف بكل أمانة وعناية، فهو جامع لخلاصة ما سبقه من التفاسير، فتراه ينقل لك عن تفسير ابن عطية، وتفسير أبي حيان، وتفسير الكشاف، وتفسير أبي السعود، وتفسير البيضاوي، وتفسير الفخر الرازي وغيرها من كتب التفاسير المعتبرة.

وهو إذا نقل عن تفسير أبي السعود يقول غالباً: قال شيخ الإسلام: وإذا نقل عن تفسير البيضاوي يقول: قال القاضي.

وإذا نقل عن تفسير الفخر الرازي يقول: قال الإمام.

وهو إذ ينقل عن هذه التفاسير ينصب نفسه حكماً عدلاً بينها، ويجعل

من نفسه نقاداً مدققاً، ثم يبدي رأيه حراً فيما ينقل فهو ليس مجرد ناقل، بل له شخصيته العلمية البارزة، وأفكاره المميزة، فتراه كثيراً يعترض على ما ينقله عن أبي السعود، أو عن البيضاوي، أو عن أبي الحيان أو عن غيرهم، وليس في تفسيره ما يؤاخذ عليه.

كما تراه يتعقب الفخر الرازي في كثير من المسائل، ويرد عليه على الخصوص في بعض المسائل الفقهية، انتصاراً منه لمذهب أبي حنيفة، ثم إنه إذا استصوب أمراً لبعض من ينقل عنهم انتصر لهم ورجحه على ما عداه.

موقف الإمام الآلوسي من المخالفين لأهل السنة:

والإمام الآلوسي - كما أسلفت - سلفي المذهب، سني العقيدة، ولهذا تراه كثيراً ما يفند آراء المعتزلة وغيرهم من أصحاب المذاهب المخالفة لمذهبه.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى:{ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾} [البقرة: ١٥]، يقول الآلوسي بعد كلام طويل ما نصه: "... وإضافته - أي الطغيان - إليهم، لأنه فعلهم الصادر منهم، بقدرهم المؤثرة بإذن الله تعالى، فالاختصاص المشعرة به الإضافة، إنما هو بهذا الاعتبار لا باعتبار المحلية والاتصاف، فإنه معلوم لا حاجة فيه إلى الإضافة، ولا باعتبار الإيجاد استقلالاً من غير التوقف على إذن الفعال لما يريد، فإنه اعتبار عليه غبار، بل غبار ليس اعتبار، فلا تهولنك جعجعة الزمخشري وقعقعته ".

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى:{وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ} [الجمعة: ١١]، يقول ما نصه: وطعن الشيعة لهذه الآية بالصحابة رضي الله تعالى عنهم، بأنهم آثروا دنياهم على آخرتهم، حيث انفضوا إلى اللهو والتجارة، ورغبوا عن الصلاة التي هي عماد الدين، وأفضل من كثير من

العبادات، لا سيما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وروي أن ذلك قد وقع مراراً منهم، وفيه أن كبار الصحابة كأبي بكر، وعمر، وسائر العشرة المبشرة لم ينفضوا. والقصة كانت في أوائل زمن الهجرة، ولم يكن أكثر القوم تام التحلي بحلية آداب الشريعة بعد، وكان قد أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر، وخاف أولئك المنفضون اشتداد الأمر عليهم بشراء غيرهم ما يقتات به لو لم ينفضوا، لذا لم يتوعدهم الله على ذلك بالنار أو نحوها، بل قصارى ما فعل سبحانه أنه عاتبهم ووعظهم ونصحهم.

الإمام الآلوسي والمسائل الكونية: ومما نلاحظه على الإمام الآلوسي في تفسيره، أنه يستطرد إلى الكلام في الأمور الكونية، ويذكر كلام أهل الهيئة وأهل الحكمة، ويقر منه ما يرتضيه، ويفند ما لا يرتضيه.
استطراده للمسائل النحوية:

كذلك يستطرد الآلوسي إلى الكلام في الصناعة النحوية، ويتوسع في ذلك أحياناً إلى حدٍ يكاد يخرج به عن وصف كونه مُفسراً ولا أُحيلك على نقطة بعينها، فإنه لا يكاد يخلو موضع من الكتاب من ذلك.
موقف الآلوسي من المسائل الفقهية: كذلك نجده إذا تكلم عن آيات الأحكام فإنه لا يمر عليها إلا إذا استوفى مذاهب الفقهاء وأدلتهم، مع عدم تعصب منه لمذهب بعينه. فمثلاً: عند تفسيره لقوله تعالى: {وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: ٢٣٦]، يقول ما نصه: " قال الإمام مالك: المحسنون المتطوعون، وبذلك استدل على استحباب المتعة وجعله قرينة صارفة للأمر إلى الندب، وعندنا: (الأحناف) هي واجبة للمطلقات في الآية، مستحبة لسائر المطلقات.

وعند الشافعي رضي الله عنه في أحد قوليه: هي واجبة لكل زوجة مطلقة إذا كان الفراق من قبل الزوج إلا التي سمى لها وطلقت قبل

الدخول، ولما لم يساعده مفهوم الآية ولم يعتبر بالعموم في قوله تعالى: {وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾} [البقرة: ٢٤١]، لأنه يحمل المطلق على المقيد، قال بالقياس وجعله مقوماً على المفهوم؛ لأنه من الحجج القطعية دونه، وأجيب عما قاله مالك، بمنع قصر المحسن على المتطوع، بل هو أعم منه ومن القائم بالواجبات، فلا ينافي الوجوب، فلا يكون صارفاً للأمر عنه مع ما انضم إليه من لفظ حقاً ".

موقف الإمام الآلوسي من الإسرائيليات:

ومما نلاحظه على الإمام الآلوسي أنه شديد النقد للإسرائيليات والأخبار المكذوبة التي حشا بها كثير من المفسرين تفاسيرهم وظنوها صحيحة، مع سخرية منه أحياناً.

فمثلاً: عند تفسيره لقوله تعالى:{وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا} [المائدة: ١٢]، نجده يقص قصة عجيبة عن (عوج بن عنق)، ويرويها عن البغوي، ولكنه بعد الفراغ منها يقول ما نصه: " وأقول: قد شاع أمر عوج عند العامة، ونقلوا فيه حكايات شنيعة، وفي فتاوى ابن حجر، قال الحافظ العماد ابن كثير: قصة عوج وجميع ما يحكون عنه، هذيان لا أصل له، وهو مختلقات أهل الكتاب، ولم يكن قط على عهد نوح عليه السلام، ولم يسلم من الكفار أحد.

وقال ابن القيم: من الأمور التي يعرف بها كون الحديث موضوعاً أن يكون مما تقوم الشواهد الصحيحة على بطلانه، كحديث عوج بن عنق.

وليس العجب من جرأة من وضع هذا الحديث وكذب على الله تعالى، إنما العجب ممن يدخل هذا الحديث في كتب العلم من التفسير وغيره، ولا يبين أمره ".

ومثلاً: عند تفسيره لقول الله تعالى:{وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾} [هود: ٣٨]، نجده يروي أخباراً كثيرة من نوع الخشب الذي صنعت منه السفينة، وفي مقدار طولها وعرضها وارتفاعها، وفي المكان الذي صنعت فيه... ثم يعقب على كل ذلك بقوله: " وسفينة الأخبار في تحقيق الحال فيما أرى لا تصلح للركوب فيها، إذ هي غير سليمة من عيب، فحري بحال من لا يميل إلى الفضول، أن يؤمن أنه عليه السلام صنع الفلك حسبما قص الله في كتابه، ولا يخوض في مقدار طولها وعرضها وارتفاعها ومن أي خشب صنعها وبكم مدة أتم عملها... إلى غير ذلك مما لم يشرحه الكتاب ولم تبينه السنة الصحيحة ".

وبصورة عامة فقد أفاض في رد الإسرائيليات التي وقع فيها بعض المفسرين السابقين له كما فعل في قصة إسماعيل وإسحاق وأيهما الذبيح؟ وبيان كونه إسحاق قول باطل تدسس إلى الرواية الإسلامية وفي قصة يوسف وداود وسليمان وأيوب ونحوها وقصة الغرانيق وهو إنما ذكرها لينبه إلى اختلافها وبطلانها وتحذير المسلمين ولا سيما طلبة العلم وأهله من التصديق بها. تعرَّض الآلوسي للقراءات والمناسبات وأسباب النزول: إن الإمام الآلوسي رضي الله عنه يعرض لذكر القراءات، ولكنه لا يتقيد بالمتواتر منها، كما أنه يعنى بإظهار وجه المناسبات بين السور كما يعنى بذكر المناسبات بين الآيات، ويذكر أسباب النزول للآيات التي أنزلت على سبب، وهو كثير الا ستشهاد بأشعار العرب على ما يذهب إليه من المعاني اللغوية. فرحمه الله رحمة واسعة على ما خدم به الإسلام والمسلمين ونفعنا بعلمه في الدارين آمين[١].

(١) أعلام العراق، ص ٥٧، الدكتور محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، ٤ / ٧٦.

سيد قطب

أعــلام التفسيــر

عملاق الفكر الإسلامي سيد قطب
في ظلال القرآن

لا يوجد قارئ في العربية مر على سيد قطب إلا وترك الرجل فيه أثرًا لا يمحا عبر الزمن، وهي ظاهرة تتصل عادة بالأشخاص أو المواقف الفاصلة والمميزة في حياة البشر، حيث تلتصق بالذاكرة الصورة أو الكلمة أو الذكرى بحيث يصعب على تصاريف الزمن أن تمحوها من ذاكرة الإنسان مهما مرت الأيام ومهما تعاورت الإنسان تصاريفها وأحوالها، من يقرأ سيد قطب يجد هذه الروح العجيبة التي تتسلل إلى حنايا النفس وتلمس أدق ما فيها وأرق ما فيها من مشاعر لكي تأخذ بها وبلباب العقل معها إلى آفاق بعيدة في عمق التاريخ وعمق النفس وعمق الحياة، بل إنها تجمع عليك كل هذا في سياق واحد ولحظة واحدة وشعور واحد، ليس الأمر متصلاً فقط بعبقرية الأدب وبراعة الأديب، وإنما هناك روح الفكرة وصدقها وتوهجها المذهل في نفس صاحبها، عندما يجتمع مع قلم حساس وشعور مرهف، وإيمان بالله عميق؛ تجد هذا الشعور المتدفق الذي تستشعره في عقلك ووجدانك عندما تقرأ لسيد قطب، وخاصة في تحفته الكبيرة " في ظلال القرآن "، ولم أجد أصدق تعبير عن حالها وقيمتها وأسلوبها من الكلمات التي وصف بها الزعيم المصري سعد زغلول كتابًا للأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي فقال: كأنه تنزيل من التنزيل.

كان مخلصًا، وفيًا لدينه ووطنه، وكانت حياته جهادًا متواصلا في جميع الميادين، ورسالته رسالة الداعية الذي يخشى أن يخرج من الدنيا قبل أن ينصر دعوته أو ينتصر لها، وهدفه الأول والأخير نصرة الدين، وإعلاء كلمة الله في الأرض!!

نشأة قروية:

ولد سيد قطب مولدًا خاصة لأسرة شريفة في مجتمع قروي (صعيدي) في يوم ٩/١٠/١٩٠٦م بقرية موشا بمحافظة أسيوط، وهو الابن الأول لأمه بعد أخت تكبره بثلاث سنوات وأخ من أبيه غير شقيق يكبره بجيل كامل. وكانت أمه تعامله معاملة خاصة وتزوده بالنضوج والوعي حتى يحقق لها أملها في أن يكون متعلمًا مثل أخواله

كما كان أبوه راشدًا عاقلاً وعضوًا في لجنة الحزب الوطني وعميدًا لعائلته التي كانت ظاهرة الامتياز في القرية، واتصف بالوقار وحياة القلب، يضاف إلى ذلك أنه كان دَيِّنًا في سلوكه.

ولما كتب سيد قطب إهداء عن أبيه في كتابه " مشاهد القيامة في القرآن " قال: " لقد طبعتَ فيّ وأنا طفل صغير مخافة اليوم الآخر، ولم تعظني أو تزجرني، ولكنك كنت تعيش أمامي، واليوم الآخر ذكراه في ضميرك وعلى لسانك.. وإن صورتك المطبوعة في مُخيلتي ونحن نفرغ كل مساء من طعام العشاء، فتقرأ الفاتحة وتتوجه بها إلى روح أبيك في الدار الآخرة، ونحن أطفالك الصغار نتمتم مثلك بآيات منها متفرقات قبل أن نجيد حفظها كاملات ".

وعندما خرج إلى المدرسة ظهرت صفة جديدة إلى جانب الثقة بالذات من أمه والمشاعر النبيلة من أبيه وكانت الإرادة القوية، ومن شواهدها حفظه القرآن الكريم كاملاً بدافع من نفسه في سن العاشرة؛ لأنه تعود ألا يفاخره أبناء الكتاتيب بعد إشاعة بأن المدرسة لم تعد تهتم بتحفيظ القرآن.

وفي فورة الإحساس والثقة بالنفس كان لظروف النضال السياسي والاجتماعي الممهدة لثورة ١٩١٩ أثر في تشبعه بحب الوطن، كما تأثر من الثورة بالإحساس بالاستقلال وحرية الإرادة، وكانت دارهم ندوة

للرأي، شارك سيد قطب فيها بقراءة جريدة الحزب الوطني، ثم انتهى به الأمر إلى كتابة الخطب والأشعار وإلقائها على الناس في المجامع والمساجد.

الاستقرار في القاهرة:

ذهب سيد قطب إلى القاهرة في سن الرابعة عشرة وضمن له القدر الإقامة عند أسرة واعية وجهته إلى التعليم وهي أسرة خاله الذي يعمل بالتدريس والصحافة، وكان لدى الفتى حرص شديد على التعلم إلا أنه في القاهرة واجه عقبات ممحصة تمحيصًا شديدًا جعلته يخرج من الحياة برؤية محددة قضى نحبه - فيما بعد - من أجلها.

والتحق سيد قطب أولاً بإحدى مدارس المعلمين الأولية - مدرسة عبد العزيز - ولم يكد ينتهي من الدراسة بها حتى بلغت أحوال الأسرة درجة من السوء جعلته يتحمل المسئولية قبل أوانه، وتحولت مهمته إلى إنقاذ الأسرة من الضياع بدلاً من استعادة الثروة وإعادة المجد.

واضطر إلى العمل مدرسًا ابتدائيًا حتى يستعين بمرتبه في استكمال دراسته العليا من غير رعاية من أحد اللهم إلا نفسه وموروثاته القديمة. وكان هذا التغير سببًا في الاحتكاك المباشر بالمجتمع الذي كان لا بد له من أسلوب تعامل يختلف عن أسلوب القرويين وتجربتهم.

فالمجتمع الجديد الذي عاش فيه انقلبت فيه موازين الحياة في المدينة السليمة، وبدت في القاهرة سوءات الاحتلال الأجنبي ومفاسد السياسة؛ حيث سادت عوامل التمزق الطبقي والصراع الحزبي وغدت المنفعة وما يتبعها من الرياء والنفاق والمحسوبية هي الروح التي تسري، ويصف عبد الرحمن الرافعي هذا المجتمع بأنه " مجتمع انهارت فيه الثقافة العربية أمام الثقافة الغربية التي تؤمن بالغرب

حتى بلغت في بعض الأحيان حد التطرف في الإيمان بالغرب وبمبادئه إيمانًا مطلقًا ". فكيف يواجهها هذا الشاب الناشئ المحافظ الطموح؟

كانت صلته بهذا المجتمع صلة تعليم، ثم أصبح الآن مشاركًا فيه، وعليه أن يختار ما بين السكون والعزلة، وبالتالي عدم إكمال تعليمه أو الحركة والنشاط، واختار سيد قطب المواجهة مع ما ينبت معها من عناصر الإصرار والتحدي وعدم الرضا بهذا الواقع المؤلم [١].

ارتحال فكري:

واختار سيد قطب حزب الوفد ليستأنس بقيادته في المواجهة، وكان يضم وقتذاك عباس محمود العقاد وزملاءه من كتاب الوفد، وارتفعت الصلة بينه وبين العقاد إلى درجة عالية من الإعجاب لما في أسلوب العقاد من قوة التفكير ودقة التغيير والروح الجديدة الناتجة عن الاتصال بالأدب الغربي.

ثم بلغ سيد قطب نهاية الشوط وتخرج في دار العلوم ١٩٣٣ وعين موظفًا - كما أمل وأملت أمه معه - غير أن مرتبه كان ستة جنيهات ولم يرجع بذلك للأسرة ما فقدته من مركز ومال؛ فهو مدرس مغمور لا يكاد يكفي مرتبه إلى جانب ما تدره عليه مقالاته الصحفية القيام بأعباء الأسرة بالكامل.

وهذه الظروف التي حرمته من نعيم أسلافه منحته موهبة أدبية إلا أن الأساتذة من الأدباء - كما يصفهم - كانوا: " لم يروا إلا أنفسهم وأشخاصهم فلم يعد لديهم وقت للمريدين والتلاميذ، ولم تكن في أرواحهم نسمة تسع المريدين والتلاميذ " كل هذا أدى إلى اضطرابه وإحساسه بالضياع إلى درجة - وصفها الأستاذ أبو الحسن الندوي

(١) المعجم الجامع في تراجم العلماء و طلبة العلم المعاصرين، ص ١٠١.

في كتابه " مذكرات سائح من الشرق " انقطعت عندها كل صلة بينه وبين نشأته الأولى وتبخرت ثقافته الدينية الضئيلة وعقيدته الإسلامية " ولكن دون أن يندفع إلى الإلحاد، وكان دور العقاد حاسمًا في ذلك.

وانتقل سيد قطب إلى وزارة المعارف في مطلع الأربعينيات، ثم عمل مفتشًا بالتعليم الابتدائي في عام ١٩٤٤ وبعدها عاد إلى الوزارة مرة أخرى، وفي تلك الفترة كانت خطواته في النقد الأدبي قد اتسعت وتميزت وظهر له كتابان هما: " كتب وشخصيات "، " والنقد الأدبي - أصوله ومناهجه ".

وبعد ميدان النقد سلك سيد قطب مسلكًا آخر بعيدًا: بكتابه " التصوير الفني في القرآن " الذي لاقى مقابلة طيبة من الأوساط الأدبية والعلمية فكتب: " مشاهد القيامة في القرآن " ووعد بإخراج: " القصة بين التوراة والقرآن " و " النماذج الإنسانية في القرآن "، و " المنطق الوجداني في القرآن "، و " أساليب العرض الفني في القرآن "، ولكن لم يظهر منها شيء.

وأوقعته دراسة النص القرآني على غذاء روحي لنفسه التي لم تزل متطلعة إلى الروح. وهذا المجال الروحي شده إلى كتابة الدراسات القرآنية فكتب مقالاً بعنوان " العدالة الاجتماعية بمنظور إسلامي " في عام ١٩٤٤.

ولما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها زادت الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية سوءًا وفسادًا وكانت جماعة الإخوان المسلمين هي أوضح الجماعات حركة وانتشارًا حتى وصلت لمعاقل حزب الوفد كالجامعة والوظائف والريف، وأخذت تجذب بدعوتها إلى الإصلاح وقوة مرشدها الروحية المثقفين، وأخذت صلة سيد قطب بالجماعة تأخذ شكلاً ملموسًا في عام ١٩٤٦ ثم ازدادت حول حرب فلسطين ١٩٤٨.

وفـي هـذا الاتجـاه ألـف سـيد قطـب كتـاب " العدالـة الاجتماعيـة فـي الإسـلام "، وأهـداه إلـى الإخـوان؛ ثـم سـافر إلـى أمريكـا وعنـد عودتـه أحسنوا استقباله، فأحسن الارتبـاط بهم وأكد صلته حتـى أصبح عضوًا في الجماعة[١].

الرحلة إلى أمريكا:

وجد سيد قطب ضالته في الدراسات الاجتماعية والقرآنيـة التـي اتجـه إليها بعد فترة الضياع الفكري والصراع النفسي بين التيارات الثقافية الغربية، ويصف قطب هذه الحالـة بأنهـا اعترت معظم أبنـاء الـوطن نتيجة للغزو الأوروبي المطلق.

ولكن المرور بها مكنه من رفض النظريـات الاجتماعيـة الغربيـة، بـل إنه رفض أن يستمد التصور الإسلامي المتكامل عن الألوهية والكون والحيـاة والإنسـان مـن ابـن سـينا وابـن رشـد والفـارابي وغيـرهم لأن فلسفتهم - في رأيه - ظلال للفلسفة الإغريقية.

فكان من المنتظر حين يوم ١٩٤٨/١١/٣ فـي بعثـة علميـة مـن وزارة المعارف للتخصص في التربية وأصول المناهج ألا تبهره الحضـارة الأمريكيـة الماديـة ووجدها خلـوا مـن أي مـذهب أو قيم جديـدة، وفـي مجلة الرسالة كتب سيد قطب مقالا في عام ١٩٥١ بعنوان: " أمريكـا التي رأيت " يصف فيها هذا البلد بأنـه: " شـعب يبلـغ فـي عـالم العلـم والعمـل قمـة النمـو والارتقـاء، بينمـا هـو فـي عـالم الشـعور والسـلوك بدائي لم يفارق مدارج البشرية الأولى، بل أقل من بـدائي فـي بعـض نواحي الشعور والسلوك ".

---

(١) المعجم الجامع في تراجم العلماء و طلبة العلم المعاصرين، ص ١٠٢.

المصلح والأديب:

امتلك سيد قطب موهبة أدبية قامت على أساس نظري وإصرار قوي على تنميتها بالبحث الدائم والتحصيل المستمر حتى مكنته من التعبير عن ذاته وعن عقيدته يقول: " إن السر العجيب - في قوة التعبير وحيويته - ليس في بريق الكلمات وموسيقى العبارات، وإنما هو كامن في قوة الإيمان بمدلول الكلمات وما وراء المدلول، وإن في ذلك التصميم الحاسم على تحويل الكلمة المكتوبة إلى حركة حية، المعنى المفهوم إلى واقع ملموس ".

وكان سيد قطب موسوعيًا يكتب في مجالات عديدة إلا أن الجانب الاجتماعي استأثر بنصيب الأسد من جملة كتاباته، وشغلته المسألة الاجتماعية حتى أصبحت في نظره واجبًا إسلاميًا تفرضه المسئولية الإسلامية والإنسانية، وهذا يفسر قلة إنتاجه في القصة التي لم يكثر فيها بسبب انشغاله بالدراسات النقدية ومن بعدها بالدراسات والبحوث الإسلامية.

وطوال مسيرته ضرب سيد قطب مثل الأديب الذي غرس فيه الطموح والاعتداد بالنفس، وتسلح بقوة الإرادة والصبر والعمل الدائب؛ كي يحقق ذاته وأمله، اتصل بالعقاد ليستفيد منه في وعي واتزان، ولم تفتنه الحضارة الغربية من إدراك ما فيها من خير وشر، بل منحته فرصة ليقارن بينها وبين حضارة الفكر الإسلامي، وجمع بينه وبين حزب الوفد حب مصر ومشاعر الوطنية، وجمع بينه وبين الإخوان المسلمين حب الشريعة وتحقيق العدالة الاجتماعية وبناء مجتمع إسلامي متكامل. واستطاع بكلمته الصادقة أن يؤثر في كثير من الرجال والشباب التفوا حوله رغم كل العقبات والأخطار التي أحاطت بهم، وأصبح من الأدباء القلائل الذين قدموا حياتهم في سبيل الدعوة

التي آمنوا بها [١].

العودة والرحيل:

عاد سيد قطب من أمريكا في ٢٣ أغسطس ١٩٥٠ ليعمل بمكتب وزير المعارف إلا أنه تم نقله أكثر من مرة حتى قدم استقالته في ١٨ أكتوبر ١٩٥٢، ومنذ عودته تأكدت صلته بالإخوان إلى أن دُعي في أوائل عام ١٩٥٣ ليشارك في تشكيل الهيئة التأسيسية للجماعة تمهيدًا لتوليه قسم الدعوة.

وخاض مع الإخوان محنتهم التي بدأت منذ عام ١٩٥٤ إلى أن أُعدم في عام ١٩٦٦. وبدأت محنته باعتقاله - بعد حادث المنشية في عام ١٩٥٤(اتهم الإخوان بمحاولة إغتيال الرئيس المصرى جمال عبد الناصر) - ضمن ألف شخص من الإخوان وحكم عليه بالسجن ١٥ سنة ذاق خلالها ألوانًا من التعذيب والتنكيل الشديدين، ومع ذلك أخرج كتيب " هذا الدين " و " المستقبل لهذا الدين "، كما أكمل تفسيره " في ظلال القرآن ".

وأفرج عنه بعفو صحي في مايو ١٩٦٤ وكان من كلماته، وقتذاك: أن إقامة النظام الإسلامي تستدعي جهودًا طويلة في التربية والإعداد وأنها لا تجئ عن طريق إحداث انقلاب.

وأوشكت المحنة على الانتهاء عندما قبض على أخيه محمد قطب يوم ١٩٦٥/٧/٣٠ فبعث سيد قطب برسالة احتجاج إلى المباحث العامة؛ فقبض عليه هو الآخر ١٩٦٥/٨/٩ وقدم مع كثير من الإخوان للمحاكمة، وحكم عليه وعلى ٧ آخرين بالإعدام، ونفذ فيه الحكم في فجر الإثنين ١٣ جمادى الأولى ١٣٨٦ هـ الموافق ٢٩ أغسطس

(١) المعجم الجامع في تراجم العلماء و طلبة العلم المعاصرين، ص ١٠٣.

١٩٦٦[١].

من مؤلفاته:

طفل من القرية (سيرة ذاتية).

المدينة المسحورة (قصة أسطورية).

النقد الأدبي - أصوله ومناهجه.

التصوير الفني في القرآن.

مشاهد القيامة في القرآن.

معالم على الطريق.

المستقبل لهذا الدين.

هذا الدين.

في ظلال القرآن.

كيف وقعت مراكش تحت الحماية الفرنسية؟

الصبح يتنفس (قصيدة)

قيمة الفضيلة بين الفرد والجماعة.

حدثيني (قصيدة).

الدلالة النفسية للألفاظ والتراكيب العربية.

هل نحن متحضرون؟

هم الحياة (قصيدة)

وظيفة الفن والصحافة.

العدالة الاجتماعية.

شيلوك فلسطين أو قضية فلسطين.

---

(١) المعجم الجامع في تراجم العلماء و طلبة العلم المعاصرين، ص ١٠٣.

أين أنت يا مصطفى كامل؟

هتاف الروح (قصيدة)

تسبيح (قصيدة)

فلنعتمد على أنفسنا

ضريبة الذل.. أين الطريق؟ [١].

* * *

(١) د. صلاح عبدالفتاح الخالدي، سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد.
دار النشر: دار القلم - الدار الشامية، الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م، المعجم الجامع في تراجم العلماء و طلبة العلم المعاصرين، ص ١٠٤.

محمد رشيد رضا

محمد رشيد رضا

أعــلام التفسيــر

محمد رشيد رضا
وتفسير المنار

ولد محمد رشيد رضا في قرية من قرى لبنان تسمى القلمون، في ٢٧/جمادى الأولى/١٢٨٢هـ، ١٨٦٥م، وهو سليل بيت عربي عريق ينحدر من نسل الحسين بن علي بن أبي طالب، اشتهر بيت آل الرضا بأنهم كانوا المثل الأعلى في الانقطاع للعبادة وتكريم العلماء والترحيب بأولي الفضل.

كان أبوه قوي الذاكرة، طلق اللسان، ومن قوة ذاكرته أنه كان يحفظ كل ما مر به في سفره، وكل ماله عند الناس، أو لهم عنده من الحقوق المالية وإن طال عليها الزمن، وكان حسن المجاملة، عظيم التساهل في معاشرة المخالفين في الدين مع الغيرة الشديدة على الإسلام والمناضلة عنه بما يقنع المناظر ولا يؤذيه، كما كان يتمتع بهيبة في نفوس أبنائه، حيث لجأ إلى الحزم والترهيب أحياناً في التربية، ولقيت هذه التربية استجابة من نفس محمد رشيد رضا، وورث عنه الكثير من الخصال الخلقية والعلمية.

التحق محمد رشيد بكتاب القرية، وتعلم فيها القرآن الكريم والخط وقواعد الحساب، ثم التحق بالمدرسة الوطنية الإسلامية التي أنشأها أحد علماء الشام الشيخ محمد حسين الجسر (وهو أحد رواد النهضة الثقافية والعربية، والذي اشتهر بإلمامه الواسع بالعلوم العصرية، وكان كاتباً وشاعراً عصرياً، درس في الأزهر الشريف على يد الأديب الكبير محمد حسين المرصفي) حيث اهتمت هذه المدرسة بالعلوم العربية والشرعية والمنطق والرياضيات والفلسفة الطبيعية، لكن الحكومة أغلقت هذه المدرسة، فانتقل محمد رشيد إلى المدارس الدينية في طرابلس، وظل على علاقة قوية بأستاذه الأول حسين الجسر الذي أحبه وتأثر به لما خصه به من الاهتمام والعناية منذ

شاهده في السنة الأولى بالمدرسة الوطنية، لما كان يجد عنده من حب شديد للدراسة والمذاكرة والقدرة على التعبير عما يفهم، حتى صار يطلب رأيه في مؤلفاته خاصة الكبرى منها.

نال محمد رشيد الإجازة في دراسة العلوم العربية والشرعية والعقلية عام ١٨٩٧، على يدي أساتذة كبار منهم الشيخ محمود نشابة من كبار علماء طرابلس، والشيخ عبد الغني الرافعي، والشيخ محمد القاوقجي، لكن بقي الشيخ الأكبر أثراً في نفس محمد رشيد هو أستاذه الشيخ الجسر.

وصف أحد العلماء محمد رشيد في مرحلة تلقيه العلم وما أفاده من دراسته، بأن علمه لدني أي (من لدن حكيم عليم)، فيقول إني أغيب عنه سنة فأجد عنده من العلم ما لا يمكن اكتسابه إلا في السنين الطوال.

عني محمد رشيد رضا بحفظ القرآن الكريم وحده دون أي معلم يعيد عليه ما يحفظ، وكان يفضل صلاة التهجد تحت الأشجار في بساتينهم الخالية، حيث وجد في البكاء من خشية الله، وتدبر كتاب الله في صلاة الليل لذة روحية قوية، وقرأ كتاب (إحياء علوم الدين) لأبي حامد الغزالي وتعلق به، وحبب إليه التصوف، وهو في هذه السن المبكرة من الشباب، فسلك محمد رشيد طريقه إلى التصوف على يد رجل من النقشبندية، لكنه استطاع أن يقف على أسرار هذه الرياضة الروحية بمحاسنها ومساوئها، وهو الأمر الذي هيأه في المستقبل للمناداة بإصلاح الطرق الصوفية، حيث وجد بعضها طيباً والآخر لا يقبله العقل، بل يكون أحياناً مدخلاً إلى البدع ومثاراً إلى الفتن.

ألقى رشيد المواعظ والدروس في المسجد معتمداً فيها على جمع أكبر عدد ممكن من الآيات في الموضوع الواحد، حتى صار لمواعظه أعظم الأثر، وأشد الوقع في النفوس، واختار من كتب التفاسير

أيسرها، على حين قام هو نفسه بدور كبير في شرح الآيات القرآنية واستخلاص العبر التي تفيد جمهور المستمعين منها، واستطاع في تلك الأيام الأولى من جهاده في سبيل الإصلاح أن يثبت قدرته على الاجتهاد في الفقه، الذي أعتبره مرتبة عالية من مراتب العلم الاستقلالي بالأحكام الشرعية، وأنه هام وحيوي لإرشاد الناس لما فيه من الخير والهداية.

في الوقت الذي دخل فيه محمد رشيد ميدان الإصلاح في قريته بدافع من ميوله الفطرية وقدراته العلمية، كانت أنظار العالمين والعربي والإسلامي قد اتجهت نحو مصر، حيث انطلقت منها حركة إصلاحية كبرى تولى زعامتها اثنان من خيرة علماء الشرق وأبطاله وهما: السيد جمال الدين الأفغاني، والأستاذ الإمام محمد عبده، وترامت أنباء هذه الحركة إلى مسامع محمد رشيد عن طريق الجماعة المصرية التي أقامت في منزل والد رشيد عند نفيهم من مصر، لاشتراكهم في ثورة أحمد عرابي على الخديوي توفيق. وكانت تصل إلى هذه الجماعة المصرية جريدة العروة الوثقى سراً، وهي الجريدة التي كان يصدرها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده بعد نفيهما من مصر، واجتماعهما في فرنسا.

قوي اتصال محمد رشيد رضا بجريدة العروة الوثقى، التي وجهته للسعي في الإصلاح الإسلامي العام، ورسمت له منهجاً علمياً جديداً للإصلاح بعد أن عرفته بأسباب الفساد والتفكك في بلاد الشرق، وفتحت له آفاقاً واسعة لم يكن يعرف عنها شيئا ودفعت به إلى الطريق الطويل الذي سلكه كبار المصلحين وقادة التحرير.

استطاع رشيد رضا أن يتصل بجمال الدين الأفغاني الذي نادى بالإصلاح والتجديد عن طريق السياسة، وكذلك اتصل بمحمد عبده الذي نادى بالإصلاح والتجديد عن طريق التربية والتعليم، وخرج

رشيد بعد تعرفه على منهجي أستاذيه بمنهج خاص جعله يمزج بين المنهجين السابقين.

في ظل الأحداث التي وقعت في سورية، والتي حدت من انطلاقة رشيد رضا في الإصلاح بسبب تشدد الولاة العثمانيين. أخذ رشيد يتطلع إلى الهجرة نحو مصر.

وهناك في أرض مصر، استقر العزم به على إنشاء صحيفة إصلاحية عام ١٨٩٨، أسماها المنار وجعلها منبراً لبث أفكاره في الإصلاح الديني والاجتماعي والإيقاظ العلمي والسياسي، وكان يحرص على عرض كل ما يكتبه من مقالات على الإمام محمد عبده، ويستمع إلى توجيهاته وإرشاده، وظل قلم رشيد رضا يصول في المنار ويجول مرشداً المسلمين إلى النظر في سوء حالهم، وتذكيرهم بما فقدوه من سيادة الدنيا وهداية الدين، وما أضاعوه من مجد آبائهم الأولين، فنادى بأن يعلموا أن قيمة الدين ليست في أسراره الروحانية أو قواه الخفية، بل في الحقيقة التي يعلمها للإنسانية، وهي أن سعادة المرء في هذه الحياة والحياة الأخرى تتوقف على معرفته بسنن الله التي تضبط هداية البشر أفراداً وجماعات، وعلى المسلمين أن يدرسوا هذه السنن ثم يسيروا عليها في يقين وإيمان.

ونادى رشيد رضا في المنار بإصلاح التربية والتعليم، وبإنشاء المدارس الإسلامية ونبذ المدارس التبشيرية التي أكثر المستعمر منها في البلاد الإسلامية، ودعا إلى وجوب إدخال علوم أساسية في ميدان التربية والتعليم، مثل علوم أصول الدين وعلوم تهذيب الأخلاق، وعلوم فقه الحلال والحرام، وعلوم الاجتماع، وعلم تقويم البلدان، وعلم التاريخ وعلم الاقتصاد، والتدبير المنزلي والحساب، وعلم حفظ الصحة، وعلم فن الخط وعلم لغة البلاد... لما في هذه العلوم من

خير للناس في حياتهم العامة والخاصة.

أنشأ رشيد رضا دار الدعوة والإرشاد لتخرج المرشدين والدعاة، وذلك في ظل انتشار المدارس التبشيرية في البلاد الإسلامية، ودعوة المسلمين للتخلي عن دينهم واعتناقهم الدين المسيحي، وتابع رشيد رضا الإشراف على مدرسته بما يفرغ فيها من جهده وجهاده ما يستطيع، لكن تعطلت هذه المدرسة عند نشوب الحرب العالمية الأولى، ولم تفتح أبوابها مرة أخرى.

دخل رشيد رضا ميدان السياسة، وعمل على نقد الدولة العثمانية والاشتراك عملياً في محاولات إصلاح الأوضاع فيها، وترأس (جمعية الشورى العثمانية) المؤلفة من العثمانيين المنفيين إلى مصر، حيث كانت هذه الجمعية ترسل منشوراتها السرية إلى سائر أرجاء البلاد العثمانية حتى أقلقت مضاجع السلطان. كما أخذ رشيد رضا في مجلته المنار يهاجم استبداد الدولة، وكشف عن قدرة فريدة في فهم الأوضاع التي أحاطت بالدولة العثمانية والبلاد العربية.

بعد الثورة العربية الكبرى وهزيمة الأتراك، تم الاتفاق بين إنجلترا وفرنسا على اقتسام الوطن العربي... وهذا ما سبق ونبه إليه رشيد رضا في مجلته المنار، كما حذر الزعماء العرب من الوقوع في حبائل الوعود البراقة والأماني الخادعة من فرنسا وبريطانيا، مما جعله يشرع بإرسال كتب إلى رؤساء وزارتي إنجلترا وفرنسا ينصحهم بالابتعاد عن المساس بحقوق العرب والغدر بهم، كما أتيحت له فرصة ذهبية ليندد بالاستعمار وأعماله في البلاد العربية حين قرر قادة العرب عقد مؤتمر في جنيف للدفاع عن القضايا العربية، ووقع الاختيار على رشيد رضا ليكون نائباً لرئيس هذا المؤتمر، حيث أسهم بقسط وافر من تجاربه وآرائه القيمة في وضع نداء للمجتمع الدولي وعصبة الأمم المتحدة للنظر في الحقوق

العربية.

كما اشتهر رشيد رضا بالشدة في الحق والصدق في الحديث بكل ما يدلي به من آرائه، حين كان على رأس الوفد السوري الفلسطيني المبعوث إلى الأمم المتحدة لشرح القضايا العربية وكسب تأييدهم، وأكد لهم أن الشرق قد استيقظ وعرف نفسه ولن يرضى بعد اليوم أن تكون شعوبه ذليلة مستعبدة للطامعين المستعمرين.

ظل رشيد رضا يتابع رسالته في المنار بالدفاع عن الأمة العربية والأخذ بيدها، وتنبيه أبناء الأمة العربية إلى خطر الصهيونية، وإلى تبنى الاستعمار لها، ليجعل منها وسيلة لتحقيق مآربه في تحطيم وحدة الوطن العربي، ونادى في مقالاته بعد أن اشتد خطر الاستعمار والصهيونية، على ضرورة جمع كلمة العرب، وظل هكذا حاملاً لواء الجهاد في سبيل الإسلام والعروبة إلى أن انتقل إلى الملأ الأعلى في يوم٢٢ - ٨ ـ١٩٣٥، تاركاً وراءه تراثاً كبيراً من الأعمال العلمية نذكر منها:

١- مؤلفه الأول الذي دونه أثناء طلبه للعلم في الشام " الحكمة الشرعية في محاكمة القادرية والرفاعية ".

٢- مجلة المنار: وهي المعلمة الإسلامية الكبرى، والكنز الذي احتوى ثمار تجارب رشيد رضا وآرائه في الإصلاح الديني والسياسي.

٣- تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وما جرى بمصر في عصره.

٤- حقوق النساء في الإسلام.

٥- الوحي المحمدي.

٦- المنار والأزهر.

٧- ذكر المولد النبوي.

٨- الوحدة الإسلامية.

٩- يسر الإسلام وأصول التشريع العام.

١٠- الخلافة أو الإمامة العظمى.

١١- الوهابيون والحجازيون.

١٢- السنة والشيعة.

١٣- مناسك الحج، أحكامه وحكمه.

١٤- تفسير القرآن الكريم، المعروف بتفسير المنار.

١٥- حقيقة الربا.

١٦- مساواة الرجل بالمرأة.

١٧- رسالة في حجة الإسلام الغزالي.

١٨- المقصورة الرشيدية [(١)].

حول تفسير المنار :

نشأ السيد محمد رشيد رضا في طرابلس الشام، وفيها تلقى العلم عن شيوخها وعلمائها، وجلس يفيدهم بعلمه، ويرشدهم بنصحه ووعظه، وفي هذه الأثناء وقع في يده نسخة من جريدة " العروة الوثقى "، التي كان يقوم بإخراجها والكتابة فيها رجل الإصلاح جمال الدين الأفغانى، وتلميذه الشيخ محمد عبده، فقرأ الشيخ رشيد ما في الجريدة، فأعجب بالرجلين إعجاباً شديداً، ورغب في الاتصال بالسيد جمال الدين الأفغانى فلم يسعده الحظ، ثم تعلق أمله بالاتصال بخليفته الشيخ محمد عبده، فأسعده الحظ في هذه المرة، واتصل بالشيخ في رجب سنة ١٣١٥ هـ وكان أول اقتراح عرضه عليه، أن

(١) نقلا عن كتاب رشيد رضا الإمام المجاهد، لإبراهيم العدوي، الدكتور محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، ٥ / ٣٨.

يكتب تفسيراً للقرآن على نهج ما كان يكتب في جريدة " العروة الوثقى "، وبعد أخذ ورد بين الشيخين اقتنع الأستاذ الإمام بأن يقرأ دروساً في التفسير بالجامع الأزهر، ولم يلبث إلا قليلاً حتى قام بإلقاء دروسه في التفسير على طُلابه ومريديه.

وكان الشيخ رشيد - رحمه الله - ألزم الناس لهذه الدروس، وأحرصهم على تلقيها وضبطها، فكان يكتب بعض ما يسمع، ثم يزيد عليه بما يذكره من دروس الشيخ بعد ذلك، ثم قام بنشر ما كتب على الناس في مجلته " المنار "، ولكنه لم يفعل إلا بعد مراجعة أستاذه لما كتب، وتناوله له بالتنقيح والتهذيب.

لهذا كله نستطيع أن نقول إن الشيخ رشيد هو الوارث الأول لعلم الأستاذ الإمام، إذ أنه أخذ عنه فوعى ما أخذ، وألَّف في حياته وبعد وفاته، فكان لا يحيد عن منهجه أو ينحرف عن أفكاره. وليس غريباً ما يرويه الشيخ رشيد من أن الأستاذ الإمام - رحمه الله - كان يقول: " صاحب المنار ترجمان أفكارى ". كما أنه ليس غريباً ما يُحَدِّث به أحد تلاميذ الشيخ رشيد، من أن الأستاذ الإمام وصف الشيخ رشيد بأنه " متحد معه في العقيدة، والفكر، والرأى، والخُلُق. والعمل ".

إنتاج الشيخ رشيد في التفسير:

وإذا نحن تتبعنا ما كتبه الشيخ رشيد من تفسير للقرآن الكريم لوجدنا أنه أكثر رجال مدرسة الأستاذ الإمام إنتاجاً في التفسير، وذلك أنه كتب تفسيره المسمى بتفسير القرآن الكريم، والمشهور بتفسير المنار.. ابتدأ بأول القرآن وانتهى عند قوله تعالى:{رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾} [يوسف: ١٠١].. ثم عالجته المنية قبل أن يتم تفسير القرآن كله.

هذا القدر من التفسير مطبوع في اثنى عشر مجلداً كباراً، ينتهى

المجلد الثاني عشر عند قوله تعالى:{وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ} [يوسف: ٥٣]... الآية.

وقد أكمل الأستاذ بهجت البيطار تفسير سورة يوسف، وطبع تفسير هذه السورة بتمامها في كتاب مستقل يحمل اسم الشيخ رشيد رحمه الله.

هذا.. وقد فسَّر الشيخ من القصار: سورة الكوثر، والكافرون، والإخلاص، والمعوذتين، ولا نعرف له إنتاجاً في التفسير أكثر من هذا، وهو إنتاج لا بأس به، وفيه تتجلى روح الأستاذ الإمام ممزوجة بروح تلميذه، فالمصادر هى المصادر، والهدف هو الهدف، والمنهج هو المنهج، والأفكار هى الأفكار، ولا فرق بين الرجلين إلا فيما هو قليل نادر.

مصادره في التفسير:

أما مصادره في التفسير فإنه كان يستعين ببعض آيات القرآن على فهم بعض آخر منه، خصوصاً إذا تكررت الآيات في موضوع واحد، وكان يستعين أيضاً بما صح عنده من بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبما جرى عليه سَلَف الأمة من الصحابة والتابعين، وبأساليب لغة العرب وسنن الله في خلقه، ومستعيناً بعد ذلك كله بعقله المتحرر من التقليد للمفسِّرين، إلا فيما يقتنع به من أقوالهم، وأقوال شيخه على الأخص، ويُحدِّثنا بعض تلاميذه: " أنه كان لا يراجع ما يكتب في التفسير إلا بعد أن يكتب فهمه في الآية، حذراً من تأثر أقوال المفسَّرين على نفسه، وإذا آتاه الله فهماً في القرآن لم يُسبق إليه، أو لم يطلع عليه إلا بعد كتابته من عنده فإنه يتحدث إلى إخوانه شاكراً، وقد يقصه على أهل بيته مغتبطاً مسروراً " (١).

---

(١) د. محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، ٥ /٣٨.

هدفه من التفسير:

وأما هدفه في التفسير فهو عَيْن ما يهدف إليه الأستاذ الإمام، فإذا كان الأستاذ الإمام يُصَرِّح بأن هدفه من التفسير هو " فهم الكاتب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة ". فإن صاحبنا يُصَرِّح بمثل ذلك في كثير من مواضع كتابه، فيقول بعد أن يوده اللَّوم إلى مَن حشروا في التفسير من قواعد العلوم، ومسائل الفنون، وموضوعات الحديث، وخرافات الإسرائيليات، ما يصرف الناس عن هداية القرآن، يقول: " إن حاجة الناس صارت شديدة إلى تفسير تتوجه العناية الأولى فيه إلى هداية القرآن على الوجه الذي يتفق مع الآيات الكريمة، المنزَّلة في وصفه. وما أُنزِل لأجله، من الإنذار، والتبشير والهداية، والإصلاح ".

يريد أنه سيعمل تفسيره على هذا النمط ليسد حاجة الناس، ويقول في موضع آخر: " إن قصدنا من التفسير بيان معنى القرآن، وطرق الاهتداء به في هذا الزمان ".

منهجه في التفسير:

وأما منهجه فيه فهو عَيْن ما نهجه الأستاذ الإمام، فلا تقيد بأقوال المفسِّرين، ولا تحكم للعقيدة في نص القرآن، ولا خوض في إسرائيليات، ولا تعيين لمبهمات، ولا تعلق بأحاديث موضوعة، ولا حشد لمباحث الفنون، ولا رجوع بالنص إلى اصطلاحات العلوم، بل شرح للآيات بأسلوب رائع، وكشف عن المعاني بعبارة سهلة مقبولة، وتوضيح لمشكلات القرآن، ودفاع عنه يرد ما أُثير حوله من شبهات، وبيان لهدايته، ودلالة إلى عظيم إرشاده، وتوقيف على حكم تشريعه، ومعالجة لأمراض المجتمع بناجع دوائه، وبيان لسنن الله في خليقته.

ولكنَّا نجد الشيخ رشيد - رحمه الله - يحيد عن هذا المنهج بعض

الشيء، وذلك بعد وفاة شيخه، واستقلاله بالعمل، ويُحدِّثنا هو بذلك فيقول:

" وإنني لما استقللت بالعمل بعد وفاته، خالفت منهجه - رحمه الله تعالى - بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السُّنَّة الصحيحة، سواء أكان تفسيراً لها، أو في حكمها، وفي تحقيق بعض المفردات، أو الجمل اللُّغوية، والمسائل الخلافية بين العلماء، وفي الإكثار من شواهد الآيات في السور المختلفة، وفي بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها، بما يثبتهم بهداية دينهم في هذا العصر، أو يقوى حجتهم على خصومه من الكفار والمبتدعة، أو يحل بعض المشكلات التي أعيا حلها. بما يطمئن به القلب، وتسكن إليه النفس ".

ويبدو لنا أن هذا التوسع الذي كان من الشيخ رشيد - خصوصاً في المسائل الاجتماعية -، لم يدفعه إليه إلا كونه رجلاً " صحفياً " اتصل عن طريق مجلته بالناس على اختلاف منازعهم ومشاربهم، وفيهم المتدين، والملحد. والكافر، فأراد أن يتمشى بكتابته مع الجميع، فيثبت المتدين على دينه، ويرد الملحد عن إلحاده، ويكشف عن محاسن الإسلام، لعل الكافر أن يثوب إلى رشده ويرجع عن كفره [(١)].

آراؤه في التفسير:

أما آراؤه في التفسير فهى كآراء شيخه، تقوم على حرية واسعة في الرأى واعتداد عظيم بالفهم، وثقة قوية بما عنده من العلم، وعدم تقيد ببعض المُسَلَّمات عند العلماء، ولهذا نجد له أفكاراً غريبة في تفسير

(١) د. محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، ٥ /٣٨.

القرآن استقل ببعض منها، وقلّد شيخه في بعضها الآخر [(١)].

رأيه في أصحاب الكبائر:

فمثلاً عندما تعرَّض لقوله تعالى في سورة البقرة في شأن المرابين: {وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ} [البقرة: ٢٧٥]. نجده يخالف أهل السُّنَّة، ويؤكد أن صاحب الكبيرة التي في درجه أكل الربا وقتل العمد إذا مات ولم يتب منها يخلد في النار، ولا يخرج منها أبداً فيقول: " أى: ومَن عاد إلى ما كان يأكل من الربا المحرَّم بعد تحريمه، فأُولئك البُعداء عن الاتعاظ بموعظة ربهم، الذي لا ينهاهم إلا عما يضرهم في أفرادهم أو جمعهم، هم أهل النار الذين يلازمونها كما يلازم الصاحب صاحبه، فيكونون فيها خالدين.

" وقد أوَّل الخلود المفسِّرون، لتتفق الآية مع المقرر في العقائد والفقه من كون المعاصى لا توجب الخلود في النار، فقال أكثرهم: إن المراد: ومَن عاد إلى تحليل الربا واستباحته اعتقاداً، ورده بعضهم بأن الكلام في أكل الربا، وما ذُكِر عنهم من جعله كالبيع هو بيان لرأيهم قبل التحريم، فهو ليس بمعنى استباحة المحرَّم، فإذا كان الوعيد قاصراً على الاعتقاد بحلّه لا يكون هناك وعيد على أكله بالفعل [(٢)].

" والحق أن القرآن فوق ما كتب المتكلمون والفقهاء. يجب إرجاع كل قول في الدين إليه، ولا يجوز تأويل شيء ليوافق كلام الناس، وما الوعيد بالخلود هنا إلا كالوعيد بالخلود في آية قتل العمد، وليس هناك شبهة في اللَّفظ على إرادة الاستحلال. ومن العجيب أن يجعل الرازى الآية هنا حُجَّة على القائلين بخلود مرتكب الكبيرة في النار، انتصاراً لأصحابه الأشاعرة، وخير من هذا التأويل تأويل بعضهم

(١) المصدر السابق، ٥ /٣٨.

(٢) د. محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، ٥ /٣٩.

الخلود بطول المكث، أما عنه فنقول: ما كل ما يسمى إيماناً يعصم صاحبه من الخلود في النار، الإيمان إيمانان: إيمان لا يعدو التسليم الإجمالى بالدين الذي نشأ فيه المرء أو نُسِبَ إليه، ومجاراة أهله ولو بعدم معارضتهم فيما هم عليه. وإيمان هو عبارة عن معرفة صحيحة بالدين عن يقين بالإيمان، متمكنة في العقل بالبرهان، مؤثرة في النفس بمقتضى الإذعان، حاكمة على الإرادة المصرفة للجوارح في الأعمال، بحيث يكون صاحبها خاضعاً لسلطانها في كل حال، إلا ما لا يخلو عنه الإنسان من غلبه جهالة أو نسيان. وليس الربا من المعاصى التي تُنسى، أو تغلب النفس عليها خفة الجهالة والطيش كالحدة وثورة الشهوة، أو يقع صاحبها بإذن الله من الخلود في سخط الله، ولكنه لا يجتمع مع الإقدام على كبائر الإثم والفواحش عمداً، إيثاراً لحب المال واللّذة، عن دين الله وما فيه من الحكم والمصالح. وأما الإيمان الأول: فهو صورى فقط، فلا قيمة له عند الله تعالى، لأنه تعالى لا ينظر إلى الصور والأقوال، ولكن ينظر إلى القلوب والأعمال، كما ورد في الحديث، والشواهد على هذا الذي قررناه في كتاب الله تعالى كثيرة جداً، وهو مذهب السَلَف الصالح، وإن جهله كثير ممن يَدَّعون اتباع السُّنَّة حتى جَرَّؤوا الناس على هدم الدين، بناء على أن مدار السعادة على الاعتراف بالدين وإن لم يُعمل به، حتى صار الناس يتبجحون بارتكاب الموبقات، مع الاعتراف بأنها من كبائر ما حُرِّم، كما بلغنا عن بعض كبرائنا أنه قال: إننى لا أنكر أننى آكل الربا ولكننى مسلم أعترف بأنه حرام، وقد فاته أنه يلزمه بهذا القول الاعتراف بأنه من أهل هذا الوعيد، وبأنه يرضى أن يكون محارباً لله ولرسوله، وظالماً لنفسه وللناس، كما سيأتى في آية أخرى، فهل يعترف بالملزوم؟ أو ينكر الوعيد المنصوص فيؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض؟ نعوذ بالله من الخذلان ".

تقليده لشيخه في قصة آدم:

كذلك نجد صاحب المنار يُقلّد شيخه في موقفه من قصة آدم وإبليس وما يتعلق بها فيقول: " وهذا التفصيل مبنى على كون الأمر بالسجود للتكليف، وأنه وقع حوار بين الرب سبحانه وبين إبليس. وأما على القول بأن الأمر للتكوين، وأن القصة بيان لغرائز البَشر والملائكة والشياطين، فالمعنى: أنه تعالى جعل ملائكة الأرض المدبرة بأمر الله وإذنه لأمورها بالسنن التي عليها مدار نظامها كما قال:{فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا} [النازعات: ٥]، مُسَخَّرة لآدم وذُرِّيته، إذ خلق الله هذا النوع مستعداً للانتفاع بها كلها، بعلمه بسنن الله تعالى فيها، وبعلمه بمقتضى هذه السنن كخواص الماء، والهواء، والكهرباء، والنور، والأرض: معادنها، ونباتها، وحيوانها، وإظهاره لحكم الله تعالى وآياته فيها، ومستعداً لاصطفاء الله بعض أفراده، واختصاصهم بوحيه ورسالته، وإقامة مَن اهتدى بهم لدينه وميزان شرعه، وقد أُشير إلى ذلك في قوله تعالى: { وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا } [البقرة: ٣١]، إلا أنه جعل الشيطان عاتياً متمرداً على الإنسان، بل عدواً له، من حيث إن الإنسان بروحه وسط بين روح الملائكة المفطورين على طاعة الله وإقامة سُنته في صلاح الخلق، وبين روح الجن الذي يغلب على شرارهم - وهم الشياطين - التمرد والعصيان. وقد أعطى الإنسان إرادة واختياراً من ربه في ترجيح ما به يصعد إلى أُفق الملائكة، وما به يهبط إلى أُفق الشياطين ".

تذرعه بالمجاز والتشبيه:

كذلك نجد صاحب المنار يصرف بعض ألفاظ القرآن عن ظواهرها، ويعدل بها إلى ناحية المجاز أو التشبيه، وذلك فيما يبدو مستبعداً ومستغرباً لو أُجرى على حقيقته، وهذا المسلك الذي جرى عليه الشيخ رشيد هو مسلك شيخه، ومسلك الزمخشرى وغيره من

المعتزلة، الذين اتخذوا التشبيه والتمثيل سبيلاً للفرار من الحقائق التي يُصَرِّح بها القرآن، ولا تعجز عنها قدرة الله، وإن بعدت عن منال البَشر.

فمثلاً نجد صاحب المنار عندما تعرَّض لقوله تعالى:{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ } [النساء: ٤٧]... الآية، نراه يستظهر أن المعنى المراد هنا هو: " آمِنُوا بما نَزَّلنا مصدِّقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوه مقاصدكم التي توجهتم إليها في كيد الإسلام، ونردها خاسئة خاسرة إلى الوراء، بإظهار الإسلام ونصره عليكم، وفضيحتكم فيما تأتونه باسم الدين والعلم الذي جاء به الأنبياء، وقد كان لهم عند نزول الآية شيء من المكانة والمعرفة والقوة، فهذا ما نفسِّرها به، على جعل الطمس والرد على الأدبار معنويين ".. ثم سرد بعض أقوال المفسِّرين في هذه الآية، ثم بيَّن أن ما اختاره هو رأى شيخه الذي مال إليه في دروسه (١).

رأيه في السحر:

ثم إن صاحب المنار لا يرى السحر إلا ضرباً من التمويه والخداع، وليس له حقيقة كما يقول أهل السُّنَّة، وهو يوافق بهذا القول قول شيخه وقول المعتزلة من قبله، ولهذا نراه عندما فسَّر قوله تعالى:{ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾} [الأنعام: ٧]... نجده يقول: " والآية تدل على أن السحر خداع باطل، وتخييل يرى ما لا حقيقة له في صورة الحقائق ".

هذا.. ولم يستطع الشيخ رشيد أن يرد حديث البخارى في سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم كما فعل شيخه، ولكنه تأوَّل الحديث

(١) د. محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، ٥ /٤٠.

على أنه كان من قبيل العقد عن النساء، وبيَّن أن عذر مَن طعن في الحديث هو أن هشاماً - راوى الحديث عن أبيه عن عائشة - مطعون فيه من كثير من أئمة الجرح والتعديل.

رأيه في الشياطين:

وهو يرى أن شياطين الجن لا تسلط لها على الإنسان إلا بالإغواء فقط، ويقول: " كل ما يدَّعيه بعض الدجَّالين من تسلط الشيطان، أو ملوك الجان على بعض الناس، وقدرتهم على نفعهم وضرهم، فهو كذب وحيل من شياطين الإنس وحدهم ".

رأيه في الجن:

كما يرى أن الجن لا تُرى للإنسان على أى حال من الأحوال، ويرجح أن مَن ادَّعى رؤية الجن فذلك وهم منه وتخيل، ولا حقيقة له في الخارج، أو لعله رأى حيواناً غريباً كبعض القردة فظنه أحد أفراد الجن. يقول هذا ثم يعرض في " الهامش " لذكر حديث أبى هريرة فيمن كان يسرق تمر الصدقة، وإخبار النبى له بأنه شيطان - وهو في البخارى - ولغيره من الأحاديث التي تدل على أن الإنسان يرى الجنى ويبصره، ثم يقول بعد أن يفرغ من سرده للروايات: " والصواب أنه ليس في هذه الروايات كلها حديث صحيح ".

بل ونجده يزيد على ذلك فيجوِّز أن تكون ميكروبات الأمراض نوعاً من الجن. وذلك حيث يقول عندما تعرَّض لتفسير قوله تعالى: {ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ} [البقرة: ٢٧٥]... الآية: "... والمتكلمون يقولون: إن الجن أجسام حية خفية لا تُرى، وقد قلنا في المنار غير مرة: إنه يصح أن يُقال إن الأجسام الحية الخفية التي عُرفت في هذا العصر بواسطة النظارات المكبرة وتسمى بالميكروبات، يصح أن تكون نوعاً من الجن، وقد

ثبت أنها علل لأكثر الأمراض " [١].

رأيه في معجزات النبى صلى الله عليه وسلم :

ولقد نجد صاحب المنار يذهب في معجزات النبى صلى الله عليه وسلم مذهباً بعيداً، فيقرر أنه لا معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم غير القرآن الكريم وينكر بعض معجزاته الكونية، ويتأوَّل ما يشهد لها من آيات، ويجحد صحة ما يقوم بإثباتها من الأحاديث، وما يُسَلِّمه من بعض الآيات الكونية فهو في نظره إكرام للنبى من ربه، وليس من قبيل المعجزة، أو الحُجَّة على صدق دعوته.

يذهب إلى هذا ويستدل له بمثل قوله تعالى:{وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَ} [الإسراء: ٥٩]... الآية، وبمثل قوله عليه السلام من رواية أبى هريرة عند الشيخين وغيرهما: " ما من نبى من الأنبياء إلا أُعطى ما مثله آمن عليه البَشر، وإنما كان الذي أُوتيته وحياً أوحاه الله إلىَّ، فأرجو أن أكون اكثرهم تبعاً يوم القيامة ".

ولكن صاحب المنار يستشعر معارضة بعض نصوص القرآن والحديث لما ساقه من أدلة على مُدَّعاه فيقول: " وقد يعارضه - يعنى الحديث السابق - آية انشقاق القمر مع ما ورد في أحاديث الصحيحين وغيرهما من أن قريشاً سألوا النبى صلى الله عليه وسلم آية على نبوته فانشق القمر فكان فِرقتين، ولكن في الأحاديث الواردة في انشقاقه عللاً في متنها وأسانيدها، وإشكالات علمية، وعقلية، وتاريخية، فصَّلناها في المجلد الثلاثين من المنار، وبيَّنا أن ما تدل عليه الآيات القرآنية المؤيدة بحديث الصحيحين الصريح في حصر معجزة نبوته صلى الله عليه وسلم في القرآن وكون الآيات المقترحة تقتضى إجابة مقترحيها عذاب الاستئصال، هو الحق الذي لا ينهض

(١) د. محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، ٥ /٣٨.

لمعارضته شيء ".

وإذا كان الشيخ رشيد قد تخلَّص هنا من معارضة الحديث بالطعن فيه، فإنه قد تخلَّص في موضع آخر من معارضة الآية، حيث فسَّر انشقاق القمر بظهور الحُجَّة "!! [١].

رأيه في مسائل من الفقه:

كذلك نجد صاحب المنار يعطى نفسه حرية واسعة في استنباط الأحكام من القرآن الكريم، مما جعله يخالف جمهور الفقهاء، ويسفههم فيما ذهبوا إليه، وإذا أردتَ مثالاً لذلك فارجع إلى ما كتبه على قوله تعالى:{ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾} [البقرة: ١٨٠]، فستجد أنه لم يعبأ بما عليه جمهور العلماء من أهل السُّنَّة من أن حكم هذه الآية منسوخ، بصرف النظر عن كون الناسخ آية المواريث أو حديث:{لا وصية لوارث} الذي جنح الشافعى في الأم إلى أن متنه متواتر، فراح - رحمه الله - يؤكد بكل ما يملك من حُجَّة: أن حكم الوصية للوالدين والأقربين باق لم يُنسخ، كما راح يُفَنِّد كل دليل تمسَّك به الجمهور. ولا أُطيل بذكر ما قاله في هذا الموضوع، ويكفى أن أقول لك: إنه أنهى البحث في هذه المسألة بقوله: " وصفوة القول: أن الآية غير منسوخة بآية المواريث، لأنها لا تعارضها، بل تؤيدها، ولا دليل على أنها بعدها، ولا بالحديث، لأنه لا يصلح لنسخ الكتاب، فهى محكمة، وحكمها باق، ولك أن تجعله خاصاً بمن لا يرث من الوالدين أو الأقربين كما روى عن بعض الصحابة، وأن تجعله على إطلاقه، ولا تكن من المجازفين الذين يخاطرون بدعوى النسخ فينبذ ما كتبه الله عليه بغير عذر، ولا سيما بعد ما أكده بقوله:{حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ} [البقرة:

---

(١) د. محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، ٥ /٤١.

١٨٠].

وإن أردت مثالاً آخر فارجع إلى ما ذهب إليه في آية التيمم من سورة النساء، فسترى أنه يقرر: أن المسافر يجوز له التيمم ولو كان الماء بين يديه ولا عِلَّة تمنعه من استعماله إلا كونه مسافراً، ويخالف بذلك جماعة الفقهاء، ويحمل عليهم حملة شديدة فيما ذهبوا إليه من أن المسافر لا يجوز له التيمم مع وجود الماء، كما ينكر على مَن استشكل الآية من المفسِّرين، ويقول فيما يقول: " سيقول أدعياء العلم من المقلّدين: نعم، إن الآية واضحة المعنى، كاملة البلاغة على الوجه الذي قررتم، ولكنها تقتضى عليه أن التيمم في السفر جائز ولو مع وجود الماء. وهذا مخالف للمذاهب المعروفة عندنا، فكيف يعقل أن يخفى معناها هذا على أُولئك الفقهاء المحققين؟ وكيف يعقل أن يُخلفوها من غير معارض لظاهر ما أرجعوها إليه؟. ولنا أن نقول لمثل هؤلاء - وإن كان المقلّد لا يحتاج لأنه لا علم له - : وكيف يعقل أن يكون أبلغ الكلام وأسلمه من التكلف والضعف معضلاً مشكلاً؟ وأى الأمرين ألوى بالترجيح؟ الطعن ببلاغة القرآن وبيانه.. لحمله على كلام الفقهاء؟ أو تجويز الخطأ على الفقهاء، لأنهم لم يأخذوا بما دل عليه ظاهر الآية من غير تكلف، وهو الموافق الملتئم مغ غيره من رخص السفر التي فيها قصر الصلاة وجمعها، وإباحة الفطر في رمضان، فهل يُستنكر مع هذا أن يُرَخَّص للمسافر في ترك الغُسل والوضوء، وهما دون الصلاة والصيام في نظر الدين ".

إلى أن قال: " ألا إن من أعجب العجب، غفلة جماهير الفقهاء عن هذه الرُخصة الصريحة في عبارة القرآن، التي هى أظهر وأولى من قصر الصلاة وترك الصيام، وأظهر في رفع الحَرَج والعُسر الثابت بالنص وعليه مدار الأحكام... ".

ثم قال: " وإذا ثبت أن التيمم رُخصة للمسافر بلا شرط ولا قيد،

بطلت كل تلك التشديدات التي توسَّعوا في بنائها على اشتراط فقد الماء، ومنها ما قالوا من وجوب طلبه في السفر، وما وضعوه لذلك من الحدود كحد القرب وحد الغوث ".

حملته على بعض المفسِّرين:

هذا.. ولا يفوتنا أن نقول: إن صاحب المنار كان كثير التوسع فيما يتعقب به أحياناً قدماء المفسِّرين، خصوصاً الفخر الرازى منهم، مع قسوة منه عليهم في الكثير الغالب [١].

حملته على البدع والخرافات:

كما أنه كان كثير الاستطراد إلى تتبع بدع المسلمين والكشف عن عوارها والإرشاد إلى علاجها، مع تشدد وتعسف منه في كثير من الأحيان [٢].

شرحه لمبهمات القرآن بما جاء في التوراة والإنجيل:

كذلك لا يفوتنا أن نُنَبِّه على أن صاحب المنار كان مع شدة لومه على المفسِّرين الذين يزجون بالإسرائيليات في تفاسيرهم، ويتخذون منها شروحاً لكتاب الله، يخوض هو أيضاً فيما هو من هذا القبيل ويتخذ منه شروحاً لكتاب الله، وذلك أنه كثيراً ما ينقل عن الكتاب المقدَّس أخباراً وآثاراً يُفسِّر بها بعض مبهمات القرآن، أو يرد بها على أقوال بعض المفسِّرين، وكان الأجدر بهذا المفسِّر الذي يشدد النكير على عشاق الإسرائيليات، أن يكف هو أيضاً عن النقل عن كتب أهل الكتاب، خصوصاً وهو يعترف أنه قد تطرَّق إليها التحريف والتبديل.

(١) د. محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، ٥ /٣٨.
(٢) د. محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، ٥ /٤٢.

دفاعه عن الإسلام:

وأخيراً فلا يفوتنا أن الرجل قد دافع عن الإسلام والقرآن، وكشف عما أحاط به من شكوك ومشاكل، وقد استعمل في ذلك لسانه وقلمه، وضمَّنه مجلته وتفسيره، وتلك مزية للرجل يُحمد عليها. ولا ننسى ما له من أفكار جريئة ومتطرفة [١].

* * *

(١) د. محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، ٥ /٤٣.

محمد متولي الشعراوي

محمد متولي الشعراوي

أعــلام التفسيــر

محمد متولي الشعراوي

علم بارز من أعلام الدعوة الإسلامية، وإمام فرض نفسه، وحفر لها في ذاكرة التاريخ مكاناً بارزاً كواحد من كبار المفسرين، وكصاحب أول تفسير شفوي كامل للقرآن الكريم، وأول من قدم علم الرازي والطبري والقرطبي وابن كثير وغيرهم سهلاً ميسوراً تتسابق إلى سماعه العوام قبل العلماء، والعلماء قبل العوام.

عرف بأسلوبه العذب البسيط في تفسير القرآن، وكان تركيزه على النقاط الإيمانية في تفسيره جعله يقترب من قلوب الناس، وبخاصة وأن أسلوبه يناسب جميع المستويات والثقافات.

إنه الشيخ محمد متولي الشعراوي أشهر من فسر القرآن في عصرنا.

مولده وتعليمه:

ولد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي في ٥ أبريل عام ١٩١١ م بقرية دقادوس مركز ميت غمر بمحافظة الدقهلية وحفظ القرآن الكريم في الحادية عشرة من عمره.

في عام ١٩٢٦ م التحق الشيخ الشعراوي بمعهد الزقازيق الابتدائي الأزهري، وأظهر نبوغاً منذ الصغر في حفظه للشعر والمأثور من القول والحكم، ثم حصل على الشهادة الابتدائية الأزهرية سنة ١٩٢٣م، ودخل المعهد الثانوي، وزاد اهتمامه بالشعر والأدب، و حظى بمكانة خاصة بين زملائه، فاختاروه رئيسًا لاتحاد الطلبة، ورئيسًا لجمعية الأدباء بالزقازيق، وكان معه في ذلك الوقت الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى، والشاعر طاهر أبو فاشا، والأستاذ خالد محمد خالد، والدكتور أحمد هيكل، والدكتور حسن جاد، وكانوا يعرضون عليه ما يكتبون.

وكانت نقطة تحول في حياة الشيخ الشعراوي، عندما أراد له والده

إلحاقه بالأزهر الشريف بالقاهرة، وكان الشيخ الشعراوي يود أن يبقى مع إخوته لزراعة الأرض، ولكن إصرار الوالد دفعه لاصطحابه إلى القاهرة، ودفع المصروفات وتجهيز المكان للسكن.

فما كان من الشيخ إلا أن اشترط على والده أن يشتري له كميات من أمهات الكتب في التراث واللغة وعلوم القرآن والتفاسير وكتب الحديث النبوي الشريف، كنوع من التعجيز حتى يرضى والده بعودته إلى القرية.

لكن والده فطن إلى تلك الحيلة، واشترى له كل ما طلب قائلاً له: أنا أعلم يا بني أن جميع هذه الكتب ليست مقررة عليك، ولكني آثرت شراءها لتزويدك بها كي تنهل من العلم.

فما كان أمام الشيخ إلا أن يطيع والده، ويتحدى رغبته في العودة إلى القرية، فأخذ يغترف من العلم، ويلتهم منه كل ما تقع عليه عيناه.

والتحق الشعراوي بكلية اللغة العربية سنة ١٩٣٧م، وانشغل بالحركة الوطنية والحركة الأزهرية، فثورة سنة ١٩١٩م اندلعت من الأزهر الشريف، ومن الأزهر خرجت المنشورات التي تعبر عن سخط المصريين ضد الإنجليز المحتلين. ولم يكن معهد الزقازيق بعيدًا عن قلعة الأزهر الشامخة في القاهرة، فكان الشيخ يزحف هو وزملاؤه إلى ساحات الأزهر وأروقته، ويلقى بالخطب مما عرضه للاعتقال أكثر من مرة، وكان وقتها رئيسًا لاتحاد الطلبة سنة ١٩٣٤م.

التدرج الوظيفي:

تخرج الشيخ عام ١٩٤٠ م، وحصل على العالمية مع إجازة التدريس عام ١٩٤٣م.

بعد تخرجه عين الشعراوي في المعهد الديني بطنطا، ثم انتقل بعد ذلك إلى المعهد الديني بالزقازيق ثم المعهد الديني بالإسكندرية وبعد

فترة خبرة طويلة انتقل الشيخ الشعراوي إلى العمل في السعودية عام ١٩٥٠ ليعمل أستاذًا للشريعة بجامعة أم القرى.

ولقد اضطر الشيخ الشعراوي أن يدرِّس مادة العقائد رغم تخصصه أصلاً في اللغة وهذا في حد ذاته يشكل صعوبة كبيرة إلا أن الشيخ الشعراوي استطاع أن يثبت تفوقه في تدريس هذه المادة لدرجة كبيرة لاقت استحسان وتقدير الجميع. وفي عام ١٩٦٣ حدث الخلاف بين الرئيس جمال عبد الناصر وبين الملك سعود. وعلى أثر ذلك منع الرئيس عبد الناصر الشيخ الشعراوي من العودة ثانية إلى السعودية وعين في القاهرة مديرًا لمكتب شيخ الأزهر الشريف الشيخ حسن مأمون. ثم سافر بعد ذلك الشيخ الشعراوي إلى الجزائر رئيسًا لبعثة الأزهر هناك ومكث بالجزائر حوالي سبع سنوات قضاها في التدريس وأثناء وجوده في الجزائر حدثت نكسة يونيو ١٩٦٧، وقد تألم الشيخ الشعراوي كثيرًا لأقسى الهزائم العسكرية التي منيت بها مصر والأمة العربية وحين عاد الشيخ الشعراوي إلى القاهرة وعين مديرًا لأوقاف محافظة الغربية فترة، ثم وكيلا للدعوة والفكر، ثم وكيلاً للأزهر ثم عاد ثانية إلى المملكة العربية السعودية، حيث قام بالتدريس في جامعة الملك عبد العزيز.

وفي نوفمبر ١٩٧٦م اختار السيد ممدوح سالم رئيس الوزراء آنذاك أعضاء وزارته، وأسند إلى الشيخ الشعراوي وزارة الأوقاف وشؤون الأزهر. فظل الشعراوي في الوزارة حتى أكتوبر عام ١٩٧٨م.

وبعد أن ترك بصمة طيبة على جبين الحياة الاقتصادية في مصر، فهو أول من أصدر قرارًا وزاريًا بإنشاء أول بنك إسلامي في مصر وهو (بنك فيصل) حيث إن هذا من اختصاصات وزير الاقتصاد أو المالية (د. حامد السايح في هذه الفترة)، الذي فوضه، ووافقه مجلس

الشعب على ذلك.

وقال في ذلك: إنني راعيت وجه الله فيه ولم أجعل في بالي أحدًا لأنني علمت بحكم تجاربي في الحياة أن أي موضوع يفشل فيه الإنسان أو تفشل فيه الجماعة هو الموضوع الذي يدخل هوى الشخص أو أهواء الجماعات فيه. أما إذا كانوا جميعًا صادرين عن هوى الحق وعن مراده، فلا يمكن أبدًا أن يهزموا، وحين تدخل أهواء الناس أو الأشخاص، على غير مراد الله، تتخلى يد الله.

وفي سنة ١٩٨٧م اختير فضيلته عضواً بمجمع اللغة العربية (مجمع الخالدين). وقرَّظه زملاؤه بما يليق به من كلمات، وجاء انضمامه بعد حصوله على أغلبية الأصوات (٤٠عضوًا). وقال يومها: ما أسعدني بهذا اللقاء، الذي فرحت به فرحًا على حلقات: فرحت به ترشيحًا لي، وفرحت به ترجيحًا لي، وفرحت به استقبالاً لي، لأنه تكريم نشأ عن إلحاق لا عن لحوق، والإلحاق استدعاء، أدعو الله بدعاء نبيه محمد صلى الله عليه وسلم : اللهم إني أستعيذك من كل عمل أردت به وجهك مخالطاً فيه غيرك. فحين رشحت من هذا المجمع آمنت بعد ذلك أننا في خير دائم، وأننا لن نخلو من الخير ما دام فينا كتاب الله، سألني البعض: هل قبلت الانضمام إلى مجمع الخالدين، وهل كتب الخلود لأحد؟ وكان ردي: إن الخلود نسبي، وهذا المجمع مكلف بالعربية، واللغة العربية للقرآن، فالمجمع للقرآن، وسيخلد المجمع بخلود القرآن.

أسرة الشعراوي:

تزوج الشيخ الشعراوي وهو في الابتدائية بناء على رغبة والده الذي اختار له زوجته، ووافق الشيخ على اختياره، وكان اختيارًا طيبًا لم يتعبه في حياته، وأنجب الشعراوي ثلاثة أولاد وبنتين، الأولاد: سامي وعبد الرحيم وأحمد، والبنتان فاطمة وصالحة. وكان الشيخ

يرى أن أول عوامل نجاح الزواج هو الاختيار والقبول من الطرفين. وعن تربية أولاده يقول: أهم شيء في التربية هو القدوة، فإن وجدت القدوة الصالحة سيأخذها الطفل تقليدًا، وأي حركة عن سلوك سيئ يمكن أن تهدم الكثير.

فالطفل يجب أن يرى جيدًا، وهناك فرق بين أن يتعلم الطفل وأن تربي فيه مقومات الحياة، فالطفل إذا ما تحركت ملكاته وتهيأت للاستقبال والوعي بما حوله، أي إذا ما تهيأت أذنه للسمع، وعيناه للرؤية، وأنفه للشم، وأنامله للمس، فيجب أن نراعي كل ملكاته بسلوكنا المؤدب معه وأمامه، فنصون أذنه عن كل لفظ قبيح، ونصون عينه عن كل مشهد قبيح.

وإذا أردنا أن نربي أولادنا تربية إسلامية، فإن علينا أن نطبق تعاليم الإسلام في أداء الواجبات، وإتقان العمل، وأن نذهب للصلاة في مواقيتها، وحين نبدأ الأكل نبدأ باسم الله، وحين ننتهي منه نقول: الحمد لله.. فإذا رآنا الطفل ونحن نفعل ذلك فسوف يفعله هو الآخر حتى وإن لم نتحدث إليه في هذه الأمور، فالفعل أهم من الكلام.

الجوائز التي حصل عليها:

منح الإمام الشعراوي وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى لمناسبة بلوغه سن التقاعد في ١٩٧٦/٤/١٥ م قبل تعيينه وزيرًا للأوقاف وشئون الأزهر.

ومنح وسام الجمهورية من الطبقة الأولى عام ١٩٨٣م وعام ١٩٨٨م، ووسام في يوم الدعاة.

حصل على الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعتي المنصورة والمنوفية.

اختارته رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة عضوًا بالهيئة

التأسيسية لمؤتمر الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية، الذي تنظمه الرابطة، وعهدت إليه بترشيح من يراهم من المحكمين في مختلف التخصصات الشرعية والعلمية، لتقويم الأبحاث الواردة إلى المؤتمر.

أعدت حوله عدة رسائل جامعية منها رسالة ماجستير عنه بجامعة المنيا - كلية التربية - قسم أصول التربية، وقد تناولت الرسالة الاستفادة من الآراء التربوية لفضيلة الشيخ الشعراوي في تطوير أساليب التربية المعاصرة في مصر.

جعلته محافظة الدقهلية شخصية المهرجان الثقافي لعام ١٩٨٩م والذي تعقده كل عام لتكريم أحد أبنائها البارزين، وأعلنت المحافظة عن مسابقة لنيل جوائز تقديرية وتشجيعية، عن حياته وأعماله ودوره في الدعوة الإسلامية محليًا، ودوليًا، ورصدت لها جوائز مالية ضخمة.

مؤلفات الشيخ الشعراوي:

للشيخ الشعراوي عدد من المؤلفات، قام عدد من محبيه بجمعها وإعدادها للنشر، وأشهر هذه المؤلفات وأعظمها تفسير الشعراوي للقرآن الكريم، ومن هذه المؤلفات:

١- الإسراء والمعراج.
٢- أسرار بسم الله الرحمن الرحيم.
٣-الإسلام والفكر المعاصر.
٤-الإسلام والمرأة، عقيدة ومنهج.
٥-الشورى والتشريع في الإسلام.
٦-الصلاة وأركان الإسلام.
٧-الطريق إلى الله.

٨- الفتاوى.

٩- لبيك اللهم لبيك.

١٠- ١٠٠ سؤال وجواب في الفقه الإسلامي.

١١- المرأة كما أرادها الله.

١٢- معجزة القرآن.

١٣- من فيض القرآن.

١٤- نظرات في القرآن.

١٥- على مائدة الفكر الإسلامي.

١٦- القضاء والقدر.

١٧- هذا هو الإسلام.

١٨- المنتخب في تفسير القرآن الكريم.

الشاعر:

عشق الشيخ الشعراوي - رحمه الله - اللغة العربية، وعرف ببلاغة كلماته مع بساطة في الأسلوب، وجمال في التعبير، ولقد كان للشيخ باع طويل مع الشعر، فكان شاعرا يجيد التعبير بالشعر في المواقف المختلفة، وخاصة في التعبير عن آمال الأمة أيام شبابه، عندما كان يشارك في العمل الوطني بالكلمات القوية المعبرة، وكان الشيخ يستخدم الشعر أيضاً في تفسير القرآن الكريم، وتوضيح معاني الآيات، وعندما يتذكر الشيخ الشعر كان يقول " عرفوني شاعراً "

وعن منهجه في الشعر يقول: حرصت على أن أتجه في قصائدي إلى المعنى المباشر من أقصر طريق.. بغير أن أحوم حوله طويلا.. لأن هذا يكون الأقرب في الوصول إلى أعماق القلوب. خاصة إذا ما عبرت الكلمات بسيطة وواضحة في غير نقص. وربما هذا مع مخاطبتي للعقل هو ما يغلب على أحاديثي الآن للناس.

يقول في قصيدة بعنوان " موكب النور " :

أريحـــي الســـماح والإيثـــار ::: لـــك إرث يـــا طيبـــة الأنـــوار
وجلال الجمـــال فيـــك عريـــق ::: لا حرمنا مـــا فيـــه مـــن أســـرار
تجتلـــي عنـــدك البصـــائر معـــنى ::: فوق طـــوق العيـــون والأبصـــار

الشعر ومعاني الآيات:

ويتحدث إمام الدعاة فضيلة الشيخ الشعراوي في مذكراته التي نشرتها صحيفة الأهرام عن تسابق أعضاء جمعية الأدباء في تحويل معاني الآيات القرآنية إلى قصائد شعر. كان من بينها ما أعجب بها رفقاء الشيخ الشعراوي أشد الإعجاب إلى حد طبعها على نفقتهم وتوزيعها. يقول إمام الدعاة ومن أبيات الشعر التي اعتز بها، ما قلته في تلك الآونة في معنى الرزق ورؤية الناس له. فقد قلت:

تحـــرى إلى الـــرزق أســـبابه ::: فإنـــك تجهـــل عنوانـــه
ورزقك يعرف عنوانك

وعندما سمع سيدنا الشيخ الذي كان يدرس لنا التفسير هذه الأبيات قال لي: يا ولد هذه لها قصة عندنا في الأدب. فسألته: ما هي القصة؟ فقال: قصة شخص اسمه عروة بن أذينة.. وكان شاعرا بالمدينة وضاقت به الحال، فتذكر صداقته مع هشام بن عبد الملك.. أيام أن كان أمير المدينة قبل أن يصبح الخليفة. فذهب إلى الشام ليعرض تأزم حالته عليه لعله يجد فرجا لكربه. ولما وصل إليه استأذن على هشام ودخل. فسأله هشام كيف حالك يا عروة؟. فرد: والله إن الحال قد ضاقت بي.. فقال لي هشام: ألست أنت القائل:

لقد علمت وما الإشراق من خلقي ::: إن الذي هو رزقي سوف يـــأتيني

واستطرد هشام متسائلا: فما الذي جعلك تأتي إلى الشام وتطلب مني.. فأحرج عروة الذي قال لهشام: جزاك الله عني خيرا يا أمير

المؤمنين.. لقد ذكرت مني ناسيا، ونبهت مني غافلا.. ثم خرج..

وبعدها غضب هشام من نفسه لأنه رد عروة مكسور الخاطر.. وطلب القائم على خزائن بيت المال وأعد لعروة هدية كبيرة وحملوها على الجمال.. وقام بها حراس ليلحقوا بعروة في الطريق.. وكلما وصلوا إلى مرحلة يقال لهم: كان هنا ومضى. وتكرر ذلك مع كل المراحل إلى أن وصل الحراس إلى المدينة.. فطرق قائد الركب الباب وفتح له عروة.. وقال له: أنا رسول أمير المؤمنين هشام.. فرد عروة: وماذا أفعل لرسول أمير المؤمنين وقد ردني وفعل بي ما قد عرفتم؟..

فقال قائد الحراس: تمهل يا أخي.. إن أمير المؤمنين أراد أن يتحفك بهدايا ثمينة وخاف أن تخرج وحدك بها.. فتطاردك اللصوص، فتركك تعود إلى المدينة وأرسل إليك الهدايا معنا.. ورد عروة: سوف أقبلها ولكن قل لأمير المؤمنين لقد قلت بيتا ونسيت الآخر.. فسأله قائد الحراس:

ما هو؟.. فقال عروة:

أسعى له فيعييني تطلبه ::: ولو قعدت أتاني يعينني

وهذا يدلك - فيما يضيفه إمام الدعاة - على حرص أساتذتنا على أن ينمو في كل إنسان موهبته، ويمدوه بوقود التفوق.

مواقف وطنية:

ويروي إمام الدعاة الشيخ الشعراوي في مذكراته وقائع متفرقة الرابط بينها أبيات من الشعر طلبت منه وقالها في مناسبات متنوعة.. وخرج من كل مناسبة كما هي عادته بدرس مستفاد ومنها مواقف وطنية.

يقول الشيخ: و أتذكر حكاية كوبري عباس الذي فتح على الطلاب من

عنصري الأمة وألقوا بأنفسهم في مياه النيل شاهد الوطنية الخالد لأبناء مصر. فقد حدث أن أرادت الجامعة إقامة حفل تأبين لشهداء الحادث ولكن الحكومة رفضت.. فاتفق إبراهيم نور الدين رئيس لجنة الوفد بالزقازيق مع محمود ثابت رئيس الجامعة المصرية على أن تقام حفلة التأبين في أية مدينة بالأقاليم. ولا يهم أن تقام بالقاهرة.. ولكن لأن الحكومة كان واضحا إصرارها على الرفض لأي حفل تأبين فكان لابد من التحايل على الموقف.. وكان بطل هذا التحايل عضو لجنة الوفد بالزقازيق حمدي المرغاوي الذي ادعى وفاة جدته وأخذت النساء تبكي وتصرخ.. وفي المساء أقام سرادقا للعزاء وتجمع فيه المئات وظنت الحكومة لأول وهلة أنه حقا عزاء.. ولكن بعد توافد الأعداد الكبيرة بعد ذلك فطنت لحقيقة الأمر.. بعد أن أفلت زمام الموقف وكان أي تصد للجماهير يعني الاصطدام بها.. فتركت الحكومة اللعبة تمر على ضيق منها.. ولكنها تدخلت في عدد الكلمات التي تلقى لكيلا تزيد للشخص الواحد على خمس دقائق.. وفي كلمتي بصفتي رئيس اتحاد الطلبة قلت: شباب مات لتحيا أمته وقبر لتنشر رايته وقدم روحه للحتف والمكان قربانا لحريته ونهر الاستقلال.. ولأول مرة يصفق الجمهور في حفل تأبين. وتنازل لي أصحاب الكلمة من بعدي عن المدد المخصصة لهم.. لكي ألقى قصيدتي التي أعددتها لتأبين الشهداء البررة والتي قلت في مطلعها:

نداء يابني وطني نداء ::: دم الشهداء يذكره الشباب
وهل نسلوا الضحايا والضحايا ::: بهم قد عز في مصر المصاب
شباب بَرٌّ لم يفْرِق.. وأدى ::: رسالته، وها هي ذي تجاب
فلم يجبن ولم يبخلْ وأرغى ::: وأزبد لا تزعزعه الحراب
وقدم روحه للحق مهرًا ::: ومن دمه المراق بدا الخضاب
وآثر أن يموت شهيد مصر ::: لتحيا مصر مركزها مهاب

مع الشعراء:
وللشيخ الشعراوي ذكريات مع الشعراء والأدباء، شهدت معارك أدبية ساخنة، وكان للشيخ فيها مواقف لا تنسى.

يقول الشيخ: حدث أيام الجماعة الأدبية التي كنت أرأسها حوالي عام ١٩٢٨.. والتي كانت تضم معي أصدقاء العمر الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي - أطال الله عمره - والمرحوم محمد فهمي عبد اللطيف وكامل أبو العينين وعبد الرحمن عثمان رحمه الله.. حدث أن كانوا على صلة صداقة مع شاعر مشهور وقتها بطول اللسان والافتراء على أي إنسان اسمه عبد الحميد الديب، صاحب قصيدة " دع الشكوى وهات الكأس واسكر ".. والذي لم يسلم أحد من لسانه.. والذي كان يعيش على هجاء خلق الله إلى أن يمنحوه مالا.. وجاءت ذات ليلة سيرتي أمامه.. وقال له الأصدقاء أعضاء الجماعة الأدبية عن كل ما أقرضته من قصائد شعرية.. فرد وقال: الشيخ الشعراوي شاعر كويس.. ولكن لا يصح أن يوصف بأنه شاعر.. ولما سألوه: لماذا؟.. قال: إن المفترض في شعر الشاعر أن يكون مجودا في كل غرض.. وهو لم يقل شعرا في غرضين بالذات ولما حكوا لي عن هذا الذي قاله الشاعر محجوب عبد الحميد الديب.. قلت لهم: أما أنني لم أقل شعرا في الغزل.. فأرجو أن تبلغوه بأنني أقرضت الشعر في الغزل أيضا.. لكنه غزل متورع.. وانقلوا إليه الأبيات عني.. والتي قلت فيها:

من لم يحركه الجمال فناقص تكوينه ::: وسوى خلق الله من يهوي ويسمح دينه

سبحان من خلق الجمال والانهزام لسطوته ::: ولهذا يأمرنا بغض الطرف عنه لرحمته

من شاء يطلبه فلا إلا بطهر شريعته ::: وبذا يدوم لنا التمتع ها هنا وبجنته

وأما عن الهجاء فقلت لأصدقائي: إنني لا أجد موضوعا أتناوله إلا أن أهجو عبد الحميد الديب نفسه.. ولن أشهر به.. ولكن فليأت إلينا..

ويجلس معنا.. وأقول له أنني سوف أهجوك بكذا وكذا.. ثم أخيره بعد ذلك أن يعلن هجائي له أو لا يعلنه.. وقد تحداني وقدم إلى منزلي بباب الخلق وسألني: ما الذي سوف تقوله في عبد الحميد الديب يا ابن الشعراوي؟ فقلت له: والله لن أقول شعري في هجائك لأحد إلى أن تقوله أنت وأنا أقطع بأنك لن تكرر على مسامع الناس هجائي لك.. وبالفعل ما سمعه عبد الحميد الديب مني في هجائه لم يستطع - كما توقعت - أن يكرره على مسامع أحد.. ولذلك كنت الوحيد من شلة الأدباء الذي سلم من لسانه بعدها. لأنه خاف مني وعلم قوتي في شعر الهجاء أيضا.. ومن هنا ترسخ يقيني بأن التصدي للبطش والقوة لا يكون إلا بامتلاك نفس السلاح.. سلاح القوة ولكن بغير بطش..

أشعار ومناسبات:

ويقول الشيخ عن أشعاره في المناسبات المختلفة: كنا في كل مناسبة نعقد ندوات ونلقي بالأشعار، وكان هذا مبعث نهضة أدبية واسعة في زماننا.. كانت معينا لا ينضب لغذاء القلب والعقل والروح لا يفرغ أبدا.. وأذكر من هذه الأيام أن كنا نحيي في قريتنا ذكرى الوفاء الأولى لرحيل حبيب الشعب سعد زغلول. وطلب مني خالي أن أقرض أبياتا في تأبين الزعيم.. فقلت على ما أذكر:

عام مضى وكأنه أعوام ::: يا ليته ما كان هذا العام

ويومها قال لي خالي ومن سمعوني: يا آمين.. قلت وأوجزت.. وعبرت.. عما يجيش في صدور الخلق.

قالوا عن الشيخ الشعراوي:

فقد العلماء بالموت خسارة إنسانية كبرى، إن الناس يحسون عندئذ أن ضوءا مشعا قد خبا، وأن نورا يهديهم قد احتجب، ولقد كان هذا شيئا قريبا من إحساسنا بموت الشيخ محمد متولي الشعراوي يرحمه الله تبارك وتعالى.

كان أول ظهور له على المستوى العام " في التليفزيون " هو ظهوره في برنامج " نور على نور " للأستاذ أحمد فراج.

وكانت الحلقة الأولى التي قدمها عن حلية رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كانت الحلقة تتحدث عن أخلاق الرسول وشمائله، ورغم أن هذا الموضوع قديم كتب فيه الكاتبون، وتحدث فيه المتحدثون، إلا أن الناس أحسوا أنهما أمام فكر جديد وعرض جديد ومذاق جديد.. لقد أحسوا أنهم يسمعون هذا الكلام لأول مرة.

ولعل هذه كانت أول مزية للشيخ الشعراوي، إن القديم كان يبدو جديدا على لسانه، أيضا أشاعت هذه الحلقة إحساسا في الناس بأن الله يفتح على الشيخ الشعراوي وهو يتحدث، ويلهمه معاني جديدة وأفكارا جديدة.

بعد هذا القبول العام انخرط الشيخ الشعراوي في محاولة لتفسير القرآن وأوقف حياته على هذه المهمة؛ ولأنه أستاذ للغة أساسا كان اقترابه اللغوي من التفسير آية من آيات الله، وبدا هذا التفسير للناس جديدا كل الجدة، رغم قدمه ورغم أن تفسير القرآن قضية تعرض لها آلاف العلماء على امتداد القرون والدهور، إلا أن تفسير الشيخ الشعراوي بدا جديدا ومعاصرا رغم قدمه، وكانت موهبته في الشرح وبيان المعاني قادرة على نقل أعمق الأفكار بأبسط الكلمات.. وكانت هذه موهبته الثانية.

وهكذا تجمعت القلوب حول الرجل وأحاطته بسياج منيع من الحب والتقدير.. وزاد عطاؤه وزاد إعجاب الناس به، ومثل أي شمعة تحترق من طرفيها لتضيء مضى الشيخ الشعراوي في مهمته حتى اختاره الله إلى جواره.. عزاء لنا وللأمة الإسلامية.

" أحمد بهجت " :

إن الشيخ الشعراوي عليه رحمة الله كان واحدًا من أعظم الدعاة إلى الإسلام في العصر الذي نعيش فيه. والملكة غير العادية التي جعلته يطلع جمهوره على أسرار جديدة وكثيرة في القرآن الكريم.

وكان ثمرة لثقافته البلاغية التي جعلته يدرك من أسرار الإعجاز البياني للقرآن الكريم ما لم يدركه الكثيرون وكان له حضور في أسلوب الدعوة يشرك معه جمهوره ويوقظ فيه ملكات التلقي. ولقد وصف هو هذا العطاء عندما قال: " إنه فضل جود لا بذل جهد ". رحمه الله وعوض أمتنا فيه خيرًا.

د. " **محمد عمارة** " :

إن الشيخ الشعراوي قد قدم لدينه ولأمته الإسلامية وللإنسانية كلها أعمالا طيبة تجعله قدوة لغيره في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

د. " **محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر** " :

فقدت الأمة الإسلامية علما من أعلامها كان له أثر كبير في نشر الوعي الإسلامي الصحيح، وبصمات واضحة في تفسير القرآن الكريم بأسلوب فريد جذب إليه الناس من مختلف المستويات الثقافية.

د. " **محمود حمدي زقزوق وزير الأوقاف السابق** " :

إن الشعراوي أحد أبرز علماء الأمة الذين جدد الله تعالى دينه على يديهم كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم :{**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها**}.

د. " **أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر السابق** " :

إن الفقيد واحد من أفذاذ العلماء في الإسلام قد بذل كل جهد من أجل خدمة الأمة في دينها وأخلاقها.

" **الشيخ أحمد كفتارو مفتي سوريا** " :

إن الجمعية الشرعية تنعى إلى الأمة الإسلامية فقيد الدعوة والدعاة إمام الدعاة إلى الله تعالى، حيث انتقل إلى رحاب ربه آمنا مطمئنا بعد أن أدى رسالته كاملة وبعد أن وجه المسلمين جميعًا في مشارق الأرض ومغاربها إلى ما يصلح شئون حياتهم ويسعدهم في آخرتهم. فرحم الله شيخنا الشعراوي رحمة واسعة وجعله في مصاف النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا وجزاه الله عما قدم للإسلام والمسلمين خير الجزاء.

د. " **فؤاد مخيمر رئيس عام الجمعية الشرعية** " :

لا شك أن وفاة الإمام الراحل طيب الذكر فضيلة الشيخ الشعراوي تمثل خسارة فادحة للفكر الإسلامي والدعوة الإسلامية والعالم الإسلامي بأسره، فقد كان رحمه الله رمزًا عظيمًا من رموز ذلك كله وخاصة في معرفته الشاملة للإسلام وعلمه المتعمق وصفاء روحه وشفافية نفسه واعتباره قدوة تحتذى في مجال العلم والفكر والدعوة الإسلامية وإن حزننا لا يعادله إلا الابتهال إلى الله بأن يطيب ثراه وأن يجعل الجنة مثواه.

" **د. أحمد هيكل وزير الثقافة السابق** " :

لا ينبغي أن نيأس من رحمة الله والإسلام الذي أفرز الشيخ الشعراوي قادر على أن يمنح هذه الأمة نماذج طيبة وعظيمة ورائعة تقرب على الأقل من الشيخ الشعراوي ومع ذلك نعتبر موته خسارة كبيرة، خسارة تضاف إلى خسائر الأعوام الماضية أمثال أساتذتنا الغزالي وجاد الحق وخالد محمد خالد. وأخشى أن يكون هذا نذير اقتراب يوم القيامة الذي أخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن من علاماته أن يقبض العلماء الأكفاء الصالحون وأن يبقى الجهال وأنصاف العلماء وأشباههم وأرباعهم فيفتوا بغير علم ويطوعوا دين

الله وفقا لضغوط أولياء الأمور ويصبح الدين منقادًا لا قائدًا.

ونسأل الله أن يجنب الأمة شر هذا وأن يخلفها في الشيخ الشعراوي خيرًا [١].

* * *

(١) من مقال للدكتور. عبد الحليم عويس أستاذ التاريخ الإسلامي.

ابو عبد الرحمن السلمي

أعـــلام التفسيـــر

أبو عبد الرحمن السلمي
صاحب كتاب: " حقائق التفسير أو تفسير القرآن "

هو أبو عبد الرحمن، محمد بن الحسين بن موسى، الأزدى السلمى، المولود سنة ٣٣٠ هـ (ثلاثين وثلاثمائة من الهجرة)، وقيل غير ذلك.

كان رحمه الله شيخ الصوفية وعالمهم بخراسان، له اليد الطولى في التصوف، والعلم الغزير، والسير على سنن السَلَف، أخذ الطريق عن أبيه، فكان موفقاً في جميع علوم الحقائق ومعرفة طريق التصوف. وكان على جانب عظيم من العلم بالحديث، حتى قيل: إنه حدَّث أكثر من أربعين سنة إملاءً وقراءة. وكتب الحديث بنيسابور، ومرو، والعراق، والحجاز، وصنّف سنناً لأهل خراسان، وأخذ عنه بعض الحفَّاظ: منهم الحاكم أبو عبد الله، وأبو القاسم القشيرى، وغيرهما، ولقد خلَّف - رحمه الله - من الكتب ما يزيد على المائة: منها ما هو في علوم القوم، ومنها ما هو في التاريخ، ومنها ما هو في الحديث، ومنها ما هو في التفسير.

ولكن السلمى مع وفرة جلالته، وعظيم منزلته بين مريديه، لم يسلم كغيره من الصوفية من الطعن عليه، قال الخطيب: قال محمد بن يوسف النيسابورى القطان: كان السلمى غير ثقة، يضع للصوفية، وكأن الخطيب لم يرض هذا الطعن فيه، فقال حكاية هذا القول: " قدر أبى عبد الرحمن عند أهل الطعن فيه، فقال حكاية هذا القول: " قدر أبى عبد الرحمن عند أهل بلده جليل، وكان مع ذلك محموداً صاحب حديث ".. قال ابن السبكى صاحب طبقات الشافعية: " قول الخطيب فيه هو الصحيح، وأبو عبد الرحمن ثقة، ولا عبرة بهذا الكلام فيه " هذا.. وقد كانت وفاته سنة ٤١٢ هـ (اثنتى عشرة وأربعمائة من الهجرة)، فرحمه الله رحمة واسعة.

شيوخ السلمي:

هناك شيوخ لهم أثر واضح في أبي عبد الرحمن، أما أحدهم فالمحدث الحجة العالم، أبو الحسن الدارقطني، وأما الآخرون فأثرهم صوفي، مثل أبي نصر السراج صاحب " اللمع " وأبي القاسم النصر أباذي، وأبي عمرو بن نجيد.

وإذا أردنا أن نعد كل من لقيهم أبو عبد الرحمن، ونتعرف أثرهم فيه، فإن ذلك سيخرجنا عما قصدنا إليه من هذه العجالة، ولكنا نقتصر على بعضهم فمنهم:

١ - إبراهيم بن أحمد بن محمد بن رجاء الأبزاري - من أبزار، قرية بينها وبين نيسابور فرسخان - الوراق. وهو من محدثي نيسابور المشهورين. سمع بنيسابور وبنسا؛ ورحل إلى العراق، فسمع بها. وكتب بالجزيرة والشام. وسمع بخراسان وبغداد عن أئمة الحديث فيها، وسمع منه أبو عبد الرحمن.

٢ - إبراهيم بن محمد بن أحمد بن محمويه، أبو القاسم النصراباذي. وهو من شيوخ أبي عبد الرحمن. وزامل أبا عبد الرحمن، في الاستماع إليه، والانتفاع به، محدث نيسابور، ومؤرخها وعالمها، الحاكم أبو عبد الله صاحب " تاريخ نيسابور ".

٣ - أحمد بن إسحاق بن أيوب بن يزيد بن عبد الرحمن بن نوح، أبو بكر الصبغي، من شيوخ نيسابور. رحل إلى العراق والحجاز وغيرهما. ولد في رجب سنة ثمان وخمسين ومائتين، وتوفى في شعبان، سنة أثنتين وأربعين وثلثمائة ولعله من أقدم من أخذ عنهم أبو عبد الرحمن.

٤ - أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران، أبو نعيم الأصبهاني، حافظ أصبهان، وصاحب كتاب " حلية الأولياء " وكتاب " تاريخ أخبار أصبهان ". فقد روى أبو عبد الرحمن، مع

تقدمه، عن عبد الواحد بن أحمد الهاشمي، عن أبي نعيم.

٥ - أحمد بن علي بن الحسن بن شاذان، المقرئ النيسابوري، المعروف بابن حسنويه. وكان كذلك شيخ أبي عبد الله الحاكم.

٦ - أحمد بن محمد بن رميح بن عصمة بن وكيع بن رجاء، أبو سعيد النخعي من أهل نسا. وكتاب " طبقات صوفية " مملوءة بالرواية عنه.

أحمد بن محمد بن عبدوس العنزي، أبو حسن الطرائفي - نسبة إلى بيع الطرائف، وهي الأشياء المتخذة من الخشب - توفى بنيسابور، في رمضان سنة ست وأربعين وثلثمائة.

٨ - إسماعيل بن نجيد، أبو عمرو السلمي، جده لأمه. وقد أكثر السماع عنه.

٩ - جعفر بن محمد، أبو القاسم الذري. قال أبو عبد الرحمن، في كتابه " تاريخ الصوفية "، في ترجمة أحمد بن محمد، أبي بكر بن أبي سعدان: " لم يكن في زمانه أعلم بعلوم هذه الطائفة منه. وكان أستاذ شيخنا أبي القاسم الرازي " (١).

١٠ - جعفر بن محمد الحارث، أبو محمد المراغي - نسبة إلى المراغة أعظم وأشهر بلاد أذربيجان - أحد الرحالين في طلب الحديث وجمعه، سكن نيسابور وسمع بدمشق وغيرها.

١١ - حسان بن محمد القرشي الأموي النيسابوري الفقيه، شيخ الشافعية بخراسان. صنف التصانيف، وكان بصيراً بالحديث وعلله، ثقة. أثنى عليه غير واحد وروي عنه كذلك الحاكم أبو عبد الله، وقال عنه: " هو إمام أهل الحديث بخراسان، وأزهد من رأيت من العلماء، وأعبدهم " توفي في الربيع الأول، سنة تسع وأربعين وثلثمائة.

---

(١) مقدمة كتاب طبقات الصوفية للسلمي، ص ٤.

١٢ - الحسن بن علي بن زيد بن داود بن يزيد، النيسابوري الصائغ، الإمام الحافظ أبو علي. رحل في طلب العلم والحديث، وطاف وجمع فيه وصنف. ممن روى عنه أبو عبد الرحمن السلمي. ولد سنة سبع وسبعين ومائتين. وعقد له مجلس الإملاء بنيسابور، سنة سبع وثلاثين وثلثمائة، وهو ابن ستين سنة. وتوفي عشية يوم الأربعاء، الخامس عشر من جمادى الأولى، سنة تسع وأربعين وثلثمائة.

١٣ - الحسين بن محمد، أبو علي النيسابوري.

١٤ - الحسين بن محمد بن موسى الأزدي، والد الشيخ أبي عبد الرحمن.

١٥ - سعيد بن القاسم بن العلاء بن خالد، أبو عمرو البرذعي.

١٦ - عبد الله بن فارس، أبو ظهير العمري البلخي.

١٧ - علي بن عمر بن أحمد بن مسرور، أبو الحسن الدارقطني الحافظ.

١٨ - محمد بن أحمد بن سعيد الرازي، صاحب ابن وارة.

١٩ - محمد بن داود بن سليمان، أبو بكر الزاهد النيسابوري. شيخ عالم ورع زاهد. سافر كثيراً، وجال البلاد في طلب العلم، وأكثر من الحديث. فسمع بنيسابور، والري، والعراق، والحجاز، ومصر، والشام، والموصل. وروى عن جعفر الفريابي وأبي عبد الرحمن النسائي، وأبي بعلي الموصلي. وروى عنه كذلك الحاكم أبو عبد الله وصنف " أخبار الصوفية والزهاد ". وأملي الحديث بنيسابور. وتوفي عاشر ربيع الأول، من سنة اثنتين وأربعين وثلثمائة

٢٠ - محمد بن عبد الله بن أحمد، أبو عبد الله الصفار، الزاهد الأصبهاني. كان زاهداً ورعاً. ألف كتاباً في الزهد.

٢١ - محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن شاذان، أبو بكر الرازي المذكر، كان أبو عبد الرحمن كثير الحكايات عنه، ملياً بالسماع منه.

٢٢ - محمد بن علي بن إسماعيل، أبو بكر القفال الشاشي - من الشاش، بما وراء النهر - تتلمذ له أبو عبد الرحمن، وروى عنه، وكان القفال أوحد أهل الدنيا في الفقه والتفسير واللغة. رحل إلى الدنيا، وطلب العلم، ولقي كبار شيوخ عصره. وكان شيخ الشافعية في وقته. ولد سنة إحدى وتسعين ومائتين. ومات سنة ست وستين وثلثمائة.

٢٣ - محمد بن محمد بن الحسن، أبو الحسن الكارزي - نسبة إلى كارز - من قرى نيسابور - النيسابوري. روى عنه أبو عبد الرحمن، كما روى عنه الحاكم أبو عبد الله.

٢٤ - محمد بن المؤمل بن الحسن بن عيسى بن ماسرجس، الماسرجسي النيسابوري.

٢٥ - محمد بن يعقوب بن يوسف بن الأخرم، أبو عبد الله الشيباني الحافظ محدث نيسابور وعالمها. صنف " المسند الكبير والصحيحين ". روى عنه أبو عبد الرحمن السلمي، وكذلك الحاكم أبو عبد الله. ومع براعته في الحديث والعلل والرجال، لم يرحل عن نيسابور، وعاش أربعاً وتسعين سنة، ومات سنة أربع وأربعين وثلثمائة.

٢٦ - محمد بن يعقوب بن يوسف بن معقل بن سنان بن عبد الله، أبو العباس الأصم. سمع منه أبو عبد الرحمن، وهو من شيوخ نيسابور ومحدثيها.

٢٧ - يحيى بن منصور القاضي، أبو محمد النيسابوري. ولي قضاء نيسابور بضع عشر سنة، وتوفي سنة إحدى وخمسين وثلثمائة. وقد لقيه أبو عبد الرحمن وسمع منه.

٢٨ - أبو إسحاق الحيري، وقد سمع منه كذلك أبو عبد الرحمن.

تلاميذ أبي عبد الرحمن: رأينا أبا عبد الرحمن قد لقي شيوخ عصره، وسمع منهم الحديث، وتأدب بهم في الطريق. وقلما كان ينزل بلداً به عالم حديث أو التصوف، دون أن يلقاه ويأخذ عنه. يقول السلمي: " كنت من النصراباذي "، أي بلد أتيناه، يقول: قم بنا نسمع الحديث ".

وقد رزق أبو عبد الرحمن من القبول عند الناس ما لم يرزق غيره من الشيوخ حتى أقبل عليه التلاميذ والمريدون، يتأدبون به ويأخذون عنه علوم القوم، وهو يومئذ رواية أخبارهم ونقالهم (١).

ومن أهم تلاميذه:

١ - أحمد بن الحسين بن علي بن موسى بن عبد الله، أبو بكر البيهقي - نسبة إلى بيهق، قرى مجتمعة بنواحي نيسابور - الحافظ الفقيه الشافعي، سمع من أبي أبو عبد الرحمن، وأخذ عنه. ولد في شعبان، سنة أربع وثمانين وثلثمائة، وتوفي سنة ثمان وخمسين وأربعمائة.

٢ - أحمد بن عبد الواحد الوكيل، وهو الذي ينقل عن الصاحب " تاريخ بغداد " ما يرويه عن أبي عبد الرحمن.

٣ - أحمد بن علي بن الحسين التوزي القاضي، كان ثقة. وروى عن أبي عبد الرحمن السلمي، وروى عن الخطيب البغدادي في تاريخه.

٤ - أحمد بن علي بن عبد الله بن عمر بن خلف، أبو بكر الشيرازي، ثم النيسابوري. مسند خراسان. روى عن أبي عبد الرحمن كتبه. وروى كذلك عن الحاكم أبي عبد الله وطائفة. قال فيه عبد الغافر: " هو شيخنا الأديب، المحدث المتقن الصحيح السماع. ما رأينا شيخاً أورع منه، ولا أشد إتقاناً. توفي في الربيع الأول، سنة سبع وثمانين

(١) مقدمة كتاب طبقات الصوفية للسلمي، ص ٥.

وأربعمائة، وقد نيف على التسعين ". وهو الذي وردت مخطوطة: م، بروايته.

٥ - عبد الله بن يوسف، أبو محمد الجويني، إمام عصره بنيسابور، ووالد أبي المعالي الجويني. تفقه على أبي الطيب، سهل بن محمد الصعلوكي. وقدم مرو، قصداً لأبي بكر عبد الله بن أحمد القفال المروزي، فتفقه به، وسمع منه وقرأ الأدب، وبرع في الفقه، وصنف فيه التصانيف المفيدة. وكان ورعاً، دائم العبادة، شديد الاحتياط، مبالغاً فيه. سمع أستاذيه: أبا عبد الرحمن السلمي، أبا محمد ابن بابويه الأصبهاني. ومات سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة.

٦ - عبد الكريم بن هوزان، أبو القاسم القشيري، صاحب الرسالة القشيرية؛ وهي تمتلئ بالرواية عن السلمي. توفي القشيري سنة خمس وستين وأربعمائة.

٧ - عبيد الله بن أحمد بن عثمان بن الفرج بن الأزهر الأزهري. من أشهر شيوخ الخطيب ما يرويه من أخبار، عن أبي عبد الرحمن.

٨ - علي بن أحمد بن محمد بن الأحزم، أبو الحسن المديني، النيسابوري الزاهد المؤذن. أملي مجالس عن أبي عبد الرحمن السلمي. توفي في المحرم سنة أربع وتسعين وأربعمائة.

٩ - علي بن سليمان بن داود الخطيبي، أبو الحسن الأوزكندي، نسبة إلى أوزكند، بلد بما وراء النهر، من نواحي فرغانة - قدم همدان، سنة خمس وأربعمائة وروى عن أبي عبد الرحمن السلمي وغيره.

١٠ - عمر بن أحمد بن محمد بن موسى بن منصور، الجوزي النيسابوري، الحافظ أبو منصور. وهو ثقة فاضل، من أصحاب أبي حنيفة. جاور بالقرب من الجامع العتيق بنيسابور، ولازم طريق السلف. وكان من خواص أصحاب أبي عبد الرحمن، وصاحب كتبه.

وكتب عنه الكثير. توفي في جمادى الآخرة، سنة تسع وستين وأربعمائة.

١١ - عمر بن إسماعيل بن عمر، أبو حفص الجصيني - نسبة إلى جصين، محلة بمرو، أندرست، وصارت مقبرة، ودفن بها بعض الصحابة - وقيل أنه مروزي. روى عن أبي عبد الرحمن السلمي. وكان فقيهاً على المذهب الشافعي.

١٢ - فضل الله، أبو سعيد بن أبي الخير، الشاعر الفارسي، ولد سنة سبع وخمسين وثلثمائة، في " مَيْهَنَة "، أهم مدينة في إقليم " خابران " بخراسان، ودرس الفقه، واعتنق مذاهب الصوفية. مات سن أربعين وأربعمائة. وقد رحل أبو سعيد ابن أبي الخير إلى أبي عبد الرحمن السلمي، فتلقى الخرقة من يده.

١٣ - القاسم بن الفضل بن أحمد، أبو عبد الله الثقفي الجُوبَارِيُّ، نسبة إلى جوبارة، محلة بأصبهان - رئيس أصبهان. روى عن أبي عبد الرحمن السلمي. وتوفي عن اثنتين وتسعين سنة، عام تسع وثمانين وأربعمائة.

١٤ - محمد بن إسماعيل بن محمد، أبو بكر التفليسي - نسبة إلى تفليس، بلد بأذربيجان - النيسابوري المولد؛ الصوفي، المقرئ. روى عن أبي عبد الرحمن السلمي. ومات في شوال، سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة.

١٥ - محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم بن الحاكم، أبو عبد الله الحاكم، الضبي الطهماني، النيسابوري الحافظ، المعروف بابن البَيّع. وصيف أبي عبد الرحمن، وزميله في التلقي عن الشيوخ. روى عنه في كتابه " تاريخ نيسابور ". توفي سنة خمس وأربعمائة.

١٦ - محمد بن عبد الواحد، أبو الحسن. روى عنه الخطيب البغدادي، أبي عبد الرحمن.

١٧ - محمد بن علي بن الفتح، الحربي. روى عن أبي عبد الرحمن السلمي، وروى عنه الخطيب البغدادي في كتابه " تاريخ بغداد " [١].

١٨ - محمد بن يحيى بن إبراهيم، أبو بكر المزكي، النيسابوري. روى عن أبي عبد الرحمن.

١٩ - مهدي بن محمد بن عباس بن عبد الله بن أحمد بن يحيى، المامطيري - نسبة إلى مامطير، بليدة من نواحي طبرستان، أبو الحسن الطبري، يعرف بابن سرهنك. قدم همدان، في شوال، سنة أربعين وأربعمائة. وروى عن أبي عبد الرحمن السلمي.

٢٠ - أبو بكر بن زكريا، ممن رووا عن أبي عبد الرحمن.

٢١ - أبو سعد بن رامش، وهو كذلك ممن لقوا أبا عبد الرحمن ورووا عنه.

٢٢ - أبو صالح المؤذن، أحد الذين صحبوا أبا عبد الرحمن وأخذوا عنه.

٢٣ - أبو علاء الواسطي، القاضي. لقي أبا عبد الرحمن وروى عنه، ونقل الخطيب البغدادي بإسناد الواسطي عن أبي عبد الرحمن.

تصانيف السلمي:

كان جد أبي عبد الرحمن لأمه، أبو عمرو إسماعيل بن نجيد، سليل بيت سرى ورث السلف خلفهم وعملهم، وكتبهم، كما ورثوهم جاهاً ومالاً في نيسابور، فلما توفى أبو عمرو، جد أبي عبد الرحمن، سنة ست وستين وثلثمائة " خلف ثلاثة أسهم في قرية، قيمتها ثلاث آلاف دينار - وكانوا يتوارثون ذلك عن جده، جد أبي عمرو، أحمد بن يوسف السلمي، وكذلك خلف ضياعاً ومتاعاً. ولم يكن له وارث غير والدة أبي عبد الرحمن ".

(١) مقدمة كتاب طبقات الصوفية للسلمي، ص ٦.

لم يشغل أبو عبد الرحمن بمطالب العيش وإنما شغل بالعلم يجمع كتبه - وقد ورث قدراً كبيراً منها عن آبائه - ويتلقاه عن شيوخه في مختلف بقاع المشرق، ويعلم الناس ويفيدهم.

وقد كان أبي عبد الرحمن " بيت كتب... جمع فيه الكتب ما لم يسبق إلى ترتيبه " من طرائف كتب الصوفية والمحدثين، وكان ينقطع فيه للقراءة والتأليف، وكان شيوخ نيسابور يستعيرون منه بعض ما يحويه هذا البيت من نفائس.

وقد ابتدأ أبو عبد الرحمن التصنيف سنة نيف وخمسين وثلثمائة، وهذا معناه أن أبا عبد الرحمن ظل يؤلف قريباً من بضعة وخمسين عاماً.

ألف أبو عبد الرحمن في الحديث، وفي تفسير القرآن الكريم، وفي التصوف وانصرف يحدث الناس بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، أكثر من أربعين سنة، إملاء وقراءة، وانتخب عليه الحفاظ الكبار. وقد صنف في أحاديث النبي، صلى الله عليه وسلم، من جمع الأبواب، والمشايخ وغير ذلك ثلثمائة جزء.

وعلى أي حال فإن هذه الثورة الضخمة، من التأليف في الحديث، لم يصل منها إلا الجزء اليسير جداً، إذا قيس بالمفقود.

وأما تفسير القرآن الكريم فلم يصلنا منه إلا هذا التفسير الصوفي الفريد: " حقائق التفسير " ذلك التفسير الذي جر على أبي عبد الرحمن خصومة ولدداً شديدين. تولى كبرهما - في أكثر الأمر - الشيخ الحنبلي الجليل ابن الجوزي.

ولكن الذي اشتهر به أبو عبد الرحمن، هو تأليفه في التصوف، لا تأليفه في التفسير، ولا تأليفه في الحديث، برغم طول الفترة التي تصدر فيها للتحديث. وحتى هذا التأليف الوحيد في التفسير، الذي بين أيدينا من آثار أبي عبد الرحمن، لم يؤلفه على الطريقة الجارية في

التفسير، ولكنه سلك به طريق التصوف فجعله " تفسيراً على لسان أهل الحقائق ".

بهذه التآليف في التصوف اشتهر أبو عبد الرحمن بأنه: " نقال الصوفية، وراوي كلامهم "، " وممن له العناية التامة بتوطئة مذهب المتصوفة وتهذيبه على ما بينه الأوائل ".

" وقد صنف في علوم القوم سبعمائة جزء ". وأظن أن المراد من هذه الأجزاء العديدة، التي ألفها أبو عبد الرحمن، ليس هو ما يقوم في ذهننا عن الجزء، من هذه الأعداد الكبيرة، من الكراسات الصغيرة؛ بل لعل المقصود بالجزء يومئذ هو هذه الكراسة، التي يتألف من عدد منها جزء واحد اليوم. ويتضح ذلك إذا رجعنا إلى تقسيم كتاب مثل كتاب " مصارع العشاق " فإنا نجده - وهو مجلد واحد في إحدى طبعاته - مقسم إلى أجزاء كبيرة.

توفي جده، أبو عمر بن نجيد، ولم يكن له وارث غير والدة أبي عبد الرحمن فانتقلت ثروته الواسعة إليها، وانصرف أبو عبد الرحمن إلى الكتابة والإنتاج، " وكانت تصانيفه مقبولة وحببت إلى الناس، وبيعت بأغلى الأثمان... وكان أبو عبد الرحمن في الأحياء... ورويت عنه تصانيفه وهو حي ".

وفي أخريات أيامه ابتنى للصوفية خانقاه صغيرة، كانت مشهورة في نيسابور وفي ما جاورها أو بعد عنها من إقليم مملكة الإسلام، حتى أن الخطيب البغدادي حين ذهب إلى نيسابور زار هذه الدويرة التي كان يسكنها الصوفية يومئذ " [١].

وفي هذه الخانقاه دفن أبو عبد الرحمن، بعد أن سبق فيه قضاء الله، في يوم الأحد ثالث شعبان، سنة اثنتي عشرة وأربعمائة وكانت

(١) مقدمة كتاب طبقات الصوفية للسلمي، ص ٨.

جنازته مشهودة.

وسأذكر هنا ما أعرف من كتب أبي عبد الرحمن السلمي، ومكان ما أعرف مكانه منها، وأرجوا أن يعين الله على أن تكون بين يدي الدارسين عن قريب:

١ - الإخوة والأخوات في الصوفية.

٢ - آداب التعازي.

٣ - آداب الصحبة وحسن العشرة.

٤ - آداب الصوفية.

٥ - الأربعين في الحديث: وهي أربعين حديثاً في الزهديات، اختارها أبو عبد الرحمن. وقد نشر هذا الكتيب الصغير، ضمن ما نشر من المكتبة العربية القيمة، ذلك العمل الجليل الذي قامت به في حيدر أباد، دائرة المعارف العثمانية النظامية.

٦ - الاستشهادات.

٧ - أمثال القرآن.

٨ - تاريخ أهل الصفة.

٩ - تاريخ الصوفية.وهو غير كتاب " طبقات الصوفية ".

١٠ - جزء الحديث ولا أدري أهو جزء حديث مستقل أو هو كتاب الأربعين نفسه، كرره صاحب كشف الظنون باسم آخر.

١١ - جوامع آداب الصوفية.

١٢ - حقائق التفسير

١٣ - درجات المعاملات.

١٥ - رسالة الملامتية [١].

(١) مقدمة كتاب طبقات الصوفية للسلمي، ص ٩.

١٦ - زلل الفقر.

١٧ - الزهد ترجم فيه للصحابة والتابعين وتابعي التابعين.

١٨ - السؤالات مما جمعه السلمي، من ألفاظ أبي الحسن، علي بن عمي بن المهدي، الدارقطني.

١٩ - سلوك العارفين

٢٠ - السماع.

٢١ - سنن الصوفية.

٢٢ - طبقات الصوفية.

٢٣ - عيوب النفس ومداواتها.

٢٤ - الفتوة.

٢٥ - الفرق بين الشريعة والحقيقة.

٢٦ - محن الصوفية.

٢٧ - مقامات الأولياء.

٢٨ - مقدمة في التصوف.

٢٩ - مناهج العارفين [١].

حول حقائق التفسير:

يقع هذا التفسير في مجلد واحد كبير الحجم، ومنه نسختان مخطوطتان بالمكتبة الأزهرية.

يستوعب هذا التفسير جميع سور القرآن، ولكنه لا يتعرض فيه لظاهر القرآن، وإنما جرى في جميع ما كتبه على نمط واحد، وهو التفسير الإشارى، وهو إذ يقتصر على ذلك لا يعنى أن التفسير الظاهر غير مراد، لأنه يُصرِّح في مقدمة تفسيره: أنه أحب أن يجمع

(١) مقدمة كتاب طبقات الصوفية للسلمي، ص ١١.

تفسير أهل الحقيقة في كتاب مستقل كما فعل أهل الظاهر.

ثم إن أبا عبد الرحمن السلمى. لم يكن له مجهود في هذا التفسير أكثر من أنه جمع مقالات أهل الحقيقة بعضها إلى بعض، ورتبها على حسب السور والآيات، وأخرجها للناس في كتاب سماه " حقائق التفسير ".

وأهم مَن ينقل عنه السلمى في حقائقه: جعفر بن محمد الصادق، وابن عطاء الله السكندرى، والجنيد، والفضيل بن عياض، وسهل بن عبد الله التسترى، وغيرهم كثير.

وإليك بعض ما قاله في مقدمته لتعلم أن السلمى حين اقتصر على المعاني الإشارية لم يجحد المعاني الظاهرة للقرآن، ولتعلم أيضاً أن مجهوده في هذا التفسير إنما هو الجمع والترتيب.

قال رحمه الله: ".. لما رأيت المتوسمين بالعلوم الظواهر سبقوا في أنواع فرائد القرآن: من قراءات، وتفاسير، ومشكلات، وأحكام، وإعراب، ولغة، ومجمل، ومفسر، وناسخ، ومنسوخ، ولم يشتغل أحد منهم بجمع فهم خطابه على لسان الحقيقة إلا آيات متفرقة، نُسبت إلى أبى العباس ابن عطاء، وآيات ذُكِر أنها عن جعفر بن محمد، على غير ترتيب، وكنت قد سمعت منهم في ذلك حروفاً استحسنتها، أحببت أن أضم ذلك إلى مقالتهم، وأضم أقوال مشايخ أهل الحقيقة إلى ذلك، وأرتبه على السور حسب وسعى وطاقتى، واستخرتُ الله في جمع شيء من ذلك، واستعنتُ به في ذلك وفي جميع أُمورى، وهو حسبى ونعم المعين ".

طعن بعض العلماء على هذا التفسير:

غير أن الاقتصار على المعاني الإشارية، والإعراض عن المعاني الظاهرة في هذا المؤلَّف، ترك للعلماء مجالاً للطعن على هذا التفسير

وعلى صاحبه من أجله، فالجلا السيوطى رحمه الله يذكر أبا عبد الرحمن السلمى في كتابه " طبقات المفسرين " ضمن من صَنَّف في التفسير من المبتدعة ويقول: " وإنما أوزدته في هذا القسم لأن تفسيره غير محمود ". والحافظ الذهبى رحمه الله يقول عن السلمى: ".. وله كتاب يقال له حقائق التفسير، وليته لم يُصَنِّفه. فإنه تحريف وقرمطة، ودونك الكتاب فسترى العجب "، ويقول السبكى في " طبقات الشافعية " : " وكتاب حقائق التفسير، كثر الكلام فيه من قِبَل أنه اقتصر فيه على ذكر تأويلات، ومحال للصوفية ينبو عنها اللَّفظ ".

وكان الإمام أبا الحسن الواحدى قال: " صَنَّف أبو عبد الرحمن السلمى حقائق التفسير، فإن كان اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر ".

وهذا هو الإمام ابن تيمية يطعن على تفسير السلمى من ناحية أخرى فيقول: " وما يُنقل في حقائق السلمى عن جعفر الصادق عامته كذب على جعفر كما قد كذب عليه في غير ذلك ".

حقيقة هذه الطعون:

يقول الأستاذ محمد حسين الذهبي.. وإنَّ عَدَّ السيوطى السلمى في ضمن المفسِّرين من أهل البدع غلو منه وإجحاف.

وما قاله الذهبى من أن ما في الحقائق تحريف وقرمطة - يريد أنه كتفسير القرامطة من الباطنية - فهذا غير صحيح، لأن الرجل يقر الظواهر على ظواهرها، والقرامطة بخلاف ذلك.

وأما ما قاله السبكى من أن السلمى قد اقتصر في حقائقه على تأويلات للصوفية ينبو عنها اللَّفظ فهذه كلمة حق لا غبار عليها.

وأما قول الواحدى: إنه لو اعتقد أن ما في الحقائق تفسير لكفر باعتقاده هذا، فنقول فيه: إن أبا عبد الرحمن لم يعتقد أن هذا تفسير،

وإنما قال: إنه إشارات تخفى وتدق إلا على أربابها، كما صرَّح بذلك في مقدمة حقائق التفسير.

وأما قول ابن تيمية: إن ما يُنقل في حقائق السلمى من التفسير عن جعفر عامته كذب على جعفر، فهذه كلمة حق من ابن تيمية، إذ أن غالب ما جاء فيه عن جعفر الصادق كله من وضع الشيعة عليه، ولست أدرى كيف اغتر السلمى وهو العالم المحدِّث بمثل هذه الروايات المختلفة الموضوعة...

نماذج من تفسير السلمى:

وإذ قد فرغنا من الحديث على حقائق التفسير، فاسمع بعض ما جاء فيه، لتحم أنت بدورك عليه:

في سورة النساء عند قول الله تعالى:{وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ} [النساء: ٦٦].. يقول: " قال محمد بن الفضل:{اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ} بمخالفة هواها،{أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم} أى أخرجوا حب الدنيا من قلوبكم{مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ} في العدد، كثير في المعاني، وهم أهل التوفيق والولايات الصادقة ".

وفي سورة الرعد عند قوله تعالى:{وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ} [الرعد: ٣].. يقول: " قال بعضهم: هو الذي بسط الأرض وجعل فيها أوتاداً من أوليائه وسادة من عبيده فإليهم الملجأ، وبهم النجاة، فمَن ضرب في الأرض يقصدهم فاز ونجا، ومَن كان بغيته لغيرهم خاب وخسر. سمعت عليّ بن سعيد يقول: سمعت أبا محمد الحريرى يقول: كان في جوار الجنيد إنسان مصاب في خربة؛ فلما مات الجنيد وحملنا جنازته حضر الجنازة، فلما رجعنا تقدم خطوات وعلا موضعاً من الأرض عالياً، فاستقبلنى بوجهه وقال: يا أبا محمد؛ إنى لراجع إلى تلك الخربة وقد فقدت ذلك السيد، ثم أنشد شعراً:

وما أسفى من فراق قوم ::: هم المصابيح، والحصون
والمدن، والمزن، والرواسى ::: والخير، والأمن، والسكون
لم تتغير لنا الليالى ::: حتى توفتهم المنون
فكل جمر لنا قلوب ::: وكل ماء لنا عيون

وفي سورة الحج عند قوله تعالى:{أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً} [الحج: ٦٣].. يقول: قال بعضهم: أنزل مياه الرحمة من سحائب القُربة، وفتح إلى قلوب عباده عيوناً من ماء الرحمة، فأنبتت فاخضرت بزينة المعرفة، وأثمرت الإيمان، وأينعت التوحيد. أضاءت بالمحبة فهامت إلى سيدها، واشتاقت إلى ربها فطارت بهمتها، وأناخت بين يديه، وعكفت فأقبلت عليه، وانقطعت عن الأكوان أجمع، ذاك آواها الحق إليه، وفتح لها خزائن أنواره، وأطلق لها الخيرة في بساتين الأنس، ورياض الشوق والقدس ".

وفي سورة الرحمن عند قوله تعالى:{فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ} [الرحمن: ١١].. يقول: " قال جعفر: جعل الحق تعالى في قلوب أوليائه رياض أُنسه، فغرس فيها أشجار المعرفة، أُصولها ثابتة في أسرارهم، وفروعها قائمة بالحضرة في المشهد، فهم يجنون ثمار الأنس في كل أوان، وهو قوله تعالى:{فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ} [الرحمن: ١١]، أى ذات الألوان، كل يجتنى منه لوناً على قدر سعته، وما كوشفت له من بوادى المعرفة وآثار الولاية ".

وفي سورة الانفطار عند قوله تعالى:{إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾} [الانفطار: ١٣ - ١٤].. يقول: " قال جعفر: النعيم المعرفة والمشاهدة، والجحيم النفوس، فإن لها نيران تتقد ".

وفي سورة النصر عند قوله تعالى في أولها:{إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾} [النصر: ١].. يقول: " قال ابن عطاء الله: إذا شغلك به عما دونه فقد جاءكَ الفتح من الله تعالى، والفتح هو النجاة من

السجن البشرى بلقاء الله تعالى " [١].

* * *

(١) الدكتور محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، ٤ / ٣٣١.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الحمد لله رب العالمين حمداً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربُّنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه وعزِّ جلاله، غير مَكْفِيٍّ ولا مكفورٍ ولا مودَّع ولا مستغني عنه ربُّنا، ونسأله أن يوزعنا شكر نعمته، وأن يوفّقنا لأداء حقه، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يرزقنا الشهادة في سبيله، وأن يجعل ما قصدنا له في هذا الكتاب وفي جميع أقوالنا وأفعالنا خالصاً لوجهه الكريم، ونصيحة لعباده. فيا أيها القارئ له، لك غُنْمُه وعلى مؤلفه غُرْمُه، لك ثمرتُه وعليه تَبِعَتُه، فما وجدتَ فيه من صوابٍ وحقٍ فاقبله ولا تلتفت إلى قائله، بل انظر إلى ما قال لا إلى من قال وقد ذمَّ الله تعالى من يَرُدُّ الحقَّ إذا جاء به مَن يبغضه، ويقبله إذا قاله من يحبه فهذا خُلُقُ الأمة الغضبية أي: اليهود. فقد قال ابن القيم رحمه الله: " : اقبل الحق ممن قاله وإن كان بغيضاً، ورُدَّ الباطل على من قاله وإن كان حبيباً.

وقرر أنه لا يردُّ كل قول من أخطأ جملة، بل لا بد من تمييز الحق من الباطل، فقال: " فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة، وأهدرت محاسنه، لفسدت العلوم والصناعات ".

وقال أيضًا: ".. فإن كل طائفة معها حق وباطل، فالواجب موافقتهم فيما قالوه من الحق، ورد ما قالوه من الباطل، ومن فتح الله له بهذه الطريق فقد فتح له من العلم والدين كل باب، ويسر عليه من الأسباب " (١).

وما وجد القارئ فيه من خطأ فإن قائله لم يألُ جهد الإصابة، ويأبى الله إلا أن يتفرد بالكمال، كما قيل:

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ص٣٧٨.

والنَّقْصُ في أصلِ الطبيعــةِ كــامنٌ ::: فَبَنُو الطبيعةِ نَقْصُــهم لا يُجْحَــدُ

وكيف يُعْصَمُ من الخطأ من خُلق ظلوماً جهولاً، ولكن من عُدَّت غلطاتُه أقربُ إلى الصوابِ ممن عُدَّت إصاباتُه، وعلى المتكلم في هذا الباب وغيره أن يكون مصدر كلامه عن العلم بالحق، وغايته النصيحة لله، ولكتابه، ولرسوله، ولإخوانه المسلمين، وإن جعلَ الحقَ تبعاً للهوى: فَسَدَ القلبُ والعملُ والحالُ والطريقُ... والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على خاتم المرسلين محمدٍ وعلى آله أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه

رجب محمود إبراهيم بخيت

* * *

الفهـرس

المقدمــة	٣
التفسير والمفسرون	١٤
إسحاق بن راهويه	٦٨
أبـو حيـان	٧٣
الإمام الطبري	٧٩
النيسابــوري	١١٥
الحافظ ابن كثير	١٢٧
جلال الدين السيوطي	١٣٧
ابن عطية	١٥٢
البيضاوي	١٥٧
النسفــي	١٦٥
الخازن علاء الدين	١٧٢
القرطبــي	١٨٠
الزمخشــري	١٨٩
محمد الطاهر بْن عاشور	٢٠٥
البغـوي	٢٣٤
الإمام الشوكاني	٢٤٩
الإمام النيسابوري	٢٨٦
ابن المنذر	٣٠١
التستــري	٣٠٨
زين الإسلام القشيري	٣١٩
أبو عبيدة معمر بن المثنى	٣٣٨
الإمام الزركشي	٣٤٨
الفيروزبادي	٣٥٤
المرصفـــي	٣٧٨
الثعالبي	٣٩٧
الفخر الرازي	٤٢٣
محمود شكري الألوسي	٤٣٥
سيد قطب	٤٤٧
محمد رشيد رضا	٤٥٨
محمد متولي الشعراوي	٤٨٠
أبو عبد الرحمن السلمي	٤٩٧
الخاتمة	٥١٥
الفهـرس	٥١٧

المؤلف في سطور

الدكتور/ رجب محمود إبراهيم بخيت

- ولد في محافظة البحيرة بجمهورية مصر العربية عام (١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م).
- حصل علي ليسانس الآداب من جامعة طنطا (تخصص تاريخ) في عام ١٩٩٦ م.
- حصل علي دبلوم الدراسات العليا (تخصص تاريخ وحضارة إسلامية) عام ١٩٩٧م.
- نال درجة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية (تخصص آسيا الوسطي والقوقاز) من جامعة طنطا - كلية الآداب - عام ٢٠٠١ م.
- نال درجة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية (تخصص آسيا الوسطي والقوقاز) من جامعة عين شمس - كلية الآداب - عام ٢٠٠٦ م.

* * *